مرکز القائمیة اصفهان للبحوث والتحریات الکمبیوتریة

السلام علیک یا صاحب الزمان

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

تفسير
مقتنيات الدرر

تأليف

السيد مير سيد علي الحائري الطهراني

تحقيق

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

«٢»

بسم الله الرحمن الرحیم

مقتنيات الدرر و ملتقطات الثمر

كاتب:

على حائرى طهرانى

نشرت في الطباعة:

دار الكتاب الاسلامي

رقمي الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس 5

مقتنيات الدرر و ملتقطات الثمر المجلد 2 15

هوية الكتاب 15

كلمة الناشر 16

تتمة سورة البقرة 18

اشارة 18

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 168] 18

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 169] 20

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 170] 22

[سورة البقرة (2): آية 171] 22

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 172] 23

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 173] 24

[سورة البقرة (2): آية 174] 25

[سورة البقرة (2): آية 175] 25

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 176] 26

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 177] 27

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 178] 29

[سورة البقرة (2): آية 179] 32

قوله: [سورة البقرة (2): آية 180] 33

[سورة البقرة (2): آية 181] 34

[سورة البقرة (2): آية 182] 34

[سورة البقرة (2): آية 183] 35

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 184] 35

[سورة البقرة (2): آية 185] 38
[سورة البقرة (2): آية 186] 41
قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 187] 43
[سورة البقرة (2): آية 188] 46
قوله: [سورة البقرة (2): آية 189] 47
قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 190] 48
قوله تعالى: [سورة البقرة (2): الآيات 191 الى 192] 49
قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 193] 50
[سورة البقرة (2): آية 194] 50
[سورة البقرة (2): آية 195] 51
قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 196] 52
[سورة البقرة (2): آية 197] 55
قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 198] 56
[سورة البقرة (2): آية 199] 57
[سورة البقرة (2): آية 200] 58
[سورة البقرة (2): آية 201] 59
[سورة البقرة (2): آية 202] 59
قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 203] 59
[سورة البقرة (2): الآيات 204 الى 205] 61
قوله: [سورة البقرة (2): آية 206] 63
[سورة البقرة (2): آية 207] 63
قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 208] 64
قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 209] 64
[سورة البقرة (2): آية 210] 65
قوله: [سورة البقرة (2): آية 211] 65

قوله: [سورة البقرة (2): آية 212] 66
[سورة البقرة (2): آية 213] 67
[سورة البقرة (2): آية 214] 69
قوله: [سورة البقرة (2): آية 215] 70
قوله: [سورة البقرة (2): آية 216] 70
[سورة البقرة (2): آية 217] 71
[سورة البقرة (2): آية 218] 73
[سورة البقرة (2): الآيات 219 الى 220] 73
قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 221] 79
قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 222] 81
[سورة البقرة (2): آية 223] 82
[سورة البقرة (2): آية 224] 83
قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 225] 84
[سورة البقرة (2): الآيات 226 الى 227] 85
[سورة البقرة (2): آية 228] 86
قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 229] 88
قوله: [سورة البقرة (2): آية 230] 90
[سورة البقرة (2): آية 231] 91
[سورة البقرة (2): آية 232] 92
[سورة البقرة (2): آية 233] 93
قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 234] 97
[سورة البقرة (2): آية 235] 97
قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 236] 99
[سورة البقرة (2): آية 237] 101
قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 238] 102

[سورة البقرة (2): آية 239] ---- 104
قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 240] ---- 105
[سورة البقرة (2): الآيات 241 الى 242] ---- 106
[سورة البقرة (2): آية 243] ---- 107
قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 244] ---- 108
قوله: [سورة البقرة (2): آية 245] ---- 109
قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 246] ---- 110
قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 247] ---- 111
قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 248] ---- 113
[سورة البقرة (2): آية 249] ---- 116
[سورة البقرة (2): الآيات 250 الى 251] ---- 119
[سورة البقرة (2): آية 252] ---- 122
[سورة البقرة (2): آية 253] ---- 122
قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 254] ---- 124
[سورة البقرة (2): آية 255] ---- 125
[سورة البقرة (2): آية 255] ---- 130
[سورة البقرة (2): آية 256] ---- 132
[سورة البقرة (2): آية 257] ---- 133
[سورة البقرة (2): آية 258] ---- 134
قوله: [سورة البقرة (2): آية 259] ---- 136
قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 260] ---- 139
[سورة البقرة (2): آية 261] ---- 140
[سورة البقرة (2): آية 262] ---- 141
[سورة البقرة (2): آية 263] ---- 142
[سورة البقرة (2): آية 264] ---- 143

[سورة البقرة (2): آية 265] 145
قوله: [سورة البقرة (2): آية 266] 147
[سورة البقرة (2): آية 267] 148
[سورة البقرة (2): آية 268] 150
[سورة البقرة (2): آية 269] 150
قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 270] 151
[سورة البقرة (2): آية 271] 151
[سورة البقرة (2): آية 272] 152
[سورة البقرة (2): آية 273] 153
[سورة البقرة (2): آية 274] 154
قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 275] 155
[سورة البقرة (2): آية 276] 157
[سورة البقرة (2): آية 277] 157
[سورة البقرة (2): الآيات 278 الى 279] 157
[سورة البقرة (2): آية 280] 158
[سورة البقرة (2): آية 281] 159
[سورة البقرة (2): آية 282] 161
قوله: [سورة البقرة (2): آية 283] 163
قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 284] 165
قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 285] 165
[سورة البقرة (2): آية 286] 167
(سورة آل عمران) 175
اشارة 175
[سورة آل عمران (3): الآيات 1 الى 5] 176
[سورة آل عمران (3): آية 6] 179

[سورة آل عمران (3): آية 7] 180
[سورة آل عمران (3): الآيات 8 الى 9] 182
[سورة آل عمران (3): آية 10] 183
[سورة آل عمران (3): آية 11] 184
[سورة آل عمران (3): آية 12] 184
[سورة آل عمران (3): آية 13] 184
[سورة آل عمران (3): آية 14] 186
[سورة آل عمران (3): آية 15] 188
[سورة آل عمران (3): الآيات 16 الى 17] 188
[سورة آل عمران (3): آية 18] 190
[سورة آل عمران (3): آية 19] 192
[سورة آل عمران (3): آية 20] 192
[سورة آل عمران (3): آية 21] 193
[سورة آل عمران (3): آية 22] 193
[سورة آل عمران (3): آية 23] 194
[سورة آل عمران (3): آية 24] 195
قوله: [سورة آل عمران (3): آية 25] 195
[سورة آل عمران (3): الآيات 26 الى 27] 196
[سورة آل عمران (3): الآيات 28 الى 29] 199
[سورة آل عمران (3): آية 30] 201
[سورة آل عمران (3): آية 31] 201
[سورة آل عمران (3): آية 32] 202
قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): الآيات 33 الى 34] 202
قوله: [سورة آل عمران (3): آية 35] 204
[سورة آل عمران (3): آية 36] 205

[سورة آل عمران (3): الآيات 37 الى 39] ---- 206
[سورة آل عمران (3): آية 40] ---- 210
[سورة آل عمران (3): آية 41] ---- 211
قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): الآيات 42 الى 43] ---- 212
[سورة آل عمران (3): آية 44] ---- 213
[سورة آل عمران (3): الآيات 45 الى 46] ---- 214
[سورة آل عمران (3): آية 47] ---- 215
[سورة آل عمران (3): الآيات 48 الى 51] ---- 217
[سورة آل عمران (3): الآيات 52 الى 54] ---- 221
قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): الآيات 55 الى 58] ---- 224
[سورة آل عمران (3): الآيات 59 الى 61] ---- 226
[سورة آل عمران (3): الآيات 62 الى 63] ---- 230
[سورة آل عمران (3): آية 64] ---- 230
[سورة آل عمران (3): آية 65] ---- 231
[سورة آل عمران (3): آية 66] ---- 231
[سورة آل عمران (3): آية 67] ---- 232
[سورة آل عمران (3): آية 68] ---- 232
[سورة آل عمران (3): آية 69] ---- 232
[سورة آل عمران (3): آية 70] ---- 232
[سورة آل عمران (3): الآيات 71 الى 72] ---- 233
[سورة آل عمران (3): آية 73] ---- 233
[سورة آل عمران (3): آية 74] ---- 236
قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): الآيات 75 الى 76] ---- 237
[سورة آل عمران (3): آية 77] ---- 238
قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): آية 78] ---- 239

قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): آية 79] ---- 239
[سورة آل عمران (3): آية 80] ---- 240
قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): آية 81] ---- 241
[سورة آل عمران (3): آية 82] ---- 243
[سورة آل عمران (3): آية 83] ---- 244
[سورة آل عمران (3): آية 84] ---- 245
[سورة آل عمران (3): آية 85] ---- 246
[سورة آل عمران (3): آية 86] ---- 246
[سورة آل عمران (3): الآيات 87 الى 88] ---- 246
[سورة آل عمران (3): آية 89] ---- 247
[سورة آل عمران (3): آية 90] ---- 248
قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): آية 91] ---- 249
قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): آية 92] ---- 251
قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): آية 93] ---- 252
[سورة آل عمران (3): آية 94] ---- 254
[سورة آل عمران (3): آية 95] ---- 254
[سورة آل عمران (3): آية 96] ---- 255
[سورة آل عمران (3): آية 97] ---- 256
قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): الآيات 98 الى 99] ---- 259
[سورة آل عمران (3): آية 100] ---- 260
[سورة آل عمران (3): آية 101] ---- 260
قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): آية 102] ---- 261
[سورة آل عمران (3): آية 103] ---- 261
[سورة آل عمران (3): آية 104] ---- 263
[سورة آل عمران (3): آية 105] ---- 264

[سورة آل عمران (3): الآيات 106 الى 107] 264
[سورة آل عمران (3): الآيات 108 الى 109] 265
قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): آية 110] 266
[سورة آل عمران (3): آية 111] 267
[سورة آل عمران (3): آية 112] 267
قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): الآيات 113 الى 114] 268
[سورة آل عمران (3): آية 115] 270
[سورة آل عمران (3): آية 116] 270
[سورة آل عمران (3): آية 117] 271
قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): آية 118] 271
قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): آية 119] 273
[سورة آل عمران (3): آية 120] 273
قوله: [سورة آل عمران (3): الآيات 121 الى 123] 274
[سورة آل عمران (3): الآيات 124 الى 125] 279
قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): آية 126] 283
قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): آية 127] 284
قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): آية 128] 284
[سورة آل عمران (3): آية 129] 286
[سورة آل عمران (3): آية 130] 287
[سورة آل عمران (3): آية 131] 288
[سورة آل عمران (3): آية 132] 288
[سورة آل عمران (3): آية 133] 288
[سورة آل عمران (3): آية 134] 290
قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): الآيات 135 الى 136] 291
[سورة آل عمران (3): الآيات 137 الى 138] 293

[سورة آل عمران (3): آية 139] 294
قوله: [سورة آل عمران (3): آية 140] 294
[سورة آل عمران (3): آية 141] 295
[سورة آل عمران (3): آية 142] 295
[سورة آل عمران (3): آية 143] 296
[سورة آل عمران (3): آية 144] 297
قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): آية 145] 299
[سورة آل عمران (3): آية 146] 300
[سورة آل عمران (3): آية 147] 301
[سورة آل عمران (3): آية 148] 301
[سورة آل عمران (3): الآيات 149 الى 150] 301
[سورة آل عمران (3): آية 151] 302
[سورة آل عمران (3): آية 152] 303
قوله: [سورة آل عمران (3): آية 153] 305
[سورة آل عمران (3): آية 154] 306
[سورة آل عمران (3): الآيات 155 الى 158] 309
[سورة آل عمران (3): آية 159] 311
[سورة آل عمران (3): آية 160] 313
[سورة آل عمران (3): آية 161] 313
قوله: [سورة آل عمران (3): الآيات 162 الى 163] 315
كلمة المصحح 317
تعريف مركز 318

مقتنيات الدرر و ملتقطات الثمر المجلد 2

هوية الكتاب

بطاقة تعريف: الحائري الطهراني، علي، - 1314؟.

عنوان العقد: مقتنيات الدرر و ملتقطات الثمر

عنوان واسم المؤلف: تفسير مقتنيات الدرر/ تاليف علي الحائري الطهراني؛ تحقيق محمد وحيد الطبسي الحائري؛ مراجعة و تدقيق محمدتقي الهاشمي.

تفاصيل المنشور: قم : دارالكتاب الاسلامي، 1433 ق.= 2012 م.= 1391.

خصائص المظهر: 12ج.

شابك : دوره:978-964-465-276-9 ؛ ج. 978:1-964-465-277-6 ؛ ج. 2 978-964-465-278-3: ؛ ج. 3 978-964-465-279-0 : ؛ ج. 4 978-964-465-280-6 : ؛ ج. 5 978-964-465-281-3 : ؛ ج. 6 978-964-465-282-0 : ؛ ج. 7 978-964-465-283-7 : ؛ ج. 8 978-964-465-284-4 : ؛ ج. 9 978-964-465-285-1 : ؛ ج. 10 978-964-465-286-8 : ؛ ج. 11 978-964-465-287-5 : ؛ ج. 12 978-964-465-288-2 :

حالة الاستماع: فاپا

ملحوظة : العربية.

ملحوظة :فهرس.

موضوع : التفسيرات الشيعية -- قرن 14

المعرف المضاف: الطبسي، وحيد

المعرف المضاف: هاشمي، محمدتقي

ترتيب الكونجرس: BP98/ح23م7 1390

تصنيف ديوي: 297/179

رقم الببليوغرافيا الوطنية: 1827586

ص: 1

كلمة الناشر

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد للّه الّذي نزل القرآن نورا و سراجا و قمرا منيرا و الصلاة و السّلام على رسوله الذي انزل عليه الكتاب بيانا للناس و هدى و موعظة للمتقين، و على آله الطيبين؛ ثاني الثقلين. و لعنة اللّه على أعدائهم أجمعين.

و بعد فقد بذل علماء الإسلام قديما و حديثا جهدهم في تفسير علوم القرآن و تبيين لغاته و مشكلاته؛ ففريق فسروا ألفاظه و بينوا حقائقه من مجازه و جمع جمعوا أحكامه و بينوا حلاله و حرامه، و طائفة كشفوا عن تأويله قناعه و كيفما كان ما وصلوا إلّا إلى مبلغ علمهم و منتهى همهم؛ و انى لهم الوصول إلى حقائق التنزيل و دقائق التأويل؟ لان القرآن هو النور الّذي أنزل اللّه على قلب حبيبه محمّد صلّى اللّه عليه و آله. إلّا ان المتمسكين بولاء أهل بيت الوحى المستضيئين بنور علمهم المأمورين بالتمسك بهم في حديث الثقلين قد اغترقوا من بحار علوم أهل بيت النبي غرفا و غاصوا فيها و اقتنوا منها دررا؛ و ها هي «مقتنيات الدرر» قد اقتناها علم من الأعلام؛ ثمرة الشجرة الطيبة، و النخبة من السلالة الطاهرة: «الحاج المير سيد على الحائرى» تغمده اللّه بغفرانه، و اوتى كتابه هذا بيمينه؛ قد اقتنى من الدرر أعلاها و من الغرر أسناها؛ فحقيق ان يتنافس المتنافسون في الاستفادة منها.

و قد وفق اللّه تلميذه المستضيء بنور علمه، المقتفى اثره الحاج ميرزا عبد الحسين المعروف بمحسنيان لبذل الجهد باحياء هذا السفر الجليل القيم.

هذا و منّ اللّه سبحانه على عبده الزاكي صاحب الهمة القساء و ارومة الفضل الحاج محمود الكاشاني؛ فأنعم عليه و شرفه بإعطاء نفقة طبع الكتاب خدمة للدين و اتحافا للطيفة والده السعيد الحاج محمّد حسين الكاشاني طيب اللّه رمسه. و ذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء.

و نشكر جميل مساعى الشباب الفاضل الأريب السيد كاظم الموسوي المياموى حيث بذل جل أوقاته لمقابلة أجزاء الكتاب مع نسخة الأصل و تخريج؛ الآيات المنثورة في ثناياه و اسناد ما يهم من رواياته و بعض الإصلاح فيه. و نسأل اللّه تعالى ان يوفقنا لإتمامه بمحمّد و آله.

محمّد الآخوندي

ص: 2

تتمة سورة البقرة

اشارة

بسم اللّه الرحمن الرحيم

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 168]

يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (168)

. أي و بعض الناس الّذين يتّخذون [مِنْ دُونِ اللَّهِ و «دون» في الأصل ظرف مكان لكن يستعمل مجازا بمعنى «غير» مثل هذه الآية [أَنْداداً] للّه بحسب ظنونهم الفاسدة يجعلونها أمثالا للّه حيث كانوا يرجون من عندها النفع و الضرر و قصدوها بالمسائل و قرّبوا لها القرابين فإرجاع الضمير للعقلاء في قوله: [يُحِبُّونَهُمْ على زعمهم الفاسد في شأنها من وصفهم بما لا يوصف به إلّا العقلاء [كَحُبِّ اللَّهِ أي يسوّون بين اللّه و بين الأنداد في الطاعة و التعظيم.

و لفظ المحبّة مأخوذ من الحبّ بالفتح كحبّة الحنطة و الشعير، شبّه حبّة القلب أي سويداء القلب بالحبّ المعروف، ثمّ استعير اسم الحبّ لها و اشتقّ من الحبّ المستعار للقلب «الحبّ» بمعنى ميل القلب لأنّه رسخ فيها.

[وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ من حبّ الكفرة للأنداد ففضّل محبّة المؤمنين لأنّه لا ينفع محبّتهم بخلاف محبّة الأنداد؛ لأنّها لأغراض فاسدة موهومة كما أنّهم كانوا يعبدون الصنم زمانا، فإذا رأوا صنما آخر يعجبهم أخذوه و تركوا الأوّل حتّى قيل: إنّ باهلة عملت لها إلها من خبيس فأكلوه عام المجاعة.

[وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا] أي لو يعلم هؤلاء الّذين أشركوا باتّخاذ الأنداد و وضعها موضع المعبود [إِذْ يَرَوْنَ الْعَذابَ المعدّ لهم يوم القيامة و عاينوه [أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذابِ و جواب «لو» محذوف، و التقدير: لوقعوا في الندامة و الحسرة على عبادة الأنداد فيما لا يكاد يوصف.

[إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا] لمّا ذكر الّذين اتّخذوا الأنداد ذكر

سوء أحوالهم في المعاد. و العامل في الظرف في قوله: «إذ تبرّأ» قوله: «شديد العذاب». إذ تبرّأ الّذين اتّبعوا و هم القادة و الرؤساء من الإنس المضلّين أو المراد الشياطين الموسوسة المضلّة للإنس من الّذين اتّبعوا أي من السفلة و التابعين [وَ رَأَوُا الْعَذابَ أي رأى التابع و المتبوع حين دخول النار [وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ و زال عنهم كلّ سبب يمكن أن يتعلّق به مثل العهود الّتي كانت بينهم يتوادّون عليها، و الأرحام الّتي كانوا يتعاطفون بها، و الوصلات الّتي كانوا يتقوّون بها على اختلافها من المنزلة و الشرف و القرابة و المودّة.

[وَ قالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا] يعني الشياطين قالوا: [لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً] بسبب عودة إلى دار الدنيا و حال التكليف لنا [فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ من متبوعينا [كَما تَبَرَّؤُا مِنَّا] اليوم [كَذلِكَ أي مثل ذلك الإبراء الفظيع و نزول العذاب عليهم [يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ ندمات شديدة؛ فإنّ الحسرة شدّة تألّم القلب من الندم و الكمد بحيث يبقى النادم كالحسير من الدوابّ و هو الّذي انقطعت قوّته فصار بحيث لا ينتفع به.

و حاصل المعنى أنّ أعمالهم تنقلب عليهم حسرات مستولية لأنّ ما عملوه من الخيرات محبوطة بالكفر فيتحسّرون لم صنعوها، و ترفع لهم الجنّة فينظرون إليها و إلى بيوتهم فيها فيقال لهم: تلك مساكنكم لو أطعتم اللّه.

[وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ] روي أنّه يساق أهل النار إلى النار لم يبق منهم عضو إلّا لزمه عذاب إمّا حيّة تنهشه أو ملك يضربه فإذا ضربه الملك هوي في النار مقدار أربعين يوما لا يبلغ قرارها ثمّ يرفعه اللهب و يضربه الملك فيهوي فإذا بدا رأسه ضربه «كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ» فإذا عطش أحدهم طلب الشراب فيؤتى بالحميم فإذا دنى من وجهه سقط وجهه ثمّ يدخل في فيه فتسقط أضراسه ثمّ يدخل بطنه فيقطع أمعاءه و ينضج جلده و هكذا يعذّبون في النار لا يموتون فيها و لا يخرجون.

نزلت الآية في قوم حرّموا على أنفسهم رفيع الأطعمة و الملابس أي من بعض ما فيها من أصناف المأكولات لأنّ كلّ ما فيها لا يؤكل [حَلالًا] حال من الموصول أي حالكونه

حلالا و هو ما انحلّ عنه عقد الحظر [طَيِّباً] طاهرا من الشبهات يستطيبه الشرع و يستطيبه الشهوة المستقيمة و يستلذّه الطبع.

[وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ «الخطوة» بالفتح المرّة من نقل القدم و بالضمّ بعد ما بين قدمي الماشي يقال: أتبع خطواته و وطئ على عقبه إذا اقتدى به و استنّ بسنّته أي لا تقتدوا بآثاره و طرقه في اتّباع الهوى و وساوسه فتحرّموا الحلال و تحلّلوا الحرام [إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ تعليل للنهي أي ظاهر و «مبين» بمعنى اللازم من «أبان» بمعنى «بان» لكنّ الواحديّ جعله بمعنى المتعدّي لأنّه قد أبان عداوته لكم بإبائه السجود لأبيكم آدم و أخرجه من الجنّة.

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 169]

إِنَّما يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَ الْفَحْشاءِ وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (169)

. [إِنَّما يَأْمُرُكُمْ و يوسوس لكم شبه تسلّطه عليكم بأمر مطاع [بِالسُّوءِ] لأنّ كلّ ما يأمركم به ساءكم في العاقبة فيطلق على جميع المعاصي [وَ الْفَحْشاءِ] من عطف الخاصّ على العامّ أي أقبح أنواع المعاصي فالزنى فاحشة و كلّ فعلة قبيحة مجاوزة القدرة من كلّ شي ء و أعظمها مساءة.

[وَ أَنْ تَقُولُوا] و يأمركم أن تفتروا [عَلَى اللَّهِ بأنّه حرّم هذا و حلّل هذا [ما لا تَعْلَمُونَ .

قيل: هو دعواهم له الإشراك.

فإن قيل: كيف يأمرنا و نحن لا نراه و لا نسمع منه؟ فأمره لنا أنّ اللعين يحدّث النفس بالأفكار الرديئة الّتي تميل إليه النفوس و الطمع و يدخل بذكر الإنسان و خاطره ذلك الميل و يعين النفس الأمّارة و يرغّبها فيه.

و وسوسة اللعين على مراتب:

الأولى: مرتبة الكفر و الشرك و معاداة الرسول و إنكار ما أنزل اللّه في كتابه و استكراه أوامره فإذا ظفر بذلك برد أنينه و استراح و هذا أوّل ما يريده من العبد.

المرتبة الثانية: البدعة و هي أحبّ إليه من الفسوق و المعاصي؛ لأنّ المعصية يتاب منها و البدعة لا يتاب منها لأنّ صاحبها يظنّها حقيقة صحيحة فلا يتوب منها فإذا عجز عن ذلك انتقل إلى المرتبة الثالثة و هي الكبائر على اختلاف أنواعها.

فإذا عجز عن ذلك انتقل إلى المرتبة الرابعة و هي الصغائر الّتي إذا اجتمعت صارت

كبيرة، و الصغائر ربّما أهلكت صاحبها كما قال صلّى اللّه عليه و آله: «إيّاكم و محقّرات الذنوب» فإنّ مثل ذلك مثل قوم نزلوا بفلاة من الأرض فجاء كلّ واحد بعود حطب حتّى أوقدوا نارا عظيمة و طبخوا و شبعوا.

فإذا عجز عن ذلك انتقل إلى المرتبة الخامسة و هي اشتغاله بالمباحات الّتي لا ثواب فيها و لا عقاب بل عقابها فوات الثواب الّذي فات عليه باشتغاله بها.

فإن عجز عن ذلك انتقل إلى المرتبة السادسة و هي أن يشغله بالعمل المفضول عمّا هو أفضل منه لينزع عنه الفضيلة و يفوته ثواب العمل الفاضل فيجرّه من الفاضل إلى المفضول و من الأفضل إلى الفاضل ليتمكّن من أن يجرّه من الفاضل إلى الشرور، و ربّما يجرّه من الفاضل السهل إلى الأفضل الأشقّ كمائة ركعة بالنسبة إلى ركعتين ليصير ازدياد المشقّة سببا لحصول النفرة عن الطاعة بالكلّيّة.

و إنّما خلق اللّه إبليس ليتميّز الخبيث من الطيّب و خلق اللّه الأنبياء ليقتدي بهم السعداء فإبليس دلّال و سمسار على النار و بضاعته الدنيا.

قال بعض المفسّرين: الحلال الطيّب ما لا سؤال فيه يوم القيامة و هو ما لا بدّ فيه قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: إنّ اللّه يهب لابن آدم ما لا بدّ منه؛ ثوب يواري به عورته، خبز يردّ به جوعته، و بيت كعشّ الطير؛ فقيل: يا رسول اللّه فكيف الملح؟ فقال: الملح ممّا يحاسب به.

و في التأويلات النجميّة: الحلال ما أباح اللّه أكله و الطيّب ما لم يكن مشوبا بشبهة حقوق الخلق و لا بسرف حظوظ النفس و لهذا قال صلّى اللّه عليه و آله: إنّ اللّه طيّب و لا يقبل إلّا الطيّب، يعني غير مشوب بعيب أو شبهة. و أكل الحلال الطيّب يورث القيام بطاعة اللّه و الاجتناب عن خطوات الشيطان فالعمل الصالح نتيجة اللقمة الطيّبة و بالعكس.

و في كسب الحلال فوائد كثيرة و هو سنّة الأنبياء: منها اشتغال المكتسب بالكسب عن البطالة و اللهو. و منها: كسر النفس عن الطغيان.

إنّ الفراغ و الشباب و الجدة (1)مفسدة للمرء أيّ مفسدة

و منها: أنّ الكسب واسطة الأمان من الفقر و لا يتحرّك الرجل للكسب لأجل نفقته

1- الجدة: الثروة و المال.

و عياله إلّا قال له حافظاه: بارك اللّه لك في حركاتك و جعل نفقاتك ذخرا لك في الجنّة و تؤمّن عليهما ملائكة السماوات و الأرض.

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 170]

وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَ وَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَ لا يَهْتَدُونَ (170)

. نزلت في مشركي العرب و كفّار قريش أمروا باتّباع القرآن فجنحوا للتقليد [اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ في كتابه و اعملوا بتحليل ما أحلّ اللّه و تحريم ما حرّم اللّه [قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا] وجدنا [عَلَيْهِ آباءَنا] من اتّخاذ الأنداد و تحريم الطيّبات فقال اللّه سبحانه ردّا عليهم بهمزة الاستفهام و الإنكار و التعجيب مع واو الحال بعدها: [أَ وَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ فاقتضت الهمزة صدر الكلام و الواو بعدها، و بين الهمزة و الواو جملة مقدّرة. و المعنى أ يتّبعونهم و لو كان آباؤهم لا يفهمون شيئا [وَ لا يَهْتَدُونَ للصواب و الحقّ أي هذا الأمر و الرأي منهم منكر مستبعد قبيح؛ لأنّ الجاهل لا يتّبع و الحقّ أحقّ أن يتّبع.

[سورة البقرة (2): آية 171]

وَ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعاءً وَ نِداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (171)

. «المثل» قول سائر يدلّ على أنّ سبيل الثاني سبيل الأوّل و يؤتى به لهذا الأمر أي و مثل الواعظ الّذي يعظ هؤلاء الكفّار و الداعي لهم إلى الإيمان كمثل الناعق في دعائه المنعوق به من البهائم الّتي لا تفهم؛ يقال: نعق الراعي بالغنم إذا صاح بها زجرا و نعق الغراب إذا صوّت من غير أن يمدّ عنقه و يحرّكه فإذا مدّ عنقه و حرّكه ثمّ صاح يقال: نعب.

و المراد أنّ المنعوق به يسمع الصوت و لا يفهم المعنى كذلك هؤلاء الكفّار لا يحصل من دعائك لهم إلى الإيمان إلّا السماع دون تفهّم المعنى لأنّهم ينصرفون عمدا عن تأمّله فيكونون بمنزلة من لم يعقله و لم يفهمه هذا أحد الأقوال في معنى الآية و هو قول ابن عبّاس و جماعة و هو المرويّ عن أبي جعفر.

و القول الثاني أن يكون المعنى «مثل الّذين كفروا» و مثلك يا محمّد «كمثل الّذي ينعق بما لا يسمع إلّا دعاء و نداء، فحذف المثل الثاني اكتفاء بالأوّل كقوله تعالى:

«سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ» (1) قال أبو ذؤيب:

دعاني إليها القلب إنّي لأمرهامطيع فما أدري أرشد طلابها؟

أراد: أرشد أم غيّ؟ فاكتفى بذكر الرشد لوضوح الأمر.

و ثالث الأقوال أنّ المعنى مثل الّذين كفروا في دعائهم الأصنام كمثل الراعي في دعائه الأنعام؛ فكما أنّ من دعى البهائم يعدّ جاهلا فداعي الجماد و الحجارة أشدّ جهلا منه؛ لأنّ البهائم تسمع الدعاء و إن لم يفهم معناه و الأصنام لا يحصل لها السماع [إِلّا دُعاءً وَ نِداءً] أي صوتا من الناعق و زجرا مجرّدا من غير فهم شي ء آخر، و الفرق بين الدعاء و النداء أنّ الدعاء للقريب و النداء للبعيد.

[صُمٌّ بُكْمٌ أي هم صمّ كأنّهم يتصاممون عن سماع الحقّ و هم بمنزلة الخرس في أن لم يستجيبوا لما دعوا إليه و هم [عُمْيٌ من حيث إعراضهم عن الدلائل كأنّهم لم يشاهدوها.

ثمّ إنّه تعالى لمّا شبّههم بفاقدي هذه القوى الثلاث فرّع على هذا التشبيه قوله:

[فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ و لا يكتسبون الحقّ ممّا جبّلوا عليه من العقل الغريزيّ و لهذا قيل: من فقد حسّا فقد فقد علما، و ليس المراد نفي أصل العقل لأنّ نفيه رأسا لا يصلح طريقا للذمّ.

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 172]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (172)

. ظاهر الآية الأمر و المراد منه الإباحة؛ لأنّ تناول المشتهى لا يدخل في التعبّد. و قيل: إنّه أمر على حقيقة و هو الأمر بالأكل الحلال وقت الحاجة دفعا للضرر عن النفس؛ و ردّه القاضي و قال: هذا ممّا يعرض في بعض الأوقات و الآية عامّة غير مقصورة عليه فيحمل على الإباحة، أي كلوا من مستلذّات الرزق و ما تستطيبونه منه.

و فيه دلالة على النهي عن أكل الخبائث لأنّه قيل: كلوا من الطيّب دون الخبيث كما أنّه لو قيل: كلوا من الحلال لكان دالّا على حظر الحرام.

قال الطبرسيّ: و هذا صحيح فيما له ضدّ قبيح مفهوم فأمّا غير ذلك فلا يدلّ على قبح ضدّه لأنّ قول القائل: «كل من مال زيد» لا يدلّ على أنّه أراد تحريم ما عداه لأنّه قد

1- النحل: 81.

يكون الغرض البيان لهذا المورد خاصّة و ما عداه موقوف على بيان آخر و ليس كذلك ما ضدّه قبيح.

[وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ الّذي أحلّها لكم و هذا الأمر ليس أمر إباحة لأنّ الإنعام يقتضي الشكر [إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ أي إن كنتم مؤمنين باللّه و مخصّصين اللّه بالعبادة «فاشكروا له» باللسان و بسائر الجوارح؛ قال النبيّ: يقول اللّه: إنّي و الإنس و الجنّ لفي نبأ عظيم أخلق و يعبد غيري و أرزق و يشكر غيري.

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 173]

إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ ما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (173)

. لمّا ذكر سبحانه إباحة الطيّبات عقّبه بتحريم المحرّمات فقال:

[إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ] و قرئ مشدّدة في جميع القرآن و الأجود التخفيف «و الميتة» ما يموت من الحيوان بغير ذكاة ممّا يذبح، و السمك و الجراد مستثنيان بدليل منفصل [وَ الدَّمَ الجاري [وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ] و الخنزير كلّه حرام و إنّما خصّ لحمه بالذكر لأنّه معظم ما ينتفع به فهو الأصل و ما عداه تبع له، و قد انعقد الإجماع على حرمة جميع أجزائه.

[وَ ما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ أي و حرّم ما رفع به الصوت عند ذبحه للصنم و معنى «الإهلال» في الأصل رفع الصوت و كانوا إذا ذبحوا لآلهتهم يرفعون أصواتهم بذكر الأصنام و يقولون باسم اللات و العزّى؛ فقيل لكلّ ذابح و إن لم يجهر بالتسمية: مهلّ، حتّى قيل: لو ذبح مسلم ذبيحة و قصد بها التقرّب إلى غير اللّه صار مرتدّا و ذبيحته ميتة.

[فَمَنِ اضْطُرَّ] و أحوج و ألجئ جوعا إلى أكل شي ء ممّا حرّم اللّه بأن لا يجد غيرها و يخاف على نفسه أو على بعض أعضائه التلف [غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ] منصوب على الحاليّة أي إذا وجد هذا المضطرّ الميتة حالكونه لم يكن متعدّ على مضطرّ آخر بأن حصل ذلك المضطرّ الآخر من الميتة مثلا قدر ما يسدّ رمقه و جوعته فأخذ منه و ظلمه و تفرّد بأكله و هلك الآخر جوعا، و هذا حرام لأنّ موت الآخر جوعا ليس أولى من موته جوعا، و لا عاد أي غير متعدّ و متجاوز لما حدّ له فيه إلى حدّ الشبع عند الأكل بالضرورة بأن يأكل قدر ما يحصّل به سدّ الرمق و الجوعة [فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ في تناوله عند الضرورة [إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ]

لما أكل في حال الاضطرار [رَحِيمٌ بترخيصه ذلك.

و لم يذكر في هذه الآية سائر المحرّمات لأنّها ليست لحصر المحرّمات بل هذه الآية سيقت لنهيهم عن استحلال ما حرّم اللّه و هم كانوا يستحلّون هذه الأشياء فكانوا يأكلون الميتة و يقولون: تأكلون ما أمتّم و لا تأكلون ما أماته اللّه، على قياسهم الفاسد و كذا يأكلون الدم و لحم الخنزير و ذبح الأصنام و ليس المراد قصر الحرمة.

و قيل في معنى «غير باغ و لا عاد»: أي غير باغ على إمام المسلمين، و غير عاد بالمعصية طريق المحقّين و هو المرويّ عن أبي جعفر و أبي عبد اللّه.

[سورة البقرة (2): آية 174]

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتابِ وَ يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ ما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (174)

. نزلت الآية في أحبار اليهود فإنّهم كانوا يرجون أن يكون النبيّ المبعوث في التوراة منهم فلمّا بعث اللّه نبيّنا محمّدا صلّى اللّه عليه و آله من غيرهم غيّروا نعته حتّى إذا نظروا السفلة يجدونه مخالفا لصفة محمّد صلّى اللّه عليه و آله فلا يتّبعونه فلا تزول رئاستهم.

[وَ يَشْتَرُونَ بِهِ بدل المنزل المكتوم عوضا قليلا من الدنيا و هو المأكل كانوا يصيبونها من سفلتهم.

[أُولئِكَ ما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ] أمّا في الآخرة فظاهر لأنّهم لا يأكلون يوم القيامة إلّا عين النار عقوبة لهم على أكل الرشوة في الدنيا و أمّا في الدنيا فبأكل سببها من قبيل إطلاق اسم المسبّب على السبب و معنى «في بطونهم» مل ء بطونهم يقال: فلان أكل في بطنه فلمّا لم يقل: يأكلون في بعض بطونهم علم امتلاؤها.

[وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ] بطريق الرحمة غضبا و نفي الكلام لازم للغضب، و عادة الملوك أنّهم يعرضون عن المغضوب عليهم [وَ لا يُزَكِّيهِمْ و لا يطهّرهم بالمغفرة من دنس الذنوب يوم يطهّر المؤمنين من ذنوبهم بالمغفرة [وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ موجع.

[سورة البقرة (2): آية 175]

أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى وَ الْعَذابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَما أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (175)

.

[أولئِكَ إشارة إلى من تقدّم من المشترين الّذين [اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى و استبدلوا الإيمان بالكفر فصاروا بمنزلة من يشتري السلعة بالثمن. و المراد بالضلالة كتمان أمره صلّى اللّه عليه و آله مع علمهم به، و بالهدى إظهاره، أو المراد بالضلالة العذاب و بالهدى الثواب.

و الحاصل أنّهم استبدلوا النار بالجنّة.

و قوله: [وَ الْعَذابَ بِالْمَغْفِرَةِ] تأكيد لما تقدّم لأنّهم لمّا عرفوا ما أعدّ اللّه لمن عصاه من العذاب و لمن أطاعه من الثواب ثمّ أقاموا على ما هم عليه من المعصية فكانوا اشتروا ما يوجب العذاب و النار.

[فَما أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ] أي ما أجرأهم على النار أو ما أعملهم بأعمال أهل النار! و هو المرويّ عن الصادق عليه السّلام و قيل: المعنى ما أبقاهم على النار كما يقال: ما أصبر فلانا على الحبس، و ظاهر الكلام التعجّب و التعجّب لا يجوز على اللّه؛ لأنّ التعجّب إنّما يكون ممّا لا يعرف سببه فالغرض من البيان أنّ الكفّار حلّوا محلّ من يتعجّب منه فهو تعجيب لنا منهم، و يجوز أن يحمل الكلام على الاستفهام يعني أيّ شي ء أصبرهم على النار كما قال ابن عبّاس؛ فيكون المعنى: أيّ شي ء أجرأهم على النار و أعملهم بأعمال أهل النار.

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 176]

ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتابِ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (176)

. أي [ذلِكَ العذاب بالنار بسبب [أن اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتابَ أي جنس الكتاب حالكونه ملتبّسا [بِالْحَقِ فلا جرم من يرفضه بالتكذيب و الكتمان يبتلي بمثل هذا العذاب الدائم [وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتابِ في جنس الكتاب الإلهيّ بأن آمنوا ببعضها و كفروا ببعضها أو المراد من الكتاب التوراة. و اللام للعهد أو القرآن بأن قالوا: إنّه شعر أو سحر [لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ] أي خلاف بعيد عن الصواب و مستوجب لأشدّ العذاب.

و في هذه الآيات وعيد عظيم لكلّ من يكتم أحكام اللّه أو يحرّفه لغرض فاسد فليحذر العلماء أن يكتموا الحقّ عن الملوك و الأمراء و أرباب الدنيا خوفا من اتّضاع مرتبتهم و طوح نظرهم إلى إحسانهم و رواتبهم فيكونوا حينئذ مداهنين في الدين.

ص: 11

قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: أفضل الجهاد كلمة حقّ عند سلطان جائر. قال عليه السّلام: إذا ظهرت البدع فليظهر العالم علمه و إلّا فعليه لعنة اللّه. قال الحسن: إنّ الزبانية إلى فسقة حملة القرآن أسرع منهم إلى عبدة الأوثان فيقولون: ربّنا ما بالنا يتقدّمون إلينا فيقول اللّه:

ليس من يعلم كمن لا يعلم و ذلك لأنّهم اشتروا الدنيا بالدين.

حكي أنّ رجلا قال لأبي مدين: ما يريد منّي الشيطان فقال الشيخ أبو مدين:

إنّه جاء قبلك و شكا منك و قال: اعلم يا شيخ أنّ اللّه ملّكني الدنيا فمن نازعني في ملكي لا أتسلّى عنه بدون إيمانه.

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 177]

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ لكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ الْمَلائِكَةِ وَ الْكِتابِ وَ النَّبِيِّينَ وَ آتَى الْمالَ عَلى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ وَ السَّائِلِينَ وَ فِي الرِّقابِ وَ أَقامَ الصَّلاةَ وَ آتَى الزَّكاةَ وَ الْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا وَ الصَّابِرِينَ فِي الْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ حِينَ الْبَأْسِ أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177)

. [الْبِرَّ] كلّ فعل مرضيّ يفضي بصاحبه إلى الجنّة [أَنْ تُوَلُّوا] أي أن تصرفوا [وُجُوهَكُمْ يا أهل الكتابين في الصلاة [قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ أي ليس كلّ البرّ، و ليس البرّ كلّه منحصرا في التوجّه إلى مقابلهما. و ذلك أنّ اليهود و النصارى أكثروا الخوض في أمر القبلة حين حوّل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله إلى الكعبة و زعم كلّ واحد من الفريقين أنّ البرّ هو التوجّه إلى قبلته فردّ سبحانه عليهم بأنّه ليس البرّ ما أنتم عليه فإنّه منسوخ خارج من البرّ.

[وَ لكِنَّ الْبِرَّ] المعهود الّذي ينبغي أن يهتمّ بشأنه برّ [مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ و حذف المضاف و السبب في التقدير أنّ اسم «لكنّ» من أسماء المعاني و خبرها من أسماء الأعيان فامتنع الحمل لذلك و إنّما قدّم الإيمان باللّه في الذكر لأنّه أصل [وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ] أي بالبعث الّذي فيه جزاء الأعمال لا كما يزعمون من أنّهم لا تمسّهم النار إلّا أيّاما معدودة و أنّ آباءهم الأنبياء و يشفعون لهم فأصل البرّ هو التوجّه إلى المبدء

و المعـاد اللّـذين همـا المشـرق و المغرب في الحقيقـة فهـذان الأمران داعيان إلى الانقياد بجميع ما أمر اللّه به و نهى عنه خوفا و طمعا [وَ الْمَلائِكَةِ] كلّهم بأنّهم عباد اللّه ليسوا بذكور و لا إناث و لا بشـر و لا أولاد اللّه متوسّطون بينه و بين أنبيائه بإلقاء الوحي و إنزال الكتب و أمناء اللّه و سفراؤه. و ذلك لأنّ اليهود أخلّوا بذلك حيث أظهروا عداوة جبرئيل [وَ الْكِتابِ أي بجنس الكتاب الإلهيّ الّذي من أفراده القرآن حيث إنّهم لم يقبلوه و ردّوه [وَ النَّبِيِّينَ جميعا بأنّهم المبعوثون إلى خلقه من غير تفرقـة بين أحـد منهم، و اليهود أخلّوا بـذلك حيث قتلوا الأنبياء و طعنوا في نبوّة خاتم النبيّين فهذه أمور يجب على كلّ مكلّف أن يعتقد بها.

[وَ آتَى الْمالَ عَلى حُبِّهِ أي و أعطى الصدقة على حالة يحبّ المال قال ابن مسعود: هو أن تعطيه و أنت صحيح تأمل العيش و تخشى الفقر و لا تمهل حتّى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كـذا و لفلان كـذا. و قيل: الضـمير في «حبّه» راجع إلى اللّه أي يعطون المال على محبّة اللّه و خالصا لوجهه. قال المرتضـى قدّس سرّه: هذا الوجه أوجه [ذَوِي الْقُرْبى مفعول أوّل لآتى، أراد قرابة رسول صلّى اللّه عليه و آله كما في قوله: «قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى (1) و هو المرويّ عن أبي جعفر و أبي عبد اللّه. و قيل: المراد القرابة من أهل بيت المتصدّق و كلّ فقير و قـدّم «ذوي القربى» لأنّهم أحقّ بالصدقـة لقوله صـلّى اللّه عليه و آله: صدقتك على المسـلمين صدقة و على ذي رحمك اثنتان لأنّها صدقة و صلة لرحمك و قال صلّى اللّه عليه و آله: أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح [وَ الْيَتامى الفقراء منهم و هو الّذي لا والد له و هو صـغير [وَ الْمَسـاكِينَ و المسـكين ضـربان: من يكفّ عن السؤال و هو المراد هنـا و من ينبسط و يسأل و هو قوله: «وَ السَّائِلِينَ» الّـذين يسألون [وَ ابْنَ السَّبِيلِ أي المسافر البعيد عن ماله و سمّي به لملازمته له كما تقول للّصّ القاطع:

ابن الطريق [وَ السَّائِلِينَ الّـذين ألجـأتهم الحاجـة إلى السؤال و في الحـديث: للسّـائـل حقّ و لو جـاء على ظهر فرسه [وَ فِي الرِّقابِ أي و في تخليص الرقاب بمعاونة المكاتبين و قيل:

المراد بهم الأسارى.

[وَ أَقامَ الصَّلاةَ] المفروضـة عطف على الموصول [وَ آتَى الزَّكاةَ] المفروضـة على أنّ المراد بما مرّ من إيتاء المال التنفّل بالصدقـة و قـدّم في البيان على الفريضة مبالغة في الحثّ عليه

1- الشورى: 23.

أو الأوّل لبيان المصارف و الثاني لبيان وجوب الأداء.

[وَ الْمُوفُونَ عطف على الموصول [بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا] و الّذين إذا عاهدوا عهدا أوفوا به كالعهود الّذي بينهم و بين اللّه و النذور و العقود الّتي بينهم و بين الناس و كلاهما يلزم الوفاء به.

[وَ الصَّابِرِينَ فِي الْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ] يريد بالبأساء الفقر، و بالضرّاء العلّة و المرض [وَ حِينَ الْبَأْسِ يريد وقت الحرب و جهاد العدوّ أي صابرين حين الشدّة في القتال خاصّة قال أمير المؤمنين: كنّا إذا احمرّ البأس اتّقينا برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله فلم يكن أحد منّا أقرب إلى العدوّ منه.

[أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا] أي صدقوا اللّه و التزموه علما و عملا [وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ أي اتّقوا بفعل هذه الخصال.

و اتّفقت الإماميّة و استدلّت على أنّ المعنيّ بهذه الآية أمير المؤمنين لأنّه لا خلاف بين الأمّة أنّه عليه السّلام كان جامعا لهذه الخصال فهو مراد بها قطعا و لا قطع على كون غيره جامعا لها.

قال الزّجّاج و الفرّاء: إنّها مخصوصة بالأنبياء المعصومين، لأنّ هذه الأمور لا يؤدّيها بكلّيّتها إلّا الأنبياء.

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 178]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَ الْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَ الْأُنْثى بِالْأُنْثى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّباعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَ أَداءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسانٍ ذلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ رَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ (178)

. لمّا بيّن سبحانه أنّ البرّ لا يتمّ إلّا بالإيمان و التمسّك بالشرائع بيّن الشرائع و بدأ بالدماء لأنّه الأهمّ فقال:

[يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ أي فرض و وجب و قيل: كتب عليكم في أمّ الكتاب و هو اللوح المحفوظ على جهة الفرض، و أصل الكتاب الخطّ الدالّ على معنى فسمّي به ما دلّ على الفرض؛ قال الشّاعر:

كتب القتل و القتال علیناو علی الغانیات جرّ الذیول

و القصاص و المقاصّة و المبادلة نظائر یقال: قصّ أثره أي تلاه شیئا بعد شيء و منه القصاص لأنّه یتلو أصل الجنایة و یتبعه و هو أن یفعل بالثاني مثل ما فعله هو بالأوّل مع مراعاة المماثلة فإن لم تحصل المماثلة و لم یتمكّن منها فلا یقع القصاص و أمّا من یتولّی القصاص فهو إمام المسلمین و من یجري مجراه فیجب علیه استیفاء القصاص عند مطالبة الوليّ لأنّه حقّ الآدميّ و یجب علی القاتل تسلیم النفس.

[الْقِصاصُ فِي الْقَتْلی و «في» للسبب أي بسبب قتل القتلی كما في قوله صلّی اللّه علیه و آله: إنّ امرأة دخلت النار في هرّة حبستها أي بسبب حبسها إیّاها و هذا الحكم یتوجّه إلی القاتل عمدا و أمّا في الخطاء المحض و شبه العمد فلا یقع القصاص بل یجب الدیة.

فإن قیل: كیف كتب علیكم القصاص في القتلی و الأولیاء مخیّرون بین القصاص و العفو و أخذ الدیة؟

فالجواب أنّ الوجوب لا ینافي التخیّر أي قد فرض علیكم التمسّك بما حدّ لكم و ترك مجاوزته إلی ما لم یجعل لكم.

[الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَ الْعَبْدُ بِالْعَبْدِ] مبتدأ و خبر أي الحرّ مأخوذ و مقتول بمثله؛ قال الصادق علیه السّلام: لا یقتل الحرّ بعبد لكن یضرب الحرّ بضرب شدید و یغرم دیة العبد و هذا أیضا مذهب الشافعيّ و مالك و هذا الشعر منسوب إلیه:

خذوا بدمي ذاك الغزال فإنّه رماني بسهمي مقلتیه علی عمد

و لا تقتلوه إنّني أنا عبده و في مذهبي لا یقتل الحرّ بالعبد

و كذلك لا یقتل المؤمن بالكافر و لكن عند الثوريّ و أبي حنیفه یقتل الحرّ بالعبد و استدلّا بعموم قوله تعالی: «وَ كَتَبْنا عَلَیْهِمْ فِیها أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ» (1) قالا: إنّ شریعة من قبلنا إذا قصّت علینا في القرآن من غیر دلالة علی نسخها فالعمل بها واجب، و لكن إذا صحّ أنّ الصادق علیه السّلام قال: لا یقتل فغیره كاذب.

[وَ الْأُنْثی بِالْأُنْثی فإن قتل رجل امرأة و أراد أولیاء المقتول القصاص أدّوا نصف

1- المائدة: 48.

دية الرجل القاتل إلى أهل الرجل و هذا هو حقيقة المساواة؛ فإنّ نفس المرأة لا تساوي نفس الرجل بل هي على النصف منها فيجب إذا أخذت النفس الكاملة بالنفس الناقصة أن يردّ فضل ما بينهما و كذلك رواه الطبريّ في تفسيره عن عليّ عليه السّلام و يجوز قتل العبد بالحرّ و الأنثى بالذكر إجماعا.

و نزلت هذه الآية في حيّين من العرب لأحدهما طول (1) على الآخر و كانوا يتزوّجون نساء بغير مهور و أقسموا: لنقتلنّ الحرّ منكم بالعبد منّا و بالمرأة منّا الرجل منكم و بالرجل منّا الرجلين منكم، و جعلوا جراحاتهم على الضعف من جراحات أولئك حتّى جاء الإسلام فأنزل اللّه هذه الآية.

قوله: [فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ «من» موصولة أو شرطيّة و الضميران راجعان إلى «من» أي شي ء من العفو قليل، و معنى العفو الترك و عفت الدار: تركت حتّى درست «فمن عفي له» أي الجاني و القاتل إذا عفي له من أخيه الّذي هو وليّ الدم و ذكر بلفظ الاخوّة ليعطف أحدهما على صاحبه بذكر ما هو ثابت بينهما من اخوّة الإسلام فدلّت الآية على أنّ اخوّة الإسلام بينهما لم تنقطع و أنّ القاتل لم يخرج عن الإيمان بقتله [شَيْ ءٌ] و هو العفو من القصاص دون الدية و قوله: «شي ء» يدلّ على أنّ بعض الأولياء إذا عفى يسقط القود و القصاص؛ لأنّ شيئا من الدم قد بطل بعفو البعض و اللّه تعالى قال: «فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْ ءٌ» و هذا قول أكثر المفسّرين بأنّ العفو المراد في الآية أنّ وليّ الدم يعفو عن القصاص؛ و يقبل الدية، و لم يذكر سبحانه العافي لكنّه معلوم أنّ المراد به من له القصاص و المطالبة.

قال الطبرسيّ: و أمّا الّذي له العفو عن القصاص فكلّ من يرث الدية إلّا الزوج و الزوجة عندنا و أمّا غير أصحابنا من العلماء فلا يستثنوهما.

قوله: [فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ خبر مبتدأ محذوف تقديره: و إذا حصل شي ء من العفو و بطل القصاص فالأمر على وليّ المقتول بأن يطلب الدية بالمعروف و لا يظلم الجاني بالزيادة و لا يعنّفه و لا يشدّد عليه إن كان معسرا [وَ أَداءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسانٍ هذه وصيّة للجاني بأن لا

1- السلطة و بسط اليد.

يماطل أولياء الدم و لا يبخس حقوقهم بل يشكرهم على عفوهم و يؤدّي حقوقهم إليهم.

[ذلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ رَحْمَةٌ] إشارة إلى الحكم المذكور من العفو و الدية. تيسير و توسعة لكم و رحمة منه حيث لم يجزم بالعفو و أخذ الدية بل خيّركم بين الثلاث: القصاص و الدية و العفو مطلقا و ذلك لأنّ في شرع موسى عليه السّلام القصاص فقط و هو العدل المحض و في دين عيسى عليه السّلام العفو و هو الفضل فحسب و في شرعنا القصاص للتشفّي و الدية للترفّه و العفو للتكرّم.

[فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ التخفيف و تجاوز ما شرّع له بأن قتل غير القاتل أو قتل القاتل بعد العفو و أخذ الدية فقد كان الوليّ في الجاهليّة يؤمن القاتل بقبول الدية ثمّ يظفر به فيقتله [فَلَهُ باعتدائه [عَذابٌ أَلِيمٌ موجع.

[سورة البقرة (2): آية 179]

وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ يا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (179)

. بيان لوجه الحكمة في القصاص فقال:

[وَ لَكُمْ أيّها الناس في إيجاب القصاص [حَياةٌ] لأنّ من همّ بالقتل فذكر القصاص ارتدع فكان ذلك سببا للحياة و قيل: معناه: لكم في القصاص حياة لأنّه لا يقتل إلّا القاتل دون غيره بخلاف ما كان يفعله أهل الجاهليّة الّذين كانوا يتغابون بالطوائل و نظيره من من كلام العرب: «القتل أنفى للقتل» إلّا أنّ ما في القرآن أكثر فائدة و أوجز في العبارة و أبعد من التكلّف بتكرير اللفظ و أحسن تأليفا بالحروف المتلاءمة:

أمّا تكثير الفائدة فلأنّ فيه جميع ما في قولهم: القتل أنفى للقتل و زيادة معان منها إبانة العدل لذكره القصاص؛ لأنّ القصاص عدل محض لكنّ القتل مطلقا ليس بعدل و منها إبانة الغرض المطلوب و المرغوب فيه و هو الحياة.

و أمّا الإيجاز في العبارة فإنّ الّذي هو نظير القتل أنفى للقتل قوله: «الْقِصاصِ حَياةٌ» و هو عشرة أحرف و ذلك أربعة عشر حرفا.

و أمّا بعده من الكلفة فهو أنّ في قولهم: القتل أنفى للقتل تكريرا.

و أمّا الحسن بتأليف الحروف المتلاءمة فإنّه مدرك بالحسّ و موجود باللفظ؛ فإنّ لخروج من الفاء إلى اللام في التلفّظ أعدل من الخروج من الألف إلى الهمزة لبعد الهمزة إلى اللام

و كذلك الخروج من الصاد إلى الحاء أعدل في التلفّظ من الخروج من الألف إلى اللام.

فباجتماع هذه الأمور الّتي ذكرناها كان أحسن منه و أبلغ فتبيّن بين أعلى الطبقة من الكلام و أدناها مع أنّ قولهم: القتل أنفى للقتل أفصح كلام عندهم.

[يا أُولِي الْأَلْبابِ أي يا ذوي العقول و الّذين يعرفون العواقب [لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أي لكي تتّقون القتل بالخوف من القصاص، أو لكي تجتنبوا المعاصي.

قوله: [سورة البقرة (2): آية 180]

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (180)

. ثمّ بيّن شريعة اخرى و هو الوصيّة فقال:

فرض [عَلَيْكُمْ إِذا حَضَرَ] أسباب الموت و ظهر أماراته و آثاره من العلل و الأمراض إذ لا اقتدار على الوصيّة عند حضور نفس الموت أي هذا الحكم مكتوب عليكم في الأزل [إِنْ تَرَكَ واحد منكم مالا- قليلا- أو كثيرا و قيل: المراد من «الخير» المال الكثير لا القليل قيل: من ألف درهم إلى خمسمائة درهم و قال ابن عبّاس: إلى ثمانمائة درهم و روي عن أمير المؤمنين أنّه دخل على مولى له في مرضه و له سبع مائة درهم أو ستّمائة فقال: أ لا اوصي؟ فقال عليه السّلام: لا إنّ اللّه سبحانه قال: «إِنْ تَرَكَ خَيْراً» و ليس لك كثير مال و هذا هو المأخوذ به عندنا الإماميّة لأنّ قوله عليه السّلام حجّة.

[الْوَصِيَّةُ لِلْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ أي الوصيّة لوالديه و قرابته [بِالْمَعْرُوفِ ممّن يرث و ممّن لا يرث من الأقرباء بالشي ء الّذي يعرف أهل التميز أنّه لا- جور و لا- حيف فيه و يحتمل أنّ المراد من «المعروف» قدر ما يوصى به لأنّ من يملك المال الكثير إذا أوصى بدرهم فلم يوص بالمعروف و يحتمل أن يكون أمرهم سبحانه بالطريقة الجميلة في الموصى لهم و تركا للطريقة السيّئة فليس من المعروف أن يوصى للغنيّ و ترك الفقير و يوصى للقريب و ترك الأقرب كما كان يفعله أهل الجاهليّة و ذلك لأنّ أهل الجاهليّة كانوا يوصون بمالهم للبعيد رياء و سمعة و طلبا للفخر و الشرف و يتركون أقاربهم الفقراء فشرّع اللّه في هذه الآية ما كان يصرف إلى إلّا بعدين إلى الوالدين و الأقربين فعمل بها حتّى نسختها آية المواريث في سورة النساء

ص: 18

فالآن لا يجب على أحد أن يوصي لأحد قريب و لا بعيد [حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ أي حقّ هذه الوصيّة حقّا على المتّقين من المخالفة.

و اختلف في هذه الآية فقيل: إنّها منسوخة في الوارث ثابتة في غير الوارث.

قال الطبرسيّ: و قيل: إنّها غير منسوخة أصلا و هو الصحيح عند المحقّقين من أصحابنا لأنّ من قال: إنّها منسوخة بآية المواريث فقوله باطل بأنّ النسخ بين الخبرين إنّما يكون إذا تنافى العمل بموجبهما و لا تنافي بين آية المواريث و آية الوصيّة فكيف تكون هذه ناسخة بتلك مع فقد التنافي؟ و من قال: إنّها منسوخة بقوله صلّى اللّه عليه و آله: «لا وصيّة لوارث» فقد أخطأ لأنّ الخبر لو سلّم من كلّ قدح لكان يقتضي الظنّ و لا يجوز أن ينسخ كتاب اللّه بما تقتضي الظنّ، و لو سلّمنا الخبر مع ما ورد من الطعن على رواته لخصّصنا عموم الآية و حملناها على أنّه لا وصيّة لوارث بما يزيد على الثلث كما في الكافي و العيّاشي عن الباقر عليه السّلام أنّه سئل عن الوصيّة للوارث فقال: يجوز ثمّ تلا هذه الآية. ثمّ نسخ الوجوب لا ينافي بقاء الجواز. العيّاشيّ عن الصادق عن آبائه عن أمير المؤمنين عليهم السّلام قال: من لم يوص عند موته لذوي قرابته ممّن لا يورث فقد ختم عمله بالمعصية.

[سورة البقرة (2): آية 181]

فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ ما سَمِعَهُ فَإِنَّما إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (181)

. ثمّ أوعد على تغيير الوصيّة أي بدّل الوصيّة، و ذكر الضمير باعتبار الإيصاء كقوله «فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ» (1) أي وعظ [بَعْدَ ما سَمِعَهُ من الموصي من الأوصياء أو الأولياء أو الشهود [فَإِنَّما] إثم التبديل على من يبدّل الوصيّة [إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بالإيصاء و تغييره [عَلِيمٌ بما يفعله الوصيّ و غيره.

[سورة البقرة (2): آية 182]

فَمَنْ خافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (182)

. «الخوف» في الآية المراد منه العلم فهو من إطلاق اسم اللازم على الملزوم فإنّه إذا علم [خافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً] ميلا عن الحقّ بالخطاء في الوصيّة يعني أنّ الموصى إليه إن

1- السورة: 275.

خشي أو علم ظلما من الموصي فيما أوصى به إليه فيما لا يرضى اللّه به. القميّ عن الصادق عليه السّلام قال: إذا أوصى الرجل بوصيّة فلا يحلّ للوصيّ أن يغيّر وصيّته بل يمضيها على ما أوصى إلّا أن يوصي بغير ما أمر اللّه فيعصي في الوصيّة و جائز له أن يردّها إلى الحقّ مثل رجل يكون له ورثة فيجعل المال كلّه لبعض ورثته و يحرم بعضها فللوصيّ أن يردّ الوصيّة إلى الحقّ و هو المراد بالجنف و الإثم مثل أن يأمر مثلا بعمارة بيوت النار و اتّخاذ المسكر فيحلّ للوصيّ أن لا يعمل بشي ء من ذلك.

[فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ الظاهر أنّ المراد بالمصلح هو الوصيّ «بينهم» أي بين الموصى لهم، و أجراه على طريق الشرع [فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ و لا وزر على المغيّر في هذا التبديل لأنّه تبديل باطل إلى حقّ بخلاف الأوّل [إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ غفور عن المعاصي لمن تاب، رحيم للمحسنين.

[سورة البقرة (2): آية 183]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183)

. أي فرض عليكم صيام شهر رمضان لقوله تعالى: «فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ» (1) بعد قوله: «شَهْرُ رَمَضانَ» و الصيام في الشريعة هو الإمساك نهارا عن المفطرات المعهودة و هذا صوم العوامّ، و أمّا صوم الخواصّ فالإمساك عن المنهيّات دائما كما قيل: من أراد السلامة فليصم الدهر كلّه و ليكن إفطاره الموت، و أمّا صوم أخصّ الخواصّ فالإمساك عمّا سوى اللّه.

[كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ من الأمم من لدن آدم، و كان الصوم على آدم أيّام البيض و كان على قوم موسى صوم عاشوراء [لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ المعاصي و ذلك لأنّ الصوم من موجبات التقوى؛ فإنّ الصوم يكسّر الشهوة الّتي هي مبدء المعاصي و إنّه أغضّ للبصر و أحصن للفرج، و تسكين الشهوة يحصل بالصيام و القيام

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 184]

أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَ عَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَ أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (184)

. [أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ أي موقّتات قليلات فإنّ القليل من المال يعدّ عدّا، و انتصاب «أيّاما» على الظرفيّة بتقدير «صوموا» دلّ الكلام عليه.

و اختلف في هذه الأيّام قيل: إنّها غير شهر رمضان و كانت ثلاثة أيّام من كلّ

1- السورة: 185.

شهر ثمّ نسخ. و قيل: ثلاثة أيّام من كلّ شهر و صوم يوم عاشوراء ثمّ قيل: إنّه كان تطوّعا و قيل: كان واجبا و لكن على التقادير نسخ بصوم رمضان.

[فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ] مرضا يضرّه الصوم أو على سفر أي راكب سفر و قاطع مسافة، و هو ظرف عطف على قوله «مريضا» و هو و إن كان ظرفا فهو بمعنى الاسم أي مسافرا فالّذي ينوب مناب صومه عدّة من أيّام أخر، فعدّة من العدّ بمعنى المعدود و منه يقال للجماعة المعدود من الناس: عدّة، و حاصل الآية أنّ فرض الصوم في الأيّام المعدودات يلزم الأصحّاء و أمّا من كان مريضا أو مسافرا فله تأخير الصوم عن هذه الأيّام إلى أيّام أخر.

[وَ عَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ و اختلف في المراد فقال بعض المفسّرين: إنّ المعنى أنّ الأصحّاء الّذين يتمكّنون من الصوم مخيّرون بين أمرين بين أن يصوموا و بين أن يفدوا و كان ذلك في بدء الإسلام و لم يكونوا متعوّدين بالصوم فخيّرهم سبحانه لئلّا يشقّ عليهم ثمّ نسخ التخيير و نزلت العزيمة بقوله: «فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ».

[فِدْيَةٌ طَعامُ مِسْكِينٍ أي إعطاء فدية و هي إطعام مسكين و هي نصف صاع على قول أهل العراق من كلّ يوم، و عند الشافعيّ مدّ من كلّ يوم و هو مل ء الكفّين و امتدادها و لذا سمّي بالمدّ أي ممدودتين و مبسوطتين. و عند الإماميّة إن كان قادرا فمدّان، و إلّا فمدّ واحد. و قيل: إنّ هذه الرخصة كانت للحوامل و المراضع و الشيخ الفاني، ثمّ نسخ من الآية الحامل و المرضع و بقي الشيخ الكبير على الحكم. و ثالث الأقوال: أنّ باب الإفعال من معانيه السلب، كما تقول: أكرمته أي سلبت عنه الكرامة، فالمعنى: فعلى الّذين هم مسلوبين الطاقة من مرض أو عطاش أو كبر فعليهم بدل كلّ يوم مدّ. و على هذا المعنى فلا نسخ في الآية، و روى عليّ بن إبراهيم بإسناده عن الصادق عليه السّلام: أنّ المراد من قوله:

«وَ عَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ» أي من مرض في رمضان فأفطر ثمّ صحّ فلم يقض ما فاته حتّى جاء رمضان آخر فعليه أن يقضي و يتصدّق لكلّ يوم مدّا من طعام.

[فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ أي من تطوّع بزيادة الإطعام بأن يعطي المسكين الواحد أكثر من قدر الكفاية حتّى يزيده من نصف صاع فهو عمل برّ و خير له و قيل: أن

يزيد على مسكين واحد، مثل أن يطعم مكان كلّ يوم مسكينين مثلا.

[وَ أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ أي و صومكم خير لكم من الإفطار و الفدية و هذا الجواز كان قبل النسخ، فأمّا بعد النسخ فلا يجوز أن يقال: الصوم خير من الفدية؛ لأنّ الإفطار لا يجوز أصلا، و محكومون بالصوم [إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أنّ الصوم خير من الفدية و افترض الصوم بعد خمس عشرة سنة من النبوّة بعد الهجرة بثلاث سنين.

قيل: أوّل ما فرض الصوم على الأغنياء لأجل الفقراء في زمن الملك طهمورث ثالث ملوك بني آدم، وقع القحط في زمانه فأمر الأغنياء بطعام واحد بعد الغروب و بإمساكهم بالنهار إيثارا على الفقراء و شفقة لهم بطعام النهار و تواضعا للّه.

و الصوم سبب للولوج في ملكوت السماوات و واسطة الخروج عن رحم مضائق الجسمانيّات، المعبّر عنه بالنشأة الثانية كما أشير إليه بقول عيسى عليه السّلام حيث قال: لن يلج ملكوت السماوات من لم يولد مرّتين. و مجاهدة الصوم رابطة مشاهدة الصفاء و إليه يشير الحديث القدسيّ: الصوم لي و أنا اجزى به، يعني: أنا جزاؤه لا حوري و لا قصوري.

و قال سبحانه في مخاطبة عيسى عليه السّلام: تجوّع تراني. و إنّما يكون اللّه جزاء صومه إذا أمسك قلبه و لسانه و روحه و سرّه عمّا سواه، و أهل التأويل أوّلوا «صوموا للرؤية و أفطروا للرؤية» أي رؤية جلال الحقّ.

فينبغي أن يكون صوم العبد ظاهرا و باطنا أي أعضاؤه الظاهرة و الباطنة، فصوم الأعضاء مثل اللسان عن الكذب و الفحش و الغيبة و النميمة و اللغويّات و أمثالها، و العين عن النظر في الغفلة و الريبة، و صوم السمع عن استماع الملاهي و المناهي و قس الباقي، و صوم النفس عن الآمال و التمنّي و الشهوات، و صوم القلب عن حبّ الدنيا، و صوم الروح عن نعيم الآخرة و لذّاتها، و صوم السرّ عن رؤية وجود غير اللّه. و هذه المقامات تختلف على درجات المعرفة؛ فمن كمال لطفه تعالى أن جعل صومكم في أيّام قلائل معدودات و ثمرات صومكم إذا صمتم حسبما شرح في أيّام غير متناهية.

و أعلم أنّ الخلق في توجّههم إلى ما هو قبلتهم طائفتان: إحداهما العوامّ الّذين قصّروا نظرهم على العاجل من الدنيا و الشهوات و مقتهم الرسول بقوله: ما ذئبان ضاريان

في زريبة غنم بأكثر فسادا من حبّ المال و الشرف في دين المرء المسلم. و آخرون الخواصّ و هم الّذين علموا أنّ كلّ شي ء فوقه شي ء آخر، فهم من الأقلّين و تحقّقوا أنّ الدنيا من بعض مخلوقات اللّه و أعظم أمورها الأجوفان: المطعم و المنكح و قد شاركهم في ذلك كلّ البهائم و الدوابّ، فأعرضوا عنها و تعرّضوا لمرتبة سنيّة و اشتغلوا بما يبقى و هو الإطاعة، و قسم من هذا القسم الخواصّ صاروا أخصّ حيث كشف لهم معنى «و اللّه خير و أبقى» و تحقّق عندهم حقيقة لا إله إلّا اللّه و أنّ كلّ من توجّه إلى ما سواه فهو غير خال من الشرك الخفيّ فجعلوا جميع الموجودات عندهم قسمين: اللّه و ما سواه و اتّخذوا ذلك كفّتي ميزان و قلبهم لسان الميزان فكلّما رأوا قلوبهم مائلة إلى الكفّة الشريفة حكموا بثقل كفّة الحسنات و كلّما رأوها مائلة إلى الكفّة الخسيسة حكموا بثقل كفّة السيّئات و هذا شغلهم و سلوكهم إلى أن وصلوا إلى المرتبة العليا، و هذا معنى الوصول إلى الحقّ لا كما توهّمه الطبقة الصوفيّة في مزخرفاتهم فتيقّظ من نومة الغفلة في يومك لغدك قبل أن يخرج الأمر من يدك.

[سورة البقرة (2): آية 185]

شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَ بَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى وَ الْفُرْقانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَ مَنْ كانَ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَ لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185)

. [شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ الشهر معروف و جمعه في القلّة أشهر و في الكثرة شهور. شهرت الحديث أظهرته و شهرت السيف: انتضيته و المراد الظهور بسبب الهلال، و إنّما سمّي برمضان لأنّ العرب سمّوا الشهور بمناسبة الأزمنة الّتي وقعت الشهور فيها، فوافق رمضان أيّام رمض الحرّ و شدّته و قيل: سمّي رمضان لأنّه يرمض الذنوب و يحرقها كما روي عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال: من صام رمضان إيمانا و احتسابا غفر له ما تقدّم من ذنبه.

و ارتفاع «شهر» على أنّه خبر مبتدأ محذوف يدلّ عليه أيّاما و التقدير: هي شهر رمضان، أو بدل من الصيام أي كتب عليكم شهر رمضان، أو مرفوع على الابتداء و يكون خبره «الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ» و قيل: «رمضان» اسم من اسماء اللّه، أي شهر اللّه.

و عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: نزلت صحف إبراهيم أوّل ليلة من رمضان و أنزلت التوراة لستّ

مضين منه و الإنجيل لثلاث عشرة و القرآن لأربع و عشرين.

و القرآن من القرء، و هو الجمع لأنّه مجمع علم الأوّلين و الآخرين.

[هُدىً لِلنَّاسِ أي أنزل حالكونه هداية للناس إلى سواء الصراط [وَ بَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى وَ الْفُرْقانِ و حالكونه آيات واضحات بما يهدي إلى الحقّ و يفرّق بين الحقّ و الباطل و الهدى على قسمين: ما يكون بيّنا جليّا و ما لا يكون، فذكر الجنس أوّلا ثمّ أردفه بأشرف نوعيه و بالغ فيه بنفس الهداية.

[فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ] الفاء للتفريع؛ حضر موضع الاقامة من المصر أو القرية كائنا ذلك الحاضر في الشهر [فَلْيَصُمْهُ أي فليصم فيه بحذف الجارّ.

و عن أبي جعفر عليه السّلام قال: خطب رسول اللّه للناس في آخر جمعة من شعبان فحمد اللّه و أثنى عليه، ثمّ قال: أيّها الناس إنّه قد أظلّكم شهر فيه ليلة خير من ألف شهر و هو شهر رمضان، فرض اللّه صيامه و جعل قيام ليلة فيه بتطوّع صلاة كمن تطوّع بصلاة سبعين ليلة فيما سواه من الشهور، و جعل لمن تطوّع فيه بخصلة من خصال الخير و البرّ كأجر من أدّى فريضة من فرائض اللّه فيما سواه، و من أدّى فيه فريضة من فرائض اللّه كان كمن أدّى سبعين فريضة فيما سواه من الشهور و هو شهر الصبر و إنّ الصبر ثوابه الجنّة و هو شهر المواساة و هو شهر يزيد اللّه فيه من رزق المؤمنين، و من أفطر فيه مؤمنا صائما كان له بذلك عند اللّه عتق رقبة و مغفرة لذنوبه فيما مضى.

فقيل له: يا رسول اللّه ليس كلّنا نقدر على أن نفطر صائما، قال: فإنّ اللّه كريم يعطي هذا الثواب من لا يقدر منكم إلّا على مذقة من لبن يفطر بها صائما أو شربة من ماء عذب أو تميرات لا يقدر على أكثر من ذلك، و من خفّف عن مملوكه خفّف اللّه عليه حسابه و هو شهر أوّله رحمة و أوسطه مغفرة و آخره إجابة و العتق من النار، و لا غنى بكم فيه عن أربع خصال خصلتين ترضون اللّه بهما و خصلتين لا غنى بكم عنهما، فأمّا اللتان ترضون اللّه بهما، فشهادة أن لا إله إلّا اللّه و أنّي رسول اللّه و أمّا اللتان لا غنى بكم عنهما فتسألون اللّه فيه حوائجكم و الجنّة، و تسألون فيه العافية و تتعوّذون به من النار.

[وَ مَنْ كانَ مَرِيضاً] و إن كان مقيما حاضرا فيه [أَوْ عَلى سَفَرٍ] أي في سفر و إن كان

صحيحا و حروف الصفات يقام بعضها مقام بعض [فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ] فعليه صيام أيّام أخر.

[يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ] حيث أوجب الفطر بالسفر و المرض [وَ لا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ] أي مشقّة بالصوم في السفر و المرض لغاية رأفته. قال الترمذيّ: اليسر اسم الجنّة و العسر اسم جهنّم، و التأويل: يريد اللّه بصومكم إدخالكم الجنّة و لا يريد بكم إدخال النار.

[وَ لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ] و إنّما أمرناكم بتكميل العدّة بصوم أيّام رمضان لأنّه مع الطاقة و عدم العذر يسهل عليكم، و المريض و المسافر يتعسّر عليهما ذلك فيكملان العدّة من وقت آخر و عليكم عدّ ما أفطرتم لتكملوا عدد قضاء ما أفطرتم.

[وَ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ] و تعظّموه حامدين [عَلى ما هَداكُمْ إلى طريق الخروج عن عهدة التكليف و وفّقكم بتعليم هذه المثوبات و الفيوضات [وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ لكي تشكروا اللّه على هذه النعمة باللسان و البدن و القلب.

و في الحديث: من حافظ على ثلاث فهو وليّ اللّه حقّا و من ضيّعهنّ فهو عدوّ اللّه حقّا الصلاة و الصوم و الغسل من الجنابة. و في بعض الخبر: الجنان يشتقن إلى أربعة نفر:

صائمي رمضان و تالي القرآن و حافظي اللسان و مطعمي الجيران؛ و إنّ اللّه يغفر للعبد المؤمن عند إفطاره ما مشت إليه رجلاه و ما قبضت عليه يداه و ما نظرت إليه عيناه و ما سمعته أذناه و ما نطق به لسانه و ما حدث به قلبه.

أقول: إن صحّ الحديث فذلك بعد التوبة و الصوم المستجمع للشرائط الّتي ذكرناه قبيل هذا. و في الحديث: إذا كان يوم القيامة و بعث من في القبور، أوحى اللّه إلى رضوان أنّى أخرجت الصائمين من قبورهم جائعين عاطشين في الدنيا، فاستقبلهم بشهواتهم من الجنان فيصيح الرضوان: أيّها الغلمان و الولدان عليكم بأطباق من نور؛ فيجتمع أكثر من عدد الرمل و قطرات الأمطار و كواكب السماء و أوراق الأشجار بالفاكهة و الأشربة اللذيذة و الأطعمة الشهيئة فيطعم من لقى منهم و يقول: كلوا و اشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيّام الخالية.

و عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال: رأيت ليلة المعراج عند سدرة المنتهى ملكا لم أر مثله طولا و عرضا، طوله مسيرة ألف ألف سنة و له سبعون ألف رأس، في كلّ رأس

سبعون ألف وجه، في كلّ وجه سبعون ألف لسان و على كلّ رأس ألف ذؤابة من نور و على كلّ ذؤابة ألف ألف لؤلؤة معلّقة بقدرة اللّه و في جوف كـلّ لؤلؤة بحر من نور و في ذلـك البحر حيتان، طول كلّ حوت مقـدار مائتي عام، مكتوب على ظهرهنّ: لا إله إلّا اللّه محمّد رسول اللّه، و ذلك الملك واضع إحدى يديه على رأسه و الأخرى على ظهره و هو في حظيرة القدس، فإذا سبّح اهتزّ العرش بحسن صوته، فسألت عنه جبرئيل، فقال: هـذا ملك خلقه اللّه قبل آدم بألفي عام، فقلت أين كان هذا إلى هذه الغاية؟ فقال عليه السّلام: إنّ للّه مرجا في الجنّة عن يمين العرش فكان هذا الملك فيه، فأمره اللّه في ذلك المكان أن يسبّح و يكون لك و لأمّتك ثوابه بسبب صوم شهر رمضان فرأيت صندوقين بين يـديه، على كـلّ صـندوق ألف قفـل من نور، و سألت جبرئيل عن الصـندوقين فقال سل منه، فسألته، فقال: إنّ فيهما براءة الصائمين من أمّتك من عذاب النار طوبى لك و لأمّتك انتهى.

[سورة البقرة (2): آية 186]

وَ إِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَ لْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186)

. سأل سائل من النبيّ صـلّى اللّه عليه و آله: أ قريب ربّنا فنناجيه أم بعيـد فنناديه؟ فنزلت الآية فقال: [وَ إِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فقل [إني قَرِيبٌ يـدلّ بهـذا على أنّه سـبحانه لا مكان له، إذ لو كان له مكان لم يكن قريبا من كلّ من يناجيه و قيل معناه أنّي سـريع الإجابة إلى دعاء الداعي لأنّ السـريع و القريب متقاربان و لكن شـرط الإجابة المشـيّة و موافقة القضاء لأنّ هذه الآية مطلقة و المطلق محمول على المقيّد و المقيّد قوله تعـالى: «بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ» (1) فيكون المعنى: أجيب دعوة الـداع إذا دعاني إن شـئت [فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي الإجابة و الاستجابة يطلقان بمعنى واحد، قال الشاعر:

وداع دعانا من يجيب إلى النداءفلم يستجبه عند ذاك مجيب

أي لم يجب، و معنى الآية فليجيبوا إذا دعوتهم للإيمان و الطاعة، قال المبرّد و السرّاج:

معناه: فليذعنوا للحقّ بطلب موافقة ما أمرتهم به و نهيتهم عنه، و حاصل المعنى: فليجيبوني

1- الانعام: 41.

و ليطيعوني. و قيل معناه: فليدعوني. قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: أعجز الناس من عجز من الدعاء و أبخل الناس من بخل بالسلام [وَ لْيُؤْمِنُوا بِي أي و ليتصدّقوا فإنّي قادر على إعطائهم ما سألوه [لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ إلى الحقّ و يهتدون إليه و الداعي يجب أن يسأل ما فيه صلاح له في دينه فاللّه سبحانه يجيبه إذا اقتضت المصلحة إجابته أو يؤخّر الإجابة إن كانت المصلحة في التأخير.

فإن قيل: إنّ ما يقتضيه المصلحة لا بدّ و أن يفعله فما معنى الدعاء و إجابته؟

فالجواب: أنّ الدعاء عبادة في نفسها يعبد اللّه بها لما فيه من إظهار الخضوع و الانقياد إليه و لا يمتنع أن يكون وقوع ما سأله إنّما صار مصلحة بعد الدعاء و لا يكون مصلحة قبل الدعاء.

روي عن جابر بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: إنّ العبد ليدعو اللّه و هو سبحانه يحبّ العبد، فيقول: يا جبرئيل لا تقض لعبدي هذا حاجته و أخّرها فإنّي أحبّ لا أزال أسمع صوته و أنّ العبد ليدعو اللّه و هو سبحانه يبغضه فيقول لجبرئيل: اقض لعبدي هذا حاجته و عجّلها فإنّي أكره أن أسمع صوته.

و قيل لإبراهيم بن أدهم: ما بالنا ندعو اللّه فلا يستجيب لنا فقال: لأنّكم عرفتم اللّه فلم تطيعوه و عرفتم الرسول و لم تتّبعوا سنّته و عرفتم القرآن فلم تعملوا بما فيه و أكلتم نعمة اللّه فلم تؤدّوا شكرها و عرفتم الجنّة فلم تطلبوها و عرفتم النار فلم تهربوا منها، و عرفتم الشيطان فلم تحاربوه و وافقتموه، و عرفتم الموت فلم تستعدّوا له، و دفنتم الأموات فلم تعتبروا بهم و تركتم عيوبكم و اشتغلتم بعيوب الناس انتهى.

قال خضر عليه السّلام لموسى (و اسمه إلياس بن ملكان و قيل: اسمه يلياء و اختلفوا فيه، قيل: إنّه نبيّ، محتجّين بقوله تعالى: «وَ ما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي» و بأنّه أعلم من موسى) و بالجملة ممّا نقل من وصاياه لموسى لمّا أراد أن يفارقه: يا موسى اجعل همّك في معادك و لا تخض فيما لا يعنيك و لا تترك الخوف في أمنك و لا تيأس من الأمن في خوفك، و لا تضحك من غير عجب، و لا تعيّر أحد الخاطئين بعد الندم و ابك على خطيئتك، يا موسى لا تطلب العلم لتحدّث به و اطلب العلم لتعمل به، و إيّاك و الغضب إلّا في اللّه و لا ترض على أحد إلّا في اللّه، و

لا تحبّ لدنيا و لا تبغض لدنيا فإنّ ذلك يخرج من الايمان و يدخل في الكفر انتهى.

أقول: و أحكم الأجوبة في هذا الباب أنّه شرط لهذه الإجابة لعبده إجابة العبد إيّاه فيما دعاه إليه لقوله: «فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَ لْيُؤْمِنُوا بِي» فإذا لم يجب العبد ربّه بالإطاعة لا يجيب المولى دعوته كما قال سبحانه: «وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ» (1) و قد قيل: إنّ الدعاء مفتاح باب السماء و أسبابه لقمة الحلال، حكي أنّه كان بالكوفة أناس يستجاب دعاؤهم كلّما دخل عليهم وال كانوا يدعون عليه فيهلك فلمّا ولّى الحجّاج الكوفة من ابن مروان دعاهم إلى مأدبته فلمّا أكلوا قال: أمنت من دعائهم فليدعوا عليّ ما شاؤوا. لكن مع ذلك كلّه فليكن العبد حريصا على التضرّع و الدعاء، و يسعى في دفع موانع الاستجابة و يهيّئ موجباتها كالخلوص و الأزمنة و الأمكنة.

قال صلّى اللّه عليه و آله: قوام الدنيا بأربعة أشياء: بعلم العلماء و عدل الأمراء و سخاوة الأغنياء و دعوة الفقراء.

و ينبغي أن يسأل اللّه تعالى بأسمائه الحسنى و الأدعية المأثورة و يتوسّل إلى اللّه بالأنبياء و الأئمّة المعصومين، و للدعاء أماكن يظنّ فيها الإجابة مثل عند رؤية الكعبة و في مسجد النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و الأقصى و الكوفة و قبّة الحسينيّة عليه السّلام و بين ذكر الجلالتين من سورة الأنعام في قوله تعالى: «وَ إِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ» (2) و في الطواف و في البيت و عند زمزم و عند شرب مائه و على الصفا و المروة و في السعي و خلف المقام و المزدلفة و منى و عند الجمرات و عند قبور الأنبياء.

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 187]

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إِلى نِسائِكُمْ هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ وَ عَفا عَنْكُمْ فَالْآنَ باشِرُوهُنَّ وَ ابْتَغُوا ما كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيامَ إِلَى اللَّيْلِ وَ لا تُباشِرُوهُنَّ وَ أَنْتُمْ عاكِفُونَ فِي الْمَساجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آياتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (187)

1- السورة: 40.

2- الآية: 124.

بيّن سبحانه وقت الصيام و ما يتعلّق به من الأحكام فقال: [أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ أي أبيح لكم في ليلة يوم الصوم [الرَّفَثُ أصل الرفث قول الفحش و التكلّم بالقبيح، ثمّ جعل ذلك اسما لما يتكلّم به عند النساء من معاني الإفضاء، ثمّ جعل كناية عن الجماع قال ابن عبّاس: «الرفث» كلمة جامعة لكلّ ما يريده الرجل من المرأة كالغمز و التقبيل.

[إِلى نِسائِكُمْ و كان الرجل في ابتداء الإسلام إذا أمسى في رمضان حلّ له الأكل و الشرب و الجماع إلى أن يصلّي العشاء الأخيرة أو يرقد، فإذا صلّاها أو رقد و لم يفطر حرم عليه الطعام و الشراب و النساء إلى القابلة، ثمّ إنّ بعض الأصحاب واقع أهله بعد صلاة الأخيرة فلمّا اغتسل أخذ يبكي و يلوم نفسه، و أتى النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و قال: إنّي أعتذر إلى اللّه و إليك من هذه الخاطئة فنزلت الآية.

[هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَ و عبّر باللباس و جعل كلّ من الرجل و المرأة لباسا للآخر لتجرّدهما عند النوم و اشتمال كلّ منهما على الآخر [عَلِمَ اللَّهُ في الأزل [أَنَّكُمْ (كُنْتُمْ) تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ تخونونها بتعريضها للعقاب بمباشرة النساء في ليالي الصوم و قد ائتمن اللّه العباد على ما أمرهم و نهاهم، فالتكليف أمانة، فإذا عصوه في السرّ فقد خانوا و قد قال اللّه: «لا تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَماناتِكُمْ» (1) [فَتابَ عَلَيْكُمْ عطف على «علم» أي قبل توبتكم [وَ عَفا عَنْكُمْ أي محى أثره عنكم [فَالْآنَ لمّا نسخ التحريم [باشِرُوهُنَ و المباشرة إلزاق البشرة بالبشرة، كنّي بها عن الجماع الّذي يستلزمها.

[وَ ابْتَغُوا ما كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ و اطلبوا ما قدّره اللّه لكم من الولد و هو أن يجامع الرجل أهله رجاء أن يرزقه ولدا يعبده، و قيل معناه: اطلبوا ما كتب اللّه لكم من الأمور الّتي بيّنه في كتابه، فإنّ اللّه يحبّ أن يؤخذ برخصه، كما يحبّ أن يؤخذ بعزيمته.

[وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا] إباحة للأكل و الشرب [حَتَّى يَتَبَيَّنَ و يتميّز [لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ] أي النهار من الليل، فأوّل النهار طلوع الفجر الثاني و قيل:

بياض الفجر من سواد الليل، و إنّما شبّه و عبّر بالخيط لأنّ القدر الّذي يحرّم الإفطار من البياض يشبه الخيط و هو أوّل ما يبد و من بياض النهار كالخيط الممدود دقيقا، ثمّ ينتشر،

1- الأنفال: 27.

و إنّما قال سبحانه: «مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ» لأنّه إذا ظهر الخيط الأبيض فذلك الخيط الأبيض معه بقيّة من ظلمة الليل، و يكون طرفه الملاصق له كأنّه خيط أسود في جنب خيط أبيض و نور الصبح ينشقّ في خلال ظلمة الليل، فشبّها بخيطين أبيض و أسود [مِنَ الْفَجْرِ] للتبيّن لأنّه بيّن الخيط الأبيض الّذي هو الفجر.

و روي أنّ عديّ بن حاتم قال للنبيّ صلّى اللّه عليه و آله: إنّي وضعت خيطين من شعر أبيض و أسود، فكنت أنظر فيهما فلا يتبيّن لي فضحك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله حتّى بدت نواجذه (بالذال المعجمة و هي أقصى الأضراس الأربعة) ثمّ قال: يا ابن حاتم إنّما ذلك بياض النهار و سواد الليل فابتدء الصوم من هذا الوقت.

[ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيامَ أي أديموا الإمساك في جميع أجزاء النهار [إِلَى اللَّيْلِ أي ينتهي النهار إلى وقت دخول الليل و علامة دخوله سقوط الحمرة من جانب المشرق و إقبال السواد منه.

[وَ لا تُبَاشِرُوهُنَّ وَ أَنْتُمْ عاكِفُونَ فِي الْمَساجِدِ] قيل: أراد من المباشرة الجماع. و قيل:

أراد الجماع و كلّ ما دونه من قبلة و غيرها و هو مذهبنا الإماميّة أي و الحال أنتم معتكفون في المساجد، قال الطبرسيّ: و الاعتكاف لا يصحّ عندنا إلّا في أحد المساجد الأربعة: المسجد الحرام و مسجد النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و مسجد الكوفة و مسجد البصرة، و عند غيرنا يجوز في سائر المساجد إلّا أنّ مالكا قال: إنّه يختصّ بالجامع؛ قال الطبرسيّ: و لا يصحّ الاعتكاف عندنا إلّا بصوم و أيضا عندنا لا يكون إلّا في ثلاثة أيّام.

[تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ إشارة إلى الأحكام المذكورة في الآية [فَلا تَقْرَبُوها] أي فلا تأتوها و هو أبلغ من قوله: فلا تعتدوها لأنّه نهي عن قربها فضلا عن تجاوزها [كَذلِكَ أي بيانا مثل هذا البيان الوافي [يُبَيِّنُ اللَّهُ آياتِهِ لِلنَّاسِ و نصوص أحكامه [لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ لكي يحترزوا المعاصي. و في الآية دلالة على أنّ اللّه تعالى أراد التقوى عن جميع الناس.

و في الدعاء: أعوذ بك من الذنوب الّتي تهتك العصم، قال الصادق صلّى اللّه عليه و آله: هي شرب الخمر و اللعب بالقمار و فعل ما يضحك الناس من اللهو و المزاح و ذكر عيوب الناس و مجالسة أهل الريب.

ص: 30

[سورة البقرة (2): آية 188]

وَ لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ وَ تُدْلُوا بِها إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (188)

. [وَ لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ أي لا يأكل بعضكم مال بعض بالغصب و الظلم و الوجوه الّتي لا تحلّ. و قيل: المراد ما يؤخذ باللهو و اللعب، مثل ما يؤخذ بالقمار و الملاهي. و روي عن أبي جعفر عليه السّلام: أنّه يعني بالباطل اليمين الكاذبة تقتطع به الأموال.

و روي عن الصادق عليه السّلام قال: كانت قريش يقامر الرجل في أهله و ماله فنهاهم اللّه.

و الآية تشتمل الجميع مثل الرشى و حلوان الكاهن و المغنّي و النائحة و الخبلة و وجوه الحرام بينهم كون الأكل بينهم وقوع التداول و التناول، و ليس المراد نفس الأكل بل شاع في العرف أنواع التصرّفات في الإنفاق بالأكل، و لأنّ معظم المقصود من المال الأكل و حاصل المعنى: أن لا تأكلوها بالسبب الباطل.

[وَ تُدْلُوا بِها إِلَى الْحُكَّامِ و تلقوا الأموال إلى القضاة، عطف على المنهيّ عنه فيكون مجزوما بلا الناهية المذكورة بواسطة العاطف، قيل: إنّه الودائع و ما لا يقوم عليه بيّنة، فتراجعون فيها إلى الحكّام، فتحلفون كاذبين و تأكلون الوديعة. و قيل: إنّه مال اليتيم في يد الأوصياء و أنّهم يدفعونه إلى الحكّام إذا طولبوا به ليقطعوا بعضه و تقوم لهم في الظاهر حجّة. و قيل: ما يؤخذ بشهادة الزور و الأولى الجميع.

[لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ : و ذلك الأكل بسبب وسيلة التحاكم إليهم و تجعلون هذه الوسيلة سببا لأن تأكلوا بعض أموال الناس بالباطل، و بالفعل الّذي يوجب الإثم أو أن يحكم الحاكم بالظاهر و كان الأمر في الواقع بخلافه.

[وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أنّ ذلك الفريق من المال ليس بحقّ لكم، أو أن تراجعوا إلى حكّام مبطلين يأخذون منكم الرشى و يحكمون لكم ما ليس لكم و أنتم تأخذونه و تأكلون ذلك المال.

قال أبو عبد اللّه عليه السّلام علم اللّه أنّه سيكون في هذه الأمّة حكّام يحكمون بخلاف الحقّ، فنهى سبحانه المؤمنين أن يتحاكموا إليهم و هم يعلمون أنّهم لا يحكمون بالحقّ.

في عقاب الأعمال عن الصادق عليه السّلام قال: قال عليّ عليه السّلام: إنّ في جهنّم رحى تطحن

ص: 31

العلماء الفجرة و القرّاء الفسقة و الجبابرة الظلمة و الوزراء الخونة و العرفاء الكذبة و العلماء و القضاة الّذين خالف عملهم قولهم يمضغون ألسنتهم يوم القيامة قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: أبغضكم إليّ الثرثارون أي كثير الكلام من غير حاجة. قال صلّى اللّه عليه و آله الّذين يجورون في الحكم يحشرون يوم القيامة عميا.

قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله يحشر أصناف من أمّتي أشتاتا، ميّزهم اللّه و بدّل صورهم، فبعضهم بصورة القردة و بعضهم بصورة الخنازير و بعضهم منكّسون أرجلهم فوق رؤوسهم يسحبون عليها و بعضهم عمي و بعضهم صمّ بكم و بعضهم يمغضون ألسنتهم فهي مدلات على صدورهم، يسيل القيح من أفواههم، و بعضهم مقطّعة أيديهم و أرجلهم و بعضهم مصلّبون على جذوع من نار و بعضهم أشدّ نتنا من الجيف و بعضهم ملبّسون ثيابا سابغة (1) من قطران لازقة بجلودهم، فأمّا الّذين بصورة القردة: القتّات، و الخنازير: أهل السحت، و المنكّسون: أكلة الربا، و العمي: الجائرون في الحكم، و الصمّ و البكم: المعجبون بأعمالهم، و الماضغون ألسنتهم: العلماء الّذين خالف عملهم قولهم، و الّذين قطعت أيديهم و أرجلهم: الّذين يؤذون الجيران، و أمّا المصلّبون: السعاة بالناس إلى السلطان، و الّذين أشدّ نتنا من الجيف: الّذين يتّبعون الشهوات و يمنعون حقّ اللّه في أموالهم و الّذين يلبسون ثيابا من نار: فأهل الكبر و الخيلاء و الفخر.

قوله: [سورة البقرة (2): آية 189]

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَواقِيتُ لِلنَّاسِ وَ الْحَجِّ وَ لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها وَ لكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقى وَ أْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (189)

. «الأهلّة» جمع هلال و اشتقاقه من استهلّ الصبيّ أو بكى و صاح حين يولد، و الهلال حين يرى يهلّ الناس و يرفعون أصواتهم بذكره و لذلك يسمّى الهلال هلالا.

روي أنّ معاذ بن جبل و ثعلبة بن غنم الأنصاريّ قالا: يا رسول اللّه ما بال الهلال يبدو دقيقا ثمّ يزيد حتّى يمتلئ ثمّ لا يزال ينقص حتّى يعود كما بدأ أوّلا؟ فأنزل اللّه الآية:

[قُلْ هِيَ أي الأهلّة [مَواقِيتُ جمع ميقات من الوقت و الفرق بين الوقت و بين المدّة و الزمان أنّ المدّة المطلقة امتداد حركة الفلك من مبدئها إلى منتهاها و الزمان مدّة مقسومة

1- كذا في الأصل.

إلى الماضـي و الحال و المسـتقبل، و الوقت الزمان المفروض لأمر [لِلنَّاسِ أي لما يتعلّق بهم من أمور معاملاتهم و مصالحهم [وَ الْحَجِ و أموره المتعلّقـة بأوقات مخصوصة و دبّر هذا التدبير سـبحانه في تغيّر القمر بهذه الكيفيّة لأنّه علّق به مواقيت أمورهم فتعرف المواقيت؛ بهذه الاختلافات لحاجة الناس إلى ذلك.

[وَ لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها] لمّا بيّن سبحانه أنّ الأهلّة مواقيت للنّاس و الحجّ و كان عادتهم أي الأنصار إذا أحرم الرجل منهم بالحجّ و العمرة لم يدخل حائطا و لا دارا من بابه فإن كان من أهل المدر نقب نقبا في ظهر بيته يدخل منه و يخرج أو يتّخذ سلّما فيصعد منه و إن كان من أهل الوبر خرج من ظهر الخيمـة و الفسـطاط و لا يدخل و لا يخرج من الباب حتّى يحلّ من إحرامه فعطف سـبحانه على ما قبله بأنّه كما أنّ أموركم مقدّرة بأوقات الأهلّة فليكن أفعالكم في الحجّ على الاستقامة بما أمركم اللّه به فقال: و ليس البرّ هذا الأمر. و قيل في الآيـة معنى آخر و هو أنّ المراد ليس البرّ أن تأتوا الأمور من غير جهاتها و ينبغي أن تأتوا الأمور من جهاتها أيّ الأمور كان و هو المرويّ عن أبي جعفر عليه السّلام.

[وَ لكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقى وَ أْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها] مرّ معناه قال أبو جعفر عليه السّلام: آل محمّد صلّى اللّه عليه و آله أبواب اللّه و سبيله و الدعاة إلى الجنّـة و القادة إليها و الأدلّاء عليها إلى يوم القيامـة قال النبيّ صـلّى اللّه عليه و آله: أنا مدينة العلم و عليّ بابها و لا يؤتى المدينة إلّا من بابها [وَ اتَّقُوا اللَّهَ في تغيير أحكامه [لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ لكي تظفروا بالبرّ و الهدى فمدخل الوصول و الورود إلى رضى اللّه باب التقوى.

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 190]

وَ قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ وَ لا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (190)

. هـذه الآيـة أوّل آيـة نزلت في القتال بالمدينة فلمّا نزلت كان صـلّى اللّه عليه و آله يقاتل من قاتله و يكفّ عمّن يكفّ عنه، قال ابن عبّاس و جماعة: إنّ هذه الآية بعد الحديبية و ذلك أنّ بعد ما وقع صـلح الحديبية و كان العام المقبل يجهّز النبيّ و أصحابه إلى مكّة خافوا أن لا تفي قريش على معاهدتهم و أن يصدّوهم عن البيت كما صدّوهم عام الأوّل و يقاتلوهم و

كره النبيّ صلّى اللّه عليه و آله قتالهم في الشهر الحرام فأنزل اللّه هذه الآية و بيّن أمر الجهاد فقال مخاطبا للمؤمنين:

[وَ قاتِلُوا] مع الكفّار [فِي سَبِيلِ اللَّهِ أي دين اللّه [الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ من الكفّار [وَ لا تَعْتَدُوا] و لا تجاوزوا من قتال من هو أهل القتال أو لا تعتدوا بقتال من لا يبدؤكم بقتال [إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ .

و اختلف في الآية هل هي منسوخة أم لا، قيل: منسوخة، قال ابن عبّاس و مجاهد:

غير منسوخة بل هي خاصّة في الناس و الذراري. و قيل: الآية أمر بقتال أهل مكّة.

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): الآيات 191 الى 192]

وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَ الْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَ لا تُقاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ حَتَّى يُقاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ (191) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (192)

. بيّن كيفيّة القتال مع الكافرين فقال: [وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ في الحلّ أو الحرم و في الشهر الحرام و غيره لأنّهم هتكوا الحرمة أوّلا و بدءوكم فجازوهم بمثله. و أصل الثقف الحذق في إدراك الشي ء علما و عملا [وَ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ أي أخرجوهم من مكّة كما أخرجوكم منها لأنّهم أخرجوا المسلين منها أوّلا فأخرج صلّى اللّه عليه و آله منها ثانيا من لم يؤمن به منهم يوم الفتح [وَ الْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ أي شركهم باللّه و برسوله أعظم من القتل في الشهر الحرام و سمّي الكفر فتنة لأنّه يؤدّي إلى الهلاك كما أنّ الفتنة يؤدّي إلى الهلاك.

[وَ لا تُقاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ حَتَّى يُقاتِلُوكُمْ فِيهِ و يبدؤوكم بالقتال [فَإِنْ قاتَلُوكُمْ و بدءوكم [فَاقْتُلُوهُمْ كَذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ أي مثل ذلك الجزاء جزاء الكافرين يفعل بهم [فَإِنِ انْتَهَوْا] عن القتال و كذا عن الكفر فإنّ الانتهاء عن مجرّد القتال لا توجب استحقاق المغفرة فضلا عن استحقاق الرحمة [فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ يغفر لهم ما قد سلف فتدارك ما قد سلف.

قال الطبرسيّ: و في الآية دلالة على أنّه يقبل توبة القاتل عمدا لأنّه تعالى يقبل توبة المشرك و الشرك أعظم من القتل.

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 193]

وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوانَ إِلاَّ عَلَى الظّالِمِينَ (193)

. بيّن سبحانه فائدة وجوب القتال فقال: [وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ] أي شرك عن ابن عبّاس و جماعة و هو المرويّ عن الصادق عليه السّلام «و الدين» بمعنى الطاعة و بمعنى الإسلام و بمعنى العادة، و الشريعة يجب أن يجري فيها على عادة مستمرّة [فَإِنِ انْتَهَوْا] عن الكفر و صار الدين دين الإسلام [فَلا عُدْوانَ إِلَّا عَلَى الظّالِمِينَ أي لا عقوبة عليهم و إنّما العقوبة على المقيمين على الكفر فسمّي القتل عدوانا من حيث كان عقوبة على العدوان و الظلم.

و هذه الآية ناسخة للأولى الّتي تضمّنت النهي عن القتال في المسجد الحرام حتّى يبدؤوا بالقتال فيه؛ لأنّ فيها إيجاب قتالهم على كلّ حال حتّى يدخلوا في الإسلام. و قيل: المراد من هذه الآية أنّهم إذا ابتدءوا بالقتال في الحرم يجب مقاتلتهم حتّى يزول الكفر. و الأوّل أولى.

[سورة البقرة (2): آية 194]

الشَّهْرُ الْحَرامُ بِالشَّهْرِ الْحَرامِ وَ الْحُرُماتُ قِصاصٌ فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (194)

. «الحرام» هو القبيح الممنوع من فعله و «الحلال» المطلق المأذون فيه، و إنّما سمّي بالشهر الحرام لأنّه كان عندهم يحرم القتال في هذه الأشهر الأربع و هي ثلاثة سرد ذو القعدة و ذو الحجّة و محرّم و شهر فرد و هو رجب حتّى لو أنّ رجلا لقى قاتل أبيه و أخيه لم يتعرّض له بسوء.

قوله: [الشَّهْرُ الْحَرامُ يقابل [بِالشَّهْرِ الْحَرامِ في هتك الحرمة لأنّ المشركين صدّوا النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و المسلمين عام الحديبيّة في ذي القعدة سنة ستّ من الهجرة و قد وقع بين القوم ترامي بسهام و حجارة و اتّفق أيضا عام المقبل خروج النبيّ و أصحابه لعمرة القضاء، فيه سنة سبع من الهجرة و كرهوا أن يقاتلوهم لحرمته فنزلت الآية هذا الشهر الحرام بذلك الشهر و هتكه بهتكه فلا تبالوا به إن وقع أمر.

[وَ الْحُرُماتُ قِصاصٌ أي من هتك حرمة أيّ حرمة كانت فلا يجوز استحلالها إلّا على المقاصّة و المجازاة فإنّ مراعاة الحرمات إنّما تجب في حقّ من يراعيها و أمّا هتكها

فإنّه يقتصّ منه. و على قوله أنّ المراد «من الحرمات» تكون قصاص بالمراغمة بدخول البيت فجمع «الحرمات» باعتبار حرمة الشهر و حرمة البلد و حرمة الإحرام.

قال الحسن: إنّ مشركي العرب قالوا لرسول اللّه: أنهيت عن قتالنا في الشهر الحرام قال نعم، و إنّما أراد المشركون أن يقاتلوه في الشهر الحرام إذ كان هو صلّى اللّه عليه و آله ممنوعا عن القتال فأنزل اللّه الآية. و حاصل المعنى أنّهم لمّا هتكوا حرمة شهركم بالصدّ عام الحديبيّة و قصدهم التعرّض للقتال معكم فافعلوا بهم مثله و ادخلوا عليهم عنوة فإن منعوكم فاقتلوهم.

[فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ و تجاوز عن حدّه [فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ أي بعقوبة مماثلة لجناية اعتدائه على سبيل المقاصّة و هو اعتداء ما دون فيه لا على سبيل الابتداء فإنّه ظلم حرام [وَ اتَّقُوا اللَّهَ إذا انتصرتم بمن ظلمكم فلا تظلموهم بأخذ أكثر من حقّكم و لا تعتدوا إلى ما لم يرخّص لكم.

[وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ و المراد من «المعيّة» القرب المعنويّ أي يصلح شؤونهم بالنصر و التمكين و المثوبات.

[سورة البقرة (2): آية 195]

وَ أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَ أَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (195)

. أمر سبحانه في الآية السابقة بالجهاد و في هذه الآية ببذل المال في سبيله ليظهر من يدّعي محبّة اللّه و إنّهما معيار المحبّة الإلهيّة لأنّ أحدهما بذل الوجود و الآخر حبّ المال فامتحن اللّه عباده بهذين قطعا لدعوى المدّعين و هذا هو السرّ في الجهاد و الزكاة فقال:

[وَ أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أي اصرفوا من أموالكم في وجوه مصالح الدين و في الطريق المؤدّي إلى ثواب اللّه و رحمته من إقامة الحجّ أو جهاد الكفّار و تقوية الضعفاء أو رعاية أهل الدين [وَ لا تُلْقُوا] و لا تطرحوا أنفسكم إلى الهلاك و المراد من «الأيدي» الأنفس فإنّ اليد لازم للنفس و أكثر الأعمال يظهر بمباشرة اليد فكأنّها هي العمدة، و الباء زائدة في المفعول به و في الأغلب مثل هذه المورد يؤتى بها قال الشاعر:

و لقد ملأت على نصيب جلده بمساءة إنّ الصديق يعاتب

و قيل: ليست الباء زائدة لأنّ معنى الآية لا تهلكوا أنفسكم بأيديكم فكيف تكون زائدة.

قيل في معناه: وجوه أحدها لا- تهلكوا أنفسكم بأيديكم بترك الإنفاق في سبيل اللّه فيغلب عليكم العدوّ عن ابن عبّاس و جماعة من المفسّرين. و الوجه الآخر أي لا تركبوا المعاصي باليأس عن المغفرة عن البراء بن عازب و عبيدة السلمانيّ. و الوجه الآخر في معنى الآية لا تقتحموا الحرب من غير نكاية العدوّ و لا قدرة لكم على دفاعهم. و الوجه الرابع و لا تسرفوا في الإنفاق الّذي يوجب هلاك النفس. و يقرب منه ما روي عن أبي عبد اللّه لو أنّ رجلا أنفق ما في يده في سبيل اللّه ما كان أحسن و لا رفق لقوله تعالى: «وَ لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ» [وَ أَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ أي تفضّلوا على الفقراء.

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 196]

وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَ لا تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَ سَبْعَةٍ إِذا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كامِلَةٌ ذلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (196)

. بيّن سبحانه فرض الحجّ و العمرة على العباد بعد بيانه فريضة الجهاد فقال:

[وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ] أي أتمّوهما بحدودهما و مناسكهما ففرض على من استطاع و تمكّن و المعنى أقيموهما إلى آخر ما فيهما من الأحكام [لِلَّهِ أي أقصدوا بهما التقرّب إلى اللّه، و العمرة واجبة عندنا مثل الحجّ و عند الشافعيّ أيضا واجبة خلافا لأبي حنيفة فإنّها عنده سنّة.

و أركان أفعال الحجّ: النيّة و الإحرام و الوقوف بالمشعر و طواف الزيارة و السعى بين الصفا و المروة و أمّا الفرائض الّتي ليست بأركان: التلبية و ركعتا الطواف له و طواف النساء و ركعة الطواف له، و أمّا المسنونات فمذكورة في كتب الفقه.

و أركان العمرة: النيّة و الإحرام و طواف الزيارة و السعي و أمّا ما ليس بركن من فرائضها فالتلبية و ركعة الطواف له و طواف النساء و ركعة الطواف له. و أمّا المتمتّع بالحجّ هو أن يعمر في أشهر الحجّ ثمّ يحلّ و تمتّع بالإحلال بأن يفعل ما يفعل المحلّ ثمّ يحرم

بالحجّ من غير رجوع إلى الميقات فهو إحلال بين إحرامين. و يجب حجّ التمتّع على من هو ناء عن مكّة بستّ عشر فرسخا، و حجّ القران و الإفراد يجب على من هو من أهل مكّة أو مكانه يكون أقلّ من المسافة المذكورة مثل أن يكون مكانه عشرة فراسخ إلى مكّة مثلا مسافة.

قال صاحب تفسير روح البيان: و أمّا صورة القرآن أن يحرم بالحجّ و العمرة معا بأن ينويهما بقلبه و يأتي بمناسك الحجّ أو يحرم بالعمرة ثمّ يدخل عليها الحجّ قبل أن يفتتح الطواف فيصير قارنا، و أمّا صورة الإفراد أن يحرم بالحجّ مفردا ثمّ بعد الفراغ منه يعتمر من الحلّ أي الّذي بين المواقيت و بين الحرم انتهى كلامه.

قوله تعالى: [فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ أي منعتم و صددتم عن الوصول إلى البيت من خوف أو مرض أو عدوّ فامتنعتم لذلك عن ابن عبّاس و جماعة و هو المرويّ عن أئمّتنا. و قيل: معناه إن منعكم قاهر عابس فعليكم ما سهل و تيسّر من الهدي إذا أردتم الإحلال.

«و الهدي» ما يهدى إلى البيت تقرّبا إلى اللّه أيسره شاة و واسطة بقرة و أعلاه بدنة و يسمّى هديا لأنّه جار مجرى الهديّة الّتي يهديها العبد إلى ربّه.

و حاصل المعنى أنّ المحرم إذا أحصر و منع و أراد أن يتحلّل، يحلّل بذبح هدي تيسّر عليه في أيّ موضع أحصر على قول مالك و استدلّ بأنّ النبيّ نحر هديه بالحديبيّة و أمر أصحابه كذلك و ليست الحديبيّة من الحرم. و قيل: إنّ محلّ الهدي الحرم فإذا ذبح به يوم النحر أحلّ. لكن على مذهبنا الإماميّة أنّ المحصر إذا كان بالمرض فلا بدّ و أن يذبح بالحرم و إذا أحصر بالعدوّ فأينما أحصر، ثمّ إن كان الإحرام بالحجّ فمحلّه منى يوم النحر و إن كان الإحرام بالعمرة محلّه مكّة.

[وَ لا تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ أي لا تتحلّوا من إحرامكم حتّى ينحر و يذبح هديكم في محلّه [فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ أي من مرض منكم مرضا محتاج فيه إلى الحلق أو تأذّى بهوامّ رأسه أبيح له الحلق بشرط الفدية. نزلت في رجل يقال له كعب بن عجرة قد قمّل رأسه [فَفِدْيَةٌ] فحلق لذلك العذر فعليه بدل و جزاء يقوم مقام ذلك [مِنْ صِيامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ المرويّ عن أئمّتنا أنّ الصيام ثلاثة أيّام و الصدقة على ستّة

مساكين و روي على عشرة مساكين «و النسك» شاة و هو مخيّر فيها.

[فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ أي استمتع و أدّى الفرض اللازم من العمرة، و التمتّع بالعمرة إلى الحجّ هو أن ينشئ الإحرام في أشهر الحرم ثمّ يدخل إلى مكّة فيطوف بالبيت و يسعى بين الصفا و المروة و يقصّر و يحلّ من إحرامه ثمّ ينشئ إحراما آخر للحجّ من المسجد الحرام و يخرج إلى عرفات ثمّ يفيض إلى المشعر و يأتي بأفعال الحجّ على ما هو مذكور في كتب الفقه، و في بعض ذلك خلاف في الجملة بين الفقهاء ليس هاهنا موضع ذكره، و الهدي واجب على المتمتّع بلا خلاف لظاهر التنزيل لكنّ الخلاف في أنّه نسك أو جبران و عندنا أنّه نسك.

[فَمَنْ لَمْ يَجِدْ] دما و ما تمكّن منه [فعليه صيام ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِ و هذه الثلاثة يوم قبل التروية و يوم التروية و يوم عرفة و إن صام في أوّل العشر جاز رخصة و إن صام يوم التروية و يوم عرفة قضى يوما آخر بعد انقضاء أيّام التشريق و إن فاته صوم يوم التروية أيضا صام الأيّام الثلاثة بعد أيّام التشريق متتابعات [وَ سَبْعَةٍ إِذا رَجَعْتُمْ أي و سبعة أيّام إذا رجعتم إلى بلدكم و أهاليكم. و قيل: إذا رجعتم من منى فصوموا في الطريق عن مجاهد، و الأوّل هو الصحيح عندنا.

[تِلْكَ عَشَرَةٌ كامِلَةٌ] أي هذه العشرة إذا وقعت بدلا من الهدي استكملت ثوابه و هذا المعنى هو المرويّ عن أبي جعفر عليه السّلام. و قيل: المراد من قوله: «كاملة» لازالة الإبهام لئلا يتوهّم أنّ الواو في الآية بمعنى «أو» فيكون كأنّه قال: فصيام ثلاثة أيّام في الحجّ أو سبعة أيّام إذا رجعتم لأنّه إذا استعمل «أو» بمعنى الواو جاز أن يستعمل الواو بمعنى «أو» كما قال: «فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنى وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ» (1) قالوا: الواو هاهنا بمعنى «أو» فذكر ذلك لارتفاع اللبس. و قيل: إنّه إنّما قال: «كاملة» للتوكيد.

[ذلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أي هذا الحكم المذكور من التمتّع بالعمرة إلى الحجّ حسبما شرح ليس لأهل مكّة و من يجري مجراهم و إنّما هو لمن لم يكن من حاضري مكّة و أطرافها و هو من يكون بينه و بينها أكثر من اثني عشر ميلا من كلّ

1- النساء: 3.

جانب عندنا [وَ اتَّقُوا اللّٰهَ فيما يأمركم به و ينهاكم عنه [وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ شَدِيدُ الْعِقابِ لمن عصاه.

[سورة البقرة (2): آية 197]

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَ لا فُسُوقَ وَ لا جِدالَ فِي الْحَجِّ وَ ما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّٰهُ وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزّادِ التَّقْوى وَ اتَّقُونِ يا أُولِي الْأَلْبابِ (197)

. قرئ «رفث» و «فسوق» و «جدال» بالفتح. و قرأ أبو جعفر عليه السّلام بالرفع و التنوين.

[الْحَجُ بحذف المضاف أي وقت الحج لأنّ الحجّ فعل و الفعل لا يكون أشهرا أي لا حجّ إلّا في هذه الأشهر فوقته معيّنة لا يحوز فيها التغيير و التبديل بالتقديم و التأخير اللذين كان يفعلهما النساة الّذين أنزل فيهم «إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ» (1).

و أشهر الحجّ و وقته شوّال و ذو القعدة و عشر من ذي الحجّة و لا يصحّ الإحرام بالحجّ إلّا فيها و عندنا لا يصحّ أيضا الإحرام بالعمرة الّتي يتمتّع بها إلى الحجّ إلّا فيها و الاثنين قد يقع عليه لفظ الجمع و أيضا يضاف الفعل إلى الوقت و إن وقع في بعضه تقول: صلّوا يوم الجمعة، و الصلاة واقعة في بعضه.

[فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَ أي أحرم فيهنّ و شرع و دخل فيهنّ بالحجّ أو بالعمرة الّتي يتمتّع بها إلى الحجّ مثل التلبية أو تقليد الهدي مثلا أو أمرا من أموره [فَلا رَفَثَ كنّي عن الرفث بالجماع، و قيل: المراد الجماع و ما دونه كالقبلة و الغمز و التعرّض لمثل هذه الأمور بمداعبة أو مواعدة [وَ لا فُسُوقَ المراد الكذب و قيل: جميع معاصي اللّه و قيل: التنابز بالألقاب [وَ لا جِدالَ أي لجاج و خصومة و مراء لا يكون إذا دخل المحرم في آداب الحجّ و العمرة المتمتّعه بها إلى الحجّ. و الكلام و إن كان بصورة النفي و الإخبار إلّا أنّ المراد منه النهي و الإنشاء لأنّ إيقاعها خبرا على ظاهرها يستلزم الخلف في خبر اللّه لأنّها يقع في خلال الحجّ، و إنّما اخرج الكلام على صورة الإخبار للمبالغة في وجوب الانتهاء عنه كأنّ المكلّف مذعن بأنّها منهيّا عنها فاجتنب عنها.

و إنّما أمر باجتناب الفسوق و الجدال في الحجّ و هو واجب الاجتناب في كلّ حال

1- التوبة: 37.

لأنّه مع الحجّ أقبح و أشنع كلبس الحرير في الصلاة و التطريب في قراءة القرآن.

[وَ ما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ كناية عن إثابته عليه و حثّ على فعل الخير.

[وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى أي اجعلوا زادكم لمعادكم اتّقاء القبائح لا ما يتّخذ من الطعام و ذلك لأنّ زاد الدنيا يخلصك من احتياج الدنيا و عذاب منقطع و زاد الآخرة ينجّيك من عذاب دائم، و قيل في معنى الآية: وجه آخر و هو أنّ أهل اليمن كانوا لا يتزوّدون و يخرجون إلى الحجّ بغير زاد و يقولون: نحن متوكّلون و نحن نحجّ البيت أفلا يطعمنا فيكونون كلّا على الناس و إذا قدموا مكّة سألوا الناس و ربّما يفضي بهم الحال إلى التطاول و النهب و الغصب فأمر اللّه تزوّدوا ما تبتلغون به و تكفّون به وجوهكم من الكعك و الزيت و السويق و التمر و نحوها و اتّقوا الاستطعام و إبرام الناس و التثقيل عليهم [فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى من السؤال و النهب.

[وَ اتَّقُونِ يا أُولِي الْأَلْبابِ فإنّ اقتضاء اللبّ و العقل خشية اللّه و عدم عصيانه.

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 198]

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرامِ وَ اذْكُرُوهُ كَما هَداكُمْ وَ إِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (198)

. «الجناح» الحرج في الدين و هو الميل عن الطريق المستقيم أي ليس عليكم إثم و لا بأس في أن تقصدوا و تطلبوا رزقا و ربحا بالتجارة في الحجّ و كانوا يتأثّمون بالتجارة في الحجّ فنزلت أنّه لا إثم في هذا الأمر بشرط أن لا تكون التجارة منافية للإخلاص لقوله: «وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» (1).

[فَإِذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ الهمزة في أفضتم للتعدية و المفعول محذوف أي دفعتم أنفسكم منها و دفعتم من عرفات إلى المزدلفة بالاجتماع و الكثرة، و الإفاضة لا تكون إلّا عن تفرّق عن كثرة.

و «عرفات» اسم للمكان المعروف بحسب الوقوف بها في الحجّ و سمّيت بها لأنّ آدم و حوّاء اجتمعا فيها فتعارفا بعد أن كانا افترقا. و قيل: سمّيت بعرفات لارتفاعها و علوّها و

1- البينة: 5.

منه عرف الديك. و قيل: في وجه التسمية بعرفة لأنّ إبراهيم لمّا رأى في المنام أنّه أمر بذبح ولده فأصبح يروّي يومه أجمع و يفكّر أهو أمر من اللّه أم لا؟ فسمّي يوم التروية ثمّ رأى في الليلة الثانية فلمّا أصبح عرف أنّه من اللّه فسمّي عرفة. و قيل: إنّ جبرئيل قال لآدم: هناك اعترف بذنبك و اعرف مناسكك فقال: «رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا» (1) الآية فلذلك سمّيت عرفة، و المشعر الحرام هو المزدلفة سمّيت مشعرا لأنّه معلم للحجّ و الصلاة و المبيت به.

«و الشعائر» العلامات من الشعار و هو العلامة و إنّما سمّي المشعر مزدلفة؛ لأنّ جبرئيل قال لإبراهيم بعرفات: ازدلف إلى المشعر الحرام.

[فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرامِ و في هذا دلالة على أنّ الوقوف بالمشعر فريضة لأنّ ظاهر الأمر على الوجوب و قد أوجب اللّه الذكر فيه و لا يجوز أن يوجب الذكر فيه إلّا و قد أوجب الكون فيه و حاصل الكلام: إذا أفضتم من عرفات فكونوا بالمشعر و اذكروا اللّه فيه بالتلبية و التهليل و التسبيح و التحميد و الثناء و الدعوات، و وصفه بالحرام لحرمته فلا يفعل فيه ما نهي عنه.

[وَ اذْكُرُوهُ كَما هَداكُمْ كما علّمكم كيف تذكرونه على وجه التضرّع و الخيفة و الطمع. و المقصود من الكاف التقييد لا التشبيه أي اذكروه على الوجه الّذي هداكم إليه و لا تعدلوا عمّا هديتم إليه كما تقول: افعل كما علّمتك. و ليس هذا تكرارا لقوله:

«فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرامِ» لأنّ الأوّل لبيان محلّ الذكر و الوقوف و تعليم النسك لذلك المحلّ.

[وَ إِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ و «إن» مخفّفة و اللام هي المفارقة، من قبل هدايته إيّاكم و قيل:

أي من قبل محمّد صلّى اللّه عليه و آله فتكون الهاء كناية عن غير مذكور [لَمِنَ الضَّالِّينَ عن الدين و الشريعة فهداكم إليه.

[سورة البقرة (2): آية 199]

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفاضَ النَّاسُ وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (199)

. قيل: إنّ المراد به الإفاضة من عرفات و إنّه أمر لقريش و حلفائها و هم الخمس لأنّهم كانوا لا يقفون مع الناس بعرفة و لا يفيضون منها و يقولون: نحن أهل حرم اللّه فلا

1- الأعراف: 23.

نخرج منه و كانوا يقفون بالمزدلفة و يفيضون منها فأمر اللّه بالوقوف بالعرفة و الإفاضة منها كما يفيض الناس و المراد بالناس سائر العرب و هو المرويّ عن الباقر عليه السّلام و جماعة مثل ابن عبّاس و عطا و أنّه تعالى أمر لجميع الحاجّ أن يفيضوا من حيث أفاض إبراهيم و لمّا كان إبراهيم قدوة و إماما للناس كان بمنزلة الأمّة فسمّاه اللّه ناسا وحده. و القول الثاني في معنى الآية أنّ المراد به الإفاضة من المزدلفة إلى منى يوم النحر قبل طلوع الشمس للرمي و النحر و قيل أقوال أخر في معنى الناس؛ قالوا: المراد آدم و قيل: المراد أهل اليمن و قيل: العلماء الّذين يعلّمون الناس.

[وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ و اطلبوا المغفرة منه [إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ كثير المغفرة و الرحمة و ينبغي أن يجتهد الحاجّ بعد رجوعه إلى وطنه و بعد أن نظفت صحيفة عمله من الذنوب بالغفران أن لا يدرن ثوبه بوسخ المعاصي.

في تفسير روح البيان: و في الحديث إنّ من الذنوب ذنوبا لا يكفرها إلّا الوقوف بعرفات. و في الحديث: أعظم الناس ذنبا من وقف بعرفة فظنّ أنّ اللّه لا يغفر له.

[سورة البقرة (2): آية 200]

فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا وَ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ (200)

. أي إذا أدّيتم و فرغتم من أداء أفعال الحجّ و أتممتم عباداتكم الّتي أمرتم بها [فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ و اختلف في «الذكر» على قولين أحدهما أنّ المراد التكبير المختصّ بأيّام منى لأنّه الذكر المرغّب فيه المندوب في هذه الأيّام و الآخر أنّ المراد مطلق الأدعية مثل [ذكركم آباءَكُمْ و ذلك لأنّهم كانوا في الجاهليّة إذا قضوا مناسكهم وقفوا بين المسجد و الجبل و هو قزح اسم جبل بالمشعر و يذكرون مفاخر آبائهم و محاسن أيّامهم القديمة فأمرهم اللّه أن يذكروه مكان ذكرهم آباءهم في هذا الموضع.

[أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً] و يزيدون على ذلك بأن يذكروا نعم اللّه و يعدّوا آلاءه و يشكروا نعماءه لأنّه تعالى هو المنعم حقيقة بتلك المآثر و قيل: معناه فاستغيثوا باللّه و التجئوا إليه كما يفزع الصبيّ إلى أبيه في جميع أوقاته و أموره و يلهج بذكره فيقول: يا أبت و الأوّل أصحّ.

[فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا وَ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ بيّن سبحانه

أنّ الناس في تلك المواطن أصناف فمنهم من يسأل نعيم الآخرة لأنّه غير مؤمن بالبعث و النشور و ماله في الآخرة من نصيب.

[سورة البقرة (2): آية 201]

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَ قِنا عَذابَ النَّارِ (201)

. و من الناس أي المؤمنين يطلبون نعيم الدنيا و الآخرة و روي عن الصادق عليه السّلام أنّها السعة في الرزق و المعاش و حسن الخلق في الدنيا و رضوان اللّه و الجنّة في الآخرة. و قيل: العلم و العبادة في الدنيا و الجنّة في الآخرة. و قيل: هي المال في الدنيا و الجنّة في الآخرة. و قيل:

هي المرأة الصالحة في الدنيا و في الآخرة الجنّة. قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: من اوتي قلبا شاكرا و لسانا ذاكرا و زوجة مؤمنة تعينه على أمر دنياه و آخرته فقد اوتي في الدنيا حسنة و في الآخرة حسنة [وَ قِنا عَذابَ النَّارِ] و يطلبون الوقاية عن عذاب جهنّم.

[سورة البقرة (2): آية 202]

أُولئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ (202)

. إشارة إلى الفريق الثاني و هم الداعون بالحسنيين لهم حظّ عظيم من جنس ما كسبوا من الأعمال الحسنة أو من أجل ما كسبوا بسبب أعمالهم فيكون «من» ابتدائيّة [وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ و «الحساب» يراد به الجزاء على الأعمال فإنّ الحساب سبب الأخذ و الإعطاء و إطلاق اسم السبب على المسبّب شايع أي يحاسب العباد على كثرة أعمالهم في لمحة واحدة لعدم احتياجه إلى نظر و فكر فليحذر الإنسان من الإخلال بطاعة من هذا شأن قدرته و يوشك أن تقوم القيامة و يحاسب بعمله.

قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: أغبط أوليائي عندي مؤمن خفيف المؤونة ذو حظّ من الصلاة، أحسن عبادة ربّه و أطاعه في البرّ، و كان غامضا في الناس لا يشار إليه بالأصابع و كان رزقه كفافا فصبر على ذلك ثمّ نقر بيده فقال: هكذا عجلت منيّته قلّت بواكيه و قلّ تراثه.

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 203]

وَ اذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَ مَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقى وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (203)

. هذا أمر من اللّه للمكلّفين أن يذكروه في أيّام معدودات و هي أيّام التشريق ثلاثة أيّام بعد النحر. و الأيّام المعلومات عشر ذي الحجّة، عن ابن عبّاس و أكثر أهل التفسير و هو المرويّ عن أئمّتنا لكنّ الفرّاء قال بالعكس.

و الـذكر المأمور به في الآية هو أن يقول: عقيب خمس عشـر صـلاة: «اللّه أكبر اللّه أكبر لا إله إلّا اللّه و اللّه أكبر اللّه أكبر و للّه الحمد اللّه أكبر على ما هـدانا و الحمـد للّه على ما أولانا و اللّه أكبر على ما رزقنا من بهيمـة الأنعام» و أوّل التكبير عندنا عقيب الظهر من يوم النحر و آخره عقيب صـلاة الفجر من اليوم الرابع من النحر هذا لمن كان بمنى، و من كان بغير منى من الأمصار يكبّر عقيب عشـر صلاة أوّلها صلاة الظهر من يوم النحر أيضا هذا هو المرويّ عن الصادق عليه السّلام و في ذلك اختلاف بين الفقهاء.

[فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ أي اسـتعجل و طلب الخروج من منى في تمام يومين بعـد يوم النحر، و في الآية بيان الرخصة في جواز النفر في اليوم الثـاني من أيّـام التشـريق و الأفضل أن يقيم إلى النفر الأخير و هو الثالث من التشـريق و إذا نفر في الأوّل نفر بعـد الزوال إلى غروب الشمس؛ فإن غربت فليس له أن ينفر إلى اليوم الثالث «فلا إثم عليه» فيه قولا ن:

أحدهما أنّ معناه لا إثم عليه بعد إعمال هذه الأعمال؛ لأنّ سيّئاته صارت مكفّرة بما كان من حجّه المبرور و هو قول ابن مسعود.

و الثاني أنّ معناه لا إثم عليه في التعجيل و التأخير و إنّما نفى الإثم لئلّا يتوهّم أنّ في التعجيل إثما.

[لِمَنِ اتَّقى فيه قولاـن أحـدهما أنّ الحـجّ يقع مبرورا يكفّر السـيّئات إذا اتّقى ما نهى اللّه عنه، و الآخر ما رواه أصـحابنا أن قوله: «لمن اتّقى» متعلّق بالتعجيـل في يومين و تقـديره: فمن تعجّـ ل في يومين فلا إثم عليه لمن اتّقى الصـيد و المناهي إلى انقضاء النفر الأخير و ما بقي من إحرامه و من لم يتّق المناهي فلا يجوز له النفر في الأوّل و قـد روي أيضا عن أبي عبد اللّه عليه السّـ لام في قوله: «فمن تعجّل في يومين» أي من مات في هـذين اليومين فقـد كفّر عنه كلّ ذنب و من تأخّر أجله فلا إثم عليه إذا اتّقى الكبائر [وَ اتَّقُوا اللَّهَ أي اجتنبوا المعاصـي [وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَـ رُونَ و بعـد مـوتكم تجمعـون إلى الموضع الّـذي يحكم اللّه فيه بينكم فينبغي أنّكم حـال الاشـتغال بأعمـال الحـجّ و بعـده تحترزون عن معاصي اللّه ليعتدّ بأعمالكم فإنّ المعاصي يأكل الحسنات عند الموازنة فإن علم بالحشر

و المحاسبة كان ذلك من أقوى الدواعي إلى ملازمة التقوى و كانوا إذا رجعوا من الحجّ يجترءون على اللّه بالمعاصي فشدّد في تحذيرهم.

قال أبو العالية: يجي ء الحاجّ يوم القيامة و لا إثم عليه إذا اتّقى فيما بقي من عمره فلم يرتكب ذنبا بعد ما غفر له في الحجّ لكنّ المذنب المصرّ إذا حجّ فلا يقبل منه لعوده إلى ما كان عليه فعلامة الحجّ المبرور أن يرجع زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة كما حجّ إبراهيم أدهم مع رفيقه الصالح من بلخ و لمّا رجع من حجّه زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة و خرج عن ملكه و ماله و أهله و عشيرته و بلاده و قطع العلائق و اختار بلاد الغربة و قنع بالأكل من عمل يده إمّا من الحصاد أو من بطارة البساتين، و كيف لا و الحرّ الكريم لا ينقض العهد عمل يده إمّا من الحصاد أو من بطارة البساتين، و كيف لا و الحرّ الكريم لا ينقض العهد القديم؟ و ممّا يجب على الحاجّ اتّقاؤه المحارم و أن يجعل نفقته من كسب الحرام فإنّ اللّه لا يقبل إلّا الطيّب إذا حججت بمال أصله دنس فما حججت و لكن حجّت العير.

و في الحديث من حجّ بيت اللّه من كسب الحلال لم يخطّ خطوة إلّا كتب اللّه له بها سبعين حسنة و حطّ عنه سبعين خطيئة و رفع له سبعين درجة.

و حكي بعض من حجّ أنّه توفّي في الطريق في رجوعه فدفنه أصحابه و نسوا الفأس في قبره فنبشوه ليأخذوا الفأس فإذا عنقه و يداه قد جمعتا في حلقة الفأس فردّوا عليه التراب ثمّ رجعوا إلى أهله فسألوهم عن حاله فقالوا: صحب رجلا فأخذ ماله فكان يحجّ منه.

و الأولى له أنّه إذا أراد أن يحجّ بعد تصفية أمواله من حقوق اللّه و حقوق الخلق و إصلاح امور دينه بالتدارك و التوبة أن يستدين للحجّ نفقته ثمّ يقضي دينه من ماله كما كان يفعله بعض أهل التوبة و المعذرة و أصل الكلمة من العذرة و هي النجاسة تقول: عذرت الصبيّ إذا طهرته عن النجاسة و لا يقاوم غير الغضب و الغلبة بدل الاعتذار.

[سورة البقرة (2): الآيات 204 الى 205]

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يُشْهِدُ اللَّهَ عَلى ما فِي قَلْبِهِ وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ (204) وَ إِذا تَوَلَّى سَعى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ (205)

قيل: نزلت الآية في الأخنس بن شريق كان يظهر الجميل بالنبيّ و المحبّة له و الرغبة

في دينه و يبطن خلاف ذلك و الآية تعمّ كلّ منافق و مرائي أي و بعض الناس تستحسن ظاهر قوله، و تعدّه حسنا مقبولا يقال: أعجبني كذا أي ظهر لي ظهورا لم أعرف سببه [فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا] بحلاوة كلامه و عذوبة لفظه و فصاحته لا في الآخرة لأنّه في الآخرة يظهر كذبه [وَ يُشْهِدُ اللَّهَ عَلى ما فِي قَلْبِهِ أي يقول اللّه: شاهد و مطّلع على قلبي من المودّة لك و الإسلام [وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ أي أشدّ في العداوة و الخصومة للمسلمين على أنّ «الخصام» مصدر كالقتال و الجدال و إضافة «الألدّ» إليه بمعنى «في» و اللدد شدّة الخصومة؛ تقول:

لدّ يلدّ لدودا و لدّه يلدّه إذا غلبه في الخصومة. و قيل: «الخصام» جمع الخصم أي أشدّ الخصماء.

[وَ إِذا تَوَلَّى أي ملك الأمر و صار واليا و تولّى سلطنة جار و [سَعى فِي الْأَرْضِ و أسرع في المشي للفساد و سفك الدماء و قطع الرحم و يعمل المعاصي [وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ الزرع و الأولاد و قيل: الحرث النساء و النسل الأولاد قال الصادق: الحرث في الآية هاهنا الدين و النسل الناس و قيل: معنى قوله: [وَ إِذا تَوَلَّى أي إذا أدبر و انصرف عن حضورك و مجلسك [وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ] أي لا يحبّ عمل الفساد و أهل الفساد و لا يرتضيه و يغضب على من يعاطاه كما فعله الأخنس بثقيف إذ بيّتهم أي أتاهم ليلا و أهلك مواشيهم و ذرعهم لأنّه كان بينه و بينهم عداوة أو كما يفعله الولاة بالقتل و الظلم و الإتلاف حتّى يمنع اللّه بشؤمه القطر فيهلك الحرث و النسل.

و في الحديث: يجاء بالوالي يوم القيامة فينبذ به على جسر جهنّم فيرتج به الجسر ارتجاجة لا يبقى منه مفصل إلّا زال عن مكانه فإن كان مطيعا للّه في عمله مضى و إن كان عاصيا انخرق به الجسر فيهوي به في جهنّم مقدار خمسين عاما.

و في قوله تعالى: «وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ» صراحة على بطلان قول المجبرة بأنّ اللّه يريد القبائح لأنّه نفي عن نفسه محبّة الفساد و المحبّة هي الإرادة لأنّ كلّ ما أحبّ أن يكون فقد أراد أن يكون.

قوله: [سورة البقرة (2): آية 206]

وَ إِذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَ لَبِئْسَ الْمِهادُ (206)

. بيّن صفة المفسدين و المنافقين [وَ إِذا قِيلَ لَهُ خف اللّه في صنعك السوء و اترك ما تباشره في الفساد و النفاق [أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ و حملته الأنفة الّتي فيه و حميّته الجاهليّة و العناد على الإثم و الذنب الّذي نهي [فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ مبتدأ و خبر أي كافيه دخول النار و الخلود فيها [وَ لَبِئْسَ الْمِهادُ] اللّام موطّئة للقسم أي و اللّه بئس الفراش جهنّم قال ابن مسعود: إنّ من الذنوب الّتي لا تغفر أن يقال للعبد: «اتّق اللّه» فيقول: عليك نفسك. و في نسخة من أكبر الذنوب عند اللّه أن يقال للعبد: «اتّق اللّه» و هو يقول: عليك نفسك.

[سورة البقرة (2): آية 207]

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ (207)

. «الشراء» من الأضداد؛ شرى باع و شرى إذا اشترى كقوله: «و شروه بثمن بخس» أي باعوه أي و من الناس من يبيع نفسه و يبذلها في طاعة اللّه في الجهاد و الصلاة و الزكاة و الحجّ و توصل بذلك إلى ثواب اللّه [ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ طلبا لرضاه [وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ] و من جملة رأفته بعباده أنّ ما اشتراه منهم من أنفسهم و أموالهم إنّما هو خالص ملكه و حقّه فيشتري منهم ملكه الخاصّ المحصور بما لا يعدّ و لا يحصى من ثوابه و فضله.

روى السدّيّ عن ابن عبّاس قال: نزلت هذه الآية في عليّ بن أبي طالب حين خرج النبيّ صلّى اللّه عليه و آله من مكّة إلى الغار و نام عليّ على فراش النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و نزلت الآية بين مكّة و المدينة و إنّه عليه السّلام لمّا نام عليّ فراشه قام جبرئيل عند رأسه و ميكائيل عند رجليه و جبرئيل ينادي بخ بخ من مثلك يا ابن أبي طالب يباهي اللّه بك الملائكة.

و قال عكرمة: نزلت الآية في أبي ذرّ الغفاريّ و جندب بن السكن و صهيب بن سنان لأنّ أهل أبي ذر أخذوا أبا ذر فانفلت منهم فقدم على النبيّ و أمّا صهيب بن سنان الروميّ خرج من مكّة يريد الهجرة إلى النبيّ صلّى اللّه عليه و آله بالمدينة و هو ابن مائة سنة أتبعه نفر من مشركي قريش و قتلوا نفرا كانوا معه و كان معه كنانة فيها سهامه و كان راميا مصيبا فقال: يا معشر قريش لقد علمتم أنّي من أرماكم رجلا و اللّه لا أضع سهمي إلّا في قلب رجل و أيم اللّه لا تصلون إليّ حتّى أرمي بكلّ سهم في كنانتي ثمّ أضرب بسيفي ما بقي في يدي ثمّ افعلوا ما شئتم و لن ينفعكم كوني فيكم فإنّي شيخ كبير ولي مال في داري بمكّة فارجعوا و خذوه

و خلّوني و ما أنا عليه من الإسلام ففعلوا و سار هو إلى المدينة و قدم على النبيّ صلّى اللّه عليه و آله.

و قيل: إنّ المراد بالآية الرجل الّذي يقتل على الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و الآية تعمّ لكلّ مجاهد في سبيل اللّه.

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 208]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (208)

. [يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا] بألسنتهم على أنّ الخطاب للمنافقين [ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً] و استسلموا للّه ظاهرا و باطنا و «كافّة» حال من ضميرا دخلوا يؤكّد معنى العموم في حيّز الجمع؛ فإنّ قولك: جاء القوم كافّة أي كلّهم. و تاء كافّة و عامّة و قاطبة ليست للتأنيث و إن كانت تدلّ على التأنيث باعتبار الجماعة بل إنّما دخلت لمجرّد كون الكلمة منقولة إلى معنى كلّ و جميع.

و قيل: إنّ الخطاب ليس للمنافقين و الخطاب لمؤمني أهل الكتاب مثل عبد اللّه بن سلام و أصحابه لأنّهم كانوا يتمسّكون ببعض شرائع التوراة مثل تعظيم البيت و تحريم لحم الإبل و ألبانها و أشياء كانوا يرون الكفّ عن ذلك مباحا في الإسلام و إن كان واجبا في شريعتهم فثبتوا على ذلك مع اعتقادهم حلّها استيحاشا من مفارقة العادة و قالوا: يا رسول اللّه إنّ التوراة كتاب اللّه فدعنا نقرأ منها في صلاتنا بالليل فقال صلّى اللّه عليه و آله: لا تتمسّكوا بشي ء ممّا نسخ و دعوا ما ألفتموه و لا تستوحشوا من النزوع عنه فإنّه لا وحشة مع الحقّ و إنّما هو من تزيين الشيطان.

[وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ و لا تسلكوا مسالكه [إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ظاهر العداوة يريد أن يفسد عليكم بهذه الوساوس إسلامكم.

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 209]

فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْكُمُ الْبَيِّناتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (209)

. «الزلل» يستعمل في العدول عن الاعتقاد الحقّ و العمل الصائب أي أخطأتم الحقّ علما أو عملا من بعد الحجج و الشواهد على ما ادّعيتم إلى الدخول فيه هو الحقّ [فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غالب في الانتقام [حَكِيمٌ فيما شرّع من الأحكام و فيما يفعله بكم من العقاب بعد إقامة الحجّة عليكم.

[سورة البقرة (2): آية 210]

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَ الْمَلائِكَةُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (210)

. استفهام في معنى النفي و «نظر» بمعنى انتظر أي ينتظر من يترك الدخول في السلم إلّا إتيان اللّه على حذف المضاف أي أمر اللّه و عذابه لأنّه منزّه عن المجيء و الذهاب المستلزمين للحركة و السكون أي ينتظر هؤلاء أن يأتيهم ما توعّدهم به على معصيته في ستر و قطع من السحاب «و الغمام» السحاب الأبيض الرقيق سمّي غماما لأنّه يستر و «الظلل» عبارة عن قطع متكاثفة عظيمة متراكمة و [الْمَلائِكَةُ] أي و يأتيهم الملائكة فإنّهم وسائط أمره و هم الآتون بأسه. و حاصل المعنى أن قد قامت الحجّة فلم يبق إلّا نزول العذاب.

[وَ قُضِيَ الْأَمْرُ] أي أتمّ أمر إهلاكهم و هو عطف على «يأتيهم» داخل في حيّز الانتظار و إنّما عبّر بصيغة الماضي دلالة على الحقيقة فكأنّه قد كان [وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ] امور الخلق و أعمالهم، هو الحاكم بينهم يوم القيامة لا غيره.

و عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله قال: إنّ اللّه أظهر الشكاية من أمّتي و قال: إنّي طردت الشيطان لأجلهم فهم يعصونني و يطيعون الشيطان فمن أعظم الطاعات طرد الشيطان و أن يتّهم الإنسان نفسه دائما كما روي أنّ رجلا صام أربعين سنة في سالف الزمان ثمّ دعا الحاجة و مع ذلك لم تجب دعوته فذمّ نفسه فقال: يا مأوى الشرّ ذلك من شؤمك و شرّك فأوحى اللّه إلى نبيّ ذلك الزمان: قل له: إنّ مقتك لنفسك أحبّ إليّ من صيام أربعين سنة.

قوله: [سورة البقرة (2): آية 211]

سَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ كَمْ آتَيْناهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَ مَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (211)

. [سَلْ يا محمّد أولاد يعقوب و هم اليهود الّذين كانوا حول المدينة و المراد علماؤهم و هو سؤال تقرير لتأكيد الحجّة عليهم [كم آتينا] آباءهم و أسلافهم من معجزة ظاهرة على أيدي أنبيائهم كالعصا و البيضاء و إنزال المنّ و السلوى و كم من حجّة واضحة في كتابهم لمحمّد في صدق نبوّته.

و في الكلام حذف و تقديره فبدّلوا نعمة اللّه و كفروا بآياته و خالفوه فضلّوا و أضلّوا و من يبدّل الشكر عليها بالكفران و يصرف أدلّة اللّه و آياته عن وجوهها بالتأويلات و التحريفات الفاسدة بعد ما وقفوا على تفاصيلها [فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ .

و في الآيـة دليـل على فسـاد قول المجبّرة حيث إنّه سـبحانه أضاف التبـديل إليهم و أوعـدهم على التبـديل بالعقوبـة فلو لم يكن فعلهم لما استحقّوا العقوبة و المراد أنّ حال منافقي قومك و تحريفهم كحال من قبلك من المجرمين.

قوله: [سورة البقرة (2): آية 212]

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَياةُ الدُّنْيا وَ يَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (212)

. نزلت الآية في رؤساء قريش بسطت لهم الدنيا و كانوا يسخرون من فقراء المؤمنين مثل عبد اللّه بن مسعود و عمّار و بلال و يقولون: لو كان محمّد صلّى اللّه عليه و آله نبيّا لاتّبعه أشرافنا. و قيل:

نزلت في عبد اللّه بن ابيّ و أصـحابه يسـخرون من ضـعفاء المؤمنين. و قيل: نزلت في رؤساء اليهود سخروا من فقراء المهاجرين. و لا مانع من نزولها في جميعهم فبيّن سبحانه أنّ عدول هؤلاء عن الإيمان إنّما هو لإيثارهم الحياة الدنيا فقال:

[زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَياةُ الدُّنْيا] و فيه قولان: أحدهما أنّ الشيطان زيّنها لهم و قوّى دواعيهم و حسّن لهم فعل القبيح، و أمّا اللّه لا يجوز أن يكون المزيّن لهم إيّاها لأنّه أمرهم بالزهـد فيها و قال: إنّها متاع الغرور، و قال: متاع قليل. و الآخر أنّ المزيّن هو اللّه بأن خلق فيها الأشياء المحبوبة من حيث الخلق و الإيجاد و بما خلق لهم من الشـهوة؛ و إنّما كان كذلك لأنّ التكليف لا يتمّ إلّا مع الشـهوة و ما من شـي ء من القبائح إلّا و هو سبحانه منعه و استناده إلى اللّه يكون بهذا العنوان إذ لا يكلّف الإنسان إلى شي ء تتوق نفسه إليه و يدعى إلى شي ء تنفر عنه نفسه و يزجر منه. و ذكّر الفعل مع أنّ الحياة مؤنّث لأنّها غير حقيقيّ و هو بمعنى العيش و البقاء [وَ يَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا] أي يستهزئون بالفقراء.

[وَ الَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ] أي الّذين اجتنبوا الكفر فوق الكفّار في الـدرجات و تمتّعهم بنعيم الآـخرة أكثر من اسـتمتاع هؤلاـء في الآخرة و حالهم فوق هؤلاء الكفّار لأنّهم في علّيّين و هؤلاء في سـجّين كقوله: «أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا» (1) و قيل: المعنى أنّ حـال المؤمنين في الاسـتهزاء بالكفّار و الضـحك منهم في الآـخرة فوق حـال هؤلاـء في الـدنيا مثـل قوله: «فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ» (2) لأنّهم في أوج الكرامة و هم في

1- الفرقان: 24.

2- المطففين: 34.

حضيض الذلّ و المهانة فتكون الفوقيّة مجازا.

[وَ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ لأنّه لا يخاف نفاد ما عنده. حكي أنّ عيسى سافر و معه يهوديّ فكان مع عيسى ثلاث أقراص فأعطاها اليهوديّ و قال له: احفظها ثمّ بعد ساعة أكل اليهوديّ واحدا منها فقال عيسى: هات الأقراص فقدّم القرصين فقال: أين ثالثها؟ فقال اليهوديّ: لم تكن أكثر من هذا، فمشيا حتّى شاهد من عيسى عجائب فأقسم عيسى لذلك حتّى يقرّ بالقرص الثالث فلم يقرّ فلحقا بثلاث لبنات من الذهب في الطريق فقال اليهوديّ: يا عيسى اقسم ذلك. فقال عيسى: واحدة لي و واحدة لك و واحدة لمن أكل القرص الثالث، فقال اليهوديّ: أنا أكلت القرص الثالث. فقال عيسى: ابعد عنّي فقد شاهدت قدرة اللّه و لم تقرّ به و الآن قد أقررت بالدنيا فترك عيسى اللبنات عند اليهوديّ و مشى و جاء ثلاثة من اللصوص و قتلوا اليهوديّ و أخذوا اللبنات ثمّ بعثوا من جملتهم واحدا ليأتي لهم بالطعام فلمّا غاب عنهما تشاورا في قتله و قالا: إذا رجع قتلناه و أخذنا نصيبه. فذهب الرجل و اشترى سمّا فطرحه في الطعام الّذي اشتراه حتّى يأكل ذلك الطعام صاحباه فيموتا و يأخذ اللبنات الثلاثة، فلمّا قدم عليهما و أتى بالطعام قاما و قتلاه ثمّ أكلا الطعام فماتا ثمّ عبر عليهم عيسى عليه السّلام فوجد اليهوديّ و هؤلاء الثلاثة مقتولين فتعجّب من ذلك فنزل جبرئيل و أخبره بالقصّة.

و مثل الحياة الدنيا و الحرص عليها مثل اللبنات فلا تكن أيّها العاقل يهوديّا و لا لصّا، بل كن عيسى زمانك فلحلالها حساب و لحرامها عقاب و لمشبوهاتها عتاب، و اترك الدنيا و خالف نفسك الخبيثة ترزق بغير حساب.

[سورة البقرة (2): آية 213]

كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (213)

. بيّن سبحانه أحوال من تقدّم من الكفّار تسلية للنبيّ صلّى اللّه عليه و آله.

أي [كانَ النَّاسُ على دين واحد و جماعة واحدة متّفقين في الإيمان و اتّباع الحقّ من

وقت آدم إلى مبعث نوح و كان بينهما عشرة قرون كلّ قرن ثمانون سنة عند الأكثر (1) [فَبَعَثَ اللّٰهُ النَّبِيِّينَ و قال قوم: إنّهم كانوا على الكفر و هو المرويّ عن ابن عبّاس و جماعة ثمّ اختلفوا في أيّ وقت كانوا كفّارا؛ فقيل: كانوا كفّارا بين آدم و نوح. و قيل: كانوا كفّارا بعد نوح إلى أن بعث اللّه إبراهيم و النبيّين بعده.

فإن قيل: كيف يجوز أن يكون الناس كلّهم كفّارا و اللّه لا يجوز أن يخلي الأرض من حجّة له على خلقه؟

فالجواب: يجوز أن يكون الحقّ في واحد أو جماعة قليلة لم يمكنهم إظهار الدين خوفا فلم يعتدّ بهم إذ كانت الغلبة للكفّار.

قال الواقديّ و الكلبيّ: المؤمنون كانوا أهل السفينة حين غرق اللّه الخلق. قال مجاهد: المعنى كان آدم على الحقّ إماما لذرّيّته فبعث اللّه النبيّين.

و روي عن أبي جعفر الباقر عليه السّلام أنّه قال: كانوا قبل نوح امّة واحدة على فطرة اللّه لا مهتدين و لا ضلالا فبعث اللّه النبيّين (2) فالمعنى على هذا أنّهم متعبّدين بما في عقولهم من غير نبوّة و لا شريعة.

ثمّ بعث اللّه النبيّين بالشرائع لما علم أنّ مصالحهم فيها فأرسل اللّه النبيّين [مُبَشِّرِينَ لمن أطاعهم بالجنّة [وَ مُنْذِرِينَ لمن عصاهم بالنار [وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِ أي أنزل مع كلّ واحد منهم الكتاب و أراد به مع بعضهم لأنّه لم ينزل مع كلّ نبيّ كتاب. و قيل:

المراد به الكتب لأنّ الكتاب اسم الجنس فمعناه الجمع. بالحقّ و الصدق و العدل أو بيان الحقّ.

[لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ الضمير في «يحكم» يرجع إلى اللّه أي ليحكم اللّه منزل الكتاب. و قيل: الضمير راجع إلى الكتاب [فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ قبل إنزال الكتاب.

[وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ أي و ما اختلف في الحقّ إلّا الّذين اعطوا العلم به كاليهود فإنّهم كتموا صفة النبيّ بعد ما اعطوا العلم بعلائمه

1- و المعروف في اللغة: مائة سنة. و قال الراغب: هو القوم المقترنون في زمان واحد.

2- مجمع البيان 2: 307 و مثله في البرهان 1: 209- 210 بأسانيد.

و بصفاته من بعد الأدلّة و الحجج الواضحة في التوراة و الإنجيل. و قيل: معجزات محمّد صلّى اللّه عليه و آله [بَغْياً بَيْنَهُمْ أي ظلما و حسدا و طلبا للرياسة.

[فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ لأنّهم اختصّوا بالاهتداء و معنى «بإذنه» بعلمه و قيل: أي بلطفه. فعلى هذا يكون في الكلام محذوف أي فاهتدوا بإذنه [وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ فيه أقوال: أحدها أنّ المراد البيان و الدلالة، و الصراط المستقيم هو الإسلام و خصّ به المكلّفين دون غيرهم ممّن لا يحتمل التكليف.

و ثانيها أنّ المراد به يهديهم باللطف فيكون خاصّا بمن علم عن حاله أنّه يصلح به. و ثالثها يهديهم إلى طريق الجنّة فيكون مخصوصا بالمؤمنين لا يضلّ سالكه.

[سورة البقرة (2): آية 214]

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرَّاءُ وَ زُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (214)

. «أم» منقطعة معناه «بل» و الهمزة للإنكار أي بل حسبتم أن تدخلوا الجنّة أي لا ينبغي أن تظنّوا و تحسبوا ذلك [وَ لَمَّا يَأْتِكُمْ و الحال لم يجئكم [مَثَلُ الَّذِينَ (خَلَوْا) مِنْ قَبْلِكُمْ وصف الذين مضوا من قبلكم من الأنبياء و من معهم من المؤمنين، أي و لم تبتلوا بعد بما ابتلوا به من الأحوال الهائلة الّتي هي في شدّة و الفظاعة صارت مثلا [مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرَّاءُ] كأنّه قيل: كيف كان مثلهم و حالهم العجيبة فقيل مسّتهم الفاقة و الخوف و الضرّاء أي الآلام و الأمراض.

[وَ زُلْزِلُوا] و ازعجوا إزعاجا شديدا بما أصابهم من الشدائد.

[حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ أي انتهى أمرهم في الشدّة إلى حيث اضطرّهم الأمر الدعاء للّه لقرب الفرج و النصر. و لا يجوز أن يكون المعنى على جهة الاستبطاء بأن يقولوا: [مَتى نَصْرُ اللَّهِ لأنّ الرسول يعلم أنّ اللّه لا يؤخّر وعده، و المراد أنّكم ما امتحنتم بمثل ما امتحنوا فتصبروا كما صبروا. و في الآية تسلية لنبيّه و لأصحابه في ما نالهم من المشركين و أمثالهم.

ثمّ أخبر اللّه سبحانه أنّه ناصر أوليائه لا محالة فقال: [أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ و قيل

إنّ هـذا من كلامهم بأنّهم قالوا: «متى نصـر اللّه» ثمّ تفكّروا فعلموا أنّ اللّه منجز وعده فقالوا: «ألا إنّ نصـر اللّه قريب» و قيل: إنّه ذكر جملة كلام الرسول و المؤمنين ثمّ فصّل قال المؤمنون: «متى نصـر اللّه» و قال الرسول «ألا إنّ نصـر اللّه قريب» كقوله: «جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» (1) و هذا المعنى أنسب (2).

قوله: [سورة البقرة (2): آية 215]

يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلْ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ وَ ما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (215)

. نزلت في عمرو بن الجموح و كان شيخا كبيرا ذا مال كثير فقال: يا رسول اللّه ماذا ننفق من أموالنا و أين نضعها؟ [يَسْئَلُونَكَ يا محمّد أيّ شي ء ينفقون و السؤال عن الانفاق يتضمّن السؤال عن المنفق عليه [قُلْ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ] أي أيّ شي ء أنفقتم من أيّ خير كان، و المال يسمّى «خيرا» لأنّ حقّه أن يصرف إلى جهة الخير فصار بذلك كأنّه نفس الخير [فَلِلْوالِدَيْنِ بيان المصرف [وَ الْأَقْرَبِينَ وَ الْيَتامى و المراد «بالوالدين» الأب و الأمّ و الجدّ و الجدّة و إن علوا لأنّهم يدخلون في اسم الوالدين و المراد «بالأقربين» أقارب المعطي «و اليتامى» أي كلّ من لا أب له مع صغره المحتاجين [وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ المنقطع به.

و اختلفوا في هذه النفقة قيل: المراد به نفقة التطوّع. و قيل: هي عامّة في الزكاة المفروضة و التطوّع و إنّما لم تتعرّض للسائلين و الرقاب إمّا اكتفاء بما ذكر في المواقع الآخر و إمّا بناء على دخولهم تحت عموم قوله تعالى [وَ ما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ] فإنّه شامل لكلّ خير واقع في أيّ مصرف كان [فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ فيوفّي ثوابه.

قوله: [سورة البقرة (2): آية 216]

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ وَ هُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَ عَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ عَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَ هُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (216)

. في الآية بيان لكون الجهاد مصلحة لمن أمر به، أي فرض عليكم قتال الكفرة و الجهاد في سبيل اللّه مع أعداء الدين و هو فرض على الكفاءة مثل صلاة الجنازة [وَ هُوَ كُرْهٌ لَكُمْ و الحال أنّه شاقّ عليكم طبعا كالصوم في الصيف، و كراهة الطبع لا توجب الذمّ [وَ عَسى أَنْ

1- القصص: 73.

2- و الآية نزلت في أحد أو الأحزاب على اختلاف. مجمع البيان.

[تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لأنّ في الغزو إحدى الحسنيين إمّا الظفر و الغنيمة و إمّا الشهادة و الجنّة.

[وَ عَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً] «عسى» كلمة يجرى مجرى لعلّ للترجّي، و من امور الّتي تحبّونه مستلذّات النفس و الشهوات و القعود عن الغزو [وَ هُوَ شَرٌّ لَكُمْ لما فيه من فوات الأجر و حصول غلبة الأعداء و ضعف الدين و تخريب الديار [وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما هو خير لكم دينا و دنيا فلذا يأمركم به [وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ذلك و لذلك تكرهونه، و إنّما كرهوا الأمور الخيريّة لأنّ أبدانهم رهينة لشهواتهم و ضعف نيّاتهم بعمل الآخرة؛ فينبغي للعاقل أن يجاهد مع النفس و الطبيعة ليرتفع الهوى و الشهوات و البدعة و يتمكّن في قلبه حبّ العمل بالكتاب و السنّة.

قال إبراهيم الخوّاص: كنت أسيح في جبل لكام و فيه أشجار الرمّان البرّيّ فرأيت رمّانة اشتهيتها فقطعتها و شققتها فوجدتها حامضة فتركتها فرأيت رجلا مطروحا قد اجتمع عليه الزنابير فقلت: السّلام عليك. فقال: و عليك السّلام يا إبراهيم فقلت: كيف عرفتني و لم ترني؟ قال: من عرف اللّه لا يخفى عليه شيء فقلت: أرى لك حالا مع اللّه فلو سألته أن يحميك و يقيك الأذى و المرض من هذه الزنابير فقال: و أرى لك حالا مع اللّه فلو سألته أن يقيك شهوة الرمّان فلدغ الرمّان يجد الإنسان ألمه في الآخرة و لدغ الزنابير يجد ألمه في الدنيا.

[سورة البقرة (2): آية 217]

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرامِ قِتالٍ فِيهِ قُلْ قِتالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَ صَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ كُفْرٌ بِهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ إِخْراجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَ الْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَ لا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطاعُوا وَ مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَ هُوَ كافِرٌ فَأُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (217)

. النزول: بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله سريّة من المسلمين و أمّر عليهم عبد اللّه بن جحش الأسديّ و هو ابن عمّة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و ذلك قبل قتال بدر بشهرين على رأس سبعة عشر من مقدمه الشريف بالمدينة فانطلقوا حتّى هبطوا نخلة فوجدوا بها عمرو بن الحضرميّ في عير تجارة لقريش في آخر يوم من جمادي الآخرة و كانوا يرون أنّه من جمادي و هو رجب فاختصم المسلمون فقال قائل منهم: هذه عيرة من عدوّ و غنم رزقتموه و لا ندري أمن الشهر الحرام

هذا اليوم أم لا. و قال قائل منهم: لا نعلم هذا اليوم أ من الشهر الحرام أم لا و لا نرى أن نستحلّوه لطمع أشفيتم عليه، فغلب على الأمر الّذي أراد الغنم فشدّوا على ابن الحضرميّ فقتلوه و غنموا عيره فبلغ كفّار قريش فركب وفد كفّار قريش حتّى قدموا على النبيّ فقالوا: أ تحلّ القتال في الشهر الحرام فأنزل اللّه الآية. (1) [يَسْئَلُونَكَ يا محمّد السائلون أهل الشرك على جهة التوبيخ و العيب، و قيل: السائلون أهل الإسلام سألوا ذلك ليعلموا كيف الحكم فيه [عَنِ الشَّهْرِ الْحَرامِ قِتالٍ فِيهِ أي عن القتال في الشهر الحرام و قتال بدل الاشتمال عن الشهر لأنّ الزمان يشتمل على ما يقع فيه، و إنّهم كانوا ينزعون الأسنّة و النصال عند دخول رجب، و يدعى رجب الأصمّ لأنّه لا يسمع فيه قعقعة السلاح فيه.

[قُلْ يا محمّد: [قِتالٍ فِيهِ ذنب [كَبِيرٌ] عظيم عند اللّه «و قتال» مبتدأ خبره «كبير» و جاز الابتداء بالنكرة؛ لأنّها وصفت «بفيه» و عند الأكثر أنّ هذه الآية منسوخة بقوله:

«فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» (2) [وَ صَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ و منع عن الإسلام و «صدّ» مبتدأ قد تخصّص بالعمل فيما بعد [وَ كُفْرٌ بِهِ باللّه و صدّ أيضا عن دخول [الْمَسْجِدِ الْحَرامِ و زيارة بيت اللّه [وَ إِخْراجُ أَهْلِهِ أي أهل المسجد و هو النبيّ و المؤمنون [مِنْهُ أي من المسجد [أَكْبَرُ عِنْدَ اللّهِ و أعظم وزرا يعني إخراجهم المسلمين من مكّة حين ضيّقوا عليهم و هاجروا إلى المدينة.

[وَ الْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ أي الفتنة في الدين و الكفر أعظم من القتل في الشهر الحرام يعني قتل ابن الحضرميّ أي هذه الأشياء المعدودة أكبر إثما و عقوبة من قتل المسلمين ابن الحضرميّ في الشهر الحرام و لو أنّ القتال في الشهر الحرام حرام لأنّ القتال إثم و الكفر أعظم و لأنّهم كانوا شاكّين في اليوم و أوّلوه و لا تأويل للكفّار في الكفر.

[وَ لا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُمْ بيان لاستحكام عداوتهم في الدين، أي لا يزال الكفّار عن قتالكم أيّها المؤمنون [حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ و يصرفوكم عن دينكم الحقّ إلى دينهم الباطل [إِنِ اسْتَطاعُوا] إشارة إلى تصلّبهم مهما أمكن.

[وَ مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ أي من يفعل ذلك بإغوائهم [فَيَمُتْ وَ هُوَ كافِرٌ] بأن

1- و رواه القمي في تفسيره: 61- 62 مع اختلاف.

2- التوبة: 5.

لم يرجع إلى الإسلام و يموت على الكفر [فَأُولئِكَ الباقون على الارتداد حين الموت [حَبِطَتْ و تلاشت و بطلت [أَعْمالُهُمْ التي كانوا عملوها في حالة الإسلام حبوطا كلّيّا لا تلافي له [فِي الدُّنْيا] و هو وجوب قتله عند الظفر به لارتداده و فوات موالاة المسلمين و زوال النكاح و حرمانه من مواريث المسلمين و نحو ذلك ممّا يجري على المرتدّ و أهله و ماله [وَ الْآخِرَةِ] و هو الجنّة لأنّ عبادتهم لم تصحّ لإخلال الوجه فلم يجازوا عليها في الآخرة [وَ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ مؤبّدون فيها و حاصل الآية أنّ كلّ واحد من هذه الأمور أعظم من القتال في الشهر الحرام.

[سورة البقرة (2): آية 218]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (218)

. نزلت في السريّة المذكورة فإنّ اللّه لمّا فرج عنهم بالآية السابقة ما كانوا فيه من الغمّ الشديد بقتالهم في الشهر الحرام طمعوا فيما عند اللّه من ثوابه فقالوا: يا رسول اللّه لا عقاب علينا فيما فعلنا فهل نعطى ثوابا؟ فأنزل اللّه هذه الآية و كانوا مؤمنين مهاجرين [وَ الَّذِينَ هاجَرُوا] و فارقوا منازلهم [وَ جاهَدُوا] و حاربوا المشركين [فِي سَبِيلِ اللَّهِ لإعلاء دينه [أُولئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ و ثوابه و لا يحبط أعمالهم كأعمال المرتدّين [وَ اللَّهُ غَفُورٌ] لذنوبهم [رَحِيمٌ يرحمهم و من الواجب على المؤمن أن لا ييأس من رحمته و أن لا يأمن من عذابه.

[سورة البقرة (2): الآيات 219 الى 220]

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ وَ إِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما وَ يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (219) فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتامى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَ إِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (220)

نزلت في جماعة من الصحابة أتوا رسول اللّه فقالوا: أفتنا في الخمر و الميسر فقال:

[يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ] و هي كلّ شراب مسكر مخالط للعقل مغطى عليه، و ما أسكر كثيره فقليله خمر و حرام «و الخمر» مصدر خمره أي ستره سمّي به لتغطيتها العقل و التميّز كأنّها نفس الستر كما سمّيت سكرا لأنّها تسكر و تحجر العقل [وَ الْمَيْسِرِ] مصدر ميميّ من يسر

كالموعد و المرجع يقال: يسرته إذا قمرته و اشتقاقه من اليسر لأنّه أخذ المال بيسير و حصوله لصاحبه بالسهولة و يدخل جميع أقسامه كالنرد و الشطرنج حتّى لعب الصبيان بالجوز و الكعاب.

[قُلْ فِيهِما] أي في تعاطي الخمر و الميسر و استعمالهما [إِثْمٌ كَبِيرٌ]- و قرأ كثير بالثاء المثلّثة- لما أنّ الأوّل مسلبة للعقول الّتي هي قطب الدين و الدنيا مع كون كلّ منهما متلفة للأموال [وَ مَنافِعُ لِلنّاسِ من كسب اللذّة و المغالات بثمن الخمر و تقوية الضعيف و الإعانة على بائه و تسلية المحزون و تشجيع الجبان و تسخية البخيل و إنطاق الفتى العيّ و تهييج الهمّة، و منافع الميسر إصابة المال من غير كدّ و لا تعب و انتفاع الفقراء بلحم الجزور فإنّهم كانوا يفرّقونها على المحتاجين؛ قال الواقديّ: و ربّما قمر الواحد منهم في مجلس مائة بعير فيصيب مالا عظيما بلا نصب و لا ثمن ثمّ يعطيه المحتاجين فيكتسب المدح و الثناء.

[وَ إِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما] و في الخمر إيقاع العداوة و البغضاء و الصدّ عن ذكر اللّه و عن الصلاة و هي تسفّه الحكيم فكيف بغيره و يؤول أمر شاربها أحيانا بحيث يلعب ببوله و عذرته و قيئه كما ذكر ابن أبى الدنيا أنّه مرّ على سكران و هو يبول في يده و يمسح به وجهه كهيئة المتوضّئ و يقول: الحمد للّه الّذي جعل الماء طهورا و الإسلام نورا. و في الميسر أنّه إذا ذهب ماله من غير عوض ساءه ذلك فعادى صاحبه و ربّما قصده بالسوء.

قال المفسّرون: تواردت في الخمر أربع آيات نزلت بمكّة: «وَ مِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَ رِزْقاً حَسَناً» (1) فكان المسلمون يشربونها و هي لهم حلال يومئذ.

ثمّ إنّ معاذا و عمر و نفرا من الصحابة قالوا: أفتنا يا رسول اللّه في الخمر فإنّها مذهبة للعقول فنزلت «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ» فشربها قوم و قالوا: نأخذ نفعها و نترك إثمها و تركها آخرون و قالوا: لا حاجة لنا فيما إثمه كبير.

ثمّ إنّ عبد الرحمن بن عوف دعا ناسا منهم فشربوا و سكروا فقام أحدهم للصلاة فقرأ «قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ أعبد ما تعبدون» إلى آخر السورة بدون «لا» في لا أعبد فنزلت «لا تَقْرَبُوا

1- النحل: 67.

الصَّلاةَ وَ أَنْتُمْ سُكارى الآية» (1) فقلّ من يشربها و قالوا: لا خير في شي ء يحول بيننا و بين الصلاة و شربها قوم في غير حين الصلاة حتّى كان الرجل يشربها بعد صلاة العشاء فيصبح و قد زال عنه السكر و يشرب بعد الصبح فيصحّوا إذا جاء وقت الظهر.

ثمّ اتّخذ عتبان بن مالك ضيافة و دعا رجالا من المسلمين فيهم سعد بن أبي وقّاص و كان قد شوى لهم رأس بعير فأكلوا منه و شربوا الخمر حتّى سكروا ثمّ إنّهم تناشدوا الأشعار و انتسبوا و افتخروا فأنشد سعد قصيدة فيها هجاء الأنصار و فخر لقومه، فأخذ رجل لحى البعير فضرب به رأس سعد فشجّه موضحة (2) فانطلق سعد إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و شكا إليه الأنصاريّ فنزل «إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ» في المائدة إلى قوله: «فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ» فقالت الصحابة: انتهينا يا ربّ.

و حرّمت الخمر في السنة الثالثة من الهجرة بعد غزوة الأحزاب بأيّام. قال القفال المروزيّ: و الحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب أنّه تعالى علم أنّ القوم كانوا ألفوا شرب الخمر و كان انتفاعهم بها كثيرا فلو منعهم دفعة واحدة يشقّ عليهم فلا جرم استعمل في التحريم هذا الرفق (3).

ثمّ لمّا نزل التحريم أريقت الخمر قال ابن عمر: و لقد غودرت أزقة المدينة بعد ذلك حينا كلّما مطرت استبان فيها لون الخمر و فاحت منها ريحها و حرمت و لم يكن للعرب يومئذ عيش أعجب منها و ما حرّم اللّه عليهم شيئا أشدّ من الخمر.

و في روح البيان: روي أنّ جبرئيل عليه السّلام قال للنبيّ صلّى اللّه عليه و آله: إنّ اللّه تعالى شكر لجعفر الطيّار أربع خصال كان عليها في الجاهليّة و هو عليها في الإسلام، فسأل النبيّ صلّى اللّه عليه و آله جعفرا عن ذلك فقال: يا رسول اللّه لو لا أنّ اللّه اطّلعك عليها لما أخبرتك بها:

ما شربت الخمر قطّ، لأنّي رأيتها تزيل العقل و أنا إلى أن أزيد فيه أحوج منّي إلى أن أزيله، و ما عبدت صنما قطّ؛ لأنّي رأيته لا يضرّ و لا ينفع، و ما زنيت قطّ لغيرتي على

1- النساء: 43.

2- الموضحة من الشجاج ما يوضح فيها عظم الرأس.

3- و به رواية في الكافي. البرهان (1: 211- 212).

أهلي، و ما كذبت قطّ؛ لأنّي رأيته دناءة.

قال عمرو بن الأدهم- و هو من أكابر سادة بني تميم-: لو كان العقل يشترى ما كان شي ء أنفس منه فالعجب لمن يشتري الحمق بماله فيدخله في رأسه و يفي ء في جيبه و يسلح في ذيله.

قال أمير المؤمنين عليه السّلام: لو وقعت قطرة في أرض فبنيت مكانها منارة لم اؤذّن عليها و لو وقعت في بحر ثمّ جفّ فنبت فيه الكلاء و رعت الغنم منه لما أكلت من لحومها انتهى.

و أمّا الميسر فهو القمار، و الياسر القامر. و كان أصل الميسر في الجزور في العرب و ذلك أنّ أهل الثروة من العرب كانوا يشترون جزورا و يضمنون ثمنه و لا يؤدّونه ليظهر بالقمار أنّه على من يجب فينحرونها و يجزونها عشرة أجزاء ثمّ يسهمون عليها بعشرة قداح يقال للقداح الأزلام و الأقلام سبعة منها لها أنصباء: الفذّ و له نصيب واحد و التوأم و له نصيبان و الرقيب و له ثلاثة و الحلس و له أربعة و النافس و له خمسة و المسبل و له ستّة و المعلّى و له سبعة، و ثلاثة منها لا نصيب لها و هي المنيح و السفيح و الوغد ثمّ يجعلون القداح في خريطة تسمّى الربابة و يضعونها على يدي عدل عندهم يسمّى المجيل و المفيض ثمّ يحرّكها و يجلجلها ذلك الرجل العدل فيدخل يده فيخرج باسم رجل رجل قدحا قدحا فمن خرج له قدح من ذات الأنصباء أخذ النصيب المعيّن له و من خرج له قدحا ممّا لا نصيب له و هو الثلاثة لم يأخذ شيئا و غرم ثمن الجزور و كانوا يدفعون تلك الأنصباء للفقراء و لا يأكلون منها أي من سهم الثلاثة المحرومة و يفتخرون بذلك و يذمّون من لا يدخل في هذا الأمر و يسمّونه البرم و معناه عديم المروّة و اللئيم فهذا كان أصل القمار عندهم (1) فالميسر بأقسامه حرام كما أنّ الخمر بأنواعها حرام. في الحديث: سيأتي على أمّتي زمان يظهر فيه أقوام يسمّون الخمر بغير اسمها.

[وَ يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ سؤال عن كمّيته و مقداره فإنّه لمّا نزل قوله: «قُلْ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوالِدَيْنِ» قال عمرو بن الجموح: و سأل عن مقدار الإنفاق فنزل [قُلِ الْعَفْوَ] أي أنفقوا الميسور و السهولة أي ما سهل و تيسّر و لم يشقّ عليك إنفاقه؛ فالعفو من المال ما يسهل

1- سيأتي له ذكر في الجزء الرابع من الكتاب في سورة المائدة آية 90.

إنفاقه، و الجهد من المال ما يعسر إنفاقه و القدر السهل ما كان فاضلا عن حاجة نفسه و عياله و من عليه مؤونته و لكن بشرط الاقتصاد، عن النبيّ عن ابن عبّاس. و قيل: إنّ العفو الوسط من غير إقتار و لا إسراف و هو المرويّ عن أبي جعفر عليه السّلام و ثالث الأقوال أنّ العفو ما فضل عن قوت السنة، عن الباقر قال: و نسخ ذلك بآية الزكاة. و الرابع من الأقوال أنّ العفو أفضل المال و أطيبه (1).

[كَذٰلِكَ الخطاب للنبيّ صلّى اللّه عليه و آله و يدخل فيه الأمّة و إفراد الخطاب مع تعدّد المخاطبين باعتبار القبيل أو الفريق بما هو مفرد اللفظ و مجموع المعنى أي مثل ما بيّن أنّ العفو أصلح من الجهد [يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمُ الْآيٰاتِ الدالّة على تفاصيل أموركم لا بيانا أدنى منه بيّنة الفحوى واضحة المدلول [لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ* فِي الدُّنْيٰا وَ الْآخِرَةِ] لكي تدبّروا في امور الدارين فتأخذوا بأصلحها لكم و أسهل في الدنيا و أنفع للعقبى.

و في الآية ترغيب في التصدّق بشرط أن يكون من فضل المال و عفوه و أطيبه و بشرط أن يكون عنده ما يتعيّش به لا أنّه ينفق ثمّ يقعد في بيته محتاجا.

كما روي أنّ رجلا أتى النبيّ صلّى اللّه عليه و آله ببيضة من ذهب أصابها في بعض المغازي فقال:

يا رسول اللّه خذها منّي صدقة فو اللّه لقد أصبحت ما أملك غيرها فأعرض عنه النبيّ صلّى اللّه عليه و آله فأتاه من جانب الأيمن فقال مثله، فأعرض عنه ثمّ أتاه من جانب الأيسر فأعرض عنه فقال:

هاتها مغضبا فأخذها منه فحذفها حذفا لو أصابه لشجّه أو عرّه ثمّ قال صلّى اللّه عليه و آله: يجي ء أحدكم بماله كلّه يتصدّق به و يجلس يتكفّف الناس، إنّما الصدقة عن ظهر غنى خذها فلا حاجة لنا فيه انتهى.

و في لفظ العفو إشارة إلى أنّ ما يعطيه المرء في سبيل اللّه أن يعفو أثره عن قلبه لأنّ أصل العفو المحو و الطمس و هذه الطريقة طريقة العوام و أمّا الخواصّ فطريقهم الإيثار و هو أن يقدّم غيره على نفسه. و لمّا حثّ النبيّ صلّى اللّه عليه و آله الناس على الصدقة و كان أبو أمامة الباهليّ

1- الاول: العيّاشي عن يوسف عنهما عليهما السّلام. الثاني: الكليني عن ابن ابى عمير عن ابى عبد اللّه عليه السّلام و العيّاشي عن جميل و عن عبد الرحمن عنه عليه السّلام. الثالث: الطبرسي مرسلا. البرهان (1: 212).

جالسا بين يديه و هو يحرّك شفتيه فقال له النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: ماذا تقول حيث تحرّك شفتيك؟

قال: إنّي أرى الناس يتصدّقون و ليس معي شي ء أتصدّق به فأقول في نفسي: سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلّا اللّه و اللّه أكبر. فقال صلّى اللّه عليه و آله: هؤلاء الكلمات خير لك من مدّ ذهبا تتصدّق به على المساكين.

[وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتامى أي عن مخالطتهم و ذلك بعد نزول قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً» فتركوا مخالطتهم و مؤاكلتهم حتّى لو كان عند رجل يتيم يجعل له بيتا على حدة و طعاما على حدة و عزلوا أموال اليتامى عن أموالهم و كان يصنع لليتيم طعام فيفضل منه شي ء فيتركونه و لا يأكلونه فيتركونه حتّى يفسد فاشتدّ ذلك عليهم و على اليتامى فقال عبد اللّه بن رواحة: يا رسول اللّه ما لكلّنا منازل يسكنها اليتامى و لا كلّنا نجد طعاما و شرابا نفردهما لليتيم فنزلت الآية.

[قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ أي مداخلتهم على وجه الإخلاص و الإصلاح [خَيْرٌ] من مجانبتهم و ترك خلطتهم [وَ إِنْ تُخالِطُوهُمْ و تعاشروهم على وجه ينفعهم [فَإِخْوانُكُمْ فهم إخوانكم في الدين الّذي هو أقوى من العلاقة النسبيّة فحينئذ حقّ الأخ أن يخالط الأخ بالإصلاح و النفع. قال ابن عبّاس: «المخالط» أن تأكل من تمره و لبنه و قصعته و هو يأكل من تمرك و لبنك و قصعتك. و بعض حمل المخالطة على المصاهره و هو أن يكون اليتيم بنا فيتزوّجه ابنته أو تكون بنتا فيزوّجها ابنه إيناسا لوحشته و إزالة لوحدته.

[وَ اللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ] لمال اليتم [مِنَ الْمُصْلِحِ لماله فيجازيه على حسب مداخلته، و في تقديم «المفسد» مزيد تهديد [وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ إعناتكم و حملكم على المكروه [لَأَعْنَتَكُمْ و حملكم على المشقّة [إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ] غالب في أمره [حَكِيمٌ يحكم ما يقتضيه الحكمة و تسع له الطاقة و هو دليل على ما يفيده كلمة «لو» من انتفاء مقدّمها أي لكنّه لم يشأ.

و اعلم أنّ مخالطة الأيتام و محبّتهم من أخلاق الكرام و في الترحّم عليهم فوائد جمّة؛ قال النبيّ: من وضع يده على رأس يتيم ترحّما عليه كانت له بكلّ شعرة تمرّ عليها يده حسنة.

قال اللّه: يا موسى كن لليتيم كالأب الرحيم و كن للأرامل كالزوج الشفيق و كن للغريب كالأخ الرفيق أكن لك كذلك.

ص: 63

قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: ثلاثة في ظلّ عرش اللّه يوم القيامة امرأة مات عنها زوجها و ترك عليها يتامى صغار فخطبت فلم تتزوّج و قالت أقيم على اليتامى حتّى يغنيهم اللّه أو يموت اليتيم أو هي، و رجل له مال و صنع طعاما فأطاب صنيعه و أحسن نفقته فدعا إليه اليتيم و المساكين.

و الثالث واصل الرحم فيوسّع له في رزقه و يمتدّ له في أجله و يكون تحت ظلّ عرشه انتهى.

فليحسن العاقل مخالطة اليتيم و ليجتنب كلّ الاجتناب عن إخلال حقّ من حقوقه و أكل حبّة من ماله و عن ظلمه و قهره.

حكي أنّ رستم بن زال بارز إسفنديار فلم يقدر عليه مع زيادة قوّته و كان إسفنديار يجرحه في كلّ حملة دون رستم و كان بدن إسفنديار كجلد بعض السمك لا يعمل فيه شيء، ثمّ إنّ رستم تشاور مع زال في ذلك فقال له أبوه: إنّك لا تقدر عليه إلّا أن تعمل سهما من تلك الشجرة ذا قفارين و تصيب به عيني إسفنديار ففعل ذلك فرمى فأصاب فغلب عليه بذلك، و السبب في ذلك أنّ إسفنديار كان قد ضرب في شيبته يتيما بغصن ففقأ به عينه و أبكاه ثمّ إنّ اليتيم أخذ ذلك الغصن و غرسه فلمّا صار شجرا أخذ رستم غصنا من أغصانه و نحت منه سهمه الّذي أصاب به عيني إسفنديار انتهى.

و في قوله: «وَ إِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ» إشارة إلى أنّ المرء ينبغي أن يتعوّد الأكل مع الناس فإنّ شرّ الناس من أكل وحده قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: إنّ من أحبّ الطعام إلى اللّه ما كثرت عليه الأيدي و في المصابيح أنّ أصحاب النبيّ صلّى اللّه عليه و آله قالوا: يا رسول اللّه إنّا نأكل و لا نشبع قال: لعلّكم تفترقون قالوا نعم: قال: فاجتمعوا على طعامكم و اذكروا اسم اللّه حكي أنّه قيل لجمين صاحب النوادر: أ تغدّيت عند فلان؟ قال: لا و لكن مررت ببابه و هو يتغدّى فقيل له: كيف علمت قال: رأيت غلمانه بأيديهم قسيّ البنادق يرمون الطير في الهواء. و في الحديث من أضاف مؤمنا فكأنّما أضاف آدم و من أضاف إثنين فكأنّما أضاف آدم و حوّاء.

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 221]

وَ لا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَ لَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَ لَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَ لا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَ لَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَ الْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَ يُبَيِّنُ آياتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (221)

.

النزول: نزلت في مرثد بن أبي مرثد الغنويّ بعثه رسول اللّه إلى مكّة ليخرج منها ناسا من المسلمين و كان قويّا شجاعا فدعته امرأة يقال عتاق إلى نفسها فأبى و كان يهواها في الجاهليّة و تهواه فقالت: ألا نخلو فقال: إنّ الإسلام حال بيننا فقالت: هل لك أن تتزوّج بي فقال: حتّى أستأذن رسول اللّه فلمّا رجع استأذن رسول اللّه في التزوّج بها فنزلت الآية فقال سبحانه:

[وَ لا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ و لا تتزوّجوا النساء الكافرات [حَتَّى يُؤْمِنَ أي يصدّقن باللّه و هي عامّة عندنا في تحريم مناكحة جميع الكفّار من أهل الكتاب و غيرهم و ليست بمنسوخة.

و اختلف غيرنا فيه فقال بعضهم: لا يقع اسم المشركات على أهل الكتاب و قد فصّل اللّه بينهما فقال: «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ الْمُشْرِكِينَ» (1) و كذلك «ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ لَا الْمُشْرِكِينَ» (2) و عطف أحدهما على الآخر.

و قال بعضهم: الآية متناولة جميع الكفّار و الشرك يطلق على الكلّ و من جحد نبوّة نبيّنا محمّد صلّى اللّه عليه و آله فقد أنكر معجزته و أضافه إلى غير اللّه و هذا هو الشرك بعينه لأنّ المعجزة شهادة من اللّه له بالنبوّة.

ثمّ هؤلاء أيضا اختلفوا فمنهم من قال: إنّ الآية منسوخة في الكتاب بالآية الّتي في المائدة «وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ» (3) و منهم من قال: إنّها مخصوصة بغير الكتابيّات، عن قتادة و سعيد بن جبير. و منهم من قال: إنّها على ظاهرها في تحريم نكاح كلّ كافرة كتابيّة كانت أو مشركة، عن ابن عمر و بعض الزيديّة و هو مذهبنا و سيأتي بيان آية المائدة في موضعها إن شاء اللّه.

[وَ لَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ] مع ما بها من قلّة الخطر و القدر [خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ] مع مالها من شرف الحرّيّة و المال و رفعة الشأن [وَ لَوْ أَعْجَبَتْكُمْ تلك المشركة بجمالها و مالها و نسبها و بغير ذلك من مبادئ الإعجاب و موجبات الرغبة، و الواو للحال و التقدير: خير من مشركة في كلّ حال و لو في هذه الحالة. و قيل: «لو» هنا بمعنى «إن» كذا كلّ موضع وليها الفعل الماضي و كان جوابها مقدّما عليها؛ فيكون المعنى: و إن كانت المشركة تعجبكم و تحبّونها فإنّ المؤمنة خير لكم.

ص: 65

1- البينة: 1.

2- السورة: 105.

3- المائدة: 5.

[وَ لاـ تَنْكِحُوا] بضمّ التـاء من الإنكـاح [الْمُشْـرِكِينَ أي الكفّـار أعمّ من الوثنيّ و غيره أي لاـ تزوّجوا منهم المؤمنات سواء كنّ حرائر أم إماء [حَتَّى يُؤْمِنُوا] و يتركوا ما هم عليه من الكفر و لا يحلّ تزويـج المؤمنة من الكافر على اختلاف أنواع الكفر و لا خلاف في هذا الحكم و هذا يؤيّد قول من قال: إنّ قوله: «وَ لا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ» يتناول جميع الكافرات.

[وَ لَعَبْـدٌ مُـؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْـرِكٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكُمْ مـاله أو جمـاله و الفرق بين «و لو أعجبكم» و بين «و إن أعجبكم» أنّ «لو» للماضـي و «إن» للمستقبل و كلاهما يصحّ في معنى الآية و «العجب» في الآية بمعنى الميل و الاستعظام و ليس من التعجّب.

[أُولئِـكَ المـذكورون من المشـركين و المشـركات [يَـدْعُونَ من يقـارنهم و يعاشرهـم [إِلَى النَّارِ وَ اللَّهُ و أوليائه المؤمنون [يَـدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَ الْمَغْفِرَةِ] و إلى الاعتقـاد الحقّ [بِـإِذْنِهِ أي بأمره أي يـدعو ملتبسا بتوفيقه [وَ يُبَيِّنُ آياتِهِ المشـتملة على الأحكام [لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَـذَكَّرُونَ لكي يتذكّروا فيفوزوا بما دعوا إليه من الجنّة و الغفران و بئست الخصلة ميل الطبع إلى محسّنات أهل الكفر و يؤول هذا الميل إلى الكفر أو محبّة الدنيا و الكافر.

قال الزمخشـريّ: لا ترض لمجالستك إلّا أهل مجانستك و يؤيّد هذا المعنى حديث الأرواح جنود مجنّدة فما تعارف منها ائتلف و ما تناكر منها اختلف.

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 222]

وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّساءَ فِي الْمَحِيضِ وَ لا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (222)

. كانوا في الجاهليّـة يتجنّبون مؤاكلـة الحائض و مشاربتها و مجالسـتها فسألوا عن ذلك فنزلت الآية و قيل: كانوا يسـتجيزون إتيان النساء في أدبارهنّ أيّام الحيض فلمّا سألوا عنه بيّن تحريمه عن مجاهد. قال الطبرسيّ: و الأوّل عندنا أقوى.

[وَ يَسْـئَلُونَكَ و السائـل أبو الدحـداح [عَنِ الْمَحِيضِ أي أحواله [قُـلْ يـا محمّـد: [هُوَ أَذىً أي قـذر. و قيـل: أي دم. و قيل: المراد من الأذى مشقّتهنّ لهذه العارضة [فَاعْتَزِلُوا النِّساءَ فِي الْمَحِيضِ أي اجتنبوا مجامعتهنّ في الفرج «و المحيض» اسم مكان عن ابن عبّاس و جماعة.

و يوافق هذا القول قول من لا يحرّم منها غير موضع الدم فقط.

[وَ لا تَقْرَبُوهُنَ بالجماع أو مادون الإزار على الخلاف فيه [حَتَّى يَطْهُرْنَ بالتخفيف حتّى ينقطع الـدم عنهنّ و يطهرن من الحيض هذا إذا كان بالتخفيف، و على قراءة التشديد فمعناه حتّى يغتسلن.

[فَإِذا تَطَهَّرْنَ أي اغتسلن و قيل: توضّأن و قيل غسلن الفرج [فَأْتُوهُنَ فجامعوهن و هو إباحة و إن كان صورته صورة الأمر كقوله: «وَ إِذا حَلَلْتُمْ فَاصْطادُوا» (1) [مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ أي من حيث أمركم اللّه بتجنّبه في حـال الحيض و هـو الفرج، و قيـل: المعنى من قبـل الطهر دون الحيض و معنى الأوّل أليق بالظاهر و قيل معناه من الجهات الّتي تحلّ فيها أن تقرب المرأة و لا تقربوهنّ من حيث لا يجوز المقاربـة مثل أن كنّ صائمـات أو محرمات أو معتكفات. قال الفرّاء: و لو أراد الفرج لقال سبحانه: «في حيث أمركم اللّه» فلمّا قال: «مِنْ حَيْثُ» علمنا أنّه أراد من الجهة الّتي أمركم اللّه بها (2). و قيل: المراد من المأتيّ الّذي حلّله لكم و هو القبل و على هذا القول فالوطي في دبر المرأة حرام.

[إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ المتنزّهين عن الأقـذار و الفواحش كجامعـة الحـائض و الإتيان في غير المأتيّ بناء على القول في حرمة الدبر من المرأة.

[سورة البقرة (2): آية 223]

نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَ قَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (223)

. «أَنَّى» في محلّ النصب على الظرفيّة ظرف مكان إذا كان بمعنى حيث أو أين و ظرف زمان إذا كان بمعنى متى و العامل فيه «فَأْتُوا».

النزول: نزلت ردّا على اليهود إذ قالوا: إنّ الرجل إذا أتى المرأة من خلفها في قبلها خرج الولد أحول فأكذبهم اللّه عن ابن عبّاس و جابر. (3) و قيل: أنكرت اليهود إتيان المرأة قائمة و باركة فأنزل اللّه إباحته.

المعنى: لمّا بيّن اللّه أحوال النساء في الحيض عقّب ذلك بقوله: [نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ و ذكر فيه وجوها: أحدها أنّ معناه مزرع و محرث لكم عن ابن عبّاس و السدّيّ. و الثاني

1- المائدة: 2.

2- معاني القرآن (1: 143).

3- الطبرسي عن الفراء و انظر معاني القرآن (1: 144) عن ميمون بن مهران عن ابن عباس.

أنّ معناه ذوات حرث لكم منهنّ تحرثون الولد و اللذّة و هذا في المعنى مثل الأوّل و كنّي عن الجماع بالحرث. و الثالث كحرث لكم فحذف حرف التشبيه كقولهم: الشعر مسك و الوجوه دنانير [فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أي موضع حرثكم نساءكم و قد سمّى العرب النساء حرثا [أَنَّى شِئْتُمْ أي من أين شئتم عن قتادة و الربيع. و قيل: المراد كيف شئتم. و قيل: متى شئتم. قال الطبرسيّ:

و هذا خطأ عند أهل اللغة لأنّ «أَنَّى» لا يكون إلّا بمعنى من أين كما قال: «أَنَّى لَكِ هذا» و يجوز ان يكون بمعنى كيف.

و استدلّ مالك بقوله: «أَنَّى شِئْتُمْ» على جواز إتيان المرأة في دبرها، و رواه عن نافع عن ابن عمر و حكاه زيد بن أسلم عن محمّد بن المنكدر، و به قال بعض أصحابنا و خالف في ذلك جمع من الفقهاء و قالوا: إنّ الحرث لا يكون إلّا بحيث النسل فيجب أن يكون الوطء حيث يكون النسل.

[وَ قَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ الأعمال الصالحة الّتي أمرتم بها و رغّبتم فيها [وَ اتَّقُوا اللَّهَ أي عقاب اللّه بترك مجاوزة الحدود، و قيل: المراد من معنى التقديم هنا طلب الولد الصالح لقوله:

إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا عن ثلاث: ولد صالح يدعو له و صدقة جارية و علم ينتفع به بعد موته (1).

و قيل: هو التسمية عند الجماع. و قيل: المراد من تقديم الخير هو التزوّج بالعفائف ليكون الولد طاهرا صالحا.

[وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ أي ملاقو ثوابه إن أطعتموه و عقابه إن عصيتموه، و إنّما أضافه إليه على ضرب من المجاز و لا يجوز حمل اللقاء على الرؤية [وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بالثواب و الجنّة.

[سورة البقرة (2): آية 224]

وَ لا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَ تَتَّقُوا وَ تُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (224)

. روي أنّ بشير بن نعمان الأنصاريّ كان قد طلّق زوجته الّتي هي اخت عبد اللّه بن رواحة و أراد أن يتزوّجها بعد ذلك و كان عبد اللّه قد حلف على أن لا يدخل على بشير و

1- الخصال (1: 73) مثله في المعنى.

لاـ يكلّمه و لاـ يصـلح بينه و بين أخته فإذا قيل له في ذلك قال: حلفت باللّه أن لا أفعل و لا يحلّ لي إلّا أن أحفظ يميني و أبرأ فيه فأنزل اللّه هذه الآية. (1) المعنى: لا تجعلوا ذكر اللّه و الحلف به مانعا من أنواع الخير كالبرّ و الاتّقاء و الإصـلاح في الأمور الخيريّة فإنّ الحلف باللّه لاـ يمنـع ذلـك فيكـون لفـظ الأيمـان مجـازا مرسـلا عن الخيرات المحلوف عليه. سـمّي المحلوف عليه يمينـا لتعلّق اليمين، و اللاـم في «لِأَيْمـانِكُمْ» متعلّق بقوله: «عُرْضَـةً» و العرضـة فعلـة بمعنى المعروض جعل اسـما لما يعرض دون الشـي ء أي يجعل قـدّامه بحيث يكون حاجزا و حائلا عن أمر، و حاصل المعنى أن لا تجعلوا الحلف باللّه عذرا و مانعا عن إيتاء الخير و البرّ و التقوى و الصلاح في امور الناس [وَ اللَّهُ سَمِيعٌ لأيمانكم [عَلِيمٌ بنيّاتكم.

و قيل في معنى الآية وجه آخر: أي لا تجعلوا اليمين باللّه عدّة مبتذلة في كلّ حقّ و باطل و لا تحلفوا به و إن بررتم، و هو المرويّ عن أئمّتنا نحر ما رواه عثمان بن عيسى عن أبي أيّوب قال: سمعت الصادق عليه السّلام يقول: لا تحلفوا باللّه صادقين و لا كاذبين فإنّه سبحانه يقول: «وَ لا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمانِكُمْ».

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 225]

لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ وَ لكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (225)

. ثمّ بيّن أقسام اليمين [لا يُؤاخِـذُكُمُ اللَّهُ و اختلفوا في يمين اللغو، قيل: هو ما يجري على عادة اللسان من قول «لا و الله» من غير عقد على يمين يقتطع بها مال و لا يظلم فيها أحد (2) عن ابن عبّاس و عائشة و الشـعبيّ و هو المرويّ عن الصادق عليه السّلام. و قيل: هو أن يحلف و هو يرى أنّه صادق ثمّ تبيّن أنّه كاذب فلا إثم عليه و لا كفّارة.

و قيل: المراد يمين الغضـبان لا يؤاخذكم اللّه بالحنث فيها إلّا أنّ الكفّارة واجبة فيها و به قال سـعيد بن جبير رحمه اللّه. «و اللغو» ما سـقط من الكلام عن درجة الاعتبار من لغا العصافير إذا

ص: 69

1- الكليني عن عدة عن احمد بن محمّد عن عثمان. البرهان.

2- الكلينيّ عن عليّ عن هارون عن مسعدة العيّاشي عن ابى الصباح عن الصادق عليه السّلام. البرهان.

صوّتت و منه اشتقاق اللغة لأنّها كلام لا فائدة فيه عند غير أهله.

[وَ لكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ أي قصدتم و نويتم؛ لأنّ كسب القلب هو العقد و النيّة، و في الكلام تقدير أي من أيمانكم [وَ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ يمهل العقوبة و لا يعجل بها.

[سورة البقرة (2): الآيات 226 الى 227]

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فاؤُ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (226) وَ إِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (227)

ثمّ بيّن حكم الإيلاء، و الإيلاء الحلف أي [لِلَّذِينَ يبعدون [مِنْ نِسائِهِمْ مؤلين أي يكون الحلف على الامتناع من الجماع و يكون القسم باللّه تعالى على وجه لا يقع موقع اللغو على وجه الغضب و الضرار و هو المرويّ عن عليّ عليه السّلام و ابن عبّاس و الحسن (1).

و قيل: من غير تفاوت في حالة الغضب و الرضاء [تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ] قال سعيد بن المسيّب: كان ذلك من ضرار أهل الجاهليّة فكان الرجل لا يحبّ امرأته و لا يحبّ أن يتزوّجها غيره فيحلف أن لا يقربها فيتركها لا أيّما و لا ذات بعل، و كانوا يفعلون في ابتداء الإسلام أيضا فأزال اللّه سبحانه ذلك الضرر عنهنّ و ضرب للزوج مدّة يتروّى فيها و يتأمّل فأمهله اللّه مدّة أربعة أشهر فإن رأى المصلحة في ترك هذه المضارّة فعله و إن رأى المصلحة في المفارقة طلّقها.

أي تنتظر المرأة أربعة أشهر و لا يطالبن الأزواج [فَإِنْ فاؤُ] و رجعوا إليهنّ [فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ يغفر للحالف و عليه الكفّارة و فيئته كتوبته [وَ إِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ بضمائرهم.

القميّ عن الصادق عليه السّلام: «الإيلاء» هو أن يحلف الرجل على امرأته أن لا يجامعها فإن صبرت عليه فلها أن تصبر و إن رفعته إلى الإمام أنظره أربعة أشهر ثمّ يقول له بعد ذلك:

إمّا أن ترجع إلى المناكحة و إمّا أن تطلق فإن أبى حبسه أبدا إلى أن يرضى بالحكم. (2)

1- الطبرسي مرسلا عنهما بهذا الذيل.

2- تفسيره: 54.

[سورة البقرة (2): آية 228]

وَ الْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَ لا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ ما خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ بُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذلِكَ إِنْ أَرادُوا إِصْلاحاً وَ لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَ لِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (228)

. «القروء» جمع قرء و جمعه القليل: أقرء، و الكثير: قروء و أقراء؛ و صار بناء الكثير فيه أغلب في الاستعمال مثل ثلاثة شسوع أو لأنّ القروء و لو أنّها ثلاثة إلّا أنّها كثيرة ثلاثة في ثلاثة في الأفراد من النساء فأتى بجمع الكثرة. بيّن سبحانه حكم المطلّقات أي المخلّيات من حبائل الأزواج بالطلاق و يعني المطلّقات المدخول بهنّ من ذوات الحيض غير الحوامل لأنّ في الآية بيان عدّتهنّ.

[يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ] أي ينتظرن بأنفسهنّ انقضاء ثلاثة قروء فلا يتزوّجن في هذه المدّة و لفظه خبر و معناه أمر «و القرء» من الأضداد و أصل معنى القرء الاجتماع لاجتماع الدم في الرحم؛ فعلى هذا فمعنى القرء الحيض و كذلك يجي ء القرء بمعنى الطهر لأنّ في غير أوقات الحيض يجتمع ذلك الدم في سائر البدن و المراد من القرء في الآية الطهر عندنا و روي أيضا عن عليّ عليه السّلام أنّ القرء الحيض (1). و استشهد القائلون بأنّ القرء المراد منه الحيض في الآية بقوله صلّى اللّه عليه و آله للمستحاضة: دعي الصلاة أيّام أقرائك. و الصلاة إنّما تترك في أيّام الحيض، و استشهد من ذهب إلى أنّ القرء الطهر بقوله تعالى: «فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ» أي في طهر لم تجامع فيه.

[وَ لا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ ما خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحامِهِنَّ أي لا يجوز لهنّ أن يخفين ما بهنّ من الحبل و الحيض لتبطيل حقّ الزوج من الولد و الرجعة؛ قال الصادق عليه السّلام قد فوّض إلى النساء ثلاثة أشياء: الحيض و الطهر و الحبل.

[إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ] أي من كان يؤمن باللّه و اليوم الآخر فهذه صفته يعني أنّ الإيمان يمنع من ارتكاب هذه المعصية كقولك: إن كنت مؤمنا فلا تظلم.

1- ليست الرواية مضبوطة و انما كانت هي دائرة على السن أهل العراق و وردت بتكذيبه عدة روايات. انظر البرهان.

لا أنّه إذا لم تكن المرأة مؤمنة يحلّ لها الكتمان فإنّ المؤمنة و الكافرة في هذا الحكم سواء.

[وَ بُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَ و أصل البعل المالك و السيّد سـمّي الزوج بعلا لقيامه بأمر زوجته كأنّه مالك لها، و التاء في البعولـة زائـدة لتأكيد التأنيث فإنّ الجمع باعتبار الجماعة في حكم المؤنّث، و في تسمية الزوج بعلا مع طلاقها الصريح إشعار بأنّ النكاح بعد قائم و الحلّ ثابت، و الضـمير لبعض أفراد المطلّقات و شامل للمطلّقة بالرجعيّ لا البوائن [فِي ذلِكَ أي في زمان التربّص و أفعل هنا بمعنى الفاعل إذ لا معنى للتفضيل هنا فإنّ غير الأزواج لا حقّ لهم فيهنّ البتّة.

[إِنْ أَرادُوا إِصْـلاحاً] أي إن أراد الأزواج بالرجعـة إصـلاحا بينهم و بينهنّ و إحسانا إليهنّ لا بقصـد المضارّة كما كانوا يفعلونه أهل الجاهليّة كان الرجل يطلّق امرأته فإذا قرب انقضاء عدّتها راجعها ثمّ يطلّقها و يقصد بذلك تطويل العدّة عليها، لكن هذا الشـرط ليس شرط في صحّة الرجعة فإنّ الرجعة صحيحة و إن كان قصد الزوج المضارّة بل المراد الزجر عن قصد الضرار.

[وَ لَهُنَ عليهم من الحقوق [مِثْـلُ الَّذِي لهم [عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ أي اسـتقرّ لهنّ بالوجه الّـذي لا ينكر في الشـرع من الاقتصاد فلا يكلّفهنّ ما ليس لهم و لا يعنّف أحـد الزوجين صاحبه و المراد من المماثلة بين الحقّين الحقوق المقرّرة في الشـرع بينهما من الوجوب مثل أنّ الانفاق واجب على الزوج للزوجة كما أنّ الامتثال من الزوجة للزوج في البضع واجب فالمماثلة في الوجوب لا في كلّ الأمور.

روي أنّ امرأة معـاذ قـالت: يا رسول اللّه ما حقّ الزوجـة على الزوج، قال صـلّى اللّه عليه و آله: أن لا يضـرب على وجهها و لا يقبحها و أن يطعمها ممّا يأكل و يلبسها ممّا يلبس و لا يهجرها. و قال صلّى اللّه عليه و آله في حديث: اتّقوا اللّه في النساء فإنّكم أخذتموهنّ بأمانة اللّه و استحللتم فروجهنّ بكلمة اللّه و من حقّكم عليهنّ أن لا يوطئن فرشـكم من تكرهونه فإن فعلن ذلك فاضربوهنّ ضربا غير مبرح، (1) و لهنّ عليكم رزقهنّ و كسوتهنّ بالمعروف أي المتعارف في العادات المشروعة [وَ لِلرِّجالِ

1- الطبرسي مرسلا و راجع فروع الكافي (2: 61- 62).

عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ] أي فضيلة منها الطاعة و منها زيادة الميراث و الجهاد و امور. و قيل: معناه أنّ المرأة تنال اللذّة من الرجل كما ينال الرجل منها و له الفضل بنفقته و قيامه عليها.

و في كتاب من لا يحضره الفقيه عن الباقر عليه السّلام قال: جاءت امرأة إلى رسول اللّه فقالت: يا رسول اللّه ما حقّ الزوج على الزوجة فقال: عليها أن تطيعه و لا تصدّق من بيته إلّا بإذنه و لا تصوم تطوّعا إلّا بإذنه و لا تمنعه نفسها و إن كانت على ظهر قتب و لا تخرج من بيتها إلّا بإذنه فإن خرجت بغير إذنه لعنتها ملائكة السماء و ملائكة الأرض و ملائكة الغضب و ملائكة الرحمة حتّى ترجع إلى بيتها؛ فقالت يا رسول اللّه: من أعظم الناس حقّا على المرأة قال: زوجها، قالت: فمالي من الحقّ عليه أمثل ما له من الحقّ عليّ؟ قال: لا و لا من كلّ مائة واحدة، فقالت: و الّذي بعثك بالحقّ لا يملك رقبتي رجل أبدا (1). و قال: لو كنت أمرت أحدا يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها. (2) [وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ قادر على ما يشاء فاعل ما تدعوا إليه الحكمة. و المطلّقة قبل الدخول و المطلّقة الحاملة نسختا عن هذه الآية بقوله تعالى: «فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها» (3) «وَ أُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ» (4)

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 229]

الطَّلاقُ مَرَّتانِ فَإِمْساكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ وَ لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ أَنْ يَخافا أَلاَّ يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوها وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (229)

. النزول. روى هاشم بن عروة عن أبيه عن عائشة أنّ امرأة أتتها و شكت أنّ زوجها يطلّقها و يسترجعها إضرارا لها بذلك و كان الرجل في الجاهليّة إذا طلّق امرأته ثمّ راجعها قبل أن تنقضي عدّتها كان له ذلك و إن طلّقها ألف مرّة و لم يكن للطلاق عندهم حدّ فذكرت عائشة لرسول اللّه فنزلت:

[الطَّلاقُ مَرَّتانِ فجعل سبحانه حدّ الطلاق ثلاثا و الطلاق الثالث قوله:

1- انظر البرهان.

2- الطبرسي مرسلا.

3- الأحزاب: 49.

4- الطلاق: 4.

«فَإِنْ طَلَّقَها فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ» (1) «الطلاق» أي التطليق الرجعيّ لمتقدّم ذكره الّذي كان حكمه «وَ بُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ» و يملك الزوج فيه الرجعة مرّتان و أمّا بعد الطلقتين بأن طلّق ثلاثا فلا يثبت للزوج حقّ الرجعة البتّة و لا تحلّ له المرأة إلّا بعد زوج آخر.

[فَإِمْساكٌ بِمَعْرُوفٍ أي فالواجب و الحكم بعد هاتين التطليقتين إمساك على وجه المعروف لها جميل شائع في الشريعة لا على وجه الإضرار بهنّ بل بحسن المعاشرة و الكلام و إن كان بصورة الخبر إلّا أن معناه الأمر.

[أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ أي إذا تركها أدّى إليها حقوقها الماليّة و لا يذكرها بسوء بعد المفارقة و لا ينفّر الناس عنها و قيل: قوله: «تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ» المراد أنّه الطلقة الثالثة أو المعنى أنّه يترك المعتدّة حين تبيّن انقضاء العدّة من غير إضرار بها و هو المرويّ عن الصادقين عليهما السّلام.

[وَ لا يَحِلُّ لَكُمْ خطاب للأزواج [أَنْ تَأْخُذُوا] في حال الطلاق ممّا أعطيتموهنّ من المهر [شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخافا أَلَّا يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ استثنى الخلع أي إلّا أن يغلب على ظنّهما أن لا يقيما حدود اللّه لما بينهما من أسباب التباعد مثل أن يظهر من المرأة النفرة و النشوز و التباعد بغضا للزوج بأن تكرهه، قال الصادق عليه السّلام: مثل أن يقول المرأة: لا أغتسل لك من جنابة و لا أبرّ لك قسما و لأدخلنّ على فراشك بغير إذنك فحينئذ حلّ له أن يأخذ منها ما يأخذ و على الجملة إذا خاف الرجل أن تعصي اللّه فيه بارتكاب محظور و إخلال بواجب فيحلّ له أخذ العوض بالطلاق.

[فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ و ظننتم أن لا يكون بينهما صلاح في المقام [فَلا جُناحَ عَلَيْهِما] و لا حرج و لا إثم عليهما و في قوله: «عَلَيْهِما» و إن كانت الإباحة للزوج و الفدية له فبيّن الإذن لهما في ذلك ليزول الإبهام أنّ هذا الأمر جائز لهما و قيل: المراد به الزوج و إنّما ذكر معه المرأة لاقترانهما مثل قوله: «يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجانُ» (2) و إنّما هو من الملح دون العذب و مثل قوله: «نَسِيا حُوتَهُما» (3) مجاز للاتّساع [فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ .

ص: 74

1- الآية الآتية: 230.

2- الرحمن: 22.

3- الكهف: 61.

أي بذلت من المال و اختلف في ذلك فعندنا الإماميّة إن كانت الكراهة منها وحدها و خاف منها العصيان جاز أن يأخذ المهر و زيادة عليه، و إن كان البغض و الكراهة منهما فدون المهر. و قيل: إنّه يجوز الزيادة و النقصان من غير تفصيل. و قيل: المهر فقط، رووه عن عليّ عليه السّلام.

و الخلع بالفدية على ثلاثة أوجه: أحدها أن يكون المرأة عجوزة أو ذميمة فيضارّ بها الرجل لتفتدي نفسها فهذا القسم لا يحلّ للزوج أخذ الفدى كقوله: «وَ إِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدالَ زَوْجٍ مَكانَ زَوْجٍ الآية» (1). و الثاني أن يرى الرجل امرأته على فاحشة فيضارّ بها لتفتدي فهذا جائز و هو معنى قوله: «وَ لا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ ما آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ» (2). و الثالث «أَنْ يَخافا أَلَّا يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ» فيجوز أخذ الفدية حينئذ.

[تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ أي أوامره و نواهيه من الطلاق و الخلع و الرجعة و العدّة [فَلا تَعْتَدُوها] و لا تجاوزوها بالمخالفة [وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ و تجاوزها [فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

و استدلّ أصحابنا الإماميّة بهذه الآية على أنّ الطلاق الثالث بلفظ واحد لا يقع لأنّه قال سبحانه: «الطَّلاقُ مَرَّتانِ» ثمّ ذكر الثالث على الخلاف في أنّ ذكر الطلاق الثالث قوله: «أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ» أو قوله: «فَإِنْ طَلَّقَها» و من طلّقها ثلاثا بلفظ واحد لا يقع لأنّه قال: «الطَّلاقُ مَرَّتانِ» و هو لم يأت بالمرّتين و لا بالثالثة كما أنّه لو رمى في الجمار بسبع حصيات دفعة واحدة لم تجزء عنه بلا خلاف و أنّ من أعطى الرجل درهمين لم يجز أن يقال: أعطاه مرّتين حتّى يعطيه دفعتين فكذلك الطلاق.

قوله: [سورة البقرة (2): آية 230]

فَإِنْ طَلَّقَها فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَها فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يَتَراجَعا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُها لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (230)

. بيّن سبحانه حكم التطليقة الثالثة على ما روي عن أبي جعفر عليه السّلام و به قال السدّيّ و الضحّاك.

[فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ] أي هذه المرأة بعد التطليقة الثالثة لا تحلّ لهذا الرجل

1- النساء: 20.

2- النساء: 18.

المطلّق ثلاثا إلّا أن تتزوّج زوجا آخر و يجامعها الزوج الثاني، و اختلف في ذلك قيل:

العقد علم بالكتاب و الوطء بالسنّة. و قيل: بل كلاهما علم بالكتاب لأنّ لفظ النكاح يطلق عليهما و لأنّ العقد مستفاد بقوله: «زَوْجاً غَيْرَهُ» و النكاح مستفاد بقوله: «حَتَّى تَنْكِحَ» و إنّما أوجب اللّه ذلك لعلمه بصعوبة تزوّج المرأة على الرجل حتّى لا يعجّلوا بالطلاق و أن يثبّتوا.

[فَإِنْ طَلَّقَها] الزوج الثاني [فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يَتَراجَعا] و يعقدا بينهما عقد النكاح و يعودا إلى الحالة الأولى فذكر النكاح بلفظ التراجع [أَنْ يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ أي رجيا و ظنّا و قيل: علما و اعتقدا أن يتمكّنا من إقامة حدود اللّه في النكاح من حسن الصحبة و الصلح و المعاشرة المشروعة.

[وَ تِلْكَ إشارة إلى الأحكام المذكورة [حُدُودَ اللَّهِ و أوامره و نواهيه [يُبَيِّنُها] بفضله [لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ لأنّهم المنتفعون ببيان الآيات.

[سورة البقرة (2): آية 231]

وَ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَ لا تُمْسِكُوهُنَّ ضِراراً لِتَعْتَدُوا وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَ لا تَتَّخِذُوا آياتِ اللَّهِ هُزُواً وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ ما أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتابِ وَ الْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْ‌ءٍ عَلِيمٌ (231)

. ثمّ بيّن سبحانه ما يفعل بعد الطلاق و هذا خطاب للأزواج [فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ البلوغ هنا بلوغ القرب أي قاربن انقضاء العدّة لأنّ بعد انقضاء العدّة ليس للزوج الإمساك و هذا كقولك: بلغت البلد إذا قربت منه [فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أي راجعوهنّ بطريق الّذي تستحسنه النفوس شرعا و عادة، و المراد حسن المعاشرة [أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أي خلّوهنّ حتّى تنقضي عدّتهنّ من غير إيذاء [وَ لا تُمْسِكُوهُنَّ ضِراراً] أي لا تراجعوهنّ بقصد الإضرار حالكونكم مضارّين لهنّ.

فإن قيل: ما الفائدة في ذكر قوله: «وَ لا تُمْسِكُوهُنَّ ضِراراً» بعد قوله: «فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ» لأنّ الأمر بالشي ء نهي عن ضدّه؛ فالجواب أنّ الأمر لا يفيد التكرار و لا بدّ على كون امتثال المأمور به مطلوبا دائما فقوله: «وَ لا تُمْسِكُوهُنَّ» دلّ على أنّ الإمساك المذكور مطلوب منه دائما [لِتَعْتَدُوا] أي لتظلموهنّ بالإلجاء إلى الافتداء.

[وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ الإمساك المؤدّي إلى الظلم [فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ في ضمن ظلمه لهنّ بتعريضها للعقاب [وَ لا تَتَّخِذُوا آياتِ اللّهِ هُزُواً] أي مهزوءا بها بالإعراض عنها و التهاون في العمل بما فيها، و النهي في الآية كناية عن الأمر بضدّه لأنّ المخاطبين مؤمنون ليس من شأنهم الهزء بآيات اللّه أي جدّوا في العمل بها.

ثمّ أكّد سبحانه ذلك الأمر بذكر نعمة اللّه بأن يشكروها و يقوموا بحقوقها بقوله:

[وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّهِ كائنة [عَلَيْكُمْ حيث هداكم إلى ما فيه صلاح عامّتكم و أكمل هذه النعم من النكاح و الطلاق و الرجوع بأيديكم و لم يضيّق عليكم كما ضيّق على الأوّلين منكم حين أحلّ لهم امرأة واحدة و لم يجوّز لهم بعد موت المرأة نكاح أخرى.

[وَ ما أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتابِ يعني العلوم الّتي دلّ بها لكم الشرائع و الأحكام و بيّنها لكم في أموركم [يَعِظُكُمْ بِهِ و ينبّهكم عليه [وَ اتَّقُوا اللّهَ في عصيانه أو من عقابه [وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ من أفعالكم و غيرها.

[سورة البقرة (2): آية 232]

وَ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْواجَهُنَّ إِذا تَراضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِكُمْ أَزْكى لَكُمْ وَ أَطْهَرُ وَ اللّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (232)

. نزلت في معقل بن يسار حين عضل و حبس أخته جملاء أن ترجع إلى الزوج الأوّل و هو عاصم بن عديّ فإنّه كان طلّقها و خرجت من العدّة ثمّ أرادا أن يجتمعا بعقد آخر فمنعها من ذلك فنزلت الآية، عن قتادة و الحسن و جماعة. و قيل: نزلت في جابر بن عبد اللّه عضل بنت عمّ له و الوجهان لا يصحّان على مذهبنا؛ لأنّه لا ولاية للأخ و ابن العمّ عندنا و لا تأثير بعضلهما فالوجه في ذلك أن تحمل الآية على المطلّقين فكأنّه قال: لا تعضلوهنّ أي لا تحبسوهنّ بالمراجعة عند قرب انقضاء عدّتهنّ لأجل الإضرار لا رغبة فيهنّ فإنّ ذلك لا يسوغ في الدين. و يجوز أن يكون العضل محمولا على الجبر و الحيلولة بينهنّ و بين التزويج دون ما يتعلّق بالولاية و الحاصل أنّه إذا انقضت عدّتهنّ فلا تمنعوهنّ ظلما عن الزوج و خلّوا سبيلهنّ. و قيل: الخطاب للأولياء و منع لهم عن عضلهنّ إذا أردن المطلّقات بعد انقضاء العدّة أن يتزوّجن.

و [أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْواجَهُنَ أي ممّن شئن أن يكونوا أزواجا لهنّ، و الزوجيّة باعتبار ما يكون و إن أريد بهم المطلّقون فإطلاق الزوجيّة باعتبار ما كان [إِذا تَراضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ أي الخطّاب و الطالبين و النساء بينهم بما لا يكون مستنكرا في الشرع و العادة بالنكاح الصحيح.

[ذلِكَ يُوعَظُ بِهِ - إشارة إلى ما ذكر- يزجر و يخوّف به [مَنْ كانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ] لأنّهم المنتفعون به و لأنّهم الأولى بالاتّعاظ به [ذلِكُمْ أَزْكى أي الاتّعاظ و العمل بمقتضاه أنمى و أنفع لكم، من زكا الزرع إذا نما و طهر من أدناس الآثام و أوضار الذنوب و المفضّل عليه محذوف للعلم به أي من العضل [وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما فيه من النفع [وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ لقصور علمكم لأنّ المكلّف لا يعلم وجه الصلاح على وجه التفصيل.

[سورة البقرة (2): آية 233]

وَ الْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ وَ عَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَ كِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَها لا تُضَارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها وَ لا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَ عَلَى الْوارِثِ مِثْلُ ذلِكَ فَإِنْ أَرادا فِصالاً عَنْ تَراضٍ مِنْهُما وَ تَشاوُرٍ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما وَ إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِذا سَلَّمْتُمْ ما آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (233)

. لمّا بيّن سبحانه حكم الطلاق بيّن حكم الرضاع و التربية فقال:

[وَ الْوالِداتُ الصيغة صيغة الخبر و المراد به الأمر أي ليرضعن أولادهنّ كقوله:

«يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ» إذ لو كان خبرا لكان كذبا لجواز أن يرضعن أكثر من حولين أو أقلّ، و الأمر أمر استحباب لا أمر إيجاب أي إنّهنّ أحقّ برضاعهم من غيرهنّ بدليل قوله: «وَ إِنْ تَعاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى . (1) ثمّ بيّن مدّة الرضاع [حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ أربعة و عشرين شهرا و إنّما ذكر «كامِلَيْنِ» و إن كانت التثنية تأتي على معنى استيفاء العدّة. (2) و الآية لبيان المندوب من الرضاع و المفروض منه: فالمندوب هو أن يجعل الرضاع تمام الحولين و المفروض هو أنّ المرضعة تستحقّ الاجرة

1- الطلاق: 6.

2- كذا في الأصل.

في مـدّة الحولين و لا تسـتحقّ فيما زاد عليه. و اختلف في هـذا الحال هل هو كلّ مولود أو للبعض فقال ابن عبّاس: ليس لكلّ مولود و لكن لمن ولد لستّة أشهر و إن ولد لسبعة أشهر فثلاثة و عشرون و إن ولد لتسعة أشهر فأحد و عشرون تطلب بذلك تكلمة ثلاثين شهرا في الحمل و الفصال، و على هذا يدلّ ما رواه أصـحابنا في هذا الباب؛ لأنّهم رووا أنّ ما نقص عن أحد و عشرين شهرا فهو جور على الصبيّ. و الرضاع بعد الحولين لا حكم له عندنا في التحريم و به قال ابن عبّاس و ابن مسعود و أكثر العلماء.

و قوله: [لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَـ ةَ] يـدلّ على أنّ الرضـاع غير واجب على الأـمّ لأنّه علّقه بالإرادة و قال جماعـة منهـم قتادة: فرض اللّه على الوالـدات أن يرضـعن أولادهنّ حولين ثمّ أنزل الرخصـة بعد ذلك فقال: «لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ» يعني أنّ هذا منتهى الرضاع و ليس فيما دون ذلك حدّ محدود و إنّما هو على مقدار صلاح الصبيّ و ما يعيش به.

[وَ عَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ يعني الأب [رِزْقُهُنَّ وَ كِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ و المراد نفقـة الأمّ على الأب مادامت في الرضاعـة اللازمة و ذلك في المطلّقة على قـدر اليسـار و إنّما لم يقل: «على الوالـد» ليعلم أنّ الأولاد للآباء و ينسـبون إليهم لا إلى الأمّهات و كـذلك أجر الرضاع للأظئار على الآباء [لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْـ عَها] و التكليف الإلزام بأمر كأنّه قيل: لم لم تجب مؤونة الأمّهات في الرضاع على أنفسـهنّ فأجيب بأنّهن غير قـادرات على الكسب لضـعف بنيتهنّ فلو أوجب مؤنهنّ على أنفسـهنّ لزم تكليف العـاجز، و كـذا لو أوجب تلك المؤن على الأزواج على خلاف المعروف [لا تُضَارَّ والِـدَةٌ بِوَلَدِها] نهي أصـله لا تضار بكسـر الراء الأولى؛ فتكون المرأة هي الفاعلة للضـرار فيكون المعنى لا تترك الوالـدة إرضاع ولـدها غيظا على أبيه لأنّ الوالـدة أشـفق على ولدها من الأجنبيّة، و بفتح الراء الأولى فتكون المرأة هي المفعول لها الضـرار فالمعنى لا يفعل الأب الضرار بالأمّ بأن ينتزع الولد منها.

قوله: [وَ لا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ أي لا يأخذه من أمّه طلبا للإضـرار بها أو و لا تفعل الأمّ الضـرار بالأب بأن تلقي الولد عليه و هو أن يغيظ أحدهما صاحبه بسبب الولد، و إضافة الولد إلى كلّ منها لاستعطافهما إليه و لا ينبغي أن يضرّا به أو يتضارّا بسببه و إنّما

قال: «تضارّ» و الفعل من واحد لأنّه لمّا كان معناه المبالغة كان بمنزلة أن يكون الفعل من اثنين كأنّه يقول: لا تضارّ والدة ولدها و لا والد ولده؛ فالباء زائدة.

قال الصادقان عليهما السّلام: «لا تُضَارَّ والِدَةٌ» بأن يترك جماعها خوف الحمل لأجل ولدها المرتضع «وَ لا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ» أي لا تمنع نفسها من الأب خوف الحمل فيضرّ ذلك بالأب (1). و قيل: المراد من قوله: «لا تُضَارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها» بأن ينتزع الولد منها و تسترضع امرأة غيرها مع إجابتها إلى الرضاع باجرة المثل فعلى هذا يكون معنى «بولدها» بسبب ولدها «و لا مولود له» أي لا تمتنع هي من الإرضاع إذا أعطيت اجرة مثلها. قال الطبرسيّ: و ليس بين هذه الأقوال تناف فالأولى حمل الآية على الجميع.

[وَ عَلَى الْوارِثِ أي وارث الصبيّ و قيل: المراد وارث الوالد و هو الأقوى [مِثْلُ ذلِكَ أي مثل ما كان على الوالد من النفقة و الرضاع أو مثل ما كان على الوالد من ترك المضارّة و المفهوم عند أهل التفسير الأمران معا.

و اختلفوا في أنّ النفقة على كلّ وارث أو على بعضهم فقيل: هي على العصبات دون أصحاب الفرائض من الأمّ و الإخوة من الأمّ. و قيل: على وارث الصبيّ من الرجال و النساء على قدر النصيب من الميراث. و قيل: على الوارث ممّن كان ذا رحم محرم دون ذي رحم ليس بمحرم كابن العمّ و ابن الاخت فيجب على ابن الاخت و لم يجب على ابن العمّ و إن كان وارثه في تلك الحال. و قيل: على الوارث أي الباقي من أبويه و هو الصحيح عندنا و هو أيضا مذهب الشافعيّ لأنّ عنده لا يجبر على نفقة الرضاع إلّا الوالدان فقط. و قد روي في أخبارنا أنّ على الوارث- كائنا من كان- النفقة.

قوله تعالى: [فَإِنْ أَرادا فِصالًا] أي أراد الوالدان فطام الولد قبل الحولين و هو المرويّ عن أبي عبد اللّه و قيل: قبل الحولين و بعد الحولين فيكون الفصال صادرا [عَنْ تَراضٍ مِنْهُما] من الأب و الأمّ [وَ تَشاوُرٍ] في شأن الولد و اتّفاق من الأبوين لا من أحدهما و إنّما اعتبر اتّفاقهما لما في الأب من الولاية و في الأمّ من الشفقة و هي أعلم بحال الصبيّ [فَلا جُناحَ عَلَيْهِما] في ذلك بعد استقرار رأيهما و تشاورهما في الصلاح و ما هو خير للولد.

1- منقول بالمعنى و الاختصار. البرهان 1: 225.

[وَ إِنْ أَرَدْتُمْ أيّها الآباء [أَنْ تَسْتَرْضِعُوا] المراضع [أَوْلادَكُمْ أي لأولادكم و طلبتم أن تأخذوا ظئرا لإرضاع أولادكم [فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ و لا إثم في الاسترضاع، و فيه دلالة على أنّ للأب أن يسترضع الولد غير امّهاتهم لامتناع امّهاتهم الرضاع أو لعلّة بهنّ من انقطاع لبن أو غيره [إِذا سَلَّمْتُمْ إلى المراضع [ما آتَيْتُمْ أي ما أردتم إيتاءه [بِالْمَعْرُوفِ بالوجه المتعارف المستحسن شرعا فإنّ المراضع إذا أعطين ما قدّر لهنّ ناجزا يدا بيد كان ذلك أدخل في إصلاح شؤون الأطفال.

و قيل: المراد من «المعروف» أن يكون الأجر من الحلال لأنّ المرضع إذا أكلت الحلال كان اللبن أنفع للصبيّ و أقرب إلى صلاحه و أنّ العادة جارية إنّ من ارتضع امرأة يغلب عليه أخلاقها من خير و شرّ و أنّ لبن الحمقاء يسري، و قصّة الشيخ الجوينيّ و ابنه أبو المعالي و ما يحصل له أحيانا كبوة في المناظرة معروفة.

[وَ اتَّقُوا اللَّهَ في مراعاة الأحكام المذكورة [وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ] فيجازيكم بذلك. في الحديث حبّ الأولاد ستر من النار و كراماتهم جواز على الصراط و الأكل معهم براءة من النار. أقول: بشرط الصلاح أو عدم بروز الفساد منهم لا كبعض النفقات الّتي هي مسبّبة لوقوع الفساد في الدين كنفقات بعض الحمقاء من الآباء لأولادهم في مصارف تعلّم الألسنة الخارجة و يحسبون أنّهم يحسنون صنعا فالمنفق لولده لتعلّم اللسان الخارجة فقد يرمي سهما لتمزيق القرآن بل الصحف السماويّة قاطبة.

و العجب أنّ بعض الحمقاء يقصدون بهذا الإنفاق التبرّع لكنّ العقلاء منهم و هم إخوان الشياطين يقصدون بذلك استيصال الإسلام و قد ظفروا بما قصدوا و يظهرون النصح و التربية «وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ» فالنفقات المستحسنة ما كانت فيها إطاعة لأوامر اللّه لا ضارّة لدينه.

و في الحديث أربع نفقات لا يحاسب العبد بهنّ يوم القيامة: نفقة على أبويه و نفقة على على إفطاره و نفقة على سحوره و نفقة على عياله «وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ» و لا يجتمع الهوى و حبّ اللّه.

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 234]

وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذَرُونَ أَزْواجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ عَشْراً فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (234)

و قرء في الشواذ «يتوفّون» بفتح الياء.

و لمّا بيّن سبحانه عدّة المطلّقات بيّن في هذه الآية عدّة الوفاة فقال:

[وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ و يموتون و يتركون [أَزْواجاً] أي نساء [يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَ أي ينتظرن انقضاء العدّة و يحبسن أنفسهنّ عن التزويج معتدّات [أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ عَشْراً] أي و عشر ليال و عشرة أيّام سواء كانت مدخولا بها أو غير مدخول بها حرّة كانت أو أمة فإن كانت حبلى فعدّتها أبعد الأجلين من وضع الحمل أو مضيّ أربعة أشهر و عشر فأيّهما أطول و أبعد فعدّتها ذلك و وافقنا في مسألة عدّة الأمة الأصمّ من فقهاء الجماعة و خالف الباقون فقالوا: عدّتها شهران و خمسة أيّام و ذهب إلى هذا القول قوم من أصحابنا أيضا و الّذي يجب على المعتدّة بعدّة الوفاة اجتنابها عن الزينة و الكحل و ترك النقلة من المنزل و الامتناع من التزوّج لا غير عند البعض لكن عندنا الإماميّة أنّ جميع ذلك واجب.

[فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَ أي آخر العدّة بإنقضائها [فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ قيل: خطاب للأولياء.

و قيل: لجميع المسلمين لأنّه يلزمهم منعها عن التزوّج في العدّة.

و قيل: المعنى: لا جناح عليكم و على النساء [فِيما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَ من النكاح و استعمال الزينة [بِالْمَعْرُوفِ ما يكون جائزا من الزينة الجائزة و النكاح الحلال على وجه لا ينكره الشرع [وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ] فيجازيكم عليه فلا تعملوا خلاف ما أمرتم به.

[سورة البقرة (2): آية 235]

وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّساءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَ لكِنْ لا تُواعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاَّ أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفاً وَ لا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتابُ أَجَلَهُ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (235)

. «التعريض» ضدّ التصريح أي لا حرج و لا ضيق عليكم يا معشر الرجال [فِيما عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّساءِ] المعتدّات بعدّة الوفاة «و التعريض» إفهام المعنى دون التصريح بالشيء المحتمل له و لغيره و لمّا علم اللّه أنّ المرأة إذا مات زوجها قد يكون عليها مسحة من الجمال

أولهـا مال يرغب الناس فيها فأذن للراغب أن يعرض و لا يصـرّح بالخطبة في العـدّة «و الخطبـة» بالكسـر التماس النكاح و بالضـمّ الكلام المشـتمل على الوعـظ يقـال: خطب المرأة أي خاطبها في أمر النكاح و هـذا الحكم لهنّ أي المعتـدّات بالوفاة و أمّا النساء اللاتي لا تكون منكوحة الغير و لا معتدّة من طلاق رجعيّ فإنّ خطبتهنّ جائزة تصـريحا إلّا أن يخطبها رجل فيجاب بالرضى صريحا فههنا لا يجوز لغيره أن يخطبها و إن لـم يوجد صريح الإجابة و لا صريح الرّد ففيه خلاف.

و مثال التعريض مثل أن يقول للبخيل و الممسك ما أقبـح البخل! و تقول للمرأة الّتي تطلب نكاحها و هي في العـدّة: إنّي أريد النكاح و إنّي أحب امرأة من صفتها كذا كذا فتذكر بعض الصفات الّتي هي عليها.

[أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ أي أضـمرتـم و أبرزتـم من نكاحهنّ [عَلِمَ اللّٰهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَ برغبتكم فيهنّ خوفا منكم أن يسـبقكم إليهنّ غيركم فأباح لكم ذلك [وَ لٰكِنْ لا تُواعِدُوهُنَّ سِرًّا] فيه أقوال: أحدها أنّ معناه لا تواعدوهنّ في السرّ لأنّها أجنبيّة و المواعدة في السرّ يدعو إلى ما لا يحلّ.

و قيـل: معنـاه الزنا عن الحسن و إبراهيم و قتادة و قالوا: كان الرجل يـدخل على المرأة من أجل الزنا و هو معرض للنكاح فنهوا عن ذلك. و ثالثها أنّه العهد على الامتناع من تزويج غيره. و رابعها هو أن يقول لها: إنّي ناكحك فلا تفوتيني نفسك. و خامسـها أنّ معنى السرّ هو الجماع أي لا تصـفوا أنفسـكم بكثرة الجماع. و تجمع هذه الأقوال ما روي عن الصادق عليه السّـلام أنّه قال: لا تصـرّحوا لهنّ النكاح و التزويج قال عليه السّلام: و من السرّ أن يقول لها: موعدك بيت فلان.

[إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفاً] يعني التعريض الّـذي أباحه اللّه و «إلّا» في الآية بمعنى لكن لأنّ ما قبله هو المنهيّ عنه و ما بعده هو المأذون فيه أي و لكن قولوا قولا معروفا و مواعدة غير منكرة.

[وَ لا تَعْزِمُوا] العزم عبارة عن عقـد القلب على فعل من الأفعال قال الراغب: إنّ دواعي الإنسان إلى الفعل لها مراتب: السانح ثمّ الخاطر ثمّ التفكّر فيه ثمّ الإرادة ثمّ الهمّة

ثمّ العزم و العقد على إمضائه [عُقْدَةَ النِّكاحِ أي على عقدة النكاح و المقصود النهي عن تزوّج المعتدّة في زمان عدّتها إلّا أنّه نهى عن العزم على عقدة النكاح و عزمه للمبالغة في النهى عن النكاح في زمان العدّة فإنّ العزم على الشي ء متقدّم عليه و النهي عن مقدّمات الشي ء يستلزم النهي عن ذلك الشي ء بطريق أولى و لم يرد سبحانه عن العزم على النكاح بعد العدّة أي لا تحقّقوا ذلك و لا تنشئوه.

[حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتابُ أَجَلَهُ أي تنقضي العدّة و قيل: الكتاب هو القرآن يعني حتى يبلغ ما فرض في القرآن من أجل العدّة و ينقضي الأجل المضروب. و قيل: حتّى يبلغ الأجل المكتوب و الكتب بمعنى الفرض كما قال: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ» أي فرض و المعاني يؤول إلى معنى واحد.

[وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي أَنْفُسِكُمْ من العزم على ما لا يجوز [فَاحْذَرُوهُ بالاجتناب عن العزم ابتداء و إقلاعا عنه بعد تحقّقه [وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ لا يعاجلكم بالعقوبة فلا تستدلّوا بتأخيرها بعدم العقوبة.

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 236]

لا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّساءَ ما لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَ مَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَ عَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (236)

. أي لا تبعة عليكم من مهر أو وزر إن طلّقتم النساء المعقودات [ما لَمْ تَمَسُّوهُنَ أي ما لم تجامعوهنّ [أَوْ تَفْرِضُوا] أي إلّا أن تفرضوا [لَهُنَّ فَرِيضَةً] أي تسمّوا لها مهرا و ذلك أنّ المطلّقة غير المدخول بها إن سمّي لها مهر فلها نصف المسمّي كما في الآية الآتية و إن لم يسمّ لها مهر فليس لها إلّا المتعة كما في هذه الآية و الحكمان مرويّان أيضا رواهما العيّاشيّ و في الكافي عن الصادق عليه السّلام (1).

و رفع الإثم عن الطلاق قبل الدخول لئلّا يتوهّم أحد أنّ الطلاق في هذه الحالة لا يجوز بل يجوز و المفروض صداقها داخلة في دلالة الآية و إن لم يذكر لأنّ التقدير: لا بأس

1- الكليني عن على عن أبيه عن ابن ابى عمير عن حفص و العيّاشي عن ابى الصباح عن الصادق عليه السّلام. البرهان.

بالطلاق ما لم تمسّوهن ممّن فرضتم لهنّ أولم تفرضوا؛ لأنّ «أو» في قوله: «أو تفرضوا» تنبئ عن ذلك إذ لو كان على الجمع لكان بالواو.

و أيضا في الآية خصّ سبحانه الّتي لم يدخل بها بالذكر في رفع الجناح لأنّه يجوز أن يطلّق الرجل الّتي لم يدخل بها أيّ وقت شاء بخلاف المدخول بها فإنّه لا يجوز أن يطلّقها إلّا في طهر لم يجامعها فيه، و قال أهل الجماعة: رفع الجناح في الآية بمعني نفي المهر أي لا تبعة من مهر بغير الممسوسة و إنّهم لا يشترطون أن يقع الطلاق في طهر غير المواقعة بل متى وقع صحّ عندهم.

[وَ مَتِّعُوهُنَ أي أعطوهنّ من مالكم ما يتمتّعن و ينتفعن به و اختلفوا في أنّ الأمر بالتمتيع لمن؟ قيل: لمطلق المطلّقات إلّا المختلعة و المبارئة و الملاعنة. و قيل: المتعة لكلّ مطلّقة سوى المطلّقة المفروض لها إذا طلّقت قبل الدخول فإنّما لها نصف الصداق و لا متعة لها و هو مذهب الشافعيّ و قد رووه أصحابنا أيضا (1)، و ذلك محمول على الاستحباب. (2) [عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ أي الّذي له سعة إمكانه و طاقته و القدر و القدر لغتان أو أنّ الساكن مصدر و المتحرّك اسم كالعدّ و العدد و المدد و المدّ بالتسكين الوسع يقال: هو ينفق على قدره أي على وسعه، و بالتحريك المقدار [وَ عَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ أقتر الرجل إذا صار ذا قترة و افتقر و القترة الغبار أي على الفقير الّذي هو في ضيق بقدر إمكانه من رزق و كسوة و خادم و المتعة معتبرة بحاله لا بحالها قيل: لا تنقص عن خمسة دراهم و لا يزاد على نصف مهر المثل [مَتاعاً] اسم لمصدر الفعل المذكور من قبيل «أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً» (3) فيكون متاعا بعوض تمتيعا ملتبسا [بِالْمَعْرُوفِ بالوجه الّذي يستحسنه الشرع و المروءة [حَقًّا] صفة «متاعا» أي واجبا على الّذين يحسنون الطاعات، و في التهذيب عن الصادق عليه السّلام أنّ متعة المطلّقة فريضة. هذا كلّه في المطلّقة فأمّا المتوفّى عنها زوجها إذا لم يفرض لها صداق فلها الميراث و عليها العدّة إجماعا.

1- الكليني عن ابن عيسى عن العلاء عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السّلام: سألته عن الرجل يطلق امرأته قال: يمتعها قبل ان يطلق. البرهان.

2- و يشهد له رواية حفص المتقدمة.

3- نوح: 17.

[سورة البقرة (2): آية 237]

وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَ قَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكاحِ وَ أَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى وَ لا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (237)

. بيّن سبحانه حكم الطلاق قبل المسيس بعد الفرض أي إن طلّقتم أيّها الرجال النساء [مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَ أي قبل أن تجامعوهنّ [وَ قَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً] أي أوجبتم لهنّ صداقا و عيّنتم مهرا [فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ أي عليكم نصف ما قدّرتم من المهر المسمّى.

[إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ يعني الحرائر البالغات غير المولّى عليهنّ لفساد عقولهنّ أي لا يطالبن الأزواج و يهبن [أَوْ يَعْفُوَا] و يترك و يهب [الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكاحِ قيل:

هو الوليّ عن مجاهد و جماعة و هو المرويّ عن الصادق عليهما السّلام و هو مذهب الشافعيّ غير أنّ عندنا الوليّ هو الأب و الجدّ مع وجود الأب الأدنى على البكر غير البالغ فأمّا من عداهما فلا ولاية له إلّا بتوليتها إيّاه (1).

[وَ أَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى خطاب للزوج و المرأة أو للزوج وحده و إنّما جمع لأنّه خطاب لكلّ زوج و المراد من العفو أن يعطيها الصداق كاملا النصف الّذي واجب عليه و النصف الساقط العائد إليه بالتنصيف بسبب الطلاق، و تسمية الزياده على الحقّ عفوا لما كان الغالب عندهم أنّ الزوج كان يسوق إليها كلّ المهر عند التزوّج قبل المسيس فإذا طلّقها قبل الدخول فقد استحقّ أن يطالبها بنصف ما ساق إليها فإذا ترك المطالبة فقد عفا عنها.

[وَ لا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ أي لا تتركوا الفضل و الإفضال فيما بينكم بإعطاء الرجل تمام الصداق و ترك المرأة نصيبها فحثّهما على الإحسان و الإفضال [إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ] و لا يضيع ما عملتم من الإحسان «و البصر» في حقّه تعالى علمه و إحاطته المبصرات و المعلومات و الحظّ الدينيّ من البصر للعبد أنّه ينظر إلى الآيات و عجائب الملكوت و الملك بحيث يكون نظره عبرة، و الحظّ الدنيويّ أن يرى المحسوسات.

1- و في بعض الروايات هو الأب و الأخ و الرجل يوصى إليه و الذي يجوز امره في مال للمرأة إلّا ان الفتيا لم تبسط هذا البسط المشاة.

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 238]

حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَ الصَّلاةِ الْوُسْطى وَ قُومُوا لِلَّهِ قانِتِينَ (238)

. و محافظة الصلوات أداؤها لوقتها و المداومة عليها و المراد الصلوات الخمس في كلّ يوم و ليلة ثبت عددها بغيرها من الآيات و الأحاديث المتواترة و بإشارة في هذه الآية و هو قوله: «الوسطى» تأنيث الأوسط و هو الشي ء بين الشيئين على جهة الاعتدال و هي ما اكتنفه عددان متساويان و أقلّ ذلك خمسة لا يقال: إنّ الثلاث بهذه الصفة لأنّ الثلاث لا يكتنفها عددان فإنّ الّذي قبلها واحد و الّذي بعدها واحد و هو ليس بعدد فإنّ العدد ما إذا اجتمع طرفاه صارا ضعفه و ليس له طرفان فإنّه ليس قبله شي ء.

و خصّ «الوسطى» بالذكر تفخيما لشأنها كقوله «مَنْ كانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ وَ مِيكالَ» (1) أي و الصلاة الوسطى خاصّة فداوموا عليها.

ثمّ اختلفوا في الصلاة الوسطى قيل: إنّها صلاة الظهر عن زيد بن ثابت و ابن عمر و أبي سعيد الخدريّ و اسامة و عائشة و هو المرويّ عن أبي جعفر و أبي عبد اللّه عليهما السّلام (2) و ذكر بعض أئمّة الزيديّة أنّها الجمعة يوم الجمعة و الظهر سائر الأيّام و رواه عن عليّ عليه السّلام و يدلّ عليه أنّها وسط النهار. و أوّل صلاة فرضت الظهر.

و قيل: إنّها صلاة العصر عن ابن عبّاس و الحسن و روي ذلك عن عليّ عليه السّلام و ابن مسعود و قتادة و الضحّاك و روي مرفوعا إلى النبيّ صلّى اللّه عليه و آله قالوا: لأنّها بين صلاتي النهار و صلاتي الليل و روي عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: بكّروا بالصلاة في يوم الغيم فإنّه من فاتته صلاة العصر حبط عمله.

و قيل: إنّها المغرب لأنّها وسط في الطول و القصر من بين الصلوات؛ روى الثعلبيّ بإسناده عن عائشة قالت: قال رسول اللّه: إنّ أفضل الصلوات عند اللّه المغرب لم يحطّها اللّه عن مسافر و لا مقيم فتح اللّه بها صلاة الليل و ختم بها صلاة النهار فمن صلّى المغرب و صلّى

1- السورة: 98.

2- الفقيه: ابو بصير عن الصادق. العيّاشي: محمّد بن مسلم عن الباقر عليهما السّلام و في معناهما عدة روايات أخر. البرهان. على بن ابراهيم: 68.

بعدها ركعتين بنى اللّه له قصرا في الجنّة و من صلّى بعدها أربع ركعات غفر اللّه له ذنب عشرين أو أربعين سنة.

و قيل: إنّها صلاة العشاء الآخرة لأنّها بين صلاتين لا تقصران؛ روي عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال: من صلّى العشاء الآخرة في جماعة كان كقيام نصف ليلة و من صلّى الفجر في جماعة كان كقيام ليلة.

و قيل: صلاة العصر قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: الّذي تفوته صلاة العصر فكأنّما وتر أهله و ماله.

و قيل: إنّها صلاة الصبح عن معاذ و ابن عبّاس و جابر بن عبد اللّه و عطا و عكرمة و مجاهد و الشافعيّ قالوا: لأنّها بين صلاتي الليل و صلاتي النهار و بين الظلام و الضياء و هي صلاة لا تجمع مع غيرها و هي منفردة بين مجتمعتين و يدلّ عليه قوله: «وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً» (1) و فيه قول آخر: و هو أنّها إحدى الصلاة الخمس و لم يعيّنها و أخفاها في جملة الصلوات الخمس ليحافظوا على جميعها و لم يتركوا واحدة منها كما أخفى ليلة القدر و اسمه الأعظم في الأسماء و ساعة الإجابة في ساعات الجمعة و أخفى وقت الموت في الأوقات ليكون المكلّف خائفا من الموت في كلّ الأوقات فيكون آتيا بالتوبة في كلّ الأوقات كما سئل زيد بن ثابت عن الصلاة الوسطى فقال: حافظ على الصلوات الخمس تصبها، و كذلك سئل الربيع ابن خثيم عن صلاة الوسطى قال: حافظ على الكلّ تكن محافظا على الوسطى ثمّ قال للسائل:

و لو علمتها بعينها لكنت محافظا عليها و مضيّعا لسائرهنّ.

و قيل في تفسير الآية قول آخر و هو أنّ صلاة الوسطى مجموع صلوات الخمس لأنّها هي الوسطى من الطاعات حيث التفت و تقريره أنّ الإيمان بضع و سبعون درجة أعلاها شهادة أن لا إله إلّا اللّه و أدناها إماطة الأذى عن طريق المسلمين مثلا و الصلاة المكتوبة دون الإيمان و فوق إماطة الأذى فهي واسطة بين الطرفين.

[وَ قُومُوا لِلّهِ قانِتِينَ أي كونوا ذاكرين له في القيام قال ابن عبّاس: معناه داعين و القنوت هو الدعاء في الصلاة في حال القيام و هو المرويّ عن الباقرين عليهما السّلام (2). و قيل: معناه

1- الإسراء: 78.

2- الطبرسي مرسلا.

طائعين و قيل: خاشعين نهوا عن العبث و الالتفات في الصلاة «و قانتين» حال من فاعل «قوموا» و كانوا إذا قاموا إلى الصلاة هابوا الرحمن أن يمدّوا أبصارهم أو يلتفتوا أو يحدثوا أنفسهم بشي ء من امور الدنيا إلّا ناسيا.

[سورة البقرة (2): آية 239]

فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجالاً أَوْ رُكْباناً فَإِذا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَما عَلَّمَكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (239)

. «الرجال» مثل قيام جمع راجل و تجار جمع تاجر أي إن كان بكم خوف من عدوّ أو غير [فَرِجالًا] منصوب على الحال و عامله محذوف تقديره فصلّوا راجلين «و الراجل» هو الكائن على رجله ماشيا كان أو واقفا [أَوْ رُكْباناً] أي راكبين على ظهور دوابّكم و عنى سبحانه صلاة الخوف و هي ركعتان في السفر إلّا في المغرب فإنّها ثلاث ركعات و يروى «فرجالا» بضمّ الراء و التخفيف و «رجّال» بالتشديد و ضمّ الراء و «رجّلا» و شرح صلاة الخوف مبسوط في كتب الفقه و هي تختلف أيضا في حال الحرب و في غير حال الحرب و عن ابن عبّاس أنّ صلاة الخوف ركعة قال الرازيّ: و هو قول متروك و الجمهور على خلافه.

[فَإِذا أَمِنْتُمْ من الخوف و زال [فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَما عَلَّمَكُمْ أي صلّوا على الترتيب المبيّن لكم في الأوقات المتعارفة كما علّمكم في امور صلاتكم و دينكم [ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ قبل البيان.

و عن كعب الأحبار أنّه قال: قال اللّه لموسى في مناجاته: يا موسى أربع ركعات يصلّيها أحمد و امّته و هي صلاة الظهر أعطيهم في أوّل ركعة منها المغفرة و في الثانية أثقّل ميزانهم و في الثالثة أوكّل بهم الملائكة يسبّحون و يستغفرون لهم لا يبقى ملك في السماء و لا في الأرض إلّا و يستغفر لهم و من استغفرت له الملائكة لم اعذّبه أبدا و في الرابعة أفتح لهم أبواب السماء و تنظر إليهم الحور العين.

يا موسى أربع ركعات يصلّيها أحمد و امّته و هي صلاة العصر ما يسألون منّي حاجة إلّا قضيت لهم.

يا موسى ثلاث ركعات يصلّيها أحمد و امّته و هي صلاة المغرب أفتح لهم أبواب السماء.

يا موسى أربع ركعات يصلّيها أحمد و أمّته و هي صلاة العشاء خير لهم من الدنيا و ما فيها و يخرجون من الدنيا كيوم ولدتهم امّهاتهم.

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 240]

وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذَرُونَ أَزْواجاً وَصِيَّةً لِأَزْواجِهِمْ مَتاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْراجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِي ما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (240)

. أي يموتون يسمّي المشارف إلى الوفاة متوفّيا تسمية للشي ء باسم ما يؤول إليه و قرينة المجاز امتناع الوصيّة بعد الوفاة [وَ يَذَرُونَ أَزْواجاً] أي يتركون نساء من بعدهم [وَصِيَّةً لِأَزْواجِهِمْ قرئ وصيّة بالنصب أي لوصوا وصيّة و القراءة على الرفع مبتدأ و الظرف خبره و حسن الابتداء بالنكرة لأنّه موضع تخصيص كما في سلام عليكم فليوصوا وصيّة لهنّ أو المعنى وصيّة من اللّه لأزواجهم أو عليهم وصيّة لهنّ [مَتاعاً إِلَى الْحَوْلِ يعني ما ينتفعن به حولا- من النفقة و كان يحب على الّذين يتوفّون أن يوصوا قبل الاحتضار لأزواجهم حولا بالنفقة و الكسوة و السكنى.

قيل: نزلت الآية في رجل من أهل الطائف يقال له حكيم بن الحارث هاجر إلى المدينة و له أولاد و معه أبواه و امرأة و مات فأنزل اللّه هذه الآية فأعطى النبيّ صلّى اللّه عليه و آله والديه و أولاده من ميراثه و لم يعط امرأته شيئا و أمرهم أن ينفقوا عليها من تركة زوجها حولا و كان عدّة الوفاة في بدو الإسلام حولا- و كان يحرم على الوارث إخراجها من البيت قبل تمام الحول و كان نفقتها واجبة في مال زوجها ما لم تخرج، و لم تكن لها ميراث فإن خرجت من بيت زوجها سقطت نفقتها و كان على الرجل أن يوصي بها فكان الحكم كذلك ثمّ نسخت بآية المواريث بعدو نسخ عدّة الحول بأربعة أشهر و عشر.

[غَيْرَ إِخْراجٍ أي لا- يخرجن من بيوت الأزواج [فَإِنْ خَرَجْنَ بأنفسهنّ قبل الحول من غير أن يخرجهنّ الورثة [فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ يا معشر الأولياء [فِي ما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ و اختلفوا في رفع الجناح قيل: لا جناح في قطع النفقة و المسكن عنهنّ إن خرجن قبل الحول و بطل الحقّ الّذي لهنّ بالإقامة كان واجبا. و قيل: المعنى لا جناح عليكم في ترك منعهنّ من الخروج لأنّ مقامها سنة في البيت غير واجب لكن قد خيّرها اللّه في

ذلك و قيل: معنى الآية: لا جناح عليكم أن تزوّجن بعد انقضاء العدّة و على هذا فالمراد من قوله: «مِنْ مَعْرُوفٍ» التزويج و النكاح.

[وَ اللَّهُ عَزِيزٌ] غالب على أمره يعاقب من خالفه [حَكِيمٌ يراعى في أحكامه مصالح عباده

[سورة البقرة (2): الآيات 241 الى 242]

وَ لِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (241) كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (242)

لمّا بيّن أحوال المعتدّات بيّن ما يجب لهنّ من المتعة و اختلف فيه فقال سعيد بن جبير و أبو العالية و الزهريّ: إنّ المراد بهذا المتاع المتعة و أنّ المتعة حسب ما ذكرت قبل هذا واجبة لكلّ مطلّقة و قال أبو عليّ الجبّائيّ: المراد بها النفقة و هو المتاع المذكور في قوله: «مَتاعاً إِلَى الْحَوْلِ» و قال سعيد بن المسيّب: الآية منسوخة بقوله: «فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ» قال الطبرسيّ: و عندنا لا تجب المتعة إلّا للمطلّقة الّتي لم يدخل بها و لم يفرض لها مهر فأمّا المدخول بها فلها مهر مثلها و إن لم يسمّ لها مهر و إن سمّي لها مهر فما سمّي لها و غير المدخول المفروض مهرها لها نصف المهر و لا متعة لها و لا بدّ من تخصيص هذه.

و قال صاحب تفسير روح البيان: معنى الآية: و للمطلّقات سواء كنّ مدخولا بهنّ أم لا متاع أي مطلق المتعة الشاملة للمستحبّة و الواجبة فإن كانت المطلّقة غير مدخولة و غير مفروضة الصداق وجبت المتعة لها و إن كانت غير ذلك يستحبّ لها و لفظ التمتّع المدلول عليه «بمتّعوهنّ» في الآية السابقة يحمل على الواجب و هذه في المستحبّ فلا منافاة في الآيتين.

[بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ أي متاع متلبّس بالمعروف شرعا و عادة ممّا ينبغي على من كان متّقيا.

[كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ أي كما يبيّن اللّه لكم الأحكام و الآداب الّتي مضت ممّا تحتاجون إلى معرفتها في دينكم بيّن لكم هذه الأحكام فشبّه البيان الّذي يأتي بالبيان الماضي [لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ أي لكي تفهموا و تكمل عقولكم فإنّ العقل الغريزيّ يكمل بالعقل المكتسب و برؤية الآيات.

ص: 91

[سورة البقرة (2): آية 243]

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ هُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْياهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (243)

. لمّا ذكر اللّه قوله: «يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ» ذكر آية من آياته فقال: [أَ لَمْ تَرَ] أي ألم ينته علمك أيّها السامع [إِلَى خبر هؤلاء [الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ نزل سماعهم القصّة منزلة رؤيتهم تنبيها على ظهورها و تحقّقها و معنى الرؤية هاهنا رؤية القلب و هي بمعنى العلم و كلّ ما وقع في القرآن «ألم تر» و لم يعاينه النبيّ صلّى اللّه عليه و آله فهو بمعنى العلم و حاصله اعلم ذلك لأنّ همزة الاستفهام إذا دخلت على النفي أو على الاستفهام صار إيجابا و تقريرا.

و الّذين خرجوا قيل: إنّهم قوم من بني إسرائيل فرّوا من الطاعون وقع بأرضهم و قيل: فرّوا من الجهاد و قد كتب عليهم عن الضحّاك و مقاتل و احتجّا بعقيب الآية بقوله:

«وَ قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» و قيل: هم قوم حزقيل و هو ثالث خلفاء بني إسرائيل بعد موسى و ذلك أنّ القيّم بأمر بني إسرائيل بعد موسى يوشع بن نون ثمّ كالب بن يوحنّا- أو يوفنّا- ثمّ حزقيل و قد كان يقال له: ابن العجوز و ذلك أنّ امّه كانت عجوزا فسالت اللّه الولد و قد كبرت و عقمت فوهبه اللّه لها. و قيل: هو ذو الكفل و إنّما سمّي حزقيل ذو الكفل لأنّه كفل سبعين نبيّا نجاهم من القتل و قال لهم: اذهبوا فإنّي إن قتلت كان خيرا من أن تقتلوا جميعا فلمّا جاء اليهود و سألوا حزقيل عن الأنبياء السبعين قال: لهم ذهبوا و لا أدري أين هم و منع اللّه ذا الكفل من أذاهم.

[وَ هُمْ أُلُوفٌ أجمع أهل التفسير بأنّ المراد «بألوف» كثرة العدد إلّا ابن زيد فإنّه قال: معناه خرجوا مؤتلفي القلوب لم يخرجوا عن تباغض فجعله جمع الآلف مثل قاعد و قعود و شاهد و شهود. و اختلف من قال: المراد به العدد الكثير؛ فقيل: ثلاثة آلاف عن عطا.

و قيل: ثمانية آلاف. و قيل: عشرة آلاف. و قيل: تسعة و ثلاثين ألف. و قيل: أربعين ألف عن ابن عبّاس. و قيل: سبعين ألف و الّذي يقضي به الظاهر أنّهم كانوا أكثر من عشرة آلاف لأنّ بناء فعول للكثرة و هو ما زاد على العشرة و ما نقص عنها يقال: فيه آلاف يقال: عشرة آلاف و لا يقال: عشرة ألوف.

[حَذَرَ الْمَوْتِ أي من خوف الموت [فَقالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْياهُمْ قيل في معناه قولان:

أحدهما أنّ معناه فأماتهم اللّه مثل قولهم: قلت برأسي كذا يعني أمرت و أشرت كذا. و قيل معناه: بقول سمعته الملائكة لضرب من العبرة و الحكمة ثمّ أحياهم اللّه بدعاء نبيّهم حزقيل أو شمعون. قيل: إنّ اسم القرية الّتي خرجوا منها هربا من وبائها دواوردان و قيل: واسط.

قال الكلبيّ و جماعة من أهل التفسير: إنّ ملكا من ملوك بني إسرائيل أمرهم أن يخرجوا إلى قتال عدوّهم فخرجوا و عسكروا ثمّ كرهوا الموت فاعتذروا و قالوا: إنّ الأرض الّتي يأتيها الوباء فلا نأتيها حتّى ينقطع منها الوباء و كان بها الوباء فأرسل اللّه عليهم الموت فلمّا رأوا أنّ الموت كثر فيهم أيضا خرجوا من ديارهم فرارا من الموت حتّى نزلوا واديا بين جبلين ناداهم ملك من أسفل الوادي و ملك آخر من أعلاه أن موتوا فماتوا جميعا من غير علّة بأمر اللّه و ماتت دوابّهم كموت رجل واحد فلمّا مرّ عليهم حزقيل و جعل يتفكّر فيهم متعجّبا فأوحى اللّه تعالى: يا حزقيل تريد أن أراك آية و أراك كيف أحي الموتى؟ قال: نعم، فأحياهم اللّه.

و قيل: إنّهم كانوا قوم حزقيل فأحياهم اللّه بعد ثمانية أيّام و ذلك أنّه لمّا أصابتهم الموتة خرج حزقيل في طلبهم فوجدهم موتى فبكى ثمّ قال: يا ربّ كنت في قوم يحمدونك و يقدّسونك و يسبّحونك فبقيت وحيدا لا قوم لي فأوحى اللّه إليه قد جعلت حياتهم إليك فقال حزقيل: أحيوا بإذن اللّه فعاشوا.

قال الباقر عليه السّلام: ردّهم اللّه إلى الدنيا فسكنوا الدور و أكلوا الطعام و نكحوا النساء و مكثوا بذلك ما شاء اللّه ثمّ ماتوا بآجالهم.

[إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ بما أراهم من الآية العظيمة ليلتزموا سبيل الهدى و يجتنبوا طريق الردى [وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ باقون على الكفران و ليسوا بشاكرين.

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 244]

وَ قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (244)

. اختلف في توجيه الخطاب فقيل: إنّه خطاب للذين جرى ذكرهم على تقدير في الكلام و قيل لهم: قاتلوا في سبيل اللّه. و قيل: الخطاب لهذه الأمّة و هو معطوف على مقدّر تقديره: فأطيعوا و قاتلوا في سبيل اللّه لإعلاء دينه متيقّنين أنّ الفرار من الموت غير مخلّص و أنّ

القدر واقع فلا تحرموا إحدى النصرين: إمّا الفوز بالثواب و إمّا الموت في سبيل اللّه.

[وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ يسمع مقالة السابقين إلى الجهاد من ترغيب الغير فيه و مقالة المتخلّفين منه من تنفير الغير، و يعلم أنّ خلف المتخلّف لأيّ جهة و أنّ جهاد المجاهد لأيّ سبب.

قوله: [سورة البقرة (2): آية 245]

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّٰهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً وَ اللّٰهُ يَقْبِضُ وَ يَبْصُطُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (245)

. «القرض» في اللغة القطع و به سمّي الدين قرضا لأنّه يقطع جزءا من المال بالإعطاء على أن يردّ المفترض مثله بدلا منه [مَنْ ذَا الَّذِي استفهام للتحريض على التصدّق مبتدأ «ذا» إشارة إلى المفترض خبر أي من هذا. «الّذي» صفة «ذا» أو بدل منه [يُقْرِضُ اللّٰهَ و المراد من إقراض اللّه تقديم العمل الّذي الّذي يطلب به ثوابه [قَرْضاً] مصدر ليقرض بمعنى إقراض كقوله: «أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً» (1) [حَسَناً] أي مقرونا بطيب النفس و الإخلاص يكون حلالا و قيل: القرض حسن المجاهدة و الإنفاق في سبيل اللّه قيل: من أنواع القرض قول الرجل:

«سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلّا اللّه و اللّه أكبر».

[فَيُضاعِفَهُ لَهُ و يزيده على أصله حتّى يصير مثلين أو أكثر إلى ما شاء اللّه [أَضْعافاً كَثِيرَةً] بيان لقطع الأوهام عن مبلغ الحساب أي لا يعلم قدره إلّا اللّه الواحد بسبعمائة. قال البيهقيّ:

إنّ التضعيفات فضل من اللّه يدّخرها للعبد فضلا منه.

[وَ اللّٰهُ يَقْبِضُ يقتر على البعض [وَ يَبْصُطُ] يوسّع على بعض أو يقتر تارة و يوسّع اخرى مبنيّ على المصالح فإذا علمتم أنّه تعالى هو القابض و الباسط فلا تبخلوا عليه و أقرضوه قال الصادق عليه السّلام: لمّا نزلت «مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها» (2)* قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: يا ربّ زدني، فنزلت «مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها» (3) فقال رسول اللّه: ربّ زدني فأنزل اللّه:

«مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّٰهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً» و الكثير عند اللّه لا يحصى.

[وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ تأكيد للجزاء فرجوعكم إلى اللّه فيجازيكم بأحسن الجزاء.

قال الكلبيّ في سبب نزول هذه الآية: إنّ النبيّ صلّى اللّه عليه و آله قال: من تصدّق بصدقة فله

1- نوح: 16.
2- النمل: 91.
3- الانعام: 161.

مثلاها في الجنّة فقال أبو الدحداح الأنصاريّ- و اسمه عمرو-: يا رسول اللّه إنّ لي حديقتين إن تصدّقت بإحداهما فإنّ لي مثليها في الجنّة؟ قال: نعم، قال: و امّ الدحداح معي قال: نعم فقال:

الصبيّة معي؟ قال صلّى اللّه عليه و آله: نعم، فتصدّق بأفضل حديقتيه و دفعها إلى رسول اللّه فنزلت الآية فضاعف اللّه له صدقته، الحديث.

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 246]

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى إِذْ قالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنا مَلِكاً نُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ أَلاَّ تُقاتِلُوا قالُوا وَ ما لَنا أَلاَّ نُقاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ قَدْ أُخْرِجْنا مِنْ دِيارِنا وَ أَبْنائِنا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (246)

. ألم ينته علمك إلى جماعة الأشراف من بني إسرائيل؟ و لمّا تقدّم ذكر الجهاد عقّب سبحانه بهذه الآية بقصّة مشهورة في بني إسرائيل تضمّنت شرح ما نالهم من قعودهم عن الجهاد تحذيرا للمسلمين من سلوك طريقة أولئك فيه [مِنْ بَعْدِ مُوسى أي بعد وفاة موسى [إِذْ قالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ اختلف في ذلك النبيّ قيل: إنّه إشموئيل- و هو بالعربيّة إسماعيل- عن أكثر المفسّرين و هو المرويّ عن أبي جعفر عليه السّلام. و قيل: هو يوشع بن نون بن إفرائيم بن يوسف ابن يعقوب عليه السّلام. و قيل: هو شمعون سمّته بذلك لأنّ امّه دعت إلى اللّه يرزقها غلاما فسمع اللّه دعاءها فيه و بالعربيّة سمعون و إنّ السين عندهم الشين و امّه صفيّة من ولد لاوي بن يعقوب.

[ابْعَثْ لَنا مَلِكاً نُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ و سؤالهم لذلك لاستعلاء الجبابرة عليهم و غلبوهم على كثير من ديارهم و سبوا كثيرا من ذراريهم بعد أن كانت الخطايا قد كثرت في بني إسرائيل و نسوا عهد اللّه و عظمت فيهم الأحداث فبعث اللّه إليهم إشموئيل نبيّا فقالوا:

إن كنت صادقا فابعث لنا ملكا نقاتل. و أرادوا قتال العمالقة و سألوا من النبيّ أميرا عليهم يقيم أمورهم في جهاد عدوّهم قال أبو عبد اللّه عليه السّلام: كان الملك في ذلك الزمان هو الّذي يسير بالجنود و النبيّ و يقيم و ينبّئه بالوحي من عند ربّه.

فقال النبيّ: لعلّكم إن فرض [عَلَيْكُمُ الْقِتالُ أَلَّا تُقاتِلُوا] و لا تفوا بما تقولون و لا تقاتلوا، و إنّما سألهم عن ذلك ليعرف ما عندهم من الهمّة على القتال و هذا كأخذ العهد عليهم

و معنى «عسيتم» قاربتم.

[قـالُوا] أي الملأـ: [وَ ما لَنا أَلَّا نُقاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أي أيّ شـي ء لنا في ترك القتال؟ أ و ليس لنا ترك القتال [وَ قَدْ أُخْرِجْنا] لفظه عامّ و معناه خـاص أي اخرج بعضـنا [مِنْ دِيارِنـا] و أهالينـا بالسبي و القهر أي إذا بلغ الأمر هـذا المبلغ فلا بـدّ من الجهاد [فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ في الكلام حـذف. فسأل النبيّ اللّه تعالى أن يبعث لهم ملكا يجاهدون معه أعداءهم فسـمع اللّه دعوته فبعث لهم ملكا و كتب عليهم القتال و [تَوَلَّوْا] و أعرضوا عن القيام به و ضيّعوا أمر اللّه [إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ و هم الّذين عبروا النهر، و هذه الآية تهديد لمن يتولّى عن القتال.

و قيل: لمّا كبر إشموئيل أسلموه لتعلّم التوراة في بيت المقدّس و كفّله شيخ من علمائهم و تبنّاه فلمّا بلغ الغلام أتاه جبرئيل و هو نائم بجنب الشـيخ و كان الشـيخ لا يأتمن عليه فدعاه جبرئيل بلحن الشيخ: يا إشموئيل فقام الغلام مسرعا إلى الشيخ فقال: يا أبتاه دعوتني؟ فكره الشيخ أن يقول: لاـ لئلّا ينفزع الغلام فقال: يا بنيّ ارجع فنم، فرجع الغلام فنام ثمّ دعاه الثانيـة فقال الغلام: دعوتني؟ فقال الشـيخ: ارجع فنم فإن دعوتك الثالثـة فلا تجبني؛ فلمّا كانت الثالثـة ظهر له جبرئيل فقال له: اذهب إلى قومك فبلّغهم رسالـة ربّك فإنّ اللّه قـد بعثك فيهم نبيّا فلمّا أتـاهم كـذّبوه و قـالوا له: اسـتعجلت بالنبوّه و لم تأن لك فإن كنت صادقا فابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل اللّه. و كانت الملوك يومئـذ مطيعة للأنبياء.

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 247]

وَ قـالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طالُوتَ مَلِكاً قالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنا وَ نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَ لَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمالِ قالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاهُ عَلَيْكُمْ وَ زادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَ الْجِسْمِ وَ اللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (247)

. طالوت و جالوت و داود لا تنصرف لأنّها أسماء أعجميّة و فيها السببان: التعريف و العجمة.

[وَ قالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ و ذلك أنّ إشموئيل لمّا سأل اللّه أن يبعث لهم ملكا أتي بعصا

و قرن فيه دهن القدس و قيل له: إنّ صاحبكم الّذي يكون ملكا طوله طول هذه العصا، و انظر القرن الّذي فيه الدهن فإذا دخل عليك رجل و نشّ الدهن الّذي في القرن فهو ملك بني إسرائيل فدهّن به رأسه و ملّكه على بني إسرائيل. قال وهب: ضلّت حمر لوالد طالوت فأرسل أبو طالوت طالوت و غلاما له في طلبها فمرّ طالوت و الغلام ببيت إشموئيل فقال الغلام: لو دخلنا على هذا النبيّ فسألنا عن الحمير ليرشدنا و يدعولنا بحاجتنا، فدخلا عليه فبينما هما عنده يذكران له شأن الحمر إذ نشّ أي تحرّك الدهن الّذي في القرن فقام إشموئيل فقاس طالوت بالعصا فكان على طولها فقال النبيّ لطالوت: قرّب رأسك فقرّبه فدهّنه بدهن القدس و هو دهن مقدّس مطيّب و قال له: أنت ملك بني إسرائيل الّذي أمرني اللّه أن املّكه عليهم؛ قال: بأيّ آية؟ قال: بآية أنّك ترجع و قد وجد أبوك حمره فكان كذلك و سمّي طالوت لطول قامته.

ثمّ قال إشموئيل لبني إسرائيل: [إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طالُوتَ مَلِكاً] فأطيعوه و قاتلوا عدوّكم معه [قالُوا] متعجّبين و منكرين: [أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنا] أي من أين يستأهل [وَ نَحْنُ أَحَقُّ و أولى بالرياسة عليه [مِنْهُ بالرياسة علينا [وَ لَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمالِ و لم يعط ثروة فيشرف بالمال فكيف يتملّك علينا و كان طالوت من ولد بنيامين ابن يعقوب عليه السّلام.

قيل: إنّ طالوت كان سقّاء. و قيل: كان دبّاغا. و قيل: مكاريا. و سبب هذا الاستبعاد منهم أنّ النبوّة كانت مخصوصة لسبط معيّن من أسباط بني إسرائيل و هو سبط لاوي بن يعقوب و منه كان موسى و هارون، و سبط المملكة و السلطنة سبط يهود ابن يعقوب و منه كان داود و سليمان و لم يكن طالوت من أحد هذين السبطين بل هو من ولد بنيامين بن يعقوب و كانوا قد عملوا ذنبا عظيما ينكحون النساء على ظهر الطريق نهارا فغضب اللّه عليهم و نزع الملك و الثروة و كانوا يسمّونه سبط الإثم و كان طالوت يتحرّف بحرفة دنيئة.

[قالَ لهم نبيّهم ردّا عليهم: [إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاهُ عَلَيْكُمْ و اختاره فإن لم يكن له نسب و مال فإنّ له حسبا و فضيلة و هو قوله: [وَ زادَهُ بَسْطَةً] أي سعة و امتدادا [فِي الْعِلْمِ المتعلّق بالملك [وَ الْجِسْمِ و كان أطول و أقوى من غيره و أقوم على مقاومة الأعداء و مكابدة

الحروب [وَ اللّٰهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ] لما أنّه المالك [وَ اللّٰهُ واسِعٌ يوسّع على الفقير و يغنيه إذا أراد [عَلِيمٌ بمن يليق بالملك.

قال الزمخشريّ: كم يحدث بين الخبيثين ابن لايعابن و الفرث و الدم يخرج من بينهما اللبن لأنّ اللبن يخرج من بين السرجين و الدم و هما مع كونهما مستقذرين لا يؤثّران في اللبن بشيء من طعمهما. لونهما بل يحدث من بينهما لطيفا سائغا للشاربين مع أنّ الفرث و الدم يكتنفانه و بينه و بينهما برزخ من قدرة اللّه لا يبغي أحدهما عليه بلون و لا رائحة و لا طعم، و إذا أكلت البهيمة العلف فاستقرّ في كرشها (1) فكان أسفله فرثا و أوسطه مادّة اللبن و أعلاه مادّة الدم و جعل اللّه الكبد مسلّطة على هذه الأصناف الثلاثة فقسّمها فتجري الدم في العروق و اللبن في الضروع و يبقى الفرث في الكرش.

فسبحان اللّه ما أعظم قدرته و ألطف حكمته لمن تأمّل! فيجعل من الحجر جوهرا و من الشوك ريحانا و وردا.

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 248]

وَ قالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ بَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسى وَ آلُ هارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (248)

. [وَ قالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ طلبوا علامة من نبيّهم على كون طالوت ملكا عليهم فقالوا:

ما آية ملكه؟ فقال: [إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ من التوب و هو الرجوع و سمّي «تابوتا» لأنّه ظرف توضع فيه الأشياء و تودع فلا يزال يرجع إليه ما يخرج منه و صاحبه يرجع إليه فيما يحتاج إليه من مودعاته و المراد به صندوق التوراة و كان قد رفعه اللّه بعد وفاة موسى لمّا عصوا و اعتدوا سخط عليهم.

فلمّا طلب القوم من نبيّهم آية تدلّ على ملك طالوت، قال لهم: إنّ آية ملكه أن يأتيكم التابوت من السماء و الملائكة يحفظونه فأتاهم كما وصف و القوم ينظرون إليه حتّى نزل عند طالوت، و هذا قول ابن عبّاس.

و قال غيره من أرباب الأخبار: إنّ اللّه تعالى أنزل على آدم عليه السّلام تابوتا أي صندوقا فيه تماثيل الأنبياء من أولاده و كان التابوت من عود الشمشاد و نحوا من ثلاثة أذرع في ذراعين

1- هو لذي الخف و الظلف بمنزلة المعدة للإنسان.

فكان عنـد آدم عليه السّـ لام إلى أن توفّي فتوارثه أولاده واحدا بعد واحد إلى أن وصل إلى يعقوب عليه السّـ لام ثمّ بقي في أيدي بني إسـرائيل إلى أن وصل إلى موسى عليه السّلام فكان يضع فيه التوراة و متاعا من متاعه و كان إذا قاتل قدّمه فكانت تسكن إليه نفوس بنى إسرائيل و كان عنده إلى أن توفّي ثمّ تداولته أيدي بني إسـرائيل و كانوا إذا اختلفوا في شـي ء تحاكموا إليه فيكلّمهم و يحكم بينهم و كانوا إذا حضـروا القتال يقـدّمونه بين أيـديهم و يسـتفتحون به على عـدوّهم و كانت الملائكة تحمله فوق العسـكر ثمّ يقاتلون العدوّ فإذا سـمعوا في التابوت صـحبة استيقنوا بالنصـر فلمّا عصوا و فسدوا سلّط اللّه عليهم العمالقة فغلبوهم على التابوت و سلبوه و جعلوه موضع البول و الغائط فلمّا أراد اللّه أن يملّك طالوت سلّط اللّه عليهم البلاء حتّى أنّ كلّ من بال عنده ابتلى بالبواسير.

و هلكت من بلادهم خمس مدائن يعني أهلها فعلم الكفّار أنّ ذلك سـبب اسـتهانتهم بالتابوت فأخرجوه و جعلوه على عجلة و عقلوها على ثورين فأقبل الثوران يسـيران و قد وكّل اللّه بهما أربعة من الملائكة يسوقونهما حتّى أتيا منزل طالوت فلمّا وجدوه عنده أيقنوا بملكه؛ فالإتيان على هـذا مجـاز لأنّه اتي به و لـم يـأت هو بنفسه فنسب الإتيـان إليه توسّـ عا كمـا يقال: ربحت التجارة. و على قول ابن عبّاس- و هو الوجه الأوّل- فالإتيان حقيقة.

[فِيهِ أي في إتيان التابوت [سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ طمأنينة كاملة من اللّه لكم و الضمير «للتابوت».

قال المفسّرون: «السكينة» تطلق على ثلاثة أشياء بالاشتراك اللفظيّ:

أولها: ما أعطي بنو إسـرائيل في التابوت كما قال تعالى: «إِنَّ آيَـةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَـكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ» و هي ريح ساكنة طيّبة تخلع قلب العدوّ بصوتها رعبا إذا التقى الصفّان و هي كانت معجزة لأنبيائهم و كرامة لملوكهم.

و الثانية: شي ء من لطائف صنع اللّه يلقي على لسان المحدّث الحكمة كما يلقي الملك الوحي على قلوب الأنبياء.

و الثالثة: هي الّتي أنزلت على قلب النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و قلوب المؤمنين يسكن إليه الخائف و يتسلّى به الحزين و يتمكّن لهم الثبات كما قال تعالى: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَ

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» (1) أقول: و لعلّ القسم الثالث من سنخ القسم الثاني.

قوله تعالى [وَ بَقِيَّةٌ] كائنة [مِمَّا] من بعض ما [تَرَكَ آلُ مُوسى وَ آلُ هارُونَ و هي رضاض الألواح و عصا موسى من اسّ الجنّة و ثيابه و نعلاه و عمامة هارون و خاتم سليمان و قفيز من المنّ أي الترنجبين النازل عليهم و عن أبي جعفر عليه السّلام: إنّ التابوت كان الّذي أنزله اللّه على أمّ موسى فوضعت ابنها فيه و ألقته في البحر و كان في بني إسرائيل معظّما فلمّا حضر لموسى الوفاة وضع فيه الألواح و درعه و ما كان عنده من آثار النبوّة و أودعه عند وصيّه يوشع فلم يزل التابوت عندهم و هم في عزّ و شرف حتّى استخفّوا به و كان الصبيان يلعبون به في الطرقات فانتزع من بين أيديهم إلى أن ردّه على طالوت. و قيل: إنّ السكينة كان لها وجه كوجه الإنسان و كان لها ريح هفهافة (2) و قال ابن عبّاس: هي صورة من زبرجد أو ياقوت، لها رأس كرأس الهرّ و ذنب كذنبه، فإذا صاحت كصياح الهرّ ذهب التابوت نحو العدوّ و هم يمضون معه، فإذا وقف وقفوا و نزل النصر.

[تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ] حال من «التابوت» أي حالكونه محمولا للملائكة و لعلّ المراد من حمل الملائكة إيّاه حفظهم و كان ينزل هو بنفسه إلى الأرض أو بسوق الملائكة على رواية المذكورة؛ لأنّ من حفظ شيئا أو باشره جاز أن يضاف الحمل إليه.

[إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً] أي في رجع التابوت إليكم علامة أنّ اللّه ملّك طالوت عليكم [إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ و قيل: لمّا غلب الأعداء على التابوت أدخلوه بيت الأصنام فأصبحت أصنامهم منكبّة فأخرجوه و وضعوه ناحية من المدينة فأخذهم وجع في أعناقهم و كلّ موضع وضعوه ظهر فيه بلاء و موت و وباء فأشير عليهم أن يخرجوا التابوت من عندهم فأجمع رأيهم أن يحملوه على عجلة و يشدّوها على ثورين و يبعدوه ففعلوا ذلك و أرسلوا الثورين فجاءت الملائكة و ساقوا الثورين إلى بني إسرائيل فهذا معنى «تحمله الملائكة» قوله تعالى:

1- التوبة: 41

2- أي باردة

[سورة البقرة (2): آية 249]

فَلَمَّا فَصَلَ طالُوتُ بِالْجُنُودِ قالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جاوَزَهُ هُوَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قالُوا لا طاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجالُوتَ وَ جُنُودِهِ قالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (249)

التقدير: [فَلَمَّا فَصَلَ نفسه و لمّا اتّحد فاعله و مفعوله شاع محذوف المفعول و المعنى:

انفصل عن بلده مصاحبا لبني إسرائيل لقتال العمالقة «و الجنود» جمع جند و هو الجيش الأشدّاء، مأخوذ من الجند و هي الأرض الشديدة الصلبة.

روي أنّهم لمّا رأوا التابوت لم يشكّوا النصر فتسارعوا إلى الجهاد فقال طالوت:

لا يخرج معي شيخ و لا مريض و لا رجل بني بناء لم يفرغ منه و لا صاحب تجارة مشتغل بها و لا رجل عليه دين و لا رجل تزوّج امرأة و لم يبن بها و لا أبتغي إلّا الشابّ النشيط الفارغ فاجتمع إليه ممّن اختاره ثمانون ألفا و كان الوقت قيظا و سلكوا مفازة (1) فشكوا قلّة الماء و سألوا أن يجري لهم نهرا [قالَ طالوت بإخبار من النبيّ إشموئيل: [إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ] أي يعاملكم معاملة المختبر بما اقترحتموه، و ذلك الاختبار ليظهر عند طالوت من كان مخلصا في نيّته من غيره ليميّزهم من العسكر لأنّ من لا يريد القتال إذا خالط عسكرا يدخل الضعف في العسكر فينهزمون بشؤمه.

[فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ أي من النهر بتسكين الهاء و تحريكها لغتان و كلّ ثلاثيّ حشوه حرف من حروف الحلق فإنّه يجيء على هذين كقولك: صخر و صخر و بحر و بحر قال الشاعر:

كأنّما خلقت كفّاه من حجرفليس بين يديه و الندى عمل

يرى التيمّم في برّ و في بحرمخافة أن يرى في كفّه بلل

و في النهر قيل: إنّه نهر فلسطين. و قيل: نهر بين الأردنّ و فلسطين. و قيل: جرى اللّه لهم نهرا باقتراحهم [فَلَيْسَ مِنِّي أي ليس من أهل طاعتي [وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ أي من لم يذق طعمه و هو يستعمل على الطعام و الشراب و هو من الطعم.

[وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ و لم يذقه [فَإِنَّهُ مِنِّي من حملتي و أشياعي و أهل ديني [إِلَّا مَنِ

1- القيظ شدة الحر و المفازة الفلاة لا ماء بها.

اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ قرئ «غرفة» بضمّ الغين الشـي ء القليل الّذي يحصل في الكفّ و بالفتح قرئ و هو الاغتراف مرّة واحدة و مثله «الاكلة و الأكلة» فإنّ الاكلة بالضمّ أي الشـي ء القليل كاللقمة و أشباهها و لكنّ الأكلة بالفتح أي مرّة واحدة يقال: فلان يأكل بالنهار أكلة واحدة يعني مرّة و المعنى الرخصة في اغترف الغرفة باليد دون الكروع (1) استثناء من قوله: «فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي» و إنّما أخبر في الذكر عن الجملة الثانية لكمال العناية بها أي إلّا من أخذ الماء مرّة واحدة باليد و هذا إذا كان بفتح الغين، و إذا كان بالضمّ فمعناه إلّا من شرب منه مقدار مل ء كفّه قال ابن عبّاس: كانت الغرفة يشرب منها هو و دوابّه و خدمه و يحمل منها و هذا كان معجزة لنبيّ ذلك الزمان كما كان النبيّ صلّى اللّه عليه و آله يروي الخلق الكثير من الماء القليل.

[فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا] فالّذين شربوا القليل كانوا على عدد أهل بدر ثلاثمائة و بضعة عشر بدليل قوله صلّى اللّه عليه و آله: لأصحابه يوم بدر: أنتم اليوم على عدّة أصحاب طالوت حين عبروا النهر و كانوا يومئذ ثلاثمائة و ثلاثة عشر رجلا. و قيل: إنّ الّذين لم يزيدوا على الاغتراف أربعة آلاف لكنّ المشهور الأوّل و أمّا الّذين شربوا كراعا (2) و خالفوا أمر اللّه فاسودّ شفاههم و غلبهم العطش و لم يرووا و بقوا على شطّ النهر و جبنوا عن لقاء العدوّ، و المؤمنون القليلون عبروا النهر. و قرئ «إلّا قليل» بالرفع ميلا إلى جانب المعنى؛ لأنّ الكلام في قوّة أن يقال: لم يطيعوه إلّا قليل، فحقّ المستثنى أن يكون مرفوعا. نعم شرب الماء بغير إذنه تعالى حرام و سفك الدم بإذنه واجب.

[فَلَمَّا جاوَزَهُ هُوَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ أي فلمّا جاوز و عبر طالوت و المؤمنون النهر [قالُوا] أي بعض من معه من المؤمنين لبعض آخر منهم، و قد صار المؤمنون فرقتين فريقا يحبّ الحياة و يكره الموت و غلب الخوف عليهم و فريقا كان شجاعا قويّ القلب لا يبالي في طاعة اللّه الموت.

فالقسم الأوّل هم الّذين قالوا: [لا طاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجالُوتَ وَ جُنُودِهِ لما شاهدوا منهم من الكثرة و القوّة و كانوا مائة ألف مقاتل شاكي السلاح.

ص: 102

1- الكروع و الكرع مد العنق لتناول الماء بالفم.

2- الكروع و الكرع مد العنق لتناول الماء بالفم.

و القسم الثاني هم الّذين أجابوهم بقولهم: «كم من فئة، الآية» [قالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهِ قيل في «يظنّون» معناه يستيقنون و الظنّ استعملوه في اليقين. و قيل: إنّ معنى الظنّ في الآية: يحدّثون نفوسهم و هو أصل الظنّ لأنّ حديث النفس بالشي ء قد يكون مع الشكّ و قد يكون مع العلم إلّا أنّه قد كثر على ما كان مع الشكّ [كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً] أي كثير من الفئات القليلة غلبت الفئات الكثيرة «و الفئة» اسم للجماعة من الناس قلّت أو كثرت و الجمع: فئون و فئات [بِإِذْنِ اللَّهِ و حكمه و تيسيره؛ فمن نصره لا يذلّ و إن قلّ عدده و لا يعزّ من خذله و إن كثر استعداده [وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ بالنصرة على العدوّ.

قال الراغب: في القصّة مثال للدنيا و أبنائها، فإنّ من يتناول قدر ما يبتلغ به اكتفى و استغنى و سلّم منها و نجا و من تناول منها فوق ذلك ازداد عطشا و لهذا قيل: الدنيا كالملح من ازداد منها عطش. و في الحديث لو أنّ لابن آدم واد بين جبلين من ذهب لابتغى إليهما ثالثا فلا يملأ جوف ابن آدم إلّا التراب.

و أوحى اللّه إلى داود يا داود تريد و أريد فإن رضيت بما أريد كفيتك ما تريد و إن لم ترض بما أريد أتعبك ثمّ لا يكون إلّا ما أريد.

قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله في وصيّته لأبي هريرة: يا أبا هريرة كن بطريق أقوام إذا فزع الناس لم يفزعوا و إذا طلب الناس الأمان من النار لم يخافوا. قال أبو هريرة:

و من هم يا رسول اللّه؟ قال: قوم من امّتي في آخر الزمان يحشرون محشر الأنبياء إذا نظر الناس إليهم ظنّوهم أنبياء ممّا يرون من حالهم حتّى اعرّفهم أنا فأقول امّتي، فيعرف الخلائق أنّهم ليسوا أنبياء فيمرّون مثل البرق أو الريح يغشى أبصار أهل الجمع من أنوارهم فقلت: يا رسول اللّه مرني بمثل عملهم لعلّي ألحق بهم فقال: يا أبا هريرة ركب القوم طريقا صعبا آثروا الجوع بعد ما أشبعهم اللّه، و العرى بعد ما كساهم اللّه، و العطش بعد ما أرواهم اللّه تركوا ذلك رجاء ما عند اللّه تركوا الحلال مخافة حسابه فصحبوا الدنيا بأبدانهم و لم يشتغلوا بشي ء منها، عجبت الملائكة و الأنبياء من طاعتهم لربّهم طوبى لهم وددت أنّ اللّه جمع بيني و بينهم ثمّ بكى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله شوقا إليهم.

ثمّ قال صلّى اللّه عليه و آله: إذا أراد اللّه بأهل الأرض عذابا فنظر إليهم صرف العذاب عنهم فعليك بطريقهم.

[سورة البقرة (2): الآيات 250 الى 251]

وَ لَمَّا بَرَزُوا لِجالُوتَ وَ جُنُودِهِ قالُوا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَ ثَبِّتْ أَقْدامَنا وَ انْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (250) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ قَتَلَ داوُدُ جالُوتَ وَ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَهُ مِمَّا يَشاءُ وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَ لكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ (251)

[وَ لَمَّا] ظهر طالوت و من معه من المؤمنين و صاروا إلى براز و فضاء من الأرض في موطن الحرب [لِجالُوتَ وَ جُنُودِهِ و شاهدوا من عليهم من العدد و العدّة و أيقنوا أنّهم غير مطيقين لهم عادة [قالُوا] جميعا متضرّعين إلى اللّه: [رَبَّنا] في ندائهم اعتراف منهم بالعبوديّة [أَفْرِغْ عَلَيْنا] صبّ علينا، استعارة عن الإكمال و الإكثار و إفراغ الإناء إخلاؤه ممّا فيه [صَبْراً] على مقاساة شدائد الحرب [وَ ثَبِّتْ أَقْدامَنا] في مداحن القتال و نزال النزال و عدم التزلزل [وَ انْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ بقهرهم و هزمهم [فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ فكسروهم بتأييده و إجابة لدعائهم [وَ قَتَلَ داوُدُ جالُوتَ .

و في تفسير روح البيان أنّ جالوت الجبّار كان رأس العمالقة و ملكهم و كان من أولاد عمليق بن عاد و كان من أشدّ الناس و أقواهم و كان يهزم الجيوش وحده و كان له بيضة فيها ثلاثمائة رطل حديد و كان ظلّه ميلا لطول قامته و كان إيشى أبو داود في جملة من عبر النهر مع طالوت و كان معه سبعة من أبنائه و كان داود أصغرهم سنّا يرعى الغنم فأوحى اللّه إلى نبيّ العسكر و هو إشموئيل: إنّ داود بن إيشى هو الّذي يقتل جالوت فطلبه من اللّه فجاء به فقال له النبيّ: لقد جعل اللّه قتل جالوت على يدك فاخرج معنا لمحاربته فخرج معهم فمرّ داود في الطريق بحجر فناداه يا داود احملني فإنّي حجر هارون الّذي قتل بي ملك كذا فحمله في مخلاته ثمّ مرّ بحجر آخر فقال له: احملني فإنّي حجر موسى الّذي قتل بي كذا و كذا فحمله في مخلاته ثمّ مرّ بحجر آخر فقال له: احملني فإنّي حجرك الّذي تقتل بي جالوت فوضعه في مخلاته و كان داود من عادته رمي القذافة و كان لا يرمى بقذافته شيئا من الذئب و الأسد و النمر إلّا صرعه و أهلكه.

فلمّا تصافّ العسكران للقتال برز جالوت و سأل من يخرج إليه فلم يخرج إليه أحد فقال: يا بني إسرائيل لو كنتم على حقّ لبارزني بعضكم فقال داود لإخوته: من يخرج إلى هذا الأقلف؟ فسكتوا فالتمس منه طالوت أن يخرج إليه و وعده أن يزوّجه ابنته و يعطيه نصف ملكه فلمّا توجّه داود نحوه أعطاه طالوت فرسا و درعا و سلاحا فلبس الدرع و السلاح و ركب الفرس فسار قريبا ثمّ انصرف إلى الملك فقال من حوله: جبن الغلام فجاء فوقف على الملك فقال: ما شأنك؟ فقال: إنّ اللّه تعالى إن لم ينصرني لم يغن عنّي السلاح شيئا فدعني أقاتل كما أريد، قال: نعم، فأخذ داود مخلاته فتقلّدها و أخذ المقلاع و مضى نحو جالوت.

و لمّا نظر جالوت إلى داود قذف في قلبه الرعب فقال: يا فتى ارجع فإنّي أرحمك أن أقتلك قال داود: بل أنا أقتلك قال جالوت: لأقسمنّ لحمك بين سباع الأرض و طير السماء قال داود: بل يقسّم اللّه لحمك فقال: باسم إله إبراهيم و أخرج حجرا ثمّ أخرج الآخر و قال: باسم إله إسحاق ثمّ أخرج الثالث و قال: باسم إله يعقوب فوضع الأحجار الثلاثة في مقلاعه و صارت كلّها حجرا واحدا و دوّر المقلاع و رمى به فسخّر اللّه له الريح حتّى أصاب الحجر أنف البيضة و خالط دماغه و خرج من قفاه و قتل من ورائه ثلاثين رجلا و هزم اللّه الجيش و خرّ جالوت قتيلا، فأخذ داود يجرّه حتّى ألقاه بين يدي طالوت ففرح المسلمون فرحا شديدا و انصرفوا إلى المدينة سالمين فزوّجه طالوت ابنته و أجري خاتمه في نصف مملكته.

فمال الناس إلى داود و أحبّوه فحسده- على ما قيل- طالوت و أراد قتله فتنبّه له داود و هرب منه فسلّط طالوت عليه العيون فلم تقدر عليه و انطلق داود الجبل مع المتعبّدين فتعبّد فيه دهرا طويلا فأخذ العلماء و العبّاد ينهون طالوت في شأن داود فجعل طالوت لا ينهاه أحد عن قتل داود إلّا قتله فأكثر في قتل العلماء الناصحين.

ثمّ ندم طالوت على ما فعله من المعاصي و المنكرات و أقبل على البكاء ليلا و نهارا حتى رحمه الناس و كان كلّ ليلة يخرج إلى القبور فيبكي و ينادي: رحم اللّه عبدا يعلم أنّ لي توبة إلّا أخبرني بها فلمّا أكثر التضرّع و الإلحاح رقّ له بعض خواصّه فقال له: إن

دللتك أيّها الملك لعلّك أن تقتله فقال: لا و اللّه بل أكرمه أتمّ الإكرام و أنقاد إلى حكمه و أخذ مواثيق الملك و عهوده على ذلك فذهب به إلى باب امرأة تعلم اسم اللّه الأعظم فلمّا لقيها قبّل الأرض بين يديها و سألها هل له من توبة فقالت: لا و اللّه لا أعلم لك توبة و لكن هل تعلم قبر نبيّ قال: نعم فانطلق بها إلى قبر إشموئيل فصلّت ودعت ثمّ نادت صاحب القبر فخرج إشموئيل من القبر ينفض التراب عن رأسه فلمّا نظر إليهم سألهم و قال: ما لكم أقامت القيامة؟ قالت: لا و لكن طالوت يسأل هل له من توبة؟ قال إشموئيل: يا طالوت ما فعلت بعدي؟

قال: ما أدع من الشرّ شيئا إلّا فعلته و جئت لطلب التوبة قال: كم لك من الولد؟ قال: عشرة رجال قال: لا أعلم لك من التوبة إلّا أن تتخلّى من ملكك و تخرج أنت و ولدك في سبيل اللّه ثمّ تقدّم ولدك حتّى يقتلوا بين يديك ثمّ تقاتل أنت فتقتل آخرهم ثمّ رجع إشموئيل إلى القبر و سقط ميّتا و رجع طالوت ففعل ما أمر به فجاء قاتله إلى داود ليبشّره و قال: قتلت عدوّك فقال داود:

ما أنت بالّذي تحيى بعده فضرب عنقه فكان مدّة ملك طالوت إلى أن قتل أربعين سنة و أتى بنو إسرائيل بداود و أعطوه خزائن طالوت و ملّكوه على أنفسهم و ملك داود بعد قتل طالوت سبعين سنة.

[وَ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ أي ملك بني إسرائيل في مشارق الأرض المقدّسة و مغاربها و لم يجتمعوا قبل داود على ملك [وَ الْحِكْمَةَ] أي النبوّة و لم يجتمع في بني إسرائيل الملك و النبوّة قبله إلّا له بل كان الملك في سبط و النبوّة في سبط آخر و أنزل عليه الزبور أربعمائة و عشرين سورة و هو أوّل من تكلّم «بأمّا بعد» و هو فصل الخطاب الّذي أوتيه داود.

[وَ عَلَّمَهُ مِمَّا يَشاءُ] من صنعة الدروع بإلانة الحديد و كان يصنعها و يأكل ثمنها و لا يأكل من بيت المال و علّمه منطق الطير و تسبيح و كلام النمل و الحكل. (1) و الصوت الطيّب و كان إذا قرأ الزبور تدنو الوحوش حتّى يؤخذ بأعناقها و تطلبه الطير و تسكن الريح و يركد الماء الجاري. و لعلّ ركود الماء و سكون الريح من معجزاته بل صوته و سائر الأمور.

[وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَ لكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ أي و لو لا صرفه تعالى، المصدر مضاف إلى الله «الناس» مفعول «الدفع» بعضهم الّذين

1- بالضم كلام و صوت لا يفهم.

يباشـرون الفساد و هو بـدل من «الناس» ببعض آخر منهم بردّهم عمّاهم عليه بما قـدّر اللّه حسب ما هو الصـلاح مثل القتل المـذكور في القصّة المذكورة لفسدت الأرض و بطلت منافعها و تعطّلت مصالحها من الحرث و النسل.

و قيـل: المعنى: و لو لا ـ دفع اللّه بـالمؤمنين و الأبرار عن الكفّار و الفجّار لهلكت الأرض و من فيها و لكنّ اللّه يـدفع بالمؤمن عن الكافر و بالصالـح عن الفاجر قال النبيّ صـلّى اللّه عليه و آله: إنّ اللّه ليدفع بالمسـلم الصالح عن مائة أهل بيت جيرانه البلاء ثمّ قرأ «وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ» و لهـذا قيل: الدين و الملك توأمان ففي ارتفاع أحدهما ارتفاع الآخر لأنّ الدين أساس و الملك حارس و ما لا اسّ له فمهدوم و ما لا حارس له فضائع و الناس قد يكون لا ينقادون للرسل مع ظهور الحجج فاحتيج إلى المجاهدة بالسيف و السنان و سرّاس الخلق الأنبياء ثمّ الملوك ثمّ العلماء العاملين و الوعّاظ العالمين.

«وَ لكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ» كافّة.

[سورة البقرة (2): آية 252]

تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (252)

. [تِلْكَ إشارة إلى ما سـلف في الـذكر من تمليك طالوت و تابوت السـكينة و انهزام الجبابرة و قتل داود جالوت [آياتُ اللَّهِ المنزلـة من عنده [نَتْلُوهـا عَلَيْـكَ بواسـطة جبرئيـل [بِـالْحَقِ حـال من مفعول «نتلوها» أي كائنـة بالوجه المطابق بالواقع [وَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ أي من جملة المرسلين الّذين أرسلوا إلى الأمم لتبليغ رسالاتنا و إجراء أوامرنا و إلّا لما أخبرت بتلك الآيات من غير تعرّف و لا استماع و التأكيد لردّ قول المشركين: لست رسولا.

[سورة البقرة (2): آية 253]

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ وَ آتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَ أَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ وَ لكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَ مِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَ لكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ (253)

. [تِلْكَ إشارة إلى الجماعـة الّذين من جملتهم النبيّ صـلّى اللّه عليه و آله و اللام للاسـتغراق في «الرُّسُلُ» [فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ بأن خصّصناه بمنقبة ليست لغيره و الأنبياء كلّهم متساوون

في النبوّة؛ لأنّ النبوّه شـي ء واحـد و التفاضل باعتبار الـدرجات بلغ بعضـهم درجـة الخلّـة كإبراهيم و لم يحصل ذلك لغيره و جمع لداود الملك و النبوّة و طيب النغمة و لم يحصل هذا لغيره و سخّر لسليمان الجنّ و الإنس و الطير و الريح و لم يحصل هذا لأبيه داود على نبيّنا و آله و عليه السّلام و خصّ محمّدا صلّى اللّه عليه و آله بكونه مبعوثا إلى الكلّ من الجنّ و الإنس و يكون شرعه ناسخا لجميع الشرائع.

[مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ أي كلّمه اللّه من غير واسطة مثل موسى فهو مكالمه و قالت الأشاعرة:

إنّ الكلام الّذي سمعه موسى و غيره هو الكلام القديم الأزليّ. و قال غيرهم: سماع ذلك الكلام محال و إنّما المسموع هو الحروف و الأصوات و هو الحقّ.

[وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ أي على درجات قال مجاهد: أراد به محمّدا صلّى اللّه عليه و آله فإنّه تعالى فضّله على جميع الأنبياء و أعطاه جميع الآيات الّتي أعطاها من قبله من الأنبياء و بأن خصّه بالقرآن الّذي لم يعطه غيره و هو المعجزة القائمة إلى يوم القيامة.

[وَ آتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ كإبراء الأكمه و الأبرص و إحياء الموتى و الإخبار بما يأكلونه و يدّخرونه في بيوتهم و خلق الطير من الطين و الإنجيل و إنّما ذكر إيتاء «البيّنات» مع أنّها غير مختصّ بعيسى تقبيحا لإفراط اليهود في تحقيره و لإفراط النصارى في تعظيمه حيث أخرجوه عن مرتبة الرسالة.

[وَ أَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أي الروح المطهّرة الّتي نفخها اللّه فيه فالقدس بمعنى «المقدّس» من قبيل رجل صدق لأنّه لم يخلق من اجتماع نطفتي الذكر و الأنثى و لم تضمّه أصلاب الفحول و أرحام الطوامث أو القدس «هو اللّه» و روحه «جبرئيل» و الإضافة للتشريف مثل «بيت اللّه» و قد أعانه جبرئيل في أوّل أمره بنفخه الروح في كمّ امّها و في وسط أمره بتعليمه العلوم و حفظه من الأعداء و في آخر أمره حين أرادت اليهود قتله أعانه و رفعه إلى السماء.

[وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ من بعـد] الرسل بأن جعلهم متّفقين على اتّباع الرسل بحيث لم يتمكّنوا من المخالفة و يلجئهم إلى الموافقة و يمنعهم عن الكفر إلّا أنّه سبحانه لم يلجئهم إلى ذلك لأنّ التكليف لا يحسن مع الضرورة و الجزاء لا يحسن إلّا مع التخلية و الاختيار.

[وَ لكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بحسن اختياره [وَ مِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ] بسوء اختياره.

[وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ عـدم اقتتالهم بعد هذه المرّة مع هذا الاختلاف و الشـقاق اللازم للاقتتال بحسب العادة [مَا اقْتَتَلُوا] و ما نبض (1) منهم عرق التطاول و التعاون و منع و سلب عنهم قدرة القتال لما أنّ الكل تحت ملكوته.

[وَ لكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ] ما تقتضيـه المصـلحة قال أبو السـعود العلّامة: إنّ الكرار في الآية ليس للتأكيد كما ظنّ بعضـهم بل للتنبيه على اختلافهم ذلك ليس (2) موجبا لعدم مشيّته تعالى لعدم اقتتالهم بل هو سبحانه مختار في ذلك حتّى لو شاء بعد ذلك عدم اقتتالهم ما اقتتلوا و يفصح عن هذا المعنى الاستدراك بقوله: «وَ لكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ» من غير أن يوجبه عليه موجب أو يمنعه منه مانع.

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 254]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَ لا خُلَّةٌ وَ لا شَفاعَةٌ وَ الْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (254)

. لمّـا قـدّم بيـان القتـال و الجهـاد بالأنفس ذكر في هـذه الآيـة جهاد المال و الإنفاق في سبيله بقوله: [يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناكُمْ المعتزلة احتجّوا بأنّ الرزق لا يكون إلّا حلالا لأنّه تعالى أمر في هذا الآية بالإنفاق و ما كان حراما لا يجوز أن يؤمر بإنفاقه؛ فهذا يفيد القطع بأنّ الرزق لا يكون حراما.

ثمّ اختلفوا بأنّ هـذا الأمر هل مختصّ بالزكاة المفروضـة أم يشـمل المندوبة و مطلق الصدقات فقال جماعة: مختصّ بالمفروضة لأنّ قوله: «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَ لا خُلَّةٌ» وعيـد و الوعيـد لا يتوجّه على ترك المنـدوب، و الأكثرون على أنّه يتناول المفروض و المندوب و أنكروا مفاد الوعيد في الآية قالوا مفاد الآية: أن حصّلوا منافع الآخرة حين كونكم في الدنيا فإنّكم إذا خرجتم من الدنيا لا يمكنكم تحصيلها و اكتسابها في الآخرة.

1- نبض العرق: تحرك.

2- كذا في الأصل.

و قرئ لا بيع «بالفتح» و الأكثرون بالرفع قالوا: في التقدير جواب «هل فيه بيع أو خلّة أو شفاعة» قال: «ليس فيه بيع».

قوله: [مِمَّا رَزَقْناكُمْ «من» تبعيضيّة أي بعض ما رزقناكموه [مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ يوم الجزاء [لا بَيْعٌ فِيهِ يتدارك التقصير بالاستبدال [وَ لا خُلَّةٌ] و مودّة حتّى يسامحكم أخلّاؤكم و يقال «للصديق» الخليل لأنّ المودّة تتخلّل الأعضاء و يدخل جوفها و خلالها و وسطها و الخلّة منقطعة يوم القيامة إلّا بين المتّقين [وَ لا شَفاعَةٌ] حتّى تتّكلوا على شفعاء تشفّع لكم في حطّ ما في ذممكم و الشفاعة المنفيّة هي الّتي يستقلّ فيها الشفيع و يأتي بها من غير إذن لأنّ الدلائل قائمة على ثبوت الشفاعة للمؤمنين بعد أن يؤذن لهم فيها.

[وَ الْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ لأنّهم عملوا بأنفسهم ما استحقّوا الحرمان من الجنّة و الخلود بالنار و ظلم نفسه و ضرّها بالكفر و بمنع الزكاة حتّى استحقّ العذاب.

[سورة البقرة (2): آية 255]

اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَ لا نَوْمٌ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ لا يُحِيطُونَ بِشَيْ ءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِما شاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ لا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (255)

اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ هذا الاسم أعظم الأسماء لأنّه دالّ على الذات الجامعة لصفات الإلهيّة كلّها حتّى لا يشذّ منها شي ء و سائر الأسماء لا تدلّ آحادها إلّا على آحاد المعاني من علم أو قدرة أو فعل، و لأنّه أخصّ الأسماء إذ لا يطلقه أحد على غيره لا حقيقة و لا مجازا و سائر الأسماء قد يسمّى بها غيره كالقادر و الرحيم و ينبغي أن يكون حظّ العبد من هذا الاسم التألّه و استغراق القلب و عدم الالتفات إلى ما سواه و لا يرجو و لا يخاف إلّا إيّاه و كيف لا يكون كذلك و قد فهم من هذا الاسم أنّه الموجود الحقيقيّ الحقّ و غيره فان و هالك إلّا به.

قال رسول اللّه: أصدق بيت قالته العرب قول لبيد:

ألا كلّ شي ء ما خلا اللّه باطل و كلّ نعيم لا محالة زائل

حتّى أنّ هذه الكلمة خلاف الكلمات؛ فإنّ كلّ كلمة إذا أسقطت منها حرفا يختلّ بالمعنى و هذه إن حذفت الألف يصير «للّه» قال سبحانه: «لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ»* (1) و إن حذفت اللام الاولى أيضا يبقى «له» قال سبحانه. «لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ»* (2) و إن حذفت اللام

1- النساء: 69.

2- البقرة: 107.

الثانية أيضا يبقى الهاء و هو ضمير راجع إلى اللّه تعالى قال سبحانه: «هُوَ اللّٰهُ الَّذِي لا إِلٰهَ إِلّا هُوَ»* (1) و للأسماء تأثير بليغ خصوصا للفظ الجلالة لكن بشرط أن يقع الذكر من أهله و الأهليّة لا تحصل إلّا بعد تزكية النفس و تبديل الأخلاق. و كلمة «هو» و إن كانت للإشارة المطلقة و مفتقرة في تعيين المراد بها إلى سبق الذكر أو إلى أن يعقّبها ما يفسّرها إلّا أنّ المستغرق الكامل يشير بها إلى الحقّ و لا يفتقر في تلك الإشارة إلى ما يميّز الذات المرادة عن غيرها لأنّ الافتقار إلى المميّز إنّما يحصل حيث وقع الإبهام و المستغرق المتوجّه لا يكون في قلبه و في نظره غيره و يرى غيره هالكا معدوما و ليس المراد من هذا البيان أنّه يرى كلّ شي ء هو اللّه كما زعمه بعض الحمقاء من الّذين سمّوا أنفسهم عرفاء كما قال صلّى اللّه عليه و آله: ما رأيت شيئا إلّا و رأيت اللّه معه.

قوله: «لا إِلٰهَ إِلّا هُوَ» الجملة خبر للمبتدأ و هو لفظ الجلالة و المعنى: اللّه هو المستحقّ للعبادة لا غير [الْحَيُّ خبر ثان و هو في اللغة من له الحياة و صفة يخالف الموت و إذا وصف البارئ بها معناه الدائم الباقي الّذي لا سبيل عليه للفناء و الموصوف بالحياة الأزليّة الأبديّة الفعّال الدرّاك كما شرح هذا المعنى في أسماء الحسنى حتّى لا يشذّ عن علمه مدرك [الْقَيُّومُ مبالغة القائم فإنّه تعالى دائم القيام على كلّ شي ء بتدبير أمره في إنشائه و إيجاده.

قال الغزاليّ: إنّ الأشياء تنقسم إلى ما يفتقر إلى محلّ كالأعراض و الأوصاف و إلى ما لا يحتاج إلى محلّ فيقال: إنّه قائم بنفسه كالجواهر إلّا أنّ الجوهر و إن قام بنفسه مستغنيا عن محلّ يقوم به فليس مستغنيا عن امور لا بدّ منها لوجوده و تكون تلك الأمور شرطا في وجوده و إذا كان كذلك فلا يكون قائما بنفسه لأنّه محتاج إلى غيره في قوام وجوده و إن كان لم يحتجّ إلى محلّ فإن كان في الوجود موجود يكفي ذاته بذاته و لا قوام له بغيره و لا شرط في دوام وجوده وجود غيره فهو القائم بنفسه مطلقا فإن كان مع ذلك يقوم به كلّ موجود حتّى لا يتصوّر للأشياء وجود و لا دوام وجود إلّا به فهو القيّوم و ليس ذلك إلّا اللّه».

قيل: «الْحَيُّ الْقَيُّومُ» اسم اللّه الأعظم و كان عيسى عليه السّلام إذا أراد أن يحيي الموتى

1- الحشر: 22.

يدعو بهذه الدعاء «يا حيّ يا قيّوم» و يقال: دعاء أهل البحر إذا خافوا الغرق. و عن أمير المؤمنين عليه السّلام لمّا كان يوم بدر جئت أنظر إلى النبيّ صلّى اللّه عليه و آله ما يصنع فإذا هو ساجد يقول: يا حيّ يا قيوم يردّد مرّات و هو على حاله لا يزيد على ذلك إلى أن فتح اللّه له. و قال بعض: الاسم ليس له حدّ محدود و لكن فرّغ قلبك عمّا سواه فإذا كنت كذلك فاذكره بأيّ اسم شئت من أسمائه الحسنى. و هذه الصفة استكملت في محمّد صلّى اللّه عليه و آله و من عرف حقيقة المحمّديّة عرف الاسم الأعظم.

قوله: لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَ لا نَوْمٌ السنة ثقلة من النعاس و فتور يعتري المزاج قبل النوم و أوّله، و النوم حالة تعرض للإنسان من استرخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة بحيث تقف الحواسّ الظاهرة عن الإحساس و تقديم السنة في الآية مع أنّ قياس المبالغة عكسه على ترتيب الوجود الخارجيّ فإنّ الموجود منها أوّلا هو السنة ثمّ النوم، و المراد بيان انتفاء اعترائهما له سبحانه فإنّ من أخذه نعاس أو نوم كان مؤوف الحياة قاصرا في التدبير، و النوم أخو الموت و الموت ضدّ الحياة، و هو الحيّ الحقيقيّ فلا يلحقه ضدّ الحياة و منزّه عن صفة النقص.

روي أنّ موسى سأل الملائكة و كان ذلك في نومه: أ ينام ربّنا؟ فأوحى اللّه إليهم أن يوقظوه ثلاثا و لا يتركوه ينام ثمّ قال: خذ بيدك قارورتين مملوءتين فأخذه النوم فزالتا و انكسرتا ثمّ أوحى اللّه إليه أنّي أمسك السماوات و الأرض بقدرتي فلو أخذني النوم أو النعاس لزالتا كذا في الكشّاف.

لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ فكلّ من فيهما و ما فيهما ملكه و لا لأحد معه شركة فلا يجوز أن يعبد غيره كما ليس لعبد أحدكم أن يخدم غيره إلّا بإذنه.

مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ [مَنْ مبتدأ و [ذَا] خبره [و الَّذِي صفة ذا أو بدل منه، و لفظ «من» و إن كان استفهاما فمعناه النفي و لذلك دخلت إلّا في قوله: [إِلَّا بِإِذْنِهِ و المعنى لا أحد يشفع عنده بأمر من الأمور إلّا باستعانة أمره و رخصته و كان المشركون يقولون: أصنامنا شركاء اللّه و هم شفعاؤنا عنده.

و في تأويلات النجميّة: هذا الاستثناء راجع إلى النبيّ لأنّ اللّه قد وعد له المقام

المحمود و هو الشفاعة فالمعنى: من ذا الّذي يشفع عنده يوم القيامة إلّا عبده محمّد صلّى اللّه عليه و آله فإنّه مأذون موعود و يعينه الأنبياء بالشفاعة.

و في تفسير روح البيان: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: أتاني آت من عند ربّي فخيّرني بين أن يدخل نصف أمّتي الجنّة و بين الشفاعة فاخترت الشفاعة فيأتي الناس إليه فيقول: أنا لها و هو المقام المحمود الّذي وعده اللّه به يوم القيامة فيأتي و يسجد و يحمد اللّه بمحامد يلهمه إيّاها في ذلك الوقت لم يكن يعلمها قبل ذلك ثمّ يشفع إلى ربّه أن يفتح اللّه باب الشفاعة للخلق فيفتح اللّه ذلك الباب فيأذن في الشفاعة للملائكة و الرسل و الأنبياء و المؤمنين قال صلّى اللّه عليه و آله: أنا سيّد الناس و تأدّب صلّى اللّه عليه و آله و لم يقل: سيّد الخلائق مع أنّه ظهر سلطانه على الجميع و ذلك أنّ الجبروت الأعظم و القهر الإلهيّ بالنسبة إلى الكفّار و العصاة في ذلك اليوم قد أخرس الجميع فظهر عظم قدره صلّى اللّه عليه و آله حيث أقدم على مناجاة الحقّ فيما سأل من الشفاعة في مثل ذلك الوقت فأجابه الحقّ و أذن له و هو صلّى اللّه عليه و آله أوّل من يشفع في الخلق ثمّ الأنبياء و الملائكة و الأولياء و المؤمنون ثمّ رحمته الواسعة جلّ جلاله.

قوله: يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ استيناف لبيان إحاطة علمه بأحوال من يستحقّ الشفاعة و من لا يستحقّها و يعلم ما كان قبلهم من امور الدنيا و ما يكون بعدهم من أمر الآخرة أو المراد من قوله: «ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ» الآخرة لأنّهم يقدمون عليها «وَ ما خَلْفَهُمْ» لدنيا لأنّهم خلّفوها وراء ظهورهم، أو ما كان قبل أن يخلقهم و بعد أن خلقهم و عالم بأحوال الشافع و المشفوع له.

وَ لا يُحِيطُونَ بِشَيْ‏ءٍ مِنْ عِلْمِهِ أي لا يدركون من الملائكة و الأنبياء و غيرهم من معلوماته إِلَّا بِما شاءَ أن يعلموه كأخبار الرسل و فسّر العلم بالمعلوم لأنّ علمه تعالى عين ذاته و صفة قائمة بذاته لا يتبعّض ففسّر بالمعلوم ليصحّ دخول التبعيض و الاستثناء عليه فلا يظهر على غيبه أحد إلّا من ارتضى من رسول.

و في الرسالة الرحمانيّة: إنّ علم الأولياء عن علم الأنبياء بمنزلة قطرة من سبعة أبحر و علم الأنبياء من علم محمّد صلّى اللّه عليه و آله بهذه المنزلة و علم نبيّنا من علم الحقّ بهذه المنزلة قال في القصيدة البرديّة:

و كلّهم من رسول اللّه ملتمس غرفا من البحر أو رشقا من الديم

و واقفون لديه عند حدّهم من نقطة العلم أو من شكلة الحكم

حاصله أنّ علوم الكائنات و إن كثرت بالنسبة إلى علم اللّه بمنزلة نقطة من نقطت الكتاب نقطا أو شكله من شكلت الكتاب إذا قيّدته بالإعراب و مشرب النقطة و الشكلة بحر روحانيّة محمّد صلّى اللّه عليه و آله.

وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ «الكرسيّ» ما يجلس عليه و المراد منه في الآية قيل: علمه تعالى عن ابن عبّاس و جماعة و هو المرويّ عن الباقرين عليهما السّلام و يقال للعلماء:

كراسيّ و قيل المراد العرش و قيل إنّ المراد منه الملك و السلطان و القدرة فيكون معناه:

أحاط قدرته السماوات و الأرض و ما فيهما و قيل: إنّ الكرسيّ سرير دون العرش و قد روي عن الصادق عليه السّلام و قريب منه ما روي عن عطا أنّه قال: ما السماوات و الأرض عند الكرسيّ إلّا كحلقة في فلاة و ما الكرسيّ عند العرش إلّا كحلقة في فلاة.

و روى الأصبغ بن نباتة أنّ أمير المؤمنين عليه السّلام قال: إنّ السماوات و الأرض و ما فيهما من المخلوق في جوف الكرسيّ و له أربعة أملاك يحملونه بإذن اللّه ملك منهم بصورة الآدميّين و هي أكرم الصور على اللّه و هو يدعو اللّه و يتضرّع إليه و يطلب الشفاعة و الرزق للآدميّين و الملك الثاني في صورة الثور و هو سيّد البهائم يدعو اللّه و يتضرّع إليه و يطلب الرزق للبهائم و الملك الثالث في صورة النسر و هو سيّد الطيور و يدعو اللّه و يتضرّع إليه و يطلب الرزق للطيور و الملك الرابع في صورة الأسد و هو سيّد السباع و هو يدعو اللّه و يطلب الرزق للسباع قال: و لم تكن في جميع صور الحيوان صورة أحسن من الثور و لا أشدّ انتصابا منه حتّى اتّخذ الملأ من بني إسرائيل العجل و عبدوه فخفض الملك الّذي في صورة الثور رأسه استحياء من اللّه أن عبدوا من دون اللّه بشي ء يشبهه و تخوّف أن ينزل به العذاب (1).

وَ لا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما يقال: آده الشي ء يئوده إذا أثقله و أتعبه و لحقه منه مشقّة مأخوذ من الأود و هو العوج. «حفظهما» أي حفظ السماوات و الأرض إذ القليل و الكثير و القريب و البعيد عنده سواء و كيف يتعب في خلق الذرّة و جميع الخلق خلقه عنده أسهل

1- و روى نحوه العيّاشي عن الحسن المثنى عمن ذكره عن الصادق. البرهان.

من خلق الذرّة «إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (1).

[سورة البقرة (2): آية 255]

اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَ لا نَوْمٌ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ لا يُحِيطُونَ بِشَيْ ءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِما شاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ لا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (255)

المتعالي بذاته عن الأنداد و الأشباه العظيم الّذي يستحقر كلّ شي ء دونه و المراد من العلوّ علوّ القدر و هو منزّه عن التحيّز و كذا المراد من عظمته هي المهابة و الكبرياء لا بحسب الحجم و المقدار. و اعلم أنّ الّذين يفسّرون الآية بتأويلهم الفاسد على أنّ هذه الآية و أمثالها مجرّد التمثيل و لا كرسيّ في الحقيقة.

و إنّما خاطب الخلق في تعريف ذاته و صفاته بما اعتادوه في ملوكهم و عظمائهم كما جعل الكعبة بيتا له يطوف الناس به كما يطوفون بيوت ملوكهم و كذلك ما ذكر في محاسبة العباد يوم القيامة من حضور الملائكة و النبيّين و الشهداء و وضع الميزان.

و أمثال هذه الآيات أوّلوها و قالوا: المراد من هذه الألفاظ بيان العظمة و لا صورة لها؛ فهذا القول غلط فاسد بل تكذيب للكتاب و السنّة و لا يجوز إبطال الصورة و الأعيان مطلقا مثل الجنّة و النار و العرش و الكرسيّ و الشمس و القمر و كذلك من الحور و القصور و الأنهار و الأشجار و الثمار و لا يؤوّل شي ء منها على مجرّد المعنى بل لا بدّ للمسلم أن يثبت و يعلم لها صورا و معان و حقائق و من سلك غيره سلك مسلك النار، و أوّل باب التأويل في مثل هذه الأمور فتح باب الإلحاد نسأل اللّه أن يجيرنا من مضلّات الفتن.

و الأكثرون على أنّ آية الكرسيّ إلى قوله: «العليّ العظيم» و هذه الآية الكريمة منطوية على مهمّات المسائل المتعلّقة بالذات العليّة و الصفات الجليّة فإنّها ناطقة بأنّه موجود متفرّد بالإلهيّة متّصف بالحياة واجب الوجود لذاته موجود لغيره لما أنّ «القيّوم» هو القائم بذاته كما ذكرنا منزّه عن التحيّز و الحلول مبرأ من التغيّر و الفتور، لا مناسبة بينه و بين الأشباح و لا يعتريه ما يعتري النفوس و الأرواح، مالك الملك و مبدع الأصول و الفروع، ذو البطش الشديد، العالم بجميع الأشياء، لا يشغله شأن عن شأن، لا يشقّ عليه شاقّ، متعال عمّا تناله الأوهام، عظيم لا يحاط؛ و لذلك قال صلّى اللّه عليه و آله: إنّ أعظم آية في القرآن آية الكرسيّ و كذلك لعظم مقتضاها في الأوصاف.

1- يس: 82.

و اشـتملت آية الكرسـيّ على ما لم تشـتمل عليه آية في أسماء اللّه و الإشاره إليه و ذلك لأنّها مشتملة على سبعة عشر موضعا فيها اسم اللّه ظاهرا و مضـمرا و هي: اللّه، هو الحيّ القيّوم و ضـمير لا تأخـذه و له و عنـده، و بإذنه، و يعلم، و علمه، و شاء، و كرسـيّه، و يؤوده، و ضـمير «حفظ» المستتر الّذي هو فاعل المصدر، و هو العليّ العظيم. و يكفي في استحقاق هذه السيادة أنّ فيها «الحيّ القيّوم» و هو الاسم الأعظم كما ورد عن النبيّ صـلّى اللّه عليه و آله عند تذاكر الصحابة عن أفضل ما في القرآن فقال لهم أمير المؤمنين- و كان حاضرا- قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله:

سيّد البشـر آدم و سـيّد العرب محمّد صـلّى اللّه عليه و آله و لا فخر و سـيّد الفرس سـلمان و سيّد الحبشة بلال و سيّد الجبال الطور و سيّد الشجر السدر و سيّد الشهور الأشهر الحرم و سيّد الأيّام يوم الجمعة و سيّد الكلام القرآن و سيّد القرآن البقرة و سيّد البقرة آية الكرسيّ.

و عن أمير المؤمنين قال: قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله: ما قرئت هـذه الآيـة في دار إلّا اهتجرتها الشـياطين ثلاثين يوما و لا يـدخلها ساحر و لا ساحرة أربعين ليلـة يا عليّ علّمها ولدك و أهلك و جيرانك فما نزلت آية أعظم منها. و عنه عليه السّـ لام قال: سـمعت نبيّكم على أعواد المنبر و هو يقول: من قرأ آيـة الكرسـيّ في دبر كلّ صـلاة مكتوبـة لم يمنعه من دخول الجنّة إلّا الموت و لا يواظب عليها إلّا صدّيق أو عابد و من قرأها و هو أخذ في مضجعه أمنه على نفسه و جاره و جار جاره و الأبيات حوله.

و روي عن أبي جعفر الباقر عليه السّلام قال: من قرأ آية الكرسيّ صرف عنه ألف مكروه من مكاره الدنيا و ألف مكروه من مكاره الآخرة أيسر مكروه الدنيا الفقر و أيسـر مكروه الآخرة عذاب القبر (1) قال عليه السّـ لام: لكلّ شي ء ذروة و ذروة القرآن آية الكرسيّ. (2) عن محمّد بن ابيّ بن كعب عن أبيه أنّ أبـاه أخـبره أنّه كـان له جرن (3) فيه خضـر فكان يتعاهـده فوجده ينقص فحرسه ذات ليلة فإذا هو بدابّة تشـبه الغلام المحتلم قال: فسـلّم فرددت عليها السّـ لام و قلت: من أنت جنّ أم إنس؟ قالت جنّ، قلت: ناوليني يـدك فناولتني يـدها فإذا يد كلب فقلت: هكذا خلقة الجنّ؟ قالت: لقد علمت ما فيهم أشدّ منّي، قلت: ما حملك على

1- الفقيه باسناده إلى عمرو بن ابى المقدام عنه عليه السّلام.

2- العيّاشي عبد اللّه بن سنان عن الصادق عليه السّلام.

3- بالضم حجر منقور للماء و غيره.

ما صنعت؟ قالت: بلغني أنّك رجل تحبّ الصدقة فأحببنا أن نصيب من طعامك فقال لها أبيّ:

فما الّذي يجيرنا منكم؟ قالت: آية الكرسيّ من قالها حين يصبح أجير منّا حتّى يمسي و من قالها حين يمسي أجير منّا حتّى يصبح، فلمّا أصبح أتى النبيّ صلّى اللّه عليه و آله فأخبره فقال صلّى اللّه عليه و آله:

صدق الخبيث.

و حكي أنّ رجلا أتى شجرة فسمع فيها حركة فكلّم فلم يجب فقرأ آية الكرسيّ فنزل إليه شيطان فقال: إنّ لنا مريضا فبم نداويه: قال: بالّذي أنزلتني به من الشجرة. و خرج زيد بن ثابت إلى بستان له فسمع فيه جلبة فقال: ما هذا؟ قال: رجل من الجانّ أصابتنا السنة فأردنا أن نصيب من ثماركم أ فتطيبونها؟ قال نعم، فقال له زيد بن ثابت: ألا تخبرني ما الّذي يعيذنا منكم؟ قال: آية الكرسيّ. و بالجملة فقد جرّب المجرّبون أنّ لها تأثيرا عظيما في طرد الشيطان و عن المصروع و عن مطيعي الشياطين مثل أهل الشهوات و الطرب و أهل الظلم إذا قرئت عليهم بصدق كما في آكام المرجان في أحكام الجانّ.

[سورة البقرة (2): آية 256]

لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى لا انْفِصامَ لَها وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (256)

لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِ قيل: نزلت في رجل من الأنصار كان له غلام أسود يقال له «صبيح» و كان يكرهه على الإسلام. و قيل: نزلت في رجل يدعى أبا الحصين و كان له ابنان فتنصّرا و ذهبا إلى الشام فأخبر أبو الحصين رسول اللّه فنزلت الآية و كان هذا قبل أن يؤمر النبيّ صلّى اللّه عليه و آله بقتال أهل الكتاب. قال ابن عبّاس و ابن زيد: إنّها منسوخة بآية السيف. و قيل: نزلت في امرأة كانت مقلّة فيرضع أولاد اليهود و لمّا أجليت بنو النضير إذا فيهم أناس من الأنصار فقالوا: يا رسول اللّه أبناؤنا و إخواننا فنزلت الآية فقال صلّى اللّه عليه و آله:

خيّروا أصحابكم فإن خيّروكم فهم منكم و إن اختاروهم فأجلوهم.

المعنى: قيل: إنّ حكم الآية في أهل الكتاب خاصّة الّذين يؤخذ منهم الجزية.

و قيل: في جميع الكفّار ثمّ نسخ كما تقدّم ذكره أي لا إجبار في الدين بعد أن تبيّن و وضحت الحجّة لأنّ من حقّ العاقل أن لا يحتاج إلى الإلزام إلى أمر ينفعه بل يختار الدين الحقّ بعد وضوحه.

فقد [تَبَيَّنَ الرُّشْدُ] و هو لفظ جامع لكلّ خير و المراد من الرشد الإيمان الموصل إلى السعادة [مِنَ الْغَيِ أي الكفر و الجهل المؤدّي إلى الهلاك الأبديّ و زوال الجهل بالعلم

ص: 117

و زوال الغيّ بالرشد.

فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ و الطاغوت كلّ ما عبد من دون اللّه بما هو مذموم في نفسه و متمرّد كالإنس و الجنّ و الشياطين وَ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ بالتوحيد و تصديق الرسل لأنّ الإيمان باللّه إذا كان حقيقة يستلزم الإيمان بشرائعه المعلومة، و تقديم ذكر الكفر بالطاغوت على الإيمان باللّه لتقديم التخلية على التحلية فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى و بالغ في التمسّك بالحلقة الوكيدة و «الوثقى» تأنيث «الأوثق» مثل «فضلي» تأنيث «الأفضل».

لَا انْفِصامَ لَها و ليس لهذه العروة المحكمة و التمسّك بها انقطاع أبدا و لمّا كانت دلائل الإسلام أقوى الدلائل وصفها اللّه «بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى استعارة المحسوس للمعقول وَ اللَّهُ سَمِيعٌ بالأقوال عَلِيمٌ (256) بالعقائد و الأعمال.

[سورة البقرة (2): آية 257]

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (257)

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا أي محبّهم و ناصرهم أو متولّي أمورهم و مراعي مصالحهم الباقية- مثل أن أظهر الجميل و ستر القبيح- دينا و دنيا، و أوّل نصرته تعالى ستره على عبده أن جعل مقابح بدنه الّتي مستورة في باطنه مغطّاة بجمال ظاهره فكم بين باطن العبد و ظاهره من النظافة و القذارة فانظر ما الّذي أظهره و ما الّذي ستره؟ الثاني أن جعل مستقرّ خواطره المذمومة و إرادته القبيحة سرّ قلبه حتّى لا يطّلع أحد و لو انكشف للخلق ما يخطر بباله ممّا ينطوي عليه ضميره من الغشّ و الخيانة و الخبث في النيّات لمقتوه بل قتلوه؛ فانظر كيف ستر عن غيره أسراره. و الثالث مغفرة ذنوبه الّتي كان يستحقّ الافتضاح بها و لعلّ أن يبدّل سيّئاته بالحسنات إذا مات على التوبة.

يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ الّتي هي من الكفر و المعاصي و الشكوك إِلَى النُّورِ الّذي يعمّ الإيمان و نور اليقين، و جمع الظلمات لأنّ فنون الضلالة متعدّدة و الكفر ملل و إفراد النور لأنّ الإسلام دين واحد، و يسمّى الكفر ظلمة لالتباس طريقه و يسمّى الإسلام نورا لوضوح طريقه.

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا و ثبتوا على كفرهم أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ أي الشياطين و سائر المضلّين عن طريق الحقّ من قادة الشرّ و الكهنة و الأصنام؛ فإذا كانت الأصنام فالمعنى لا يكون على الموالاة الحقيقيّة الّتي معناه المصادقة بل المعنى أنّ عبدتها يتوجّهون إليها و أنّها

جمادات و الولاية واقعة منهم بالنسبة إليها «و الطاغوت» تذكّر و تؤنّث و توحّد و تجمّع.

يُخْرِجُونَهُمْ بالوساوس و غيرها بالإغواء و الضلالة مِنَ النُّورِ هو الإيمان الفطريّ الّذي جبلوا عليها إِلَى الظُّلُماتِ من الكفر و الانهماك في الشهوات و إسناد الإخراج إلى الطاغوت مجاز لكونها سببا له. إشارة إلى الموصول و ما يتبعه من القبائح و الكفر ملازمون النار ماكثون فيها أبدا.

[سورة البقرة (2): آية 258]

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْراهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ قالَ أَنَا أُحْيِي وَ أُمِيتُ قالَ إِبْراهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258)

. أي هل انتهت رؤيتك إلى من هذا صفته؟ و البيان بهذا الترتيب ليدلّ على بعد وقوع مثله على التعجّب منه [حَاجَّ إِبْراهِيمَ و جادل و خاصم إبراهيم [فِي رَبِّهِ في معارضة الربوبيّة، و الّذي حاجّ هو نمرود بن كنعان بن سام بن نوح و هو أوّل من وضع التاج على رأسه و تجبّر و ادّعى الربوبيّة [أَنْ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ أي لأن آتاه اللّه الملك فهو مفعول لقوله:

«حاجّ» و وضع المحاجّة موضع الشكر إذ كان من حقّه أن يشكر في مقابلة إيتاء الملك و قد عكس اللعين، أو المعنى أنّ إيتاء الملك حمله على ذلك و أورثه الكبر و البطر.

قال مجاهد: لم يملك الدنيا بأسرها إلّا أربعة: مسلمان و كافران؛ فالمسلمان: سليمان و و ذو القرنين إسكندر و الكافران: نمرود و بخت نصّر (1) و هو المسمّى بشدّاد بن عاد الّذي بنى إرم في بعض صحاري عدن و إنّما ملّكه اللّه امتحانا له و لعباده.

[إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ ظرف «لحاجّ» [رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ روي أنّه عليه السّلام لمّا كسر الأصنام سجنه ثمّ أخرجه ليحرقه فقال: من ربّك الّذي تدعونا إليه؟ قال: «رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ» أي يخلق الحياة و الممات في الأجساد، و جواب إبراهيم في غاية الصحّة لأنّه لا سبيل إلى معرفة اللّه إلّا بمعرفة صفاته و أفعاله الّتي لا يشاركه فيها أحد.

1- و به رواية في الخصال (1: 121) عن الصادق عليه السّلام.

[قالَ نمرود: [أَنَا أُحْيِي وَ أُمِيتُ روي أنّه دعا برجلين قد حبسهما فقتل أحدهما و أطلق الآخر فقال: أحييت هذا و أمتّ هذا فجعل ترك القتل إحياء و كان هذا تلبيسا منه.

[قالَ إِبْراهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ جواب شرط مقدّر تقديره إذا ادّعيت الإحياء و الإماتة و أتيت بمعارضة مموّهة و لم تعلم معنى الإحياء فالحجّة أنّ اللّه [يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ أي إن كنت قادرا على مقدوراته إنّه تعالى يأتي بها من المشرق [فَأْتِ أنت [بِها مِنَ الْمَغْرِبِ و إنّما عدل عن الحجّة الأوّليّة مع أنّ نمرود ما أتى بحجّة صحيحة لأنّ إبراهيم أراد أن يأتي بحجّة لا يتمكّن نمرود من تدليس فيها بشبهة و تكون أوضح فعدل من حجّته الأوّليّة إلى ما هي أوضح لأنّ الأنبياء بعثوا للإيضاح و البيان.

[فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ] أي صار مبهوتا و متحيّرا مدهوشا، و في الآية إشعار بأنّ المحاجّة في دين الحقّ بعد كونه معلوما حقّا كفر [وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ أي الّذين ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب المخلّد بسبب إعراضهم عن الهداية و لم يقبلوها مع أنّ الأمر في غاية الوضوح فلا يهديهم طريق الجنّة في الآخرة بسبب كفرهم و جحودهم الحقّ في الدنيا.

و في تفسير ابن عبّاس أنّ نمرود لمّا عتا عتوّا كبيرا و ألقى إبراهيم في النار سلّط اللّه عليه بعوضة فعضّت شفته فأهوى إليها بيده ليأخذها فطارت في منخره فذهب ليستخرجها فطارت في دماغه فعذّبه اللّه بها أربعين ليلة ثمّ أهلكه.

و قيل: إنّ نمرود بعد هذه المحاجّة و إلقاء إبراهيم في النار سلّط اللّه على قومه البعوض فأكلت لحومهم و شربت دماءهم فلم يبق إلّا العظام، و النمرود كما هو و لم يصبه شيء ثمّ بعث اللّه بعوضة فدخلت في منخره فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق فعذّبه اللّه أربعمائة سنة كما ملك أربعمائة سنة و هو الّذي بنى صرحا إلى السماء ببابل «فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ» (1) و هو صاحب السهم الملطوخ.

ص: 120

1- النحل: 26

قوله: [سورة البقرة (2): آية 259]

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ وَ هِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها قالَ أَنَّى يُحْيِي هذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِها فَأَماتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قالَ كَمْ لَبِثْتَ قالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عامٍ فَانْظُرْ إِلى طَعامِكَ وَ شَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَ انْظُرْ إِلى حِمارِكَ وَ لِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَ انْظُرْ إِلَى الْعِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها ثُمَّ نَكْسُوها لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (259)

. قوله: «أو» حرف عطف على الكلام الأوّل و هو قوله: «أَ لَمْ تَرَ» و تقديره: أ رأيت الّذي حاجّ إبراهيم؟ أو هل رأيت [كَالَّذِي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ] و حاصل المعنى أنّك ما رأيت مثل الّذي مرّ على قرية و ينبغي أن تتعجّب فتعجّب منه، و المارّ هو عزير بن شرخيا و القرية بيت المقدس على الأشهر، و اشتقاقها من القرى و هو الجمع.

روي أنّ بني إسرائيل لمّا بالغوا في تعاطي الشرّ و الفساد سلّط اللّه عليهم بخت نصّر البابليّ فسار إليهم في ستّمائة ألف راية حتّى وطئ الشام و خرب بيت المقدس و جعل بني إسرائيل أثلاثا: ثلثا منهم قتلهم و ثلثا منهم أقرّهم بالشام و ثلثا منهم سباهم و كانوا مائة ألف غلام يافع و غير يافع فقسّمهم بين الملوك الّذين كانوا معه فأصاب كلّ ملك منهم أربع غلمة و كان عزير من جملتهم، فلمّا نجّاه اللّه منهم بعد حين مرّ بحماره على بيت المقدس فرآه على أفظع مرأى و أوحش منظر و ذلك قوله: [وَ هِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها] أي خالية عن أهلها و ساقطة على سقوفها، و العرش السقف و ما يستظلّ به أي على أبنيتها و حيطانها بأن سقطت العروش ثمّ الحيطان سقطت عليها، من خوت المرأة إذا خلا جوفها عند الولادة.

[قالَ أَنَّى يُحْيِي هذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِها] أي كيف يعمر اللّه هذه القرية بعد خرابها و كيف يحيي اللّه أهلها بعد ما ماتوا و أطلق لفظ القرية و أراد أهلها و لم يقل ذلك إنكارا و ارتيابا بل أحبّ أن يريه اللّه إحياءها مشاهدة ليحصل له العلم ضرورة كما حصل له العلم دلالة و سأل مقصودة بحسن الطلب كقول إبراهيم: «رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى (1) و لأنّ العلم الاستدلاليّ ربّما اعتورته الشبهة.

[فَأَماتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عامٍ أي جعله ميّتا، روي أنّه لمّا دخل القرية نزل تحت ظلّ شجرة و هو على حمار فربط حماره و طاف في القرية و لم يربها أحدا و قال ما قال، و كانت أشجارها قد

1- السورة: 260.

أثمرت فتناول من فواكهها التين و العنب و شرب و نام فأماته اللّه في منامه و هو شابّ و كان معه من التين و العنب و عصير العنب شي ء.

[ثُمَّ بَعَثَهُ أي أحياه [قالَ كَمْ لَبِثْتَ في التفسير أنّه سمع نداء من السماء «كم لبثت» يعني في منامك. و قيل: إنّ القائل ملك. و قيل: إنّ القائل نبيّ. و قيل: بعض المعمّرين من شاهده عند موته و إحيائه و «البعث» من بعثت الناقة إذا أقمتها من مكانها.

[قالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ لأنّ اللّه أماته في أوّل النهار و أحياه بعد مائة سنة في آخر النهار فقال: يوما، ثمّ التفت فرأى بقيّة الشمس فقال: أو بعض يوم.

[قالَ السائل: [بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عامٍ أي مكثت في مكانك مائة عام [فَانْظُرْ إِلى طَعامِكَ وَ شَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ أي لم يغيّره السنون و الأعوام و إنّما قال: «لم يتسنّه» على الواحد لأنّه أراد به جنس الطعام و الشراب أو أراد به الشراب لأنّه أراد أقرب المذكورين إليه و كان زاده عصيرا و تينا و عنبا كما ذكرنا و هذه الثلاثة أسرع الأشياء تغيّرا و فسادا فوجد العصير حلوا و التين و العنب كما جنيتا لم يتغيّرا.

[وَ انْظُرْ إِلى حِمارِكَ كيف تبدّد عظامه و تفرّق أجزاؤه و تمزّقت لتبيّن لك طول لبثك و تطمئنّ نفسك و إنّما قال له ذلك ليستدلّ بذلك على طول مماته [وَ لِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ فعلنا ذلك لتكون حجّة للناس في البعث.

[وَ انْظُرْ إِلَى الْعِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها] و نرفعها و نحييها فنردّها إلى أماكنها من الجسد و نركب بعضها على بعض [ثُمَّ نَكْسُوها لَحْماً] و نسترها به كما يستر الجسد باللباس و وحّد «اللحم» و جمع «العظام» لأنّ العظام متعدّدة صورة و اللحم متّحد مشاهدة. روي أنّه سمع صوتا من السماء أيّتها العظام البالية المتفرّقة إنّ اللّه يأمرك أن ينظمّ بعضك إلى بعض كما كان و تكتسي لحما و جلدا ثمّ نفخ فيه الروح فإذا هو قائم ينهق.

[فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ إحياء الميّت عيانا [قالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْ ءٍ قَدِيرٌ] لا يستعصي عليه أمر من الأمور.

روي أنّه ركب حماره و أتى محلّته و أنكره الناس و أنكر الناس و أنكر المنازل فانطلق على و هم منه حتّى أتى منزله فإذا هو بعجوزة عمياء مقعدة قد أدركت زمن عزير فقال لها

عزير: يا هـذه هـذا منزل عزير؟ قالت نعم و أين ذكرى عزير؟ و قد فقدناه منذ كذا و كذا فبكت بكاء شديدا، قال: فإنّي عزير، قالت: سبحان اللّه أنّى يكون ذلك؟ قال: قد أماتني اللّه مائة عام ثمّ بعثني قالت: إنّ عزيرا كان رجلا مستجاب الدعوة فادع اللّه أن يردّ بصري حتّى أراك فدعا ربّه و مسح بين عينيها فصحّتا فأخذ بيدها فقال: قومي بإذن اللّه فقامت صحيحة كأنّها نشطت من عقال فنظرت إليه فقالت: أشهد أنّك عزير فانطلقت إلى محلّة بني إسرائيل و هم في أنديتهم و كان في المجلس ابن لعزير قد بلغ مائة و ثماني عشرة و بنو بنيه شيوخ فنادت هذا عزير قد جاءكم فكذّبوها فقالت: انظروا إليّ فإنّي بدعائه رجعت إلى هذه الحالة فنهض الناس و أقبلوا عليه فقال ابنه: كان لأبي شامة (1) سوداء بين كتفيه مثل الهلال فكشف فإذا هو كذلك.

و قد كان بخت نصّر خرب بيت المقدس و قتل من قرّاء بيت المقدس للتوراة أربعين ألف رجل و لم يكن يومئذ بينهم نسخة من التوراة و لا أحد يعرف التوراة فقرأها عليهم من ظهر قلبه من غير أن يخرم منها حرفا.

فقال رجل من أولاد المسبيّين ممّن ورد بيت المقدس بعد مهلك بخت نصّر: حدّثني أبي عن جدّي أنّه دفن التوراة يوم سبينا في حابة في كرم (2) فإن أريتموني كرم جدّي أخرجتها لكم فذهبوا إلى كرم جدّه ففتّشوه فوجدوها فعارضوها بما أملى عليهم عزير فما اختلفا في حرف واحد، فعند ذلك قالوا: عزير ابن اللّه، تعالى اللّه عن ذلك.

و في الآية ردّ على منكري حشر الأجساد فضلا من أنّ العقل يحكم بحشرها و أقرّوا بحشر الأرواح و قالوا: الأرواح كان تعلّقها بالأجساد لاستكمالها في عالم المحسوس كالصبيّ يبعث إلى المكتب ليتعلّم الأدب فلمّا حصل مقصوده من التعلّم بقدر استعداده و دخل محفل أهل الفضل و صاحبهم سنين كثيرة و استفاد منهم أنواع العلوم الّتي لم توجد في المكتب و صار فاضلا في العلوم فما حاجته بعد أن كبر شأنه إلى أن يرجع في المكتب و حالة صباه؟

قالوا: و كذا الأرواح لمّا خرجت من سجن الأجساد و الأشباح و اتّصلت المقدّسة

1- الشامة: الخال و هو بثرة سوداء في البدن حولها شعر.

2- أي في حوض في بستان عنب.

و استفادت من الأرواح العلويّة علم الكلّيّات الّتي لم توجد في عالم الحسّ فما حاجتها إلى أن ترجع إلى سجن الأجساد؛ فكانت بنو إسرائيل تسوّل نفوسهم لهم هذه التسويلات و شياطين الجنّ و الإنس يوسوسهم بمثل هذه الشبهات.

و هذه قياسات باطلة لأنّ بين المقيس و المقيس عليه فرق و بون بعيد، فاللّه سبحانه من فضله أمات عزيرا و حماره معه ثمّ أحياهم معا ليستدلّ به العقلاء على أنّ اللّه مهما أحيا عزير الروح يحيي و يبعث جسده أيضا بل جسد حماره.

روي عن أمير المؤمنين عليه السّلام أنّ عزيرا خرج من أهله و امرأته حامل و له خمسون سنة فأماته اللّه مائة سنة ثمّ بعثه و رجع إلى أهله و هو ابن خمسين سنة و له ابن و له مائة سنة و كان ذلك من آيات اللّه.

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 260]

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى قالَ أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلى وَ لكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَ اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (260)

. أي اذكر وقت قول إبراهيم، و استعلم بإخبارنا إيّاك هذه القصّة، و ذكر الوقت يوجب ذكر ما وقع في ذلك الوقت من الحوادث الواقعة و قوله «ربّ» كلمة استعطاف قدّمت بين الدعاء مبالغة في استدعاء الإجابة عيانا و شرّفه اللّه بعين اليقين و حقّ اليقين [قالَ ربّه: [أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ و السبب في سؤال إبراهيم هذا الأمر أنّ إبراهيم رأى جيفة تمزّقتها السباع و يأكل منها سباع الطير فسأل اللّه إبراهيم و قال: يا ربّ قد علمت أنّك تجمعها من بطون السباع و الطير فأرني كيف تحييها لأعاين ذلك و هو المرويّ عن أبي عبد اللّه عليه السّلام. (1) و قيل وجه آخر في سبب السؤال و هو ما روي عن ابن عبّاس و سعيد بن جبير أنّ الملك بشّر إبراهيم بأنّ اللّه قد اتّخذه خليلا و أنّه يجيب دعوته و يحيي الموتى بدعائه فسأل ذلك ليطمئنّ قلبه بأنّه قد أجاب دعوته و اتّخذه خليلا.

و قيل إنّ سبب السؤال منازعة نمرود إيّاه في الإحياء إذ قال: «أَنَا أُحْيِي وَ أُمِيتُ»

1- على بن ابراهيم عن أبيه عن ابن ابى عمير عن أيوب عن ابى بصير عن الصادق عليه السّلام. تفسيره: 81.

و أطلق محبوسا و قتل إنسانا فقال إبراهيم: ليس هـذا بإحياء و قال: «رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى ليعلم نمرود ذلك لأنّ نمرود يوعّده بالقتل إن لم يحي اللّه الميّت بحيث يشاهـده فلـذلك قال: «لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي» عن توعّده إيّاي بالقتل بأن لا يقتلني جبّار، عن محمّد بن إسحاق بن يسار.

و رابع الأقوال أنّه عليه السّلام أحبّ أن يعلم ذلك علم عيان بعد أن كان عالما بالاستدلال لتزول دسائس الشيطان.

[قالَ بَلى وَ لكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي أي بلى أنـا مؤمن و لكن سـألت ذلك لأزداد يقينا على يقين [قالَ ربّه: إن أردت ذلك [فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ] طاوسا و ديكا و غرابا و حمامـة و قيل: نسـرا بدل الحمامة. و إنّما خصّ الطير لأنّه أقرب إلى الإنسان و أجمع لخواصّ الحيوان [فَصُرْهُنَ من صاره يصوره و بكسـر الصاد من صاره يصيره و المعنى واحد أي أجمعهنّ و ضمّهنّ [إِلَيْكَ لتتأمّلها و تعرف أشكالها مفصّلة حتّى تعلم بعد الإحياء أنّ جزءا من أجزائها لم ينتقل من موضعه الأوّل أصلا.

روي أنّه امر بـأن يـذبحها و ينتف ريشـها و يفرّق أجزاءهـا و لحومهـا و يمسـك رؤوسـها ثمّ أمر بأن يجعل أجزاءها على الجبال و ذلك قوله تعـالى: [ثُمَّ اجْعَلْ عَلى كُلِّ جَبَلٍ من الجبال الّتي بحضـرتك و كانت سـبعة أو أربعـة فجزّأها أربعـة أجزاء فقال تعالى: ضع على كلّ جبل [مِنْهُنَ أي من كلّ الطيور [جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَ قل لهنّ: تعالين بإذن اللّه تعالى [يَأْتِينَكَ سَعْياً] أي ساعيات مسـرعات طيرانا أو مشـيا ففعل كما أمره فجعل كنّ جزء يطير إلى آخر حتّى صارت جثثا فانضمّت كلّ جثّة إلى رأسها و عادت كلّ واحدة إلى ما كانت عليه من الهيئة و إبراهيم ينظر و يتعجّب [وَ اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ غالب على أمره ذو حكمة بالغة.

[سورة البقرة (2): آية 261]

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَ اللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (261)

. مثل نفقات الّذين ينفقون في سبيل اللّه و في وجوه الخيرات، و المضاف و هو «نفقات» محذوف؛ لأنّ الّذين ينفقون لا يشبهون الحيّة و لا يشبه الحيوان بالجماد بل نفقاتهم تشبه

الحبّة [كَمَثَلِ حَبَّةٍ] لزراع زرعها في أرض عامرة و الحبّة واحدة الحبّ و هو ما يزرع للاقتيات و أكثر إطلاقه على البرّ [أَنْبَتَتْ أي أخرجت. و إسناد الإنبات إلى الحبّة مجاز [سَبْعَ سَنابِلَ أي تتشعّب من ساقات النابتة من تلك الحبّة سبع شعب لكلّ واحدة منها سنبلة [فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ] كما شوهد ذلك في الذرّة و الدخن في الأراضي المغلّة بل أكثر من ذلك.

[وَ اللَّهُ يُضاعِفُ و يزيد على ذلك [لِمَنْ يَشاءُ] بحسب حال المنفق من إخلاصه و تعبه [وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ لا يضيق عليه ما يتفضّل به، و الآية عامّة في النفقة و الإنفاق في جميع أنواع الخير و هو المرويّ عن الصادق عليه السّلام (1). و قيل: هي في الآية خاصّة بالإنفاق في الجهاد فأمّا غيره من الوجوه فإنّما بالواحد عشرة. و عليم بنيّة المنفق.

في الحديث: صدقة المؤمن تدفع عن صاحبها آفات الدنيا و فتنة القبر و عذاب يوم القيامة.

و في الحديث السخاوة شجرة أصلها في الجنّة و أغصانها متدلّيات في دار الدنيا فمن تعلّق بغصن منها يسوقه إلى الجنّة، و البخل شجرة أصلها في النار و أغصانها متدلّيات في دار الدنيا فمن تعلّق بغصن منها يسوقه إلى النار. و في الحديث: الساعي على الأرملة و المسكين كالمجاهد في سبيل اللّه.

و ينبغي للمؤمن أن يزكّي عمله و نفسه و يخلص نيّته إذا أراد أن يفعل خيرا؛ لأنّ نيّة المؤمن خير من عمله، و فسّر بعض معنى الحديث بأنّ مورده أنّ بعض الصحابة سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله أنّه وعد بثواب عظيم على حفر بئر فنوى ذلك الصحابيّ بحفرها فسبق إليه كافر فحفرها قال صلّى اللّه عليه و آله: نيّة المؤمن خير من علمه أي من عمل الكافر. و قيل: معناه إنّ النيّة المجرّدة من المؤمن خير من عمله المجرّدة عن النيّة. و قيل: السبب في أنّ النيّة من المؤمن خير من عمله لأنّ النيّة في الغالب لا يشوبها رياء بخلاف العمل. و قيل: غير ذلك في معناه.

[سورة البقرة (2): آية 262]

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنًّا وَ لا أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (262)

. أي الّذين يضعون أموالهم في مواضعها [ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنًّا] العائد محذوف

ص: 126

1- المحاسن و الشيخ و العيّاشي بأسانيدهم عنه عليه السّلام. البرهان.

أي ما أنفقوه و لا يمنّون عليهم بما تصدّقوا [وَ لا أَذىً و هو أن يتطاول عليه بسبب إنعامه عليه مثل أن يقول له: إنّي أعطيتك فما شكرتني، أو يقول له: كم تسأل ألا تستحيي و تجيئني دائما بالإبرام باعد اللّه بيني و بينك، و أمثال هذه الكلمات.

[لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ثوابهم في الآخرة عند اللّه مذخور، و تخلية الخبر عن الفاء المفيدة للسببيّة لوضوح معنى السببيّة في سياق الآية [وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ من العذاب [وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ لفوت الأجر و نقصانه. و في الآية دلالة على أنّه يصحّ الوعد بشرط؛ لأنّه وعد بشرط عدم المنّ و قد روي عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال: المنّان بما يعطي لا يكلّمه اللّه و لا ينظر إليه و لا يزكّيه و له عذاب أليم.

[سورة البقرة (2): آية 263]

قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَ مَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذىً وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (263)

. أي كلام حسن جميل يردّ به السائل و قيل: دعاء صالح مثل أن يقول: أغناك اللّه عن المسألة و أوسع اللّه عليك الرزق [وَ مَغْفِرَةٌ] أي ستر لما وقع من السائل من الإلحاف في المسألة و صفح عنه. و قيل: معنى «و مغفرة» المراد عفو السائل عن ظلم الّذي ظلم المسؤول بأن سأل في غير وقته أو أساء الأدب في سؤاله و لجّ و ألحف أو يدخل الدار بغير إذن المسؤول فالعفو عن ظلمه خير من أن يتصدّق عليه و يؤذيه بخشونة الكلام. قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: إذا سأل السائل فلا تقطعوا عليه مسألته حتّى يفرغ من كلامه ثمّ ردّوا عليه وقار و لين إمّا بذل يسير أو ردّ جميل فإنّه قد يأتيكم من ليس بإنس و لا جانّ ينظر كيف صنيعكم فيما خوّلكم اللّه.

[وَ اللَّهُ غَنِيٌّ عمّا عندكم برزق الفقراء من جهة اخرى [حَلِيمٌ لا يعاجل أصحاب المنّ و الأذى بالعقوبة.

قال الشعبيّ: من لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته فقد أبطل صدقته. و ليتحرّز المنفق من الرياء فإنّه يذهب بثواب الإنفاق و قيل: إنّ الرياء في الصدقة يوجب أن ينقلب حيّة فإذا وضع في قبره يؤلم إيلام الحيّة كما أنّ البخل ينقلب بصورة العقرب و يؤذيه في القبر و لو أنّ الدنيا بأسرها لرجل واحد و أنفقها ساعة واحدة في سبيل

لا يكون إنفاقه بالنسبة إلى ما يعوّض عنه إلّا قلّ من ذرّة من تراب الأرض أو قطرة من بحار الدنيا.

حكي عن بعض الملوك أنّه حبست الريح في بطنه حتّى قرب إلى الهلاك فقال:

كلّ من يزيل عنّي هذا البلاء أعطيته ملكي فسمعه شخص من أهل اللّه فجاء و مسح يده على بطنه فخرجت منه ريح منتنة و تعافى الملك من ساعته فقال: يا سيّدي اجلس على سرير الملك أنا عزلت نفسي و عليّ شرطي فقال الرجل: لا حاجة لي إلى متاع قيمته ضرطة منتنة و لكن أنت اتّعظ من هذا فالشي ء الّذي اغتررت به قيمته هذا.

قال أمير المؤمنين سيّد الأولياء عليه السّلام: ألا و إنّ دنياكم هذه عندي كعفطة عنز.

و عن الحسن قال: خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله ذات يوم على أصحابه فقال: هل منكم من يريد أن يذهب اللّه عنه العمى و يجعله بصيرا ألا إنّه من رغب في الدنيا و طال أمله فيها أعمى اللّه قلبه على قدر ذلك و من زهد في الدنيا و قصّر أمله أعطاه اللّه علما بغير تعلّم و هدى بغير هداية ألا إنّه سيكون بعدكم قوم لا يستقيم لهم الملك إلّا بالقتل و التجبّر و لا الغنى إلّا بالبخل و لا المحبّة إلّا باتّباع الهوى ألا فمن أدرك ذلك الزمان منكم فصبر للفقر و هو يقدر على الغنى و صبر على البغضاء و هو يقدر على المحبّة و صبر على الذلّ و هو يقدر على العزّ لا يريد بذلك إلّا وجه اللّه أعطاه اللّه ثواب خمسين صدّيقا انتهى.

[سورة البقرة (2): آية 264]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذى كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ وَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ فَأَصابَهُ وابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْ ءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (264)

. قد سبق معنى «المنّ» «و الأذى» و المراد أن لا تحبطوا أجر صدقاتكم بسبب المنّ و الأذى [كَالَّذِي المراد المنافق لأنّ الكافر غير مراء أي كإبطال المنافق الّذي ينفق لأجل أمر من الأمور الدنيا لا لأجل الدين مثل أن يقال: منفق أو يقال له: كريم [وَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ] و لا يريد بإنفاقه رضى اللّه و لا ثواب الآخرة و رئاء من رأى نحو قاتل قتالا.

[فَمَثَلُهُ أي حالته العجيبة [كَمَثَلِ صَفْوانٍ حجر صاف أملس و هو واحد و جمع فمن جعله جمعا فواحده صفوانة و من جعله واحدا فجمعه صفيّ [عَلَيْهِ تُرابٌ أي شي ء يسير منه [فَأَصابَهُ وابِلٌ مطر شديد الوقع كبير القطر [فَتَرَكَهُ صَلْداً] أملس ليس عليه تراب و غبار [لا يَقْدِرُونَ كأنّه قيل: فماذا يكون حالهم حينئذ فقيل: «لا يَقْدِرُونَ» [عَلى شَيْ ءٍ مِمَّا كَسَبُوا] و لا ينتفعون بما فعلوا أي حال المرائي كحال هذه الزارع، على الصفوان لا يجد له ثوابا قطعا، فإن قلت: كيف أتى بلفظ الجمع بعد قوله: «كَالَّذِي يُنْفِقُ»؟ فالمراد بقوله: «كالّذي» الجنس و الفريق الّذي ينفق فالجمع باعتبار المعنى. و روى ابن عبّاس عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: إذا كان يوم القيامة نادى مناد يسمع الجمع أين الّذين كانوا يعبدون الناس قوموا خذوا أحوركم ممّن عملتم له فإنّي لا أقبل عملا خالطه شي ء من الدنيا و أهلها.

[وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ إلى الخير و الرشاد و بالجملة تخليص العمل و الصدقة عن الرياء أمر صعب جدّا و لذا بالغ السلف في إخفاء صدقتهم عن أعين الناس حتّى كان يطلب بعضهم فقيرا أعمى لئلّا يعلم أحد من المتصدّق، و بعضهم كان في ثوب الفقير نائما و بعضهم يلقي الصدقة في طريق الفقير ليأخذها كما أنّ الملامتيّه كانوا يظهرون أمورا غير مشروعة حتّى يتّهمون فيخلصون من الرياء في العبادة لكن طريق الملامتيّه غير حسن أيضا و المؤمن ينبغي أن يجاهد في تخليص عمله من الرياء بطريق المشروع حتّى تكون مجاهدته في هذا الأمر سببا لكثرة ثوابه.

قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: إنّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا: يا رسول اللّه و ما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء يقول اللّه لهم يوم يجازي العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الّذين كنتم تراؤون لهم فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟ و في الحديث إذا كان يوم القيامة و يكون القضاء بينهم و كلّ امّة جاثية فأوّل من يدعى به رجل جمع القرآن و رجل قتل في سبيل اللّه و رجل كثير المال بذول.

فيقول اللّه للقارئ: أ لم اعلّمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى يا ربّ قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقرأ آناء الليل و أطراف النهار فيقول اللّه: كذبت و تقول

الملائكة: كذبت، فيقول اللّه: بل أردت أن يقال: فلان قارئ، فقد قيل.

و يؤتي بالّذي قتل في سبيل اللّه فيقول له: في ما ذا قتلت؟ فيقول: يا ربّ أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتّى قتلت فيقول اللّه: كذبت و تقول الملائكة: كذبت، فيقول اللّه: أردت أن يقال: فلان جري ء شجاع فقد قيل ذلك.

ثمّ يؤتى بصاحب المال فيقول اللّه له: ألم اوسّع عليك حتّى لم أدعك تحتاج إلى أحد قال: بلى يا ربّ قال: فماذا عملت فيما آتيتك، قال: كنت أصل الرحم و أتصدّق فيقول اللّه: كذبت و تقول الملائكة: كذبت فيقول اللّه: أردت أن يقال: فلان جواد و قد قيل ذلك.

ثمّ قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: أولئك الثلاثة أوّل خلق اللّه تسعّر بهم النار يوم القيامة (1).

[سورة البقرة (2): آية 265]

وَ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَ تَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصابَها وابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْها وابِلٌ فَطَلٌّ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (265)

. [وَ مَثَلُ نفقات [الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ لطلب رضاه و يصرفونها في أعمال البرّ [وَ تَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ و جعلوا أنفسهم ثابتا على الإيمان و الطاعة ليزول بهذا التثبيت عن النفس رذيلة البخل و حبّ المال و الإمسال فإنّ النفس و إن كانت مجبولة على حبّ المال و استثقال الطاعات البدنيّة إلّا أنّها ما عوّدتها تتعوّد.

قال صاحب البردة:

و النفس كالطفل إن تهمله شبّ على حبّ الرضاع و إن تفطمه ينفطم

فمتى أهملتها فقد تمرّنت و اعتادت الكسل و البطالة و حيث كلّفتها و حملتها على مشاقّ العبادات البدنيّة و الماليّة تنقاد لك و تتزكّى عن عاداتها الجبلّيّة.

و قيل: معنى «تَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ» أي يثبّتون أين يضعون صدقاتهم و التثبيت هنا هو التثبّت لأنّهم إذا ثبتوا أنفسهم فقد تثبّتوا و من في قوله: «مِنْ أَنْفُسِهِمْ» تبعيضيّة كقولهم: حرّك من نشاطه.

1- و انظر الأصول من الكافي (2: 293- 297).

فإن قلت: كيف يكون المال بعضا من النفس حتّى يكون الطاعة ببذله طاعة لبعض النفس و تثبيتا لها على الثمرة الإيمانيّة. فالجواب أنّ النفس لشدّة تعلّقها بالمال كأنّه بعض منها فالمال شقيق الروح؛ فمن بذل ماله لوجه اللّه فقد ثبّت بعض نفسه و من بذل ماله و روحه فقد ثبّتها كلّها و يجوز أن يكون التثبيت بمعناه أي جعل الشي ء محقّقا ثابتا فيكون «من» لابتداء الغاية كقوله: «حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ» (1).

[كَمَثَلِ جَنَّةٍ] بستان كائن [بِرَبْوَةٍ] مكان مرتفع مأمون من فساد الهواء فإنّ أشجار الربى تكون أحسن منظرا و أزكى ثمرا و أمّا الأرض المنخفضة فقلّما تسلم ثمارها لكثافة هوائها بركود الريح.

و قيل: المراد من «الربوة» الأرض الليّنة الجيّدة بحيث إذا نزل المطر عليها ربت و نمت و انتفخت فإنّ الأرض إذا كانت بهذه الصفة يكثر ريعها و تكمل أشجارها، و يؤيّد هذا المعنى قوله تعالى: «وَ تَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ» (2) و المراد من ربوها ما ذكر [أَصابَها وابِلٌ] و وصل إليها مطر كبير القطر شديد الوقع [فَآتَتْ] أي أعطت صاحبها [أُكُلَها] غلّتها و ثمرتها و هو بضمّتين الشي ء المأكول [ضِعْفَيْنِ] أي مثلي ما كانت تثمر في سائر الأوقات و حملت في سنة ما يحمل غيرها في سنتين [فَإِنْ لَمْ يُصِبْها وابِلٌ فَطَلٌّ] أي المطر الصغير القطر يكفيها لجودتها و كرم منبتها، و الطلّ إذا دام عمل عمل الوابل. و جاز الابتداء بالنكرة لوقوعها في جواب الشرط و هو من جملة المسوّغات للابتداء بالنكرة مثل قولهم: إن ذهب العير فعير في الرباط.

و حاصل المعنى تشبيه نفقات المنفقين في سبيله بشروطها زاكية عند اللّه لا تضيع بحال و التشبيه من قبيل تشبيه المفرّق بأن يشبّه زلفاهم من اللّه بثمرة البستان و شبّه نفقتهم الكثيرة و القليلة بالقويّ من المطر و الضعيف منه من حيث إنّ كلّ واحد منهما سبب للزيادة لأنّ النفقتين تزيدان حسن حالهم كما أنّ المطرين يزيدان ثمر البستان و تختلف الزيادة.

[وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ] من عمل الإخلاص و غيره؛ من يزرع الثوم لم يحصده ريحانا.

ص: 131

1- السورة: 109.

2- الحجّ: 5.

و عن أمير المؤمنين عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله أنّ الصدقة إذا خرجت من يد صاحبها قبل أن يدخل في يد السائل تتكلّم بخمس كلمات أوّلها تقول: كنت قليلة فكثّرتني و كنت صغيرة فكبّرتني و كنت عدوّا فأحببتني و كنت فانيا فأبقيتني و كنت محروسا فالآن صرت حارسك.

قال مكحول الشاميّ: إذا تصدّق المؤمن بصدقة رضي اللّه عنه فنادت جهنّم يا ربّ ائذن لي بالسجود شكرا لك قد أعتقت واحدا من امّة محمّد صلّى اللّه عليه و آله من عذابي لأنّي أستحيي من محمّد صلّى اللّه عليه و آله أن اعذّب من امّته أحدا و لا بدّ لي من طاعتك.

قيل: و لفظ الصدقة أربعه أحرف و كلّ منها إشارة إلى معنى أمّا الصاد فالصدّ أي الصدقة تصدّ و تمنع عن صاحبها مكروه الدنيا و الآخرة، و أمّا الدال فالدليل لأنّها تدلّ صاحبها إلى الجنّة، و أمّا القاف فقربة إلى اللّه، و أمّا الهاء فهداية اللّه؛ فمن ساعده المال فلينفق في سبيل اللّه و لا يقطع رجاء أحد. و في الحديث من قطع رجاء من التجأ إليه قطع اللّه رجاءه.

حكي أنّ بعض العلماء لمّا رأى هذا الحديث بكى بكاء شديدا و تحيّر في رعاية فحواه فقام و ذهب إلى واحد من الصلحاء ليستفسر معنى الحديث و يدفع شبهته فلمّا دخل عليه رأى ذلك الرجل الصالح يأخذ بيده خبزا و يؤكله الكلب من يده فسلّم عليه فردّ عليه السّلام و لم يقم له كما كان يفعله قبل فلمّا أكل الكلب الخبز بالتمام قام له و لاطفه و قال معتذرا:

اقبل العذر منّي حيث لم أقم امتثالا لقول النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: «من قطع رجاء، الحديث» و هذا الكلب رجا منّي أكل الخبز و لم أقم خشية أن أقطع رجاءه فلمّا سمع هذا الكلام زاد تحيّرا و لم يستفسر و تعجّب من كرامته.

قوله: [سورة البقرة (2): آية 266]

أَ يَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَ أَصابَهُ الْكِبَرُ وَ لَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ فَأَصابَها إِعْصارٌ فِيهِ نارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (266)

. الهمزة لإنكار الوقوع أي ما كان ينبغي أن يودّ رجل منكم [أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ] كائنة [مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ و المراد من الجنّة البستان و الأرض المشتملة على الأشجار الملتفّة و تحري الأنهار من تحت الأشجار [لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ الظرف الأوّل خبر و الثاني حال و الثالث صفة للمبتدأ قائمة مقامه أي له رزق من كلّ الثمرات.

[وَ أَصابَهُ الْكِبَرُ] و الحال أنّه قد أصابه كبر السنّ الّذي هو مظنّة شدّة الحاجة إلى منافعها [وَ لَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ] أي مع الكبر يكون له ذرّيّة صغار لا يقدرون على الكسب [فَأَصابَها] أي تلك الجنّة [إِعْصارٌ] أي ريح عاصفة تستدير في الأرض ثمّ تنعكس منها ساطعة إلى السماء على هيئة العمود و هي تهبّ من الأرض نحو السماء مثل العمود [فِيهِ نارٌ] أي يكون في ذلك الإعصار نار [فَاحْتَرَقَتْ تلك الجنّة فصارت نعمها إلى الذهاب و أصلها إلى الخراب فبقي الرجل متحيّرا لا قوّة له أن يغرس مثلها و لا خير في ذرّيّته من الإعانة لكونهم ضعفاء عاجزين، و هذا تمثيل لحال من يفعل الأفعال الحسنة و يضمّ إليها ما يحبطها مثل الرباء و من لم يكن له في الآخرة عمل صالح يوصله إلى الجنّة فحسرته مثل صاحب الجنّة محترقة.

[كَذلِكَ أي مثل ذلك البيان الواضح الّذي بيّن فيما مرّ مثل قصّة عزير و إبراهيم و الجهاد و الإنفاق في سبيل اللّه [يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ و الدلالات تحقيق التوحيد و الدين.

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: يا أبا ذر جدّد السفينة فإنّ البحر عميق، و أكثر الزاد فإنّ السفر بعيد و أقلّ من الحمولة فإنّ الطريق مخوف، و أخلص العمل فإنّ الناقد بصير.

و المراد من تجديد السفينة تكرير التوحيد و المعرفة باللّه و من البحر هو جهنّم.

و الحاصل من الآية التحرّز عن الرياء [لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ كي تتفكّروا فيها و تعتبروا بها.

[سورة البقرة (2): آية 267]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ وَ مِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ لا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَ لَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (267)

. [يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا] من جياد ما حصّلتم و كسبتم لقوله: «لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ» (1) قال صاحب الكشّاف: إنّما فسّر الطيّب بالجيّد لأنّ الحلال استفيد من الأمر فإنّ الإنفاق بالحرام لا يؤمر به و لأنّ قوله بعده: «وَ لا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ» و الخبيث هو الردي ء المستخبث [وَ مِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ أي و من طيّبات

1- ال عمران: 92.

ما أخرجنا لكم من الحبوب و الثمار و المعادن.

[وَ لا تَيَمَّمُوا] أي لا تقصدوا [الْخَبِيثَ الردي ء نقيض الطيّب فالطيّب الحلال و الخبيث الحرام و الطيّب الطاهر و الخبيث النجس و الطيّب ما يستطيبه النفس و الطبع و الخبيث ما تستخبثه و تستكرهه [مِنْهُ تُنْفِقُونَ و الضمير راجع إلى الخبيث و التقديم للتخصيص و الجملة حال من فاعل «تيمّموا» قال ابن عبّاس: كانوا يتصدّقون بحشف التمر و شراره فنهوا عنه.

[وَ لَسْتُمْ بِآخِذِيهِ أي و الحال أنّكم لا تأخذون الخبيث و الردي ء في معاملتكم بوجه من الوجوه [إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ أي إلّا وقت إغماضكم مثل أن كان لكم حقّ على رجل فجاء بردي ء ماله بدل حقّكم الطيّب و تقبلونه بحكم التساهل مخافة فوت حقّكم و حاصل المعنى: لا تتصدّقوا بما لا تأخذونه من غيركم لكم إلّا بالمساهلة و المسامحة.

[وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ] و هو تعالى مستغن عن صدقاتكم و إنّما يأمركم بالإنفاق لمنفعتكم، مستحقّ للحمد على نعمه العظام، و معلوم أنّ المتصدّق كالزارع و الزارع لا بدّ و أن يبالغ في جودة البذر لجودة الثمرة فكذلك المتصدّق و أنّه تعالى «إِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها وَ يُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً» (1) كما قال: «هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ» (2) قال رسول اللّه: إنّ أطيب ما أكله الرجل من كسبه و أطيب الصدقات ما كانت من عمل اليد بقنطار.

روي أنّ رسول اللّه حثّ أصحابه على الصدقة فجعل الناس يتصدّقون و كان أبو أمامة الباهليّ جالسا بين يدي رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و هو يحرّك شفتيه فقال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: إنّك تحرّك شفتيك فماذا تقول؟ قال: إنّي أرى الناس يتصدّقون و ليس معي شي ء أتصدّق به فأقول في نفسي:

«سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلّا اللّه و اللّه أكبر» فقال: هؤلاء الكلمات خير لك من مدّ ذهبا تتصدّق به على المساكين. و جلس الإسكندر يوما مجلسا عامّا فلم يسأل فيه حاجة فقال: و اللّه ما أعدّ هذا اليوم من ملكي قيل: و لم أيّها الملك؟ قال: لأنّه لا يوجد لذّة الملك إلّا بإسعاف الراغبين و إغاثة الملهوفين و مكافأة المحسنين.

1- النساء: 39.

2- الرحمن: 60.

[سورة البقرة (2): آية 268]

الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَ يَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ وَ اللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَ فَضْلاً وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (268)

. ثمّ حذّر سبحانه من الشيطان المانع من الصدقة فقال: [الشَّيْطانُ يخوّفكم بالفقر و يقول: أمسك مالك فإنّك إذا تصدّقت به افتقرت «و الوعد» هو الإخبار بما سيكون من جهة المخبر و يستعمل في الشرّ و الخير قال اللّه: «النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا» (1) [وَ يَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ] و يغريكم على للخصلة السيّئة و على البخل و منع الصدقات، و العرب تسمّي البخل فاحشا.

[وَ اللَّهُ يَعِدُكُمْ في الإنفاق [مَغْفِرَةً] كائنة لذنوبكم [مِنْهُ عزّ و جلّ [وَ فَضْلًا] أي خلفا ممّا أنفقتم زائدا عليه في الدنيا و ثوابا للعقبى [وَ اللَّهُ واسِعٌ قدره و فضله [عَلِيمٌ مبالغ في العلم.

[سورة البقرة (2): آية 269]

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَ ما يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الْأَلْبابِ (269)

. أي [يُؤْتِي اللّه [الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ] قيل: المراد من «الحكمة» علم القرآن ناسخه و منسوخه و محكمه و متشابهه و حلاله و حرامه و مقدّمه و مؤخّره عن ابن عبّاس و ابن مسعود. و قيل: المراد الإصابة في القول و الفصل أي العلم و العمل. و قيل: هو النبوّة. و قيل:

هو المعرفة باللّه. و قيل: المراد خشية اللّه.

روي عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال: آتاني اللّه القرآن و آتاني من الحكمة مثل القرآن و ما من بيت ليس فيه شيء من الحكمة إلّا كان خرابا ألا فتفقّهوا و تعلّموا فلا تموتوا جهّالا.

[وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ] أي العلم و العمل [فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً] لأنّه خير له و جمع خير الدارين [وَ ما يَذَّكَّرُ] و يتّعظ من الحكمة [إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ و أهل العقول الخالصة من شوائب النفس و الهوى؛ لأنّ من لا يغلب عقله على هواه لا ينتفع به فكأنّه لا عقل له و لذا قيل: إنّ من اعطي علم القرآن ينبغي أن لا يتواضع لأهل الدنيا لأجل دنياهم لأنّ ما أعطيه خير كثير و الدنيا متاع قليل قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: القرآن غنى لا غنى بعده. و سمّي العقل «لبّا»

1- الحج: 72.

لأنّه أنفس ما في الإنسان كما أنّ لبّ الثمرة أنفس ما فيها.

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 270]

وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (270)

. أي أيّ نفقة كانت في حقّ أو باطل في سرّ أو علانية قليلة أو كثيرة [أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ] أيّ نذر كان في طاعة أو معصية «و النذر» عقد الضمير على شيء و التزامه و هو في الشرع التزام برّ و خير و لا يقع في أمر غير مشروع [فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ و الضمير راجع إلى «ما» فإنّ اللّه يجازيكم عليه إن خيرا فخير و إن شرّا فشرّ؛ فهو ترغيب و ترهيب و وعد و وعيد [وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ] و أعوان ينصرونهم من بأس اللّه و عقابه، و إيراد صيغة الجمع لمقابلة «الظالمين» أي و ما للظالم من الظالمين من نصير من الأنصار.

[سورة البقرة (2): آية 271]

إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَ إِنْ تُخْفُوها وَ تُؤْتُوهَا الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ يُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئاتِكُمْ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (271)

. أي إن تظهروا الصدقات فنعم شيء إبداؤها بعد أن لم يكن رياء و سمعة، و هذا في الصدقات المفروضة و أمّا في الصدقات المتطوّعة فالإخفاء أفضل و هي الّتي أريد بقوله: [وَ إِنْ تُخْفُوها] أي تعطوها خفية [وَ تُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ] و لعلّ التصريح بإيتائها الفقراء مع أنّه واجب في الإبداء أيضا لما أنّ الإخفاء مظنّة الالتباس و الاشتباه فإنّ الغنيّ ربّما يدّعي الفقر في صدقة السرّ و يقدم على أخذه لكن لا يفعل ذلك عند الإبداء في الناس [فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ فالإخفاء خير لكم من الإبداء، و كلّ متقبّل إذا صلحت النيّة و هذا في التطوّع و أمّا في الواجب فبالعكس ليقتد به بشرط أن لم يكن القصد رياء كالصلاة الواجبة في الجماعة أفضل و النافلة في البيت، و لنفي التهمة و سوء الظن حتّى إذا كان المزكّي ممّن لا يعرف باليسار كان إخفاؤه أفضل خوف الظلمة و الطمعة. قال ابن عبّاس و جماعة: صدقة السرّ في التطوّع تفضل علانيتها سبعين ضعفا و صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرّها بخمسة و عشرين ضعفا. و قيل: الإخفاء في كلّ صدقة أفضل من إبدائها.

[وَ يُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئاتِكُمْ و دخلت «من» للتبعيض، قيل: المراد الصغائر من الذنوب. و قال الأخفس: إنّ «من» زائدة في الآية و قد يقال: كل من طعامي و خذ من مالي

ما شئت؛ فيكون للتعميم. و قرئ بالنون في الآية «نكفّر عنكم من سيّئاتكم» «و فَنِعِمَّا هِيَ» في الآية تقديره فنعم الشي ء و نعم الأمر إبداء الصدقة و «ما» نكرة و كلمة «هي» يفسّر الفاعل المضمر في نعم و «الإبداء» هو المخصوص بالمدح فحذف المضاف الّذي هو الإبداء و أقيمت هي مقام المضاف و حذف لدلالة قوله: «وَ إِنْ تُخْفُوها» على المحذوف و لدلالة الفعل المتقدّم و هو «تبدوا» على مصدره و هو الإبداء.

و بالجملة فعلى قول الأخفش معنى الآية: يكفّر عنكم جميع ذنوبكم، و القول الأوّل أقوى و أحكم. و بعضهم كانوا يبالغون في إخفاء الصدقة المندوبة جدّا حتّى كان يشدّها في ثوب الفقير و هو نائم لقوله صلّى اللّه عليه و آله: أفضل الصدقة جهد المقلّ إلى فقير في سرّ.

قال صلّى اللّه عليه و آله: إنّ العبد يعمل عملا في السرّ فيكتبه اللّه سرّا فإن أظهره نقل من السرّ و كتب في العلانية فإن تحدّث به نقل من السرّ و العلانية و كتب في الرياء. و في الحديث:

صدقة السرّ تطفئ غضب الربّ و تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار و يدفع سبعين بابا من البلاء. و قال صلّى اللّه عليه و آله: سبعة يظلّهم اللّه في ظلّه يوم لا ظلّ إلّا ظلّة: الإمام العدل و الشابّ الّذي نشأ في العبادة و رجل قلبه متعلّق بالمسجد حتّى يعود إليه و رجلان تحابّا في اللّه و اجتمعا عليه و و تفرّقا عليه و رجل دعته امرأة ذات منصب و جمال فقال: إنّي أخاف اللّه، و رجل يصدّق بصدقة فأخفاها حتّى لم يعلم يمينه ما ينفق شماله و رجل ذكر اللّه خاليا ففاضت عيناه.

[وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ] عالم بأعمالكم في صدقاتكم و غيرها.

[سورة البقرة (2): آية 272]

لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَ ما تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ (272)

. نزلت الآية، كان المسلمون يمتنعون عن الصدقة على غير أهل دينهم فنزلت الآية، و قيل:

نزلت في أسماء بنت أبي بكر كانت مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله في عمرة القضاء فجاءتها امّها فتيلة و جدّتها تسألانها و هما مشركتان فقالت: لا أعطيكم شيئا حتّى أستأمر رسول اللّه فإنّكما لستما على ديني فأنزل اللّه هذه الآية، عن الكلبيّ.

أي لا يجب عليك يا محمّد صلّى اللّه عليه و آله أن تجعلهم مهديّين إلى الإتيان بما أمروا به من المحاسن

و الانتهاء عمّا نهوا عنه من القبائح و إنّما الواجب عليك الإرشاد. و قيل: إنّ معناه: [لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ بمنع الصدقة عنهم لتحملهم به على الإيمان، و على هذا المعنى فصدقة التطوّع جائزة للكفّار. و قيل: معناه: «لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ» بالحمل على النفقة في وجوه البرّ و سبل الخير.

[وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ] إنّما علّق الهداية بالمشيّة لمن كان المعلوم منه أنّه يصلح باللطف أي بلطف اللّه بزيادة التوفيق بحسن اختياره و طلبه، و قبل الطاعة فشاء هدايته عن الزجّاج و البلخيّ و أكثر أهل العلم. و قيل: معناه إلى طريق الجنّة.

[وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ خيره و ثوابه و الغرض الترغيب في الإنفاق و المنفعة في الإنفاق ترجع إلى العبد المنفق [وَ ما تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللَّهِ «ما» نافية و هذا إخبار من اللّه عن صفة إنفاق المخلصين للّه بأنّهم لا ينفقون ما ينفقون إلّا لمرضاة اللّه. و قيل: معنى الآية النّهي و إن كان ظاهره الخبر أي لا تنفقوا إلّا ليرضى اللّه. و ذكر لفظ «الوجه» لإزالة الشركة.

[وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ أي يوفّر عليكم جزاؤه و التوفية إكمال الشي ء و تضمّنت معنى التأدية أي تعطون جزاءه وافرا وافيا [وَ أَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ بثوابه بنقص أو منع.

[سورة البقرة (2): آية 273]

لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ لا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحافاً وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (273)

. العامل في الظرف محذوف أي الإنفاق للفقراء. قال أبو جعفر عليه السّلام: نزلت الآية في أصحاب الصفّة و هم نحو أربعمائة رجل لم يكن لهم مساكن بالمدينة يأوون إليها يجعلون أنفسهم في المسجد قالوا: نخرج في كلّ سريّة بعثها رسول اللّه فحثّ الناس لهم بالصدقة فقال:

[لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ و حبسوا أنفسهم لطاعة اللّه و منعوا أنفسهم للمعاش و الكسب للإقبال على العبادة أو للفقر أو لإلزام أنفسهم الجهاد في سبيل اللّه فلا يقع

منهم التصرّف لغيره [لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي اَلْأَرْضِ أي ذهبا فيها و سيرا في البلاد [يَحْسَبُهُمُ اَلْجاهِلُ بشأنهم و يظنّ أنّهم [أَغْنِياءَ مِنَ اَلتَّعَفُّفِ من أجل عفّتهم عن السؤال [تَعْرِفُهُمْ أي تعرف اضطرارهم و فقرهم [بِسِيماهُمْ أي بما تعاين منهم من الضعف و رثاثة الحال و السيما و السيمياء العلامة الّتي تعرف بها الشي ء.

[لا يَسْئَلُونَ اَلنّاسَ إِلْحافاً] مفعول له ففيه نفي السؤال و الإلحاف جميعا لا أنّهم يسألون و لكن من غير إلحاف بل لا يسألون الناس أصلا فيكون إلحافا، و الإلحاف الإلزام و الإلحاح و هو أن يلازم السائل المسؤول حتّى يعطيه.

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب فيأتي بحرفة حطب على ظهره فيكفّ بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أشياءهم أعطوه أو منعوه. قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله إنّ اللّه يحبّ الحييّ الحليم المتعفّف و يبغض البذي ء السائل الملحف.

[وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اَللّهَ بِهِ عَلِيمٌ فيجازيكم بذلك أحسن جزاء.

ثمّ زاد سبحانه في التحريص على الإنفاق بقوله:

[سورة البقرة (2): آية 274]

اَلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَ اَلنَّهارِ سِرًّا وَ عَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (274)

. النزول: قال ابن عبّاس: نزلت الآية في عليّ كانت معه أربعة دراهم فتصدّق بواحد نهارا و بواحد ليلا و بواحد سرّا و بواحد علانية و هو المرويّ عن أبي عبد اللّه و أبي جعفر عليهما السّلام و قيل: هي عامّة في كلّ من أنفق ماله في طاعة اللّه على هذه الصفة و لا ينافي أن تكون الآية نازلة في عليّ و حكمها سائر في كلّ من فعل مثل فعله و له فضل السبق.

بيّن سبحانه كيفيّة الإنفاق و ثوابه فقال.

[اَلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ في هذه الحالات أي على الدوام [فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ أتى بالفاء ليدلّ على أنّ الجزاء إنّما هو من أجل الإنفاق في طاعة اللّه و لا يجوز «زيد فله درهم» لأنّه ليس فيه معنى الجزاء [وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ من أهوال القيامة [وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ فيها و قيل: المعنى: لا خوف عليهم من فوت الأجر و نقصانه و لا هم يحزنون على ذلك.

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 275]

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَما يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَ أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبا فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهى فَلَهُ ما سَلَفَ وَ أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَ مَنْ عادَ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (275)

. أصل «الربا» الزيادة ربا الشي ء إذا زاد و الربا هو الزيادة على رأس المال. لمّا حثّ اللّه على الإنفاق عقّبه بذكر الربا الّذي ظنّه الجاهل زيادة في المال و هو يمحق المال [الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا] أي يأخذونه و عبّر عنه بالأكل لأنّه معظم المقصود من المال، و الربا فضل في الكيل و الوزن خال عن العوض و كتب بالواو تنبيها على أصله لأنّه من ربا يربو، زيدت الألف تشبيها بواو الجمع [لا يَقُومُونَ من قبورهم إذا بعثوا [إِلَّا كَما يَقُومُ أي إلّا قياما مثل قيام الّذي [يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِ أي يصرعه و يكون قيامهم مثل المصروع المختلّ فيكون ذلك إمارة لأهل الموقف على أنّهم آكلة الربا عن ابن عبّاس و سعيد بن جبير و جماعة.

و قيل: إنّ هذا على وجه التشبيه لأنّ الشيطان لا يصرع الإنسان على الحقيقة و لكن من غلب عليه المرّة السوداء و ضعف عقله ربّما يخيّل الشيطان إليه أمورا هائلة و يوسوس إليه فيقع الصرع عند ذلك من فعل اللّه و نسب ذلك إلى الشيطان مجازا لما كان ذلك عند وسوسته.

و قيل: يجوز أن يكون الصرع من فعل الشيطان في بعض الناس دون بعض عن أبي الهذيل و ابن الاحشيد قالا: لأنّ الظاهر من القرآن يشهد به و ليس في العقل ما يمنع منه و لا يمنع اللّه الشيطان عنه امتحانا لبعض الناس و عقوبة لبعضهم على ذنب ألمّ به و لم يتب منه كما يتسلّط بعض الناس على بعض فيظلمه و يأخذ ماله و لا يمنعه اللّه منه و لأن يكون هذا علامة لآكلي الربا يعرفون بها يوم القيامة كما أنّ على كلّ عاص من معصيته علامة يليق به فيعرف بها صاحبها و على كلّ مطيع من طاعته إمارة يليق به يعرف بها صاحبها و ذلك معنى قوله: «فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لا جَانٌّ» (1).

و قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: في شهداء أحد زمّلوهم بثيابهم و دمائهم. و قال صلّى اللّه عليه و آله: يبعث

1- الطبرسي مرسلا.

امّتي يوم القيامة عن قبورهم غرّا محجّلين من آثار الوضوء.

و قد قيل: الّذين يخرجون من الأجداث يوفضون إلّا آكلة الربا فإنّهم ينهضون و يسقطون كالمصر و عين لأنّهم أكلوا الربا فأرباه اللّه في بطونهم حتّى أثقلهم فلا يقدرون على الإيقاض.

[ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا] أي ذلك العذاب بسبب قولهم: [إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا] قال ابن عبّاس: كان الرجل منهم إذا حلّ دينه على غريمه فطالبه به قال المطلوب له: زدني في الأجل و أزيدك في المال فيتراضيان عليه و يعملان به فإذا قيل: لهم هذا ربا قالوا: هما سواء يعنون بذلك أنّ الزيادة في الثمن حال البيع و الزيادة فيه بسبب الأجل عند حلول الأجل سواء.

فذمّهم اللّه و ألحق الوعيد بهم و خطّأهم في ذلك بقوله: [وَ أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبا] أي أحلّ اللّه البيع الّذي حقيقة هو البيع و حرّم النوع الّذي فيه الربا و ألحقتموه أنتم بالبيع.

[فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ] و انتهى بالوعظ عمّا نهاه اللّه [فَلَهُ ما سَلَفَ و مضى من ذنبه فلا يؤاخذ به لأنّه أخذ قبل نزول التحريم و له ما أخذ و أكل من الربا و لا يلزمه ردّه؛ قال الباقر عليه السّلام: من أدرك الإسلام و تاب ممّا كان عمله في الجاهليّة وضع اللّه له ما سلف. و هذا فيما قبض و أخذ و أمّا ما لم يقبض فلا يجوز له أخذه و له رأس المال و هذا الحكم كان لأهل الجاهليّة و لكنّ المسلم إذا أخذ ربا ثمّ تنبّه فيجب عليه ردّ ما أخذه بعنوان الربا من دون كلام [وَ أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ يجازيه على انتهائه إن قبل الوعظ. و قيل: المراد يحكم في شأنه يوم القيامة و ليس من أمره إليكم شي ء فلا تطالبونه به.

[وَ مَنْ عادَ] إلى الربا مستحلّا بعد النهي كما استحلّ قبله من أنّ البيع مثل الربا [فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ لأنّ ذلك القول؛ لا يصدر إلّا من كافر مستحلّ للربا فلهذا يعذّب بعذاب الأبد. و ممّا جاء في الحديث في الربا عن أمير المؤمنين عليه السّلام قال: لعن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله خمسة: آكله و مؤكّله و شاهديه و كاتبه و المحلّل له. و عنه عليه السّلام إذا أراد اللّه بقرية هلاكا ظهر فيهم الرباء. و عنه عليه السّلام قال: الرباء سبعون بابا أهونها عند اللّه

كالّذي ينكح أمّه. و روى جميل بن درّاج عن أبي عبد اللّه عليه السّلام قال: درهم رباء أعظم عند اللّه من سبعين زنية كلّها بذات محرم في بيت اللّه.

[سورة البقرة (2): آية 276]

يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَ يُرْبِي الصَّدَقاتِ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (276)

. أي ينقص اللّه الربا «و المحق» نقصان الشيء حالا بعد حال حتّى يذهب كلّه كما في محاق الشهر و هو حال آخذ الربا فإنّ اللّه يذهب بركته و يهلك المال الّذي يدخل فيه و لا ينتفع به و لا ولده بعده [وَ يُرْبِي الصَّدَقاتِ يضاعف ثوابها و يزيد المال الّذي أخرجت منه الصدقة. و عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله ما نقصت زكاة من مال قطّ.

[وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ] منهمك في ارتكاب المعاصي. و الكفّار هو المقيم على الكفر المعتاد له باستحلال الربا و روي عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال: سيأتي زمان على الناس لا يبقى أحد إلّا أكل الربا فمن لم يأكله أصابه من غباره.

[سورة البقرة (2): آية 277]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (277)

. المعنى ظاهر. و تخصيص الصلاة و الزكاة بالذكر مع اندراجهما في الصالحات لإنافتهما على سائر الطاعات [لَهُمْ أَجْرُهُمْ الموعود لهم حال كونه [عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ من مكروهات [وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ من محبوب فات.

[سورة البقرة (2): الآيات 278 الى 279]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ ذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (278) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَ لا تُظْلَمُونَ (279)

عن أبي جعفر عليه السّلام في النزول قال: إنّ الوليد بن مغيرة كان يربي في الجاهليّة و قد بقي له بقايا على ثقيف فأراد خالد بن الوليد المطالبة بها بعد أن أسلم فنزلت الآية و قيل: نزلت في بقيّة من الربا كانت للعبّاس و خالد بن وليد و كانا شريكين في الجاهليّة يسلفان في الربا و لهما أموال عظيمة على ثقيف فنزلت الآية فقال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله:

ألا إنّ كلّ ربّي من رباء الجاهليّة موضوع و أوّل ربّي أضعه ربي العبّاس بن عبد المطّلب و كلّ دم من دم الجاهليّة موضوع و أوّل دم أضعه دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطّلب كان

مرضعا في بني ليث فقتله هذيل. و قال مقاتل: نزلت في أربعة إخوة من بني ثقيف عبد ياليل و مسعود و حبيب و ربيعة و كانوا يداينون بني المغيرة و كانوا يربون فلمّا ظهر النبيّ صلّى اللّه عليه و آله على الطائف و صالح ثقيفا أسلم هؤلاء الإخوة الأربعة فطلبوا رباهم من بني المغيرة و اختصموا إلى عتاب بن أسيد عامل رسول اللّه على مكّة فكتب عتاب إلى النبيّ صلّى اللّه عليه و آله بالقصّة فأنزل اللّه الآية:

[يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ في أمر الربا و في جميع ما نهاكم عنه [وَ ذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا] و اتركوا ما بقي لكم غير مقبوض من مال الربا على من عاملتموه به [إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ حقيقة فإنّ ذلك مستلزم للامتثال [فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا] ما أمرتم به من ترك البقايا [فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ أي فأيقنوا و اعلموا من أذن بالأمر أو أعلم به أنّكم تستحقّون القتل في الدنيا و النار في الآخرة أي اعلموا أنّ في امتناعكم من وضع البقيّة في الربا حرب و عداوة من اللّه و قرئ «فآذنوا» بالمدّ و كسر الذال فالمعنى: أعلموا من لم ينته عن ذلك بحرب من اللّه و المراد إعلام الممتنعين عن قبول الترك فإذا أمروا بإعلام غيرهم فهم علموا أيضا لا محالة و حرب اللّه حرب ناره أي بعذاب عظيم من عنده و تنكير الحرب للإشعار بعظمة العذاب.

[وَ إِنْ تُبْتُمْ من الارتباء [فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوالِكُمْ تأخذونها [لا تَظْلِمُونَ غرماءكم بأخذ الزيادة [وَ لا تُظْلَمُونَ بالنقصان من رأس المال.

[سورة البقرة (2): آية 280]

وَ إِنْ كانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلى مَيْسَرَةٍ وَ أَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (280)

. أي إن وقع غريم من غرمائكم [ذُو عُسْرَةٍ] من الإعدام أو كساد المتاع فالحكم [نظرة] و النظرة التأخير و هو اسم قام مقام الإنظار [إِلى مَيْسَرَةٍ] أي إلى اليسار و السعة و قرئ إلى «ميسره» بإرجاع الضمير إلى المعسر و اختلف في حدّ الإعسار فروي عن الصادق عليه السّلام أنّه قال: هو إذا لم يقدر على ما يفضل من قوته و قوت عياله على الاقتصاد.

و أيضا اختلف في وجوب إنظار المعسر على ثلاثة أقوال: أحدها أنّه واجب في كلّ دين عن ابن عبّاس و الضحّاك و الحسن و هو المرويّ عن أبي جعفر عليه السّلام. و ثانيها أنّه واجب

في دين الربا خاصّة عن شريح و إبراهيم النخعيّ. و ثالثها أنّه واجب في دين الربا بالآية و في كلّ دين بالقياس عليه. و قال الباقر عليه السّلام: «إلى ميسرة» معناه إلى أن يبلغ خبره الإمام فيقضي عنه من سهم الغارمين إذا كان النفقة في المعروف.

[وَ أَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ أي و أن تتصدّقوا على المعسر بما عليه من الدين خير لكم [إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الخير من الشر قال صلّى اللّه عليه و آله: من ادّان دينا و هو ينوي قضاءه وكّل به ملائكة يحفظونه و يدعون له حتّى يقضيه.

و في تفسير روح البيان عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله عن جبرئيل عليه السّلام الشهادة تكفّر كلّ شي ء إلّا الدين يا محمّد- ثلاثا- فعلى العاقل أن يقضي ما عليه من الديون و من أدّى الفرض فإنّه يهوّن عليه أن يؤدّي القرض.

[سورة البقرة (2): آية 281]

وَ اتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (281)

. أي وَ اتَّقُوا عذاب اللّه و احذروا [يَوْماً] تردّون جميعا إلى جزاء اللّه و تصيرون فيه [إِلَى اللَّهِ لمحاسبة أعمالكم [ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ و تعطى جزاء [ما كَسَبَتْ و عملت من خير و شرّ [وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ و لا ينقصون من ثوابهم و لا يزدادون على عقابهم و عن ابن عبّاس هذه آخر آية نزلت و لقى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله ربّه بعدها بسبعة أو تسعة أيّام أو أحد و عشرين أو أحد و ثمانين يوما أو ثلاث ساعات و قال له جبرئيل: ضعها على رأس مائتين و ثمانين آية من سورة البقرة فجعلت بعد آية «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ» و آية الربا تأكيدا للزجر عن الربا.

روي أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله ولد يوم الاثنين و بعث يوم الاثنين و دخل المدينة يوم الاثنين و قبض يوم الاثنين و كان مريضا ثمانية عشر يوما يعوده الناس و كان آخر ما يقول: الصلاة و ما ملكت أيمانكم الصلاة فإنّا للّه و إنّا إليه راجعون و رثاه بعض الأنصار فقال:

الصبر يحمد في المواطن كلّهاإلّا عليك فإنّه مذموم

و اعلم أنّ اللّه سبحانه جمع في هذه الآية خلاصة ما أنزله في القرآن و جعلها خاتم الوحي و الإنزال كما أنّه جمع خلاصة ما أنزل من الكتب على الأنبياء في القرآن و جعله خاتم الكتب كما أنّ النبيّ صلّى اللّه عليه و آله خاتم الأنبياء و بيان أنّ هذه الآية خلاصة ما أنزله في القرآن

لأنّ فائدة هذه الكتب بالنسبة إلي المكلّف نجاته من الدركات و فوزه بالدرجات و الدركات أصولها الشرك و الجهل و المعاصي و الأخلاق المذمومة و الدرجات أصولها التوحيد للّه و العلم و الطاعات و الأخلاق الحميدة و هذه الآية شاملة في السعي إليها و التحرّز عنها لأنّ حقيقة التقوى مجانبة ما يبعدك عن اللّه و مباشرة لا يقرّبك إليه فيندرج تحت كلمة التقوى الخروج عن الكفر و الشرك بالمعرفة و التوحيد و عن الجهل بالعلم و عن المعاصي بالطاعات و عن الأخلاق المذمومة بالأخلاق الممدوحة.

قال ابن عبّاس و جماعة من المفسّرين: إنّه لمّا نزلت «إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ» (1) قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: ليتني أعلم متى تكون ذلك فأنزل اللّه تعالى سورة «إذا جاءَ نَصْرُ اللّهِ وَ الْفَتْحُ» فكان رسول اللّه يسكت بين التكبير و القراءة بعد نزول هذه السورة فيقول: سبحان اللّه و نحمده أستغفر اللّه و أتوب إليه فقيل له: إنّك لم تكن تقوله قبل هذا، فقال: إنّ نفسي نعيت إليّ ثمّ بكى بكاء شديدا.

فقيل يا رسول اللّه: أ تبكي من الموت و قد غفر اللّه لك ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر؟

قال: فأين هول المطّلع و أين ضيق القبر و ظلمة اللحد و أين القيامة و الأهوال؟ فعاش رسول اللّه بعد نزول هذه السورة عامّا تامّا.

ثمّ نزلت «لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ إلى آخر السورة» (2) فعاش رسول اللّه بعدها ستّة أشهر. ثمّ نزل عليه في حجّة الوداع «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» (3) فعاش بعدها أحد و ثمانين يوما ثمّ نزلت آية الربا، ثمّ نزلت بعدها: «وَ اتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ الآية» (4) و هي آخر آية نزلت من السماء.

1- الزمر: 30.

2- التوبة: 129.

3- المائدة: 4.

4- المائدة: 4.

[سورة البقرة (2): آية 282]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَ لْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَ لا يَأْبَ كاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَما عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَ لْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَ لْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَ لا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَ اسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَ امْرَأَتانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى وَ لا يَأْبَ الشُّهَداءُ إِذا ما دُعُوا وَ لا تَسْئَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلى أَجَلِهِ ذلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أَقْوَمُ لِلشَّهادَةِ وَ أَدْنى أَلاَّ تَرْتابُوا إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجارَةً حاضِرَةً تُدِيرُونَها بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوها وَ أَشْهِدُوا إِذا تَبايَعْتُمْ وَ لا يُضَارَّ كاتِبٌ وَ لا شَهِيدٌ وَ إِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (282)

. المعنى: إذا داين بعضكم بعضا و عامله نسيئة معطيا أو آخذا و إنّما قال: «بدين» لأنّ تداينتم قد يكون بمعنى تجازيتم من الدين الّذي هو الجزاء فقيّده بالدين لتخليص اللفظ من الاشتراك [إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى أي وقت مذكور بالتسمية قال ابن عبّاس: إنّ الآية وردت في السلم خاصّة قال الطبرسيّ: و ظاهر الآية يقع على دين مؤجّل سلما كان أو غيره و عليه الفقهاء [فَاكْتُبُوهُ أي اكتبوا الدين بأجله المعلوم مثل الأيّام أو الأشهر أو السنة بما يرفع الجهالة لا بالحصاد و قدوم الحاجّ مثل ما لا يرفع الجهالة و الجمهور على استحباب هذا الأمر لأنّه أدفع للنزاع.

[وَ لْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتِبٌ و قوله: «بينكم» للإشعار بأنّ الكاتب ينبغي أن يكون بين المتداينين و يكتب كلامهما و لا يكتفي بكلام أحدهما [بِالْعَدْلِ أي كاتب كائن بالعدل و المتصدّي للكتابة من شأنه أن يكتب بالتسوية من غير ميل إلى إحدى الجانبين.

[وَ لا يَأْبَ كاتِبٌ أي لا يمتنع أحد من الكتّاب [أَنْ يَكْتُبَ كتاب الدين و الصكّ على الوجه المأمور به بل يكتب على وجه الحقّ الواقع [كَما عَلَّمَهُ اللَّهُ من الكتابة بالعدل [فَلْيَكْتُبْ تأكيد للكتابة العادلة [وَ لْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُ الإملال هو الإملاء و هو إلقاء المعنى على الكتّب أي ليكن المملل. و مورد المعنى على الكاتب و يقرّ المديون على نفسه بلسانه ليعلم ما عليه فيكتب إقراره [وَ لْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ أي الّذي عليه الحقّ في الإملاء [وَ لا يَبْخَسْ و لا ينقص من الحق شيئا لا من قدره و لا من صفته.

و اختلف في الكتابة هل هي فرض أم لا؟ فقيل: هي فرض على الكفاية كالجهاد و نحوه عن الشعبيّ و جماعة من المفسّرين و الرمّانيّ و جوّز الجبّائيّ أن يأخذ الكاتب و

الشاهد الأجرة على ذلك. قال الشيخ أبو جعفر الطوسيّ: و عندنا لا يجوز ذلك. و أمّا الورق الّذي يكتب فيه على صاحب الدين دون من عليه الدين و يكون الكتاب في يده لأنّه له.

و قيل: واجب على الكاتب يكتب في حال فراغه. و قيل: واجب عليه أن يكتب إذا امر. و قيل:

إنّ ذلك في المواضع الّذي لا يقدر فيه على كاتب غيره فيضرّ بصاحب الدين إن امتنع فإذا كان كذلك فهو فريضة و إن قدر على غيره فهو سعة إذا قام به غيره. و قيل: كان واجبا ثمّ نسخ بقوله: «وَ لا يُضَارَّ كاتِبٌ وَ لا شَهِيدٌ» انتهى.

ثمّ بيّن سبحانه حال من لا يصحّ منه الإملاء فقال: [فَإِنْ كانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً] ناقص العقل مبذّرا مجازفا و قيل: صغيرا طفلا. و قيل: عاجزا أحمقا [أَوْ ضَعِيفاً] أي ضعيف المزاج مثل أن يكون شيخا مختلّا أو خرفا [أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ] بنفسه لخرس أو عمى أو جهل من العوارض [فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ الّذي يلي أمره أي يملل وليّ الّذي عليه الحقّ و يقوم مقامه الشرعيّ من وليّ أو قيّم [بِالْعَدْلِ من غير نقص و لا زيادة.

ثمّ أمر سبحانه بالإشهاد فقال: [وَ اسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجالِكُمْ أي و أشهدوا على المكتوب رجلين من رجالكم. أي من أهل دينكم و قيل: المراد من الأحرار البالغين المسلمين دون العبيد و الكفّار، لكنّ الحرّيّة ليست بشرط عندنا في قبول الشهادة و إنّما اشترط الإسلام مع العدالة.

[فَإِنْ لَمْ يَكُونا رَجُلَيْنِ أي لم يكن الشهيدان رجلين فليكن [رجل وَ امْرَأَتانِ فليشهد رجل و امرأتان [مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ] و هو معروف بالستر و الصلاح و الأمانة و الدين [أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما] أي تنسى إحدى المرأتين [فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا] الشهادة لأخرى و هذا تعليل لاعتبار العدد في النساء و العلّة في الحقيقة هي التذكير و لكنّ الضلال لمّا كان سببا له نزّل منزلته كقولك: أعددت السلاح أن يجي ء عدوّ فأدفعه؛ فالإعداد للدفع لا لمجي ء العدوّ لكن قدّم عليه المجي ء لأنّه سببه.

ثمّ حثّ الشهداء على إقامة الشهادة بقوله [وَ لا يَأْبَ الشُّهَداءُ إِذا ما دُعُوا] لأداء الشهادة و «ما» مزيدة أي إذا دعوا إلى إثبات الشهادة و إقامتها [وَ لا تَسْئَمُوا] و لا تملّوا و لا تضجروا [أَنْ تَكْتُبُوهُ من أن تكتبوا الحقّ و الدين و الكتاب [صَغِيراً أَوْ كَبِيراً] حال من الضمير، صغيرا كان

الحقّ أو كبيرا قليلا كان أو كثيرا مجملا أو مفصّلا [إِلى أَجَلِهِ إلى وقت حلوله الّذي أقرّ به المديون.

[ذلِكُمْ أي كتب الحقّ و الصكّ إلى أجله كاملا [أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ أعدل في حكمه [وَ أَقْوَمُ لِلشَّهادَةِ] و أثبت لها و أعون على إقامتها [وَ أَدْنى أَلَّا تَرْتابُوا] و أقرب إلى انتفاء شكّكم في الدين و قدره و أجله و شهادته [إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً حاضِرَةً تُدِيرُونَها بَيْنَكُمْ استثناء منقطع من الأمر بالكتابة أي لكن وقت كون مبايعتكم و مداينتكم حاضرة يدا بيد بحضور العدلين [تُدِيرُونَها بَيْنَكُمْ نقدا لا نسيئة [فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ حرج و ضيق [أَلَّا تَكْتُبُوها] و ليس عليكم إثم في ترك كتابتها.

[وَ أَشْهِدُوا إِذا تَبايَعْتُمْ و أشهدوا الشهود على بيعكم و هذا أمر استحباب في هذا التبايع أو مطلقا لأنّه أحوط و هذه الأوامر في الآية الكريمة للندب عند الفقهاء، و قال أصحاب الظاهر: الإشهاد فرض في التبايع.

[وَ لا يُضَارَّ كاتِبٌ وَ لا شَهِيدٌ] أصله يضارر- بكسر الراء الأولى على قراءة كسر الراء- فيكون النهي متعلّقا للكاتب و الشاهد عن المضارّة فعلى هذا فمعنى المضارّة أن يكتب الكاتب ما لم يملّ عليه و يشهد الشاهد بما لم يستشهد فيه أو بأن يمتنع من إقامة الشهادة، و على قراءة فتح الراء الأولى عن ابن مسعود و مجاهد فيكون معناه: لا يكلّف الكاتب و الشاهد في حال عذر لا يتفرّغ إليها و لا يضيّق على الشاهد و الكاتب إلى إثبات الشهادة و إقامتها في حال عذر و لا يعنّفان عليها إذا كانا مشغولين بما يهمّهما و لا يضارّان بإبطال شغلهما.

[وَ إِنْ تَفْعَلُوا] ما نهيتم عنه من الضرار [فَإِنَّهُ فعلكم ذلك [فُسُوقٌ بِكُمْ و خروج عن الطاعة أي حينئذ ملتبسين بالفسق [وَ اتَّقُوا اللَّهَ في مخالفته و يعلّمكم اللّه ما تحتاجون إليه من امور دينكم [وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ و ذكر عليّ بن إبراهيم بن هاشم أنّ في البقرة خمسمائة حكم و في هذه الآية خاصّة خمسة عشر حكما.

قوله: [سورة البقرة (2): آية 283]

وَ إِنْ كُنْتُمْ عَلى سَفَرٍ وَ لَمْ تَجِدُوا كاتِباً فَرِهانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمانَتَهُ وَ لْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَ لا تَكْتُمُوا الشَّهادَةَ وَ مَنْ يَكْتُمْها فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (283)

.

و إن كنتم مسافرين و متوجّهين إلى السفر [وَ لَمْ تَجِدُوا كاتِباً] أيّها المتبايعون المتداينون كاتبا للصكّ و لا شهودا تشهدونهم فالوثيقة رهن فيكون «رهان» خبر مبتدأ مقدّر و هو الوثيقة أو التقدير: [فَرِهانٌ مَقْبُوضَةٌ] يقوم مقام الصكّ و الشهود، و القبض شرط في صحّة الرهن فإن لم يحصل القبض لم ينعقد الرهن بالإجماع.

[فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً] أي اطمأنّ بعض الدائنين بعض المديونين لحسن ظنّه به و استغنى بأمانته عن الارتهان فلم يطلب منه الرهن [فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ] و هو المديون و الايتمان الوثوق بأمانة الرجل [أَمانَتَهُ] أي فليقض المديون الأمين ما في ذمّته من الدين و سمّي الدين «أمانة» لتعلّقه بالذمّة كتعلّق الأمانة و أراد بقوله: «أمانته» ما اؤتمن فيه فهو مصدر بمعنى المفعول [وَ لْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ] أي و ليتّق المديون عقوبة اللّه ربّه بجحوده أو النقصان منه.

[وَ لا تَكْتُمُوا الشَّهادَةَ] أي بعد تحمّل الشهادة أيّها الشهود إذا دعيتم إلى الحاكم لأدائها على وجهها [وَ مَنْ يَكْتُمْها فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ] و المعنى أنّ الكاتم يأثم قلبه، و قلبه فاعل آثم.

فإن قيل: هلّا اقتصر على قوله: «آثم» و ما فائدة ذكر القلب و الجملة الآثمة لا القلب وحده؟

فالجواب أنّ كتمان الشهادة هو أن يضمرها و يسترها في قلبه و لا يتكلّم بها فلمّا كان الآثم مقترفا بالقلب أسند إليه و إسناد الفعل إلى الجارحة الّتي يعمل بها أبلغ و أصحّ تقول: أبصرته بعيني و سمعته باذني إذا أردت التأكيد في أمر فكأنّه قيل: قد تمكّن الإثم في أصل نفسه و ملك أشرف مكان منه، و القلب أصل متعلّقه، ألا ترى أنّ أصل الحسنات و السيّئات الإيمان و الكفر و هما من أفعال القلوب، و عن ابن عبّاس: أكبر الكبائر الإشراك باللّه لقوله: «فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» (1) و شهادة الزور و كتمان الشهادة.

[وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ فيجازيكم به و روي عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال: لا ينقضي كلام شاهد زور من بين يدي الحاكم حتّى يتبوّأ مقعده من النار و كذلك من كتم الشهادة.

1- المائدة: 75.

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 284]

لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْ ءٍ قَدِيرٌ (284)

. اللام لام الملك أي له تصريف السماوات و الأرض و ما بينهما لأنّه هو أبدعهما لا شركة لأحد لغيره في شي ء منها فلا تعبدوا أحدا سواه و لا تعصوه فيما يأمركم به و ينهاكم عنه، و إن تظهروا ما في قلوبكم من الطاعة و المعصية أو تكتموه و تخفوه عن الناس ككتمان الشهادة و موالاة المشركين أو موالاة المؤمنين، و لا يندرج فيه ما لا يخلو البشر منه من الوساوس و أحاديث النفس الّتي لا عزيمة و لا عقد فيها إذ التكليف بحسب الوسع و دفع ذلك ممّا ليس في وسعه.

[يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ و يجازيكم به يوم القيامة [فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ] منهم رحمة و فضلا [وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ] عدلا حسبما تقتضيه مشيّته المبنيّة على الحكم و المصالح، و لكن يعذّب الكافر لا محالة لأنّه لا يغفر الشرك لقوله: «إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ»* (1) و تقديم المغفرة على التعذيب لسبقة رحمته على غضبه [وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْ ءٍ قَدِيرٌ] فكمال قدرته على جميع الأشياء موجب لقدرته على محاسبتكم.

قوله تعالى: [سورة البقرة (2): آية 285]

آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَ قالُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ (285)

. لمّا ذكر سبحانه فرض الصلاة و الزكاة و بعض أحكامه في السورة ختم السورة بذكر تعظيمه و شهد بتصديق نبيّه صلّى اللّه عليه و آله بجميع ذلك.

و في الآية إشعار بترتيب العقائد الّتي لا يتحقّق الإيمان إلّا بها من الأصول ثمّ العمل بالفروع حسب ما نصّ به الشارع لا بالقياس و الرأي.

قال ابن شبرمة: دخلت أنا و أبو حنيفة على الصادق عليه السّلام فقلت: هذا فقيه أهل العراق فقال عليه السّلام: أهو النعمان بن ثابت؟ فقال أبو حنيفة: نعم أنا ذلك، فقال الصادق عليه السّلام: اتّق اللّه و لا تقس الدين برأيك؛ فإنّ أول من قاس برأيه إبليس إذ قال: «أنا خير منه» ثمّ سأله

1- النساء 47.

عليه السّلام عن بعض المسائل فعيّ فيها ثمّ سأله عليه السّلام عن كلمة أوّلها الشرك و آخرها الإيمان قال: لا أدري، قال الصادق عليه السّلام: هي كلمة لا إله إلّا اللّه فلو قال: لا إله و سكت كان شركا.

ثمّ قال عليه السّلام: ويحك أيّما أعظم عند اللّه إثما: قتل النفس الّتي حرّم اللّه أو الزنا؟

قال: بل قتل النفس قال الصادق عليه السّلام: إنّ اللّه قد قبل في قتل النفس شهادة شاهدين و لم يقبل في الزنا إلّا شهادة أربعة، فإنّى يقوم لك القياس؟ ثمّ قال عليه السّلام: أيّما أعظم عند اللّه: الصوم أو الصلاة؟ قال: الصلاة، قال: فما بال الحائض تقضي الصوم و لا تقضي الصلاة؟

فاتّق اللّه و لا تقس الدين برأيك فإنّا نقف غدا و من خالفنا بين يدي اللّه فنقول: قال اللّه و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: و تقول أنت و أصحابك: سمعنا و قسنا؛ فيفعل اللّه بنا و بكم ما يشاء.

فقال: [آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ من الأحكام المذكورة [وَ الْمُؤْمِنُونَ أي كلّ واحد منهم [آمَنَ بِاللَّهِ و صدّق به و بصفاته سبحانه و نفي التشبيه عنه و تنزيهه عمّا لا يليق به [وَ مَلائِكَتِهِ أي و صدّقوا بملائكته و بأنّهم مطهّرون و معصومون [وَ كُتُبِهِ أي بجميع ما أنزل من الكتب و بالقرآن و أنّها حقّ و صدق من عند اللّه، و قرئ «و كتابه» [وَ رُسُلِهِ أي بجميع أنبيائه [لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ أي يقولون: لا نفرّق و لا نميّز بين الرسل بأن نؤمن ببعض و نكفر ببعض كما قال اليهود و النصارى؛ لأنّ تمام الأنبياء اتّفقوا في اصول الشرائع و ما اختلفوا.

و المراد بقوله: «آمَنَ الرَّسُولُ» إيمانا تفصيليّا متعلّقا بالشرائع و الكتب و لم يرد به حدوث الإيمان فيه لأنّه صلّى اللّه عليه و آله كان مؤمنا باللّه قبل الرسالة منه بل المعنى أنّه صلّى اللّه عليه و آله آمن بالقرآن فإنّه قبل إنزاله إليه لم يكن عليه الإيمان به و هو معنى قوله: «ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَ لَا الْإِيمانُ» (1) أي و لا الإيمان بالكتاب، هذا إذا كان صلّى اللّه عليه و آله هو المخاطب و أمّا إذا كان المراد الأمّة و الخطاب من باب إيّاك أعني و اسمعي يا جارة؛ فذلك بطريق أولى كما قال صلّى اللّه عليه و آله: كنت نبيّا و آدم بين الماء و الطين.

قال العلّامة أبو السعود العماديّ: الوقف في الآية عند قوله: «من ربّه» و قال

1- الشورى: 52.

بعضـهم: عند قوله: «و المؤمنون» و هو مبتدأ و «كلّ» مبتدأ ثان «آمن» خبره و الجملة خبر للمبتدأ الأوّل و الرابط بينهما الضـمير الّذي ناب منـابه التنوين، و توحيـد الضـمير في «آمن» مع رجوعه إلى كـلّ المؤمنين لما أنّ المراد بيان إيمان كلّ فرد منهم من غير اعتبار الاجتماع [وَ قالُوا سَمِعْنا] و الضمير راجع إلى الرسول و المؤمنين، سمعنا و فهمنا ما جاءنا من الحقّ [وَ أَطَعْنا] ما فيه من الأوامر و النواهي.

قيل: لمّا نزلت هذه الآية قال جبرئيل عليه السّلام للرسول صـلّى اللّه عليه و آله: إنّ اللّه قد أثنى عليك و على امّتك فسل تعط فقال الرسول: [غُفْرانَكَ رَبَّنا] أي اغفر لنا غفرانك كما قال:

«فَضَرْبَ الرِّقابِ» (1) أو التقدير نسألك غفرانك ذنوبنا و ما لا يخلو البشر من التقصير في مراعاة حقوق الإلهيّة [وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ] أي الرجوع بالموت و البعث لا إلى غيرك.

[سورة البقرة (2): آية 286]

لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها لَها ما كَسَبَتْ وَ عَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا رَبَّنا وَ لا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا رَبَّنا وَ لا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ وَ اعْفُ عَنَّا وَ اغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (286)

. إخبار من اللّه و ليس من كلام المؤمنين، روي أنّه لمّا نزلت «إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ الآية» (2) اشتدّ ذلك على أصـحاب رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله فـأتوه ثمّ بركوا على الركب فقالوا: يا رسول اللّه كلّفنا من الأعمال ما نطيق مثل الصـلاة و الصوم و الحـجّ و الجهاد و قـد أنزل إليك هذه الآية و لا نطيقها فقال النبيّ صـلّى اللّه عليه و آله: أ تريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: «سَمِعْنا وَ عَصَيْنا»* (3)؟ قالوا: بل «سَمِعْنا وَ أَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ» فأنزل اللّه: «لا يُكَلِّفُ اللَّهُ الآيـة» تهوينا للخطب عليهم ببيان أنّ المراد «بما في أنفسـهم» ما عزموا عليه من السوء خاصّة لا ما يعمّ الخواطر الّتي لا يستطاع الاحتراز عنها أي سنّة أن لا يكلّف نفسا من النفوس إلّا ما يتّسع فيه طوقها رحمة لهذه الأمّة.

[لَها ما كَسَبَتْ للنفس ثواب ما حصلت من الخير لا لغيرها [وَ عَلَيْها] لا على غيرها

1- محمّد: 4.

2- السورة: 284.

3- السورة: 93.

[مَا اكْتَسَبَتْ من الشـرّ و التعبير بالافتعال في جانب الشرّ لأنّ الشر لمّا كان مشتهى النفس يكون فيه السعي و الاجتهاد طبعا و لا بدّ فيه من المبالغة و التكلّف لإيجاب العمل.

[رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا] بيان دعوات المؤمنين يقولون: ربّنا لا تعذّبنا بما صدر عنّا من الأمور المؤدّية إلى النسـيان و الخطاء من تفريط و قلّة مبالاة، و دل هذا على أنّ المؤاخذة جائزة في النسيان و الخطاء؛ و ذلك لأنّ التحرّز عنها ممكن في الجملة و إلّا لم يكن للسؤال معنى و خفّف اللّه عن هذه الأمّة؛ قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: رفع عن أمّتي الخطاء و النسيان و ما استكرهوا عليه.

و اختلف في المراد من النسيان و الخطاء في الآية:

أحدها أنّ المراد من النسـيان الترك أي تركنا كقوله تعالى: «نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ» (1) أي تركوا طـاعته فتركهم من ثوابه و لطفه و قوله: «وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ» (2) قال الشاعر: «و لا كنت يوم الروع للطعن ناسيا».

و المراد من «أخطأنـا» أذنبنـا لأنّ المعاصـي توصف بالخطاء من حيث إنّها ضـدّ الثواب و إن كان فاعلها متعمّـدا فكأنّه أمرهم سـبحانه بأن يستغفروا ممّا تركوه من الواجبات و ممّا فعلوه من القبائح.

و الثاني أنّ المراد من قوله: «إِنْ نَسِينا» إن تعرّضـنا لأسـباب يقع عنـدها النسـيان و الخطاء عن الأمر و الغفلة عن الواجب و هذا هو المعنى الّذي ذكر أوّلا في بيان الآية.

و الثالث أن لا تؤاخـذنا إن لم نفعل فعلا يجب فعله على سبيل السـهو أو أخطأنا أي فعلنا فعلا يجب تركه من غير قصـد، و يحسن هـذا في الـدعاء على سبيـل الانقطاع و التضـرّع و إظهار الفقر إلى مسألته و إن كان مأمونا منه المؤاخـذة بمثله مثل قوله: «احْكُمْ بِالْحَقِّ» (3) و مثل قوله: «وَ لا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ» على سبيل التعبّد و إن كان تعالى لا يكلّف أحدا ما لا يطيقه.

1- التوبة: 688.

2- السورة: 44.

3- الأنبياء: 112.

و الرابع: كما فسّره ابن عبّاس و عطا أي لا تعاقبنا إن عصينا جاهلين أو متعمّدين.

[رَبَّنا وَ لا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً] عطف على ما قبله و توسيط النداء بينهما لإبراز مزيد الضراعة. و الإصر العب ء و الحمل الّذي يؤخذ و يحبس صاحبه مكانه لثقله و المراد التكاليف الشاقّة [كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا] أي مثل ما حملت على من قبلنا و هو ما كلّفه بنو إسرائيل من قتل النفس في التوبة و قطع الأعضاء الخاطئة و عدم التطهير بغير الماء و خمسين صلاة في يوم و ليلة و عدم جواز صلاتهم في غير المسجد و حرمة أكل الصائم بعد النوم و منع بعض الطيّبات عنهم بالذنوب و كون الزكاة ربع مالهم و قطع موضع النجاسة و كتابة ذنب الليل على الباب بالصبح و غير ذلك من التشديدات و قد عصم اللّه و رحم هذه الأمّة من أمثال ذلك و أنزل في شأنهم «وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ» (1) قال صلّى اللّه عليه و آله: بعثت بالحنيفيّة السهلة السمحة. و عن العقوبات الّتي عوقب بها الأوّلون من المسخ و الخسف قال صلّى اللّه عليه و آله: رفع عن أمّتي الخسف و المسخ و الغرق.

[رَبَّنا وَ لا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ عطف على ما قبله و استعفاء من العقوبات الّتي لا تطاق أي لا تكلّفنا ما يشقّ علينا الدوام علينا من التكاليف الشاقّة الّتي لا يكاد من كلّفها يخلو عن التفريط فيها فنعاقب بعدم محافظتنا عليها و عبّر عن إنزال العقوبات بالتحميل باعتبار السببيّة و باعتبار ما يؤدّي إليها و لم يرد من الآية عدم الطاقة أصلا فإنّه لا يكون و حاصل المعنى: لا تشدّد الأمر علينا فيصعب القيام بها فنعذّب كما حملت على الّذين من قبلنا من الأمم الماضية و قد مرّ بيانه.

[وَ اعْفُ عَنَّا] ذنوبنا [وَ اغْفِرْ لَنا] خطايانا أي استرها و ارحمنا بإنعامك علينا في الدنيا و العفو عن عقوباتها في الآخرة [أَنْتَ مَوْلانا] سيّدنا و نحن عبيدك أو ناصرنا أو متولّي أمرنا [فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ أعنّا عليهم و ادفع عنّا شرّهم و حقّ العبد أن يستنصر من مولاه و النصرة على الكفّار تارة بالظفر و السيف و تارة بالحجّة.

روي أنّه لمّا اسري برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله انتهى به إلى سدرة المنتهى و هي في السماء

1- الأعراف: 156.

السادسة- إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها و إليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها- اعطي صلّى اللّه عليه و آله ثلاثا: الصلاة الخمس، و غفر لمن لا يشرك باللّه من امّته إلّا المقحمات، و خواتيم سورة البقرة، عن ابن مسعود و عن ابن المكندر، و رفعه إلى النبيّ صلّى اللّه عليه و آله قال: في آخر سورة البقرة آيات إنّهنّ قرآن و إنّهنّ دعاء و إنّهنّ يرضين الرحمن.

و في تفسير الكلبيّ بإسناده ذكر عن ابن عبّاس عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله قال بينا رسول اللّه قاعدا إذ سمع نقيضا يعني صوتا فرفع رأسه فإذا باب من السماء قد فتح فنزل عليه ملك و قال:

إنّ اللّه يبشّرك بنورين لم يعطهما نبيّا قبلك: فاتحة الكتاب و خواتيم سورة البقرة لا يقرؤهما أحد إلّا أعطيته حاجته.

العيّاشيّ عن أحدهما عليهما السّلام في آخر البقرة قال: لمّا دعوا أجيبوا.

و في الصافي: القميّ عن الصادق عليه السّلام إنّ هذه الآية مشافهة اللّه لنبيّه لمّا اسري به إلى السماء قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: انتهيت إلى سدرة المنتهى و إذا الورقة منها تظلّ امّة من الأمم فكنت من ربّي بعين من قرب ربّي كقاب قوسين أو أدنى كما حكى اللّه فناداني ربّي «آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ» فقلت أنا مجيبه عنّي و عن أمّتي: «وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ» فقلت: «سَمِعْنا وَ أَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ» فقال اللّه سبحانه «لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها لَها ما كَسَبَتْ وَ عَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ» فقلت: «رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا» فقال اللّه: لا اؤاخذك فقلت: «رَبَّنا وَ لا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ وَ اعْفُ عَنَّا وَ اغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ» فقال اللّه: قد أعطيتك، ذلك لك و لأمّتك فقال الصادق عليه السّلام: ما وفد إلى اللّه أحد أكرم من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله حين سأل لأمّته هذه الخصال.

و العيّاشيّ ما في معناه في حديث بدون قوله: «فقال الصادق» إلى آخر الحديث.

و في الاحتجاج عن الكاظم عن آبائه عن أمير المؤمنين عليهم السّلام في حديث يذكر فيه مناقب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله قال: إنّه اسري به صلّى اللّه عليه و آله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى مسيرة شهر و عرج به في ملكوت السماء مسيرة خمسين ألف عام في أقلّ من ثلث ليلة حتّى انتهى إلى ساق العرش فدنا بالعلم فتدلّى له من الجنّة رفرف أخضر و غشى النور بصره فرأى عظمة

ربّه بفؤاده و لم يرها بعينه فكان كقاب قوسين بينهما و بينه أو أدنى فأوحى اللّه إلى عبده ما أوحى فكان فيما أوحى إليه الآية الّتي في سورة البقرة «لِلّٰهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللّٰهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» و كانت الآية قد عرضت على الأنبياء من لدن آدم إلى أن بعث اللّه محمّدا و عرضت على الأمم فأبوا أن يقلبوها من ثقلها و قبلها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و عرضها على امّته فقبلوها فلمّا رأى اللّه منهم القبول على أنّهم لا يطيقونها فلمّا أن سار إلى ساق العرش كرّر عليه الكلام ليفهمه فقال اللّه تعالى: «آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ» فأجاب صلّى اللّه عليه و آله مجيبا عنه و عن امّته فقال: «وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّٰهِ وَ مَلاٰئِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لاٰ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ» فقال تعالى: لهم الجنّة و المغفرة عليّ إن فعلوا ذلك.

فقال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: أمّا إذا فعلت ذلك بنا فغفرانك ربّنا و إليك المصير فأجابه اللّه جلّ ثناؤه و قد فعلت ذلك بك و بامّتك ثمّ قال عزّ و جلّ: «لاٰ يُكَلِّفُ اللّٰهُ نَفْساً إِلاّٰ وُسْعَها لَها ما كَسَبَتْ» من خير «وَ عَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ» من شرّ.

فقال النبيّ لمّا سمع ذلك. أمّا إذا فعلت بي و بامّتي فزدني قال: سل قال: «رَبَّنا لاٰ تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا» قال اللّه: لست اؤاخذ امّتك بالنسيان أو الخطاء لكرامتك و كانت الأمم السالفة إذا نسوا ما ذكّروا به فتحت عليهم أبواب العذاب و قد رفعت ذلك عن امّتك و كانت الأمم السالفة إذا أخطئوا أخذوا بالعذاب و عوقبوا عليه و قد رفعت ذلك عن امّتك لكرامتك عليّ.

فقال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: إذا أعطيتني ذلك فزدني فقال اللّه: سل قال النبيّ: «وَ لاٰ تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا» فأجابه إلى ذلك و قال: قد رفعت الآصار الّتي كانت على الأمم عنهم، كنت لا أقبل صلاتهم إلاّ في بقاع معلومة من الأرض و إن بعدت و قد جعلت الأرض كلّها لأمّتك مسجدا و طهورا.

و كانت الأمم السالفة إذا أصابهم أذى من نجاسة قرضوه و جعلت الماء لأمّتك طهورا.

و كانت الأمم السالفة تحمل قرابينهم على أعناقهم إلى البيت المقدّس فمن قبلت

ذلك منه أرسلت إليه نارا فأكلته فرجع مسرورا و من لم أقبل ذلك منه رجع مثبورا و قد جعلت قربان امّتك بطون فقرائها فمن قبلت ذلك منه أضعت له أضعافا مضاعفة و من لم أقبل منه رفعت عنه عقوبات الدنيا.

و كانت الأمم السالفة صلواتها مفروضة عليها في ظلم الليل و أنصاف النهار و هي من الشدائد الّتي كانت عليهم فرفعتها عن امّتك و فرضت عليهم صلواتهم في أطراف الليل و النهار و في أوقات نشاطهم.

و كانت صلوات الأمم خمسين صلاه في خمسين أوقات فرفعتها عن امّتك و جعلتها خمسا في خمسة أوقات.

و كانت الأمم السالفة حسنتهم بحسنة و سيّئتهم بسيّئة فرفعتها عن امّتك و جعلت الحسنة بعشر و السيّئة بواحدة و هي من الآصار الّتي كانت عليهم.

و كانت الأمم إذا نوى أحدهم حسنة ثمّ لم يعملها لم تكتب له و إن عملها كتب له حسنة و إنّ امّتك إذا همّ أحدهم بحسنة و لم يعملها كتبت له حسنة و إن عملها كتبت له عشرا و هي من الآصار الّتي كانت عليهم فرفعتها عن امّتك.

و كانت الامة السالفة إذا همّ أحدهم بسيّئة ثمّ لم يعملها لم تكتب عليه و إن عملها كتبت عليه سيّئة و إنّ امّتك إذا همّ أحدهم بسيّئة ثمّ لم يعملها كتبت له حسنة و هذه من الآصار الّتي كانت عليهم فرفعت ذلك عن أمّتك.

و كانت الأمم السالفة إذا أذنبوا كتبت ذنوبهم على أبوابهم و جعلت توبتهم من الذنوب أن حرّمت عليهم بعد التوبة أحبّ الطعام إليهم و قد رفعت ذلك عن امّتك و جعلت ذنوبهم فيما بينهم و بيني و جعلت عليهم ستورا كثيفة و قبلت توبتهم بعد عقوبة و لا أعاقبهم بأن احرّم عليهم أحبّ الطعام إليهم.

و كانت الأمم السالفة يتوب أحدهم من الذنب الواحد مائة سنة أو ثمانين أو خمسين سنة ثمّ لا أقبل توبته دون أن أعاقبه في الدنيا بعقوبة فرفعتها عن امّتك و إنّ الرجل من امّتك ليذنب عشرين أو ثلاثين أو أربعين أو مائة سنة ثمّ يتوب و يندم طرفة عين فأغفر له ذلك كلّه.

فقال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله اللّهمّ إذا أعطيتني ذلك كلّه فزدني قال: سل قال «رَبَّنا وَ لا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ» قال: قد فعلت ذلك بك و بامّتك و قد رفعت عنهم عظيم بلايا الأمم و ذلك حكمي في جميع الأمم أن لا اكلّف خلقا فوق طاقتهم.

فقال صلّى اللّه عليه و آله: «وَ اعْفُ عَنَّا وَ اغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا أَنْتَ مَوْلانا» قال تعالى: قد فعلت ذلك بتائبي أمّتك.

قال صلّى اللّه عليه و آله: «فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ» قال اللّه: إنّ امّتك في الأرض كالشامة البيضاء في الثور الأسود هم القادرون و هم الفائزون يستخدمون و لا يستخدمون لكرامتك عليّ و حقّ عليّ أن اظهر دينك على الأديان حتّى لا يبقى في شرق الأرض و غربها دين إلّا دينك أو يؤدّون إلى أهل دينك الجزية، انتهى.

في ثواب الأعمال عن السجّاد عليه السّلام قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: من قرأ أربع آيات من أوّل البقرة و آية الكرسيّ و اثنين بعدها و ثلاث آيات من آخر البقرة لم ير في نفسه و ماله شيئا يكرهه و لا يقربه الشيطان و لا ينسى القرآن.

و عن جابر عنه عليه السّلام في حديث قال: قال اللّه: و أعطيت لك و لأمّتك كنزا من كنوز عرشي: فاتحة الكتاب و خاتمة سورة البقرة.

و روي عنه عليه السّلام أنزل آيتين من كنوز الجنّة كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفي سنة من قرأهما بعد العشاء الآخرة أجزأتاه عن قيام الليل. و في رواية: من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه.

و في ثواب الأعمال: من قرأ سورة البقرة و آل عمران جاءتا يوم القيامة تظلّانه على رأسه مثل الغمامتين أو مثل الغيابتين يعني المظلّتين.

و قال صلّى اللّه عليه و آله: السورة الّتي تذكر فيها البقرة فسطاط القرآن أي مصره الجامع فتعلّموه فإنّ تعلّمها بركة و تركها حسرة و لن تستطيعها البطلة قيل: و ما البطلة؟ قال صلّى اللّه عليه و آله:

السحرة، أي لا تستطيع السحرة أن تسحر قارئها و لا تقرء في دار ثلاث ليال فيقربه شيطان و كان معاذ إذا ختم سورة البقرة يقول: آمين.

و هذا الحديث حجّة لمن استكره أن يقول سورة البقرة و قال ينبغي أن يقال: السورة

الّتي تذكر فيها البقرة لأنّه صلّى اللّه عليه و آله عبّر في الحديث بهذه العبارة.

و عن أبي الأسلم الديلميّ قال قلت: لمعاذ بن جبل: أخبرني عن قصّة الشيطان حين أخذته فقال: جعلني رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله على صدقة المسلمين فجعلت التمر في غرفة فوجدت فيه نقصانا فأخبرت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله بذلك فقال: هذا الشيطان يأخذه فدخلت الغرفة و أغلقت الباب فجاءت ظلمة عظيمة و غشيت الباب ثمّ تصوّر في صورة اخرى فدخل من شقّ الباب فشددت إزاري عليّ فجعل يأكل من التمر فوثبت إليه و قبضته فقلت: يا عدوّ اللّه فقال: خلّ عنّي فإنّي كبير ذو عيال كثير و أنا فقير من جنّ نصيبين و كانت لنا هذه القرية قبل أن يبعث صاحبكم فلمّا بعث أخرجنا منها فخلّ عنّي فلن أعود، إليك فخلّيت سبيله و جاء جبرئيل فأخبر رسول اللّه بما كان فصلّى رسول اللّه فناداني مناديه فجئته و قال: ما فعل أسيرك؟ فأخبرته فقال صلّى اللّه عليه و آله أما أنّه سيعود فعد قال: فدخلت الغرفة و أغلقت الباب عليّ فجاء فدخل من شقّ الباب فجعل يأكل من التمر فصنعت به كما صنعت في المرّة الاولى فقال: خلّ عنّي فإنّي لن أعود إليك فقلت: يا عدوّ اللّه ألم تقل إنّك لن تعود؟ قال: فإنّي لن أعود، و إنّه إذا قرأ أحدكم خاتمة البقرة لا يدخل منّا في بيته تلك الليلة.

تمّت السورة بعون اللّه في يوم الخامس عشر من الشهر الحرام نسأل اللّه أن لا يحرمنا ثواب تلاوتها بحرمة من أنزلها اللّه عليه صلّى اللّه عليه و آله و من حنّ له الجذع اليابس حنين العشار

(سورة آل عمران)

اشارة

* (مدنية)* أبيّ بن كعب عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله قال: من قرأ سورة آل عمران اعطي بكلّ آية منها أمانا على حرّ جسر جهنم.

و عن ابن عبّاس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: من قرأ سورة آل عمران يوم الجمعة صلّى اللّه عليه و ملائكته.

ص: 160

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

[سورة آل عمران (3): الآيات 1 الى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (1) اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (2) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَ أَنْزَلَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ (3) مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَ أَنْزَلَ الْفُرْقانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ (4)

إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْ ءٌ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ (5)

[الم و قد مرّ شرحه في «ألم» سورة البقرة لا حاجة إلى الإطالة و المختصر: الألف إشارة إلى اللّه، و اللام إلى اللطيف، و الميم إلى المجيد [اللَّهُ مبتدأ [لا إِلهَ إِلَّا هُوَ] خبره أي هو المستحقّ للمعبوديّة لا غير و هذا التفسير معنى اللازم لا معنى نفس الكلام [الْحَيُّ الْقَيُّومُ خبر آخر له أي الباقي الّذي لا سبيل عليه للموت و الفناء و القائم بتدبير الخلق و حفظه على الدوام.

روي عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله اسم اللّه الأعظم في ثلاث سور في سورة البقرة «اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» (1) و في آل عمران «اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» و في طه «وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ» (2) و نزلت «الم اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» إلي نيّف و ثمانين آية ردّ أعلى وفد نجران و من زعم أنّ عيسى كان ربّا.

روي أنّ وفد نجران قدموا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و كانوا ستّين راكبا فيهم أربعة عشر من أشرافهم ثلاثة منهم أكابر و إلى الثلاثة يؤول أمرهم أحدهم أميرهم و صاحب مشورتهم العاقب و اسمه عبد المسيح و ثانيهم السيّد و اسمه الأبهم و ثالثهم حبرهم و أسقفهم و صاحب مدارستهم أبو حارثة بن علقمة أحد بني بكر بن وائل و قد كان ملوك الروم شرّفوه و موّلوه

1- الآية: 257.

2- الآية: 111.

و أكرموه لمّا شاهدوا من علمه و اجتهاده في دينهم و بنوا له كنائس فلمّا خرجوا من نجران ركب أبو حارثة بغلته و كان أخوه كرز بن علقمة إلى جنبه فبينا بغلة أبي حارثة تسير إذ عثرت فقال كرز: تعسا للأبعد يريد به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله فقال له أبو حارثة: بل تعست أمّك فقال كرز:

و لم يا أخي؟ قال: و اللّه إنّه النبيّ الّذي كنّا ننتظره فقال له كرز: فما يمنعك منه و أنت تعلم هذا؟ قال: لأنّ هؤلاء الملوك أعطونا أموالا كثيرة و أكرمونا فلو آمنّا به لأخذوها منّا فوقع في قلب كرز شي ء إلى أن أسلم فكان يحدّث بذلك.

فأتوا المدينة ثمّ دخلوا مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله بعد صلاة العصر عليهم ثياب فاخرة يقول بعض ما يراهم: ما رأينا وفدا مثلهم، و قد جاءت صلاتهم فقاموا ليصلّوا في المسجد فأراد بعض الأصحاب أن يمنعوهم فقال صلّى اللّه عليه و آله: دعوهم، فصلّوا إلى المشرق.

ثمّ تكلّم أولئك الثلاثة مع رسول اللّه فقالوا تارة: عيسى هو اللّه لأنّه كان يحيي الموتى و يبرئ الأكمه و الأسقام و يخبر بالغيوب و يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيطير، و تارة قالوا: هو ابن اللّه إذ لم يكن له أب يعلم، و تارة اخرى إنّه ثالث ثلاثة لقوله تعالى: «فَعَلْنا و قُلْنا»* و لو كان واحدا لقال: فعلت و قلت، فقال لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: أسلموا، قالوا: أسلمنا قبلك قال صلّى اللّه عليه و آله: كذبتم بمنعكم من الإسلام ادّعاؤكم للّه تعالى شريكا؛ لأنّهم قالوا: إن لم يكن عيسى ولدا للّه فمن أبوه فقال صلّى اللّه عليه و آله: ألستم تعلمون أنّه لا يكون ولد إلّا و يشبه أباه؟ فقالوا: بلى. قال صلّى اللّه عليه و آله: ألستم تعلمون أنّ ربّنا حيّ لا يموت و أنّ عيسى يأتي عليه الفناء؟ قالوا بلى، قال: ألستم تعلمون أنّ ربّنا قيّوم على كلّ شي ء يحفظه و يرزقه؟ قالوا: بلى، قال عليه السّلام: فهل تملك عيسى من ذلك شيئا؟ قالوا: لا، فقال: ألستم تعلمون أنّ اللّه لا يخفى عليه شي ء في الأرض و لا في السماء؟ قالوا: بلى، قال: فهل يعلم عيسى شيئا من ذلك إلّا ما علّم؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أنّ عيسى حملته امّه و أنّ اللّه صوّر عيسى في الرحم كيف شاء و أنّ ربّنا لا يأكل و لا يشرب و لا يحدث؟ قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أنّ عيسى غذا كما يتغذّى الصبيّ ثمّ كان يطعم الطعام و يشرب الشراب و يحدث الحدث؟

قالوا: بلى، قال: فكيف يكون هذا ربّا كما زعمتم؟ فسكتوا و أبوا إلّا جحودا فأنزل من أوّل السورة إلى نيّف و ثمانين آية تقريرا لما احتجّ به صلّى اللّه عليه و آله عليهم و أجاب بالآيات عن شبهاتهم

تحقيقا للحقّ الّذي فيه يمترون.

قوله: [نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ أي القرآن عبّر عنه باسم الجنس إيذانا بكمال تفوّقه على بقيّة الأفراد في حيازة كمالات الجنس كأنّه هو الأحقّ بأن يطلق عليه اسم الكتاب [بِالْحَقِ ملتبسا ذلك الكتاب بالعدل في أحكامه و أخباره الّتي من جملتها التوحيد [مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ في حال كونه مصدّقا للكتب قبله في التوحيد و النبوّات.

[وَ أَنْزَلَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ اسمان أعجميّان الأوّل عبريّ و الثاني سريانيّ، و التوراة أصلها «تورية» على وزن تفعلة من ورى الزند إذا قدح و ظهرت ناره و أصله وورية و أبدلت الواو الّتي هي الفاء تاء كما قالوا في الوجاه: التجاه و في الوراث: التراث فهي من ورى الزند إذا ظهرت ناره أي بها يظهر و يستخرج الحلال و الحرام و يتبيّن التكليف. و «إنجيل» افعيل من نجل ينجل إذا أثار و استخرج، و منه نجل الرجل يقال لولده لأنّه استخرجهم من صلبه و من بطن امرأته و بهذا الكتاب المسمّى بإنجيل يستخرج معرفة الحلال و الحرام و الحقّ و الباطل كما قيل للقرآن: «الفرقان» لأنّه يفرق بين الحقّ و الباطل.

و قال عليّ بن عيسى: النجل الأصل فكان الإنجيل أصلا من اصول العلم. و قال غيره:

النجل الفرع كما يكون الولد فرع أبيه. و هو المعنى الأوّل فكأنّ الإنجيل فرع على التوراة يستخرج منها. و قال ابن فضّال: هو من النجل بمعنى السعة يقال: عين نجلاء: وسيعة و كأنّه قد وسّع عليهم في الإنجيل ما ضيّق على أهل التوراة، و الكلّ محتمل.

[مِنْ قَبْلُ أي أنزلهما جملة قبل القرآن على موسى و عيسى على نبيّنا و عليه السّلام [هُدىً لِلنَّاسِ بيان العلّة للإنزال أي أنزلهما لهداية الناس، و في البيان لفّ بدون النشر بسبب معلوميّة زمان موسى عن زمان عيسى فلا يقع اللبس [وَ أَنْزَلَ الْفُرْقانَ أي جنس كتب السماويّة لأنّ كلّها فارقة بين الحقّ و الباطل أو هو القرآن كرّر ذكره تعظيما لشأنه.

[إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ بالقرآن و معجزات النبيّ صلّى اللّه عليه و آله [لَهُمْ بسبب كفرهم بها [عَذابٌ شَدِيدٌ] لا يقادر قدره [وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ غالب لا يتهيّأ لأحد منعه، و الانتقام مجازاة المسي ء على إساءته.

ص: 163

[إِنَّ اللّهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْ ءٌ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ] أي مدرك الأشياء كلّها مطّلع على كفر من كفر به و إيمان من آمن به فيجازيهم يوم القيامة.

[سورة آل عمران (3): آية 6]

هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (6)

. «التصوير» جعل الشي ء على صورة لم يكن عليها و الصورة هيئة يكون عليها الشي ء في التأليف من صاره إذا ماله أي هو الّذي يجعلكم على هيئة مخصوصة في أرحام امّهاتكم من ذكر و أنثى و أسود و أبيض و طويل و قصير و حسن و قبيح، و هو ردّ على الّذين قالوا: عيسى اللّه أو ابن اللّه؛ لأنّ من صوّر في الرحم يمتنع أن يكون إلها لكونه مركّبا أو حالّا في المركّب و هو في عرض الفناء.

[لا إِلهَ إِلّا هُوَ] منزّه نفسه أن يكون عيسى ابنا له [الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ المتناهي في القدرة و الحكمة قال صلّى اللّه عليه و آله: يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقرّ في الرحم بأربعين أو بخمس و أربعين ليلة فيقول: أ شقيّ أم سعيد؟ فيكتبان، فيقول: أي ربّ أ ذكر أم أنثى؟ فيكتبان، و يكتب عمله و رزقه و أجله ثمّ تطوى الصحف فلا يزاد فيها و لا ينقص ثمّ يقول الملك: يا ربّ ما أصنع بهذا الكتاب فيقول: علّقه في عنقه إلى قضائي عليه.

أقول: و لا ينافي هذا مع اختيار العبد الصلاح و الفساد و لا يدلّ على الجبر في الشقاوة و السعادة؛ لأنّ المراد بهذا الكتاب إظهار علمه للملك و ليست هذه الكتابة من موجبات الفعل أبدا بل هو إظهار سابق علمه تعالى بأنّ هذا العبد يؤول أمره إلى هذا فمثاله مثال أنّك تعلم من ضمير السلطان أنّه يقتل غدا زيدا السارق فتخبر ابنك بأنّ زيدا غدا مقتول فيقتل غدا فهل القتل مسبّب عن خبرك لابنك أو أنّ إخبارك له من موجبات قتله؛ فالحال الحال و المثال المثال، فأمر اللّه تعالى للملك بالكتابة لسابقة علمه لا أنّه قضى عليه بالسعادة أو الشقاوة.

نعم الجبر حاصل في التكوينيّات كالذكر و الأنثى و الطول و القصر و أمثالها و ذلك لمقتضى الحكمة لكنّ الأفعال الصادرة منك بحسب مشتهيات نفسك اختياريّة و إنّما دواعيها ميل خاطرك و نفسك، و دلّت الآية على كمال علمه و قدرته حيث صوّر الولد في رحم الأمّ على

هـذه الصورة و قـد تقرّر في العقول على أنّ العالـم لو اجتمعوا على أن يخلقوا بعوضـة ما قـدروا و لو بذلوا جميع خزائن الأرض «فَتَبارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ» (1).

[سورة آل عمران (3): آية 7]

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَ أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَ الرّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَ ما يَذَّكَّرُ إِلاّ أُولُوا الْأَلْبابِ (2)

. لمّـا تقـدّم بيـان إنزال القرآن بيّن في هـذه الآيـة كيفيّـة القرآن فقـال: [هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْـكَ الْكِتـابَ أي القرآن [مِنْهُ أي من القرآن [آيـاتٌ مُحْكَماتٌ قطعيّة الدلالة على المعنى المراد ظاهرة العبارة محفوظة عن الاحتمال و الاشتباه [هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ أي أصل فيه و عمدة و يردّ إليها غيرها بالتأويل، و الإضافة بمعنى «في» أي امّ في الكتاب.

[وَ أُخَرُ] أي و منه آيات أخر [مُتَشابِهاتٌ أي محتملات لمعان متشابهة لا يمتاز بعضـها من بعض في اسـتحقاق الإرادة به و ليس بمتّضح إلّا بنظر الدقّة فالمتشابه في الحقيقة وصف للمعاني وصف بها الآيات على طريق وصف الدالّ بوصف المدلول.

و اعلم أنّ اللفظ إمّا أن لا يحتمل غير معنى واحـد أو يحتمل و الأوّل هو النصّ الصـريح كقوله تعالى: «وَ إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ» (3) و الثاني إمّا أن يكون دلالته على مـدلوليه أو مـدلولاته متساويـة أو لا فالأوّل هو المجمل كقوله: «ثَلاثَةَ قُرُوءٍ» (4) و أمّا الثاني فهو بالنسـبة إلى الراجح ظاهر و بالنسـبة إلى المرجوع مؤوّل كقوله: «يَدُ اللّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» (5) و النصّ محكم و المجمـل و المؤوّل المتشابه كقوله: «فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ» (6) فيردّ إلى قوله: «وَ حَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ»* (7).

و الحاصل أنّ المحكم ما لا يشتبه معانيه، و المتشابه ما اشتبهت معانيه و يكون محتمل الوجوه في المراد أ لا ترى أنّ قوله: «ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ»* (7) يحتمل في اللغة أن يكون

1- المؤمنون: 14.

2- الأعراف: 53.

3- البقرة: 163.

4- البقرة: 163.

5- الفتح: 10.

6- البقرة: 115.

7- البقرة: 144.

معناه كاستواء الجالس على سريره و أن يكون بمعنى القهر و الاستيلاء؟ و الوجه الأوّل لا يجوز عليه و هذا مثال المتشابه. و قيل: إنّ المحكم الناسخ و المتشابه المنسوخ عن ابن عبّاس. و قال ابن زيد: المحكم ما لم يتكرّر لفظه و المتشابه ما تكرّر ألفاظه.

فلو قيل: لم وحّد «أُمُّ الْكِتابِ» و كلمة «هنّ» تقتضي أمّهات الكتاب؟ لأنّ الآيات بمجموعها أصل الكتاب و ليست كلّ آية محكمة امّ الكتاب و أنّها جرت مجرى شي ء واحد في البيان و الحكمة مثل قوله: «وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً» (1) و لم يقل:

آيتين؛ لأنّ هذه الآية إنّما تحقّقت من كليهما في أنّها جاءت به من غير ذكر فلم تكن الآية إلّا به و لا له إلّا بها.

[فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ أي ميل عن الحقّ إلى الأهواء الباطلة [فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ معرضين عن المحكمات يتعلّقون بظاهر المتشابه من الكتاب و بتأويل باطل لا للتحرّي للحقّ [ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ] بل طلبا أن يفتنوا الناس عن دينهم بالتشكيك في معنى الآية لحصول مقاصدهم و لمناقضة المحكم بالمتشابه [وَ ابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ أي طلب أن تأوّلوه حسبما يشتهونه من التأويلات الفاسدة و الحال أنّهم بمعزل من تلك الرتبة و ذلك قوله:

[وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ أي تأويل المتشابه [إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ أي الثابتون في العلم.

و اختلف في نظم الآية على قولين: أحدهما أنّ الراسخون معطوف على اللّه فيكون المعنى أنّ تأويل المتشابه لا يعلمه إلّا اللّه و إلّا الراسخون في العلم مثل النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و الأئمّة فإنّهم يعلمونه [يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ و موضع «يقولون» النصب على الحال أي حال كونهم قائلين آمنّا باللّه [كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا] و هذا قول ابن عبّاس و أبي مسلم و جماعة من المفسّرين، و هو المرويّ عن أبي جعفر عليه السّلام (2) فإنّه قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله أفضل الراسخين في العلم قد علم جميع ما أنزل اللّه عليه من التأويل و التنزيل و ما كان لينزل عليه شيئا لم يعلّمه تأويله، و هو و أوصياؤه من بعد يعلمونه كلّه.

1- المؤمنين: 50.

2- العيّاشي: بريد بن معاوية عنه عليه السّلام. البرهان.

و القول الآخر أنّ الواو في قوله: «وَ الرَّاسِخُونَ» واو الاستيناف و الوقف عند قوله:

«إلّا اللّه» و يبتدأ بقوله: «وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ» فيكون مبتدءا و خبرا و هذا قول عائشة و عروة بن الزبير و الحسن و مالك و اختيار الكسائيّ و الفرّاء و الجبّائيّ، و قالوا: إنّ الراسخين لا يعلمونه و لكنّهم يؤمنون به فالآية راجعة على هذا المعنى إلى عدم العلم بمدّة بقاء الدنيا و أكل هذه الأمّة و وقت قيام الساعة و وقت طلوع الشمس من مغربها و نزول عيسى عليه السّلام و خروج الدجّال و نحو ذلك ممّا استأثر اللّه بعلمه.

قال أكثر أهل التفسير من أهل السنّة و الجماعة و الإماميّة رضوان اللّه عليهم: إنّ الوجه القول الأوّل، لأنّ اللّه لم ينزل شيئا من القرآن إلّا لينتفع به عباده فلو كان المتشابه لا يعلمه غيره للزمنا للطاعن مقال، ثمّ إنّا نرى أنّ الصحابة و التابعين اجتمعوا على تفسير جميع آي القرآن و لم نرهم توقّفوا على شي ء منه، و كان ابن عبّاس يقول: أنا من الراسخين في العلم؛ فعلى هذا يلزمنا أن نقول: إمّا تفسير الصحابة غلط أو أنّهم أعلم من رسول اللّه و كلا القولين باطل.

[وَ ما يَذَّكَّرُ] حقّ التذكّر [إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ أي العقول الخالصة عن الركون إلى الأهواء، و اختلف في الّذين قصدوا في الآية من مبتغي الفتنة فقيل: عني به وفد نجران لمّا حاجّوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله في أمر عيسى عليه السّلام و سألوه صلّى اللّه عليه و آله فقالوا: أليس عيسى كلمة اللّه و روحا منه؟ فقال: بلى، فقالوا: حسبنا، فأنزل اللّه «فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ» يعني أنّهم قالوا: إنّ الروح ما فيه بقاء البدن؛ فأجروه على ظاهره، و قد قامت الدلالة على أنّ القديم ليس بذي أجزاء و أعضاء و إنّما أضاف الروح تشريفا للروح كما يضاف البيت إليه. و قيل: هم اليهود طلبوا علم بقاء هذه الأمّة و استخراجه بحساب الجمل.

و قيل: هم المنافقون. و قيل: الآية عامّة في كلّ من احتجّ بالمتشابه لباطله.

[سورة آل عمران (3): الآيات 8 الى 9]

رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَ هَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (8) رَبَّنا إِنَّكَ جامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ (9)

هذه حكاية عن قول الراسخين الّذين ذكرهم اللّه في الآية أي لا تمنعنا لطفك الّذي

تستقيم به القلوب فيميل قلوبنا عن الإيمان بعد أن وفّقتنا بألطافك فاهتدينا. و هذا دعاء للتثبيت على الهداية كأنّهم قالوا: لا تخلّ بيننا و بين نفوسنا بمنعك الألطاف عنّا فتزيغ قلوبنا، و إنّما يمنع ذلك بسبب ما يكتسبه العبد من المعصية و تأخير التوبة.

و قيل: معنى الآية: لا تكلّفنا من الشدائد ما تصعب علينا فعله فنتركه فتزيغ قلوبنا بعد الهداية؛ فأضافوا ما يقع من زيغ القلوب إليه سبحانه لأنّ ذلك يكون عند تشديده تعالى المحنة عليهم كما قال نوح: «فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلَّا فِراراً» (1) و قال أبو عليّ الجبّائيّ:

إنّ المراد لا تزغ قلوبنا من ثوابك و رحمتك و هو ما ذكره اللّه من الشرح و السعة بقوله:

«يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ» (2) و ذكر أنّ ضدّ هذا الشرح هو الضيق و الزيغ اللذان يقعان بالكفّار عقوبة؛ فكأنّهم سألوا اللّه أن لا يزيغ قلوبهم من هذا الثواب إلى ضدّه من العقاب، أو المعنى أنّهم يقولون: لا تمل قلوبنا عن نهج الحقّ إلى اتّباع المتشابه بتأويل لا ترتضيه.

[بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا] إلى الحقّ و المحكم [وَ هَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ من عندك [رَحْمَةً] واسعة تقرّبنا إليك [إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ و إطلاق صيغة المبالغة ليتناول كلّ موهوب.

[رَبَّنا إِنَّكَ جامِعُ النَّاسِ بعد الموت [لِيَوْمٍ لجزاء يوم و حسابه و هو يوم القيامة [لا رَيْبَ فِيهِ من وقوعه [إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ] قيل: إنّ الكلام على الاستيناف فيكون إخبارا من اللّه. و قيل: بقيّة كلام دعاء الراسخين و إن خالف آخر الكلام أوّله في الخطاب و الغيبة فيكون مثل قوله: «حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ» (3) و التقدير الخطاب.

[سورة آل عمران (3): آية 10]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ أُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (10)

. بيّن في الآية حال الّذين في قلوبهم زيغ فقال: إنّ الّذين كفروا بآيات اللّه و رسله و «من» في الآية بمعنى «عند» لا تدفع أموالهم و لا أولادهم عند اللّه شيئا و قال المبرّد: «من» على أصلها و المعنى من عذاب اللّه شيئا [وَ أُولئِكَ الكافرون حطب النار و تتّقد النار أجسامهم

1- نوح: 6.
2- الانعام: 125.
3- يونس: 22.

كما قال في موضع آخر «حَصَبُ جَهَنَّمَ» (1).

[سورة آل عمران (3): آية 11]

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ (11)

. «الدأب» مصدر دأب إذا اجتهد في العمل و كدح فيه و نقل من هذا المعنى إلى العادة و التمرّن أي عادة هؤلاء في الكفر كعادة آل فرعون و الّذين قبل فرعون من الأمم الكافرة [كَذَّبُوا بِآياتِنا] بيان لدأبهم كأنّه قيل: كيف كان دأبهم؟ فقيل: كذّبوا بآياتنا و كتبنا و رسلنا [فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ فبسبب كفرهم عاقبهم اللّه بعذابه فحال هؤلاء كحال أولئك، و «الدأب» في الأصل التلو و التابع [وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ لمن كفر بآياته.

[سورة آل عمران (3): آية 12]

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ إِلى جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمِهادُ (12)

. قال ابن عبّاس: إنّ يهود المدينة لمّا شاهدوا غلبة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله على المشركين يوم بدر قالوا: و اللّه إنّه النبيّ الأمّيّ الّذي بشّرنا به موسى و في التوراة نعته و همّوا باتّباعه، فقال بعضهم. لا تعجلوا حتّى ننظر إلى وقعة له اخرى؛ فلمّا كان يوم أحد شكّوا و كان بينهم و بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله عهد إلى مدّة فنقضوه و انطلق كعب بن الأشرف في ستّين راكبا إلى أهل مكّة فأجمعوا أمرهم على قتال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله فنزلت:

[قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ البتّة عن قريب و قد صدق اللّه وعده بقتل بني قريظة و إجلاء بني النضير و فتح خيبر و ضرب الجزية على من عداهم و هو من شواهد النبوّة، و قيل:

المراد كفّار مكّة و مشركوهم [وَ تُحْشَرُونَ إِلى جَهَنَّمَ و تجمعون إليها يوم القيامة، و قرئ بالياء على الغياب فيمكن أن يكون المغلوبون و المحشورون غير المخاطبين و أنّهم قوم آخرون، و يمكن أن يكونوا إيّاهم. قال الفرّاء: يقال: قل لعبد اللّه: إنّه قائم و إنّك قائم.

[وَ بِئْسَ الْمِهادُ] أي بئس ما مهّدتم لأنفسكم و بئس القرار.

[سورة آل عمران (3): آية 13]

قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتا فِئَةٌ تُقاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ أُخْرى كافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَ اللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ (13)

1- الأنبياء: 98.

نزلت في قصّة بدر و كان المسلمون ثلاثمائة و ثلاثة عشر رجلا على عدّة أصحاب طالوت: سبعة و سبعون رجلا من المهاجرين و مائتان و ستّة و ثلاثون رجلا من الأنصار، و كان صاحب لواء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و المهاجرين عليّ بن أبي طالب و صاحب لواء الأنصار سعد بن عبادة، و كانت الإبل في جيش رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله سبعين بعيرا و الخيل فرسين فرس للمقداد بن أسود و فرس لمرثد بن أبي مرثد و كان معهم من السلاح ستّة أدرع و ثمانية سيوف و جميع من استشهد يومئذ أربعة عشر رجلا من المهاجرين و ثمانية من الأنصار.

و اختلف في عدّة المشركين فروي عن عليّ صلّى اللّه عليه و آله و ابن مسعود أنّهم كانوا ألفا، و عن قتادة و عروة بن الزبير و الربيع كانوا بين تسعمائة إلى ألف و كانت خيلهم مائة فرس و رأسهم عتبة ابن عبد شمس، و كان حرب بدر أوّل مشهد شهده رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله.

المعنى: [قَدْ كانَ لَكُمْ جواب قسم محذوف أي و اللّه قد كان لكم أيّها اليهود المغترّون بعددهم [آيَةٌ] عظيمة دالّة على صدق حما أقول لكم: أنّكم ستغلبون [فِي فِئَتَيْنِ و جماعتين فإنّ المغلوبة منها كان مدلّة بكثرتها معجبة لغرّتها و قد لقاها ما لقاها فسيصيبكم ما يصيبكم [الْتَقَتا] و تلاقتا بالقتال يوم بدر [فِئَةٌ] خبر مبتدء محذوف أي إحداهما فئة [تُقاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ و هم لا كثرة فيهم و لا شوكة و هم أصحاب محمّد صلّى اللّه عليه و آله [وَ أُخْرى أي فئة اخرى [كافِرَةٌ] باللّه و رسوله.

[يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ أي ترى الفئة الكافرة الفئة الاولى المؤمنة مثلي عدد الرائين و ضعفهم [رَأْيَ الْعَيْنِ في ظاهر العين، و اختلف في معناه فقيل: معناه يرى المسلمون المشركين مثلي عدد أنفسهم قلّلهم اللّه في أعينهم حتّى رأوهم ستّمائة و ستّ و عشرين رجلا تقوية لقلوبهم؛ و ذلك أنّ المسلمين قيل لهم: فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين فأراهم اللّه عدوّهم حسب ما حدّ لهم من العدد الّذي يلزمهم أن يثبتوا لهم و لا يحجموا عنهم عن ابن مسعود و جماعة من المفسّرين. و قيل: إنّ الرؤية للمشركين يعني يرى المشركون المسلمين ضعيفهم فإنّ اللّه تعالى قلّل المسلمين في أعين المشركين قبل القتال ليجترؤوا و لا ينصرفوا فلمّا أخذوا في القتال كثّرهم في أعينهم ليجبنوا و قلّل المشركين في أعين المسلمين ليجترؤوا عليهم و تصديق ذلك قوله تعالى: «وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَ يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ الآية» (1).

1- الأنفال: 45.

و ذلك أحسن أسباب النصر للمسلمين و الخذلان للكافرين، و هذا المعنى على قراءة الياء و أمّا من قرأ بالتاء فلا يحتمله إلّا القول الأوّل على أن يكون الخطاب لليهود المعنيّون بقوله:

«قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ» و هم يهود بني قينقاع فكأنّه قال: ترون أيّها اليهود المشركين مثلي المسلمين مع أنّ اللّه أظفرهم عليهم فأنتم كذلك فلا تغترّوا بكثرتكم، و هذا قول البلخيّ.

[وَ اللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ] أي يقوّي بإعانته من يريد نصره من غير توسيط الأسباب العاديّة [إِنَّ فِي ذلِكَ إشارة إلى ما ذكر من رؤية القليل كثيرا و الكثير قليلاـ [لَعِبْرَةً] من العبور كالجلسة من الجلوس و المراد الاتّعاظ فإنّه نوع من العبور إلى فهم المعنى أي عظة عظيمة لذوي العقول و البصائر. فعلى العاقل أن يعتبر و لا يغترّ بكثرة الأعداد و الأموال فإنّ اللّه يمتّعه قليلا ثمّ يضطرّه إلى عذاب غليظ.

قيل: إنّه قدم على الأستاذ أبي عليّ الدقّاق مؤمن فقير و عليه مسح (1) و قلنسوة فقال بعض أصحابه من المريدين للفقير على وجه المطايبة: بكم اشتريت هذا المسح؟ فقال اشتريته بالدنيا فطلب منّي الآخرة فلم أبعه.

قال أبو بكر الورّاق: طوبى للفقراء في الدنيا و الآخرة لا يطلب السلطان منه في الدنيا الخراج و لا الجبّار في الآخرة الحساب.

[سورة آل عمران (3): آية 14]

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَ الْبَنِينَ وَ الْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّةِ وَ الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَ الْأَنْعامِ وَ الْحَرْثِ ذلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (14)

. أي حسّن لهم [حُبُّ الشَّهَواتِ و الشهوة توقان النفس إلى المشتهى و المزيّن هو اللّه و لا يقدر عليها أحد من البشر و هي ضرورة فينا، و إنّما جعلها فينا ليصحّ التكليف و لا يمكننا رفعها عن نفوسنا و ذلك على سبيل الامتحان و تشديد التكليف كما قال: «إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» (2) و قيل: زيّن اللّه ما يحسن منه و زيّن

1- نسيج الشعر.
2- الكهف: 7.

الشيطان ما يقبح منه بالوسوسة، عن أبي عليّ الجبّائيّ. و خلق اللّه الملائكة عقولا بلا شهوة و البهائم ذات شهوات بلا عقول و جعلهما في الإنسان فمن غلب عقله شهوته فهو أفضل من الملائكة و من غلب عليه شهوته فهو أرذل من البهائم.

[مِنَ النِّساءِ] و قدّم ذكر النساء أي حالكونها من طائفة النساء لعراقتهنّ في معنى الشهوات فإنّهنّ حبائل الفتنة و الشيطان [وَ الْبَنِينَ و يقع الفتنة بسببهم على جمع المال و كسب الحرام و لأنّ العلاقة بهم يمنع الإنسان عن محافظة حدود اللّه؛ قيل: أولادنا فتنة إن عاشوا فتنونا و إن ماتوا أحزنونا. و عدم التعريض للبنات لعدم الاطّراد في حبّهنّ مثل البنين.

[وَ الْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ] «القنطار» المال الكثير المجتمع و، قيل: «القنطار» مائة ألف دينار أو ملئي مسك ثور قاله أبو جعفر عليه السّلام (1)، أو سبعون ألفا أو أربعون ألف مثقال أو ثمانون ألفا أو مائة رطل أو ألف و مائتا مثقال أو ألف دينار أو مائة منّ و مائة مثقال و مائة رطل و مائة درهم أودية النفس. و في الكشّاف: المقنطرة مبنيّة من لفظ القنطار للتوكيد كقولهم:

ألوف مؤلّفة و بدر مبدّرة. و قيل: «المقنطرة» المضاعفة قال الفرّاء: هي تسعة قناطير. و قيل:

هي الأموال المنضد بعضها على بعض و جمع جميع الأقوال يرجع إلى الكثرة.

[وَ الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ] قيل: المراد الخيل الراعية. و قيل: هي الحسنة السيماء. و قيل:

من السمة و العلامة أي المعلمة «و الخيل» جمع لا واحد له من لفظه، واحده فرس و اشتقاقها من الخيلاء فإنّها لم يتخيّل في عين صاحبها أعظم منها و ركوبها فوجب الخيلاء لراكبها بعد أن تمكّن عليها [وَ الْأَنْعامِ وَ الْحَرْثِ أي الإبل و البقر و الغنم و الزرع كلّ منها فتنة للناس:

أمّا النساء و البنون فتنة للجميع، و الذهب و الفضّة فتنة لأهل الغنى و التجّار، و الخيل فتنة للملوك، و الأنعام لأهل البوادي، و الحرث لأهل الرساتيق.

[ذلِكَ إشارة إلى ما ذكر من الأشياء المعهودة [مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا] ما يمتّع به في الحياة الدنيا أيّاما قلائل فيفنى سريعا [وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ و هو الجنّة لأنّ مرجع أهل اللّه إليها و في الآية تزهيد في طيّبات الدنيا في الجملة و ترغيب فيما عند اللّه

ص: 172

1- الطبرسي مرسلا.

فعلى العاقل أن يأخذ من الدنيا قدر البلغة و لا يستكثر بالاستكثار الّذي يورط صاحبه في المحظور.

[سورة آل عمران (3): آية 15]

قُلْ أَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (15)

. [قُلْ يا محمّد، و الهمزة للتقرير أي أخبركم بما هو خير ممّا فصّل من تلك المستلذّات المزيّنة لكم [لِلَّذِينَ اتَّقَوْا] و المراد أهل التّقوى «للّذين» خبر مبتدؤه «جنّات» و المراد من التقوى التحرّز عن المعاصي و التبتّل إلى اللّه بالإعراض عمّا سواه كما ينبئ عن هذا المعنى النعوت الآتية [عِنْدَ رَبِّهِمْ نصب على الحاليّة [جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ] و مبرّءات من العيوب الظاهرة كالحيض و القاذورات و من العيوب الباطنة كالغضب و الحسد و نحوه، قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: شبر من الجنّة خير من الدنيا و ما فيها [وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ و إزاء هذه الجنّات رضوانه أي رضوان لا يقادر قدره كائن منه تعالى.

قال أهل التحقيق: الجنّات في الآية إشارة إلى الجنّة الجسمانيّة، و الرضوان إشارة إلى الجنّة الروحانيّة و هي عبارة عن تجلّي أنوار رضاء اللّه و جلاله لروح العبد و استغراق العبد في استدراك لذّة المعرفة فيصير العبد في مقام الأوّل راضيا عن اللّه و في آخره مرضيّا عنده تعالى و إليه الإشارة بقوله: «راضِيَةً مَرْضِيَّةً» (1).

[وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ] و بأعمالهم فيعاقب و يثيب حسب ما يليق.

[سورة آل عمران (3): الآيات 16 الى 17]

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا إِنَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَ قِنا عَذابَ النَّارِ (16) الصَّابِرِينَ وَ الصَّادِقِينَ وَ الْقانِتِينَ وَ الْمُنْفِقِينَ وَ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحارِ (17)

ثمّ وصف المتّقين الّذين سبق ذكرهم بقوله: «لِلَّذِينَ اتَّقَوْا» فقال: [الَّذِينَ يَقُولُونَ أي المتّقين يقولون: [رَبَّنا إِنَّنا] صدّقنا بك [فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَ قِنا عَذابَ النَّارِ] أي استرها و ادفع عنّا عذاب النّار [الصَّابِرِينَ نصب على المدح بإضمار أعني الصابرين و هو وصف آخر «لِلَّذِينَ اتَّقَوْا» و الصبر التحمّل من مشاقّ الدنيا و الطاعات [وَ الصَّادِقِينَ في نيّاتهم و

1- الفجر: 29.

أقوالهم [وَ الْقانِتِينَ المواظبين على الدعاء و العبادة [وَ الْمُنْفِقِينَ أموالهم في سبيل اللّه [وَ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحارِ] و توسّط الواو بين الصفات مؤذن بأنّ كلّ صفة مستقلّة بالمدح.

و قيل: إنّ الصبر ثلاثة: الصبر على الطاعة و الصبر عن المعصية (1). و الصدق يجري في القول و هو مجانبة الكذب و في الفعل و هو إتيانه و عدم الانصراف عنه و في النيّة و هو العزم عليه حتّى يفعل، و الإنفاق يتناول على أقاربه و رحمه للّه و في الجهاد و الصدقات على الفقراء و سائر وجوه البرّ.

«و الاستغفار» سؤال المغفرة و تخصيص الأسحار لأنّ الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة و العبادة حينئذ أشقّ و النفس أصفى و الروح أجمع لا سيّما للمجتهدين و أبعد للرياء؛ قال يعقوب عليه السّلام: «سأستغفر لكم» أخّره إلى وقت السحر قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله ينزل اللّه إلى السماء الدنيا كلّ ليلة حتّى يبقى ثلث الليل فيقول: أنا الملك من ذا الّذي يدعوني فأستجيب له؟ من ذا الّذي يسألني فأعطيه من الّذي يستغفرني فأغفر له؟ و معنى ينزل اللّه ينزّل اللّه ملكا من أمره فكأنّه ينزل تعالى و هو تعالى شأنه عن النزول و الصعود. قال لقمان لابنه:

يا بنيّ لا تكوننّ أعجز من هذا الديك يصوت بالأسحار و أنت نائم على فراشك.

و الحاصل إذا كان التسبيح من فعل الحيوانات العجم بل النباتات و الجمادات كما يفصح عن هذا البيان قوله تعالى: «وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ» (2) فالإنسان الّذي هو العالم الكبير أولى بأن يشتغل بالتسبيح.

شهد اللّه إنّه بأنّه لا اله إلّا هو نزلت الآية حين جاء رجلان من أحبار الشام فقالا للنبيّ صلّى اللّه عليه و آله: أنت محمّد؟ قال نعم. قالا: أنت أحمد؟ قال نعم، قالا: أخبرنا عن أعظم الشهادة في كتاب اللّه فأخبرهما. أي أثبت اللّه بالحجّة القطعيّة و أعلم سبحانه بمصنوعاته الدالّة على وحدانيّته في خلقة الأشياء إذ لا يقدر أحد أن ينشئ شيئا منها قال ابن عبّاس:

خلق اللّه الأرواح قبل الأجساد بأربعة آلاف سنة و خلق الأرزاق قبل الأرواح بأربعة آلاف سنة فشهد لنفسه قبل خلق الخلق حين كان و لم يكن سماء و لا أرض و لا برّ و لا بحر فقال:

1- سقطت الثالثة.

2- الإسراء: 44.

شهـد اللّه، الآيـة و الملائكـة عطف على الاسم الجليل أي أقرّت الملائكـة بذلك لمّا عاينت من عظم قدرته و أولوا العلم آمنوا به و احتجّوا عليه بالأدلّـة التكوينيّـة و التشـريعيّة و هم الأنبيـاء و المؤمنون العـالمون. قال الزجّاج: معنى «شـهد اللّه» أي علم اللّه و أخبر بما يقوم مقام الشـهادة على وحـدانيّته من عجائب صـنعته؛ فإنّ الشاهد هو العالم الّذي يبيّن ما علمه، و من هذا المعنى شـهد فلان عند القاضـي أي بيّن علمه، و قال الحسن: في الآيـة تقـديم و تأخير و التقـدير: شـهد اللّه أنّه لا إله إلّا هو قائما بالقسط و شـهدت الملائكـة أنّه لا إله إلّا هو قائما بالقسط و شهد أولو العلم أنّه لا إله إلّا هو قائما بالقسط. و القسط العدل الّذي قامت به السماوات.

و قيل: معنى قوله: قائما بالقسط أنّه يقوم بتدبير الخلق و جزاء الأعمال بالعدل كما يقال: فلان قائم بالتدبير أي يجري أفعاله على الاستقامة.

و إنّمـا كرّر قوله: «لاـ إِلٰهَ إِلّٰا هُوَ» لأنّه بيّن بالأوّل أنّه المسـتحقّ للتوحيـد و بالثاني أنّه القائم بتـدبير الخلق من الأرزاق و الآجال و الإثابـة و المعاقبة

[سورة آل عمران (3): آية 18]

شَهِدَ اللّٰهُ أَنَّهُ لا إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ وَ الْمَلاٰئِكَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ قٰائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18)

يفعـل مـا يشاء لا معقّب لحكمه و تضـمّنت الآيـة الإبانـة عن فضل أهل العلم و العلماء لأنّه قرن العلماء بالملائكـة و شـهادتهم بشـهادة الملائكة.

و ممّا جاء في فضل العلم و العلماء من الحـديث ما رواه جابر بن عبد اللّه عن النبيّ صـلّى اللّه عليه و آله أنّه قال: ساعة من عالم يتّكئ على فراشه ينظر في علمه خير من عبادة العابد سبعين عاما.

أقول: المراد من العلم علم الدين و الشريعة.

و روى أنس بن مالك عنه صـلّى اللّه عليه و آله قال: تعلّموا العلم فإنّ تعلّمه للّه حسـنة و مدارسته تسبيح و البحث عنه جهاد و تعليمه من لا يعلمه صدقـة و تـذكّره لأـهله قربـة؛ لأـنّه معالم الحلال و الحرام و منار سبيل الجنّـة و النار و الأنيس في الوحشـة و الصاحب في الغربـة و المحـدّث في الخلوة و الدليل على السـرّاء و الضـرّاء و السـلاح على الأعداء و القرب عند الغرباء يرفع اللّه به أقواما فيجعلهم في الخير قادة يقتدى بهم و يقتفي بآثارهم و ينتهي إلى رأيهم و ترغب الملائكة في خلّتهم و بأجنحتها تمسحهم و في صلاتهم تستغفر لهم و كلّ رطب و يابس مستغفر لهم حتّى حيتان البحر و هوامّ الأرض و سباعها و أنعامها و السماء و نجومها، ألا و إنّ العلم

حياة القلب و نور الأبصار و قوّة الأبدان يبلغ بالعبد منازل الآخرة و مجلس الملوك و الفكر فيه يعدل بالصيام و مدارسته بالقيام، و العلم إمام العمل و العمل تابعه.

و روى أنس في فضل هذه الآية قال: من قرأ «شَهِدَ اللَّهُ الآية» عند مقامه خلق اللّه منها سبعين ألف خلق يستغفرون له إلى يوم القيامة.

و قال سعيد بن جبير: كان حول الكعبة ثلاثمائة و ستّون صنما فلمّا نزلت «شهد اللّه، الآية» خرّوا سجّدا.

و عن غالب القطّان قال: أتيت الكوفة في تجارة فنزلت قريبا من الأعمش فكنت أحتلف إليه فلمّا كنت ذات ليلة أردت أن أصدر إلى البصرة قام من اللّيل فتهجّد فمرّ بهذه الآية «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَ الْمَلائِكَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» قال الأعمش: و أنا أشهد بما شهد اللّه به و أستودع اللّه هذه الشهادة و هي لي عند اللّه وديعة «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ» قلت في نفسي: لقد سمع فيها شيئا فصلّيت معه و ودّعته ثمّ قلت: آية سمعتك تردّدها فما بلغك فيها؟ قال و اللّه: لا احدّثك بها إلى سنة فلبثت على بابه سنة فلمّا مضت السنة قلت: يا أبا محمّد قد مضت السنة قال: حدّثني أبو وائل عن عبد اللّه (أقول: المراد عبد اللّه بن عمر) قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول اللّه: إنّ لعبدي هذا عندي عهدا و أنا أحقّ من وفى بالعهد أدخلوا عبدي الجنّة.

و عن ابن مسعود أنّ النبيّ صلّى اللّه عليه و آله قال: لأصحابه ذات يوم أ يعجز أحدكم أن يتّخذ كلّ صباح و مساء عند اللّه عهدا قالوا: و كيف ذلك؟ قال: يقول كلّ صباح و مساء: «اللّهمّ فاطر السماوات و الأرض عالم الغيب و الشهادة إنّي أعهد إليك بأنّي أشهد أن لا إله إلّا أنت وحدك لا شريك لك و أنّ محمّدا عبدك و رسولك و أنّك إن تكلني إلى نفسي تقرّبني من الشرّ و تباعدني من الخير و أنّي لا أثق إلّا برحمتك فاجعل لي عهدا توفنيه يوم القيامة إنّك لا تخلف الميعاد» فإذا قال ذلك طبع عليه بطابع و وضع تحت العرش فإذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الّذين لهم عند اللّه عهد فيدخلون الجنّة.

ان الدين عند اللّه الإسلام جملة مستأنفة مؤكّدة للأولى أي لأدين مرضيّا عند

اللّه سوى الإسلام الّذي هو التوحيد و الإطاعة و التسليم بالشريعة المقرّرة في أحكام الإسلام و هو القرآن، و لا شكّ أنّ الإسلام شهادة التوحيد قلبا و لسانا و القبول لما جاء من عند اللّه و هذا الحكم ثابت من زمن آدم إلى الخاتم و إنّما الاختلاف في الفروع الّتي هي الشرائع و الشروط و يغيّر بما جاء به النبيّ في كلّ زمان؛ فالحقيقة متّحدة و الشروط مختلفة و هذا الاختلاف الصوريّ لا ينافي الاتّحاد الأصليّ.

و ما اختلف الذين أوتوا الكتاب نزلت في اليهود و النصارى حين أنكروا نبوّته صلّى اللّه عليه و آله إلّا من بعد ما جاءهم العلم استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال و الأوقات أي ما اختلفوا في الإسلام و النبوّة لمحمّد صلّى اللّه عليه و آله إلّا بعد أن علموا بأنّه الحقّ و عرفوا صحّة كلامه صلّى اللّه عليه و آله بالحجج و الآيات و أنّ الاختلاف بعد حصول تلك المرتبة ممّا لا يصدر عن العاقل بغيا بينهم مفعول له لقوله: «اختلف» أي حسدا كائنا بينهم و طلبا للرياسة.

وَ مَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ الناطقة و لم يعمل بمقتضاها

[سورة آل عمران (3): آية 19]

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (19)

الجملة قائم مقام جواب الشرط، و من يكفر بآياته فإنّه يجازيه و يعاقبه عن قريب لأنّه تعالى يحاسبهم في أقلّ من لمحة.

[سورة آل عمران (3): آية 20]

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَ مَنِ اتَّبَعَنِ وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَ الْأُمِّيِّينَ أَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (20)

. فإن خاصموك، و خاصمه وفد نصارى و هم نصارى نجران في كون الدين عند اللّه الإسلام [فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ و أخلصت قلبي و جملتي [لِلَّهِ وحده لم أجعل فيها لغيره شريكا بأن أعبده و أدعوه و هو القديم الّذي ثبتت ألوهيّته عندكم و عندي و ما جئت بشيء بديع حتّى تجادلوني فيه [وَ مَنِ اتَّبَعَنِ عطف على الضمير في «أسلمت» أي و أسلم من اتّبعني.

[وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ من اليهود و النصارى [وَ الْأُمِّيِّينَ الّذين لا كتاب لهم من مشركي العرب [أَ أَسْلَمْتُمْ متّبعين لي كما فعل المؤمنون و صورة اللفظ الاستفهام و معناه التهديد و متضمّن للأمر أي أسلموا فإنّه تعالى قد أزاح العلل «فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ»*

أم بعد باقون على كفركم؟ و نظيره قوله: «فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ» (1) أي انتهوا [فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا] كما هديتم أيّها المسلمون و فازوا بالحظّ الأوفر.

[وَ إِنْ تَوَلَّوْا] و أعرضوا عن الاتّباع [فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ قائم مقام جواب الشرط أي لم يضرّوك شيئا أو عليك التبليغ و لست ملتزما بحصول هدايتهم. روي أنّ رسول اللّه لمّا قرأ هذه الآية على أهل الكتاب قالوا: أسلمنا، فقال صلّى اللّه عليه و آله لليهود: أ تشهدون أنّ عيسى كلمة اللّه و عبده و رسوله؟ فقالوا: معاذ اللّه، و قال للنصارى: أ تشهدون أنّ عيسى عبد اللّه و رسوله؟

فقالوا: معاذ اللّه أن يكون عيسى عبدا و ذلك قوله تعالى: «وَ إِنْ تَوَلَّوْا».

[وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ] عالم بأحوالهم و هو وعد و وعيد.

[سورة آل عمران (3): آية 21]

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ يَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (21)

. أي الّذين يجحدون حجج اللّه و بيّناته [وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ قيل: هم اليهود، عن أبي عبيدة الجرّاح قال: قلت: يا رسول اللّه أيّ الناس أشدّ عذابا يوم القيامة فقال: رجل قتل نبيّا أو قتل رجلا أمر بمعروف أو نهى عن منكر ثمّ قرأ صلّى اللّه عليه و آله «وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ الآية» ثمّ قال صلّى اللّه عليه و آله: يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة و أربعين نبيّا من أوّل النهار في ساعة واحدة فقام مائة رجل و اثنا عشر رجلا من عبّاد بني إسرائيل فأمروا بالمعروف و نهوهم عن المنكر فقتلوا جميعا في آخر النهار في ذلك اليوم و هو الّذي ذكره اللّه [فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ و قوله «بِغَيْرِ حَقٍّ» لا يدلّ على أن قتل الأنبياء ما هو حقّ بل المراد أنّ قتلهم لا يكون إلّا بغير حقّ كقوله: «وَ مَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ» (2) و المراد تأكيد النفي فإنّ القتل يكون بوجوه من الحقّ و هم كانوا يقتلون بغير وجه من وجوه الحقّ.

[سورة آل عمران (3): آية 22]

أُولئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (22)

. [أُولئِكَ المتّصفون بتلك الصفات القبيحة [الَّذِينَ بطلت أعمالهم الّتي عملوها من البرّ و لم يبق لهم أثر في الدارين [وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ ينصرونهم من بأس اللّه و عذابه.

ص: 178

1- المائدة: 94.

2- المؤمنون: 118.

[سورة آل عمران (3): آية 23]

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُدْعَوْنَ إِلى كِتابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (23)

. تعجيب للرسول و لكلّ من تتأتّى منه الرؤية في حال أهل الكتاب و سوء صـنيعهم أي تنظر [إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً] و حظّا وافرا من التوراة و مـا أوتوا من العلوم و الأحكام الّتي من جملتها ما علموه من نعوت النبيّ صـلّى اللّه عليه و آله [يُدْعَوْنَ إِلى كِتابِ اللَّهِ قيل: المراد التوراة، قال ابن عبّاس: دعا إليها اليهود فأبوا لعلمهم بلزوم الحجّة لما فيه من الدلالات على صدق نبوّة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و إنّما قال: «أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ» لأنّهم كانوا يعلمون بعض ما فيه. و قيل: المراد من «الكتاب» في الآية القرآن عن الحسن و قتادة. دعوا إلى القرآن لأنّ ما فيه موافق لما في التوراة من اصول الديانة.

[لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أي ليحكم ذلك الكتاب بينهم و أضـيف الحكم إليه لأنّه يفرق بين الحقّ و الباطل فهو الحاكم كما في صـفة القرآن «بَشِيراً وَ نَذِيراً» و ذلك أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله دخل مدارس اليهود فدعاهم إلى الإسلام فقال له رئيسهم نعيم بن عمر: على أيّ دين أنت؟ قال صلّى اللّه عليه و آله: على ملّة إبراهيم، قال: إنّ إبراهيم كان يهوديّا، قال صلّى اللّه عليه و آله: إنّ بيننا و بينكم التوراة فهاتوها فأبوا.

و قال الكلبيّ: نزلت الآيـة في قضـيّة الرجم و هي أنّه فجر رجل و امرأة من أهل خيبر و كانا في شـرف من قومهما و كان حكمهم في كتابهم الرجم فأتوا رسول اللّه رجاء رخصة عنده فحكم عليهم بالرحم فقالوا: جرت علينا في الحكم ليس عليهما الرجم، فقال صلّى اللّه عليه و آله: بيني و بينكم التوراة؛ قالوا: قد أنصـفتنا، قال: فمن أعلمكم بالتوراة؟ قالوا: ابن صوريا؛ فأرسلوا إليه فدعا النبيّ بشي ء من التوراة فيه الرجم دلّه على ذلك ابن سلام فقال صلّى اللّه عليه و آله لابن صوريا. اقرأ فلمّا أتى على آية الرجم وضع كفّه عليها و قام ابن سلام و رفع إصبعه عنها ثمّ قرأ على رسول اللّه و على اليهود بأنّ المحصن و المحصـنة إذا زنيا و قامت عليهما البيّنـة رجما و إن كانت المرأة حبلى تربّص حتّى تضع ما في بطنها و أمر رسول اللّه باليهوديّين فرجما فغضب اليهود لذلك و رجعوا كفّارا فأنزل اللّه هذه الآية.

[ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَ هُمْ مُعْرِضُونَ عن الحقّ.

ذلك التولّي حاصل بأنهم بسبب أنّهم قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ باقتراف الذنوب و ركوب المعاصي إلّا أياما معدودات و هي الأيّام الّتي عبدوا فيها العجل أربعون يوما و بسبب قصر المدّة سهّلوا و هوّنوا عليهم الخطوب. و قال الحسن: سبعة أيّام. و قيل: المراد أيّام قلائل منقطعة عن الجبّائيّ

[سورة آل عمران (3): آية 24]

ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ وَ غَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (24)

من قولهم ذلك و أطمعهم هذه العقيدة الفاسدة و ما أشبهه نحو قولهم: «نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ» (1) و آباؤنا الأنبياء يشفعون لنا، و أنّ اللّه وعد يعقوب أن لا يعذّب أولاده إلّا تحلّة القسم و لذلك ارتكبوا ما ارتكبوا من القبائح.

قال ابن عبّاس: زعمت اليهود أنّهم وجدوا في التوراة أنّ ما بين طرفي جهنّم أعلاها و أسفلها أربعون سنة إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقّوم، و إنّما نعذّب حتّى نأتي على شجرة الزقّوم فتذهب جهنّم. و أصل الجحيم سقر و فيها شجرة الزقّوم فإذا اقتحموا من باب جهنّم و تبادروا في العذاب حتّى انتهوا إلى شجرة الزقّوم و ملؤوا البطون قال لهم خازن سقر:

زعمتم أنّ النار لن تمسّكم إلّا أيّاما معدودات؛ فدخلت أربعون سنة و أنتم مؤبّدون.

قوله: [سورة آل عمران (3): آية 25]

فَكَيْفَ إِذا جَمَعْناهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (25)

. حاصل المعنى: أيّ حال يكون حال من اغترّ بالدعاوي الباطلة حتّى أدّاه ذلك إلى الخلود في النار و نظير هذا الكلام قول القائل: أنا أكرمك و إن لم تجئني فكيف إذا جئتني؟ يريد عظم الإكرام أي كيف يصنعون [إِذا جَمَعْناهُمْ لِيَوْمٍ أي لجزاء يوم لا شكّ في وقوعه و وقوع ما فيه؟ روي أنّ أوّل راية ترفع يوم القيامة من رايات الكفرة راية اليهود فيفضحهم اللّه على رؤوس الأشهاد ثمّ يأمرهم إلى النار.

[وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ جزاء [ما كَسَبَتْ من غير نقص أصلا كما زعموا، و اللام في «ليوم» يدلّ على الجزاء و لو قال: «جمعناهم في يوم» لم يدلّ كما يقال: جئته ليوم الخميس يعني لما يكون يوم الخميس [وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ أي كلّ الناس المدلول عليهم «بكلّ نفس».

1- المائدة: 18.

[سورة آل عمران (3): الآيات 26 الى 27]

قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وَ تُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْ ءٍ قَدِيرٌ (26) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ تُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ تُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (27)

«اللّهم» أصله يا اللّه فالميم عوض عن حرف النداء و لذلك لا يجتمعان و شدّدت الميم لقيامها مقام حرفين و هذا من خصائص الاسم الجليل. و قيل: أصله يا اللّه أمنا بخير أي اقصدنا بخير، و خفّف بحذف حرف النداء و متعلّقات الفعل و همزته الّتي هي فاء الفعل [مالِكَ الْمُلْكِ أي جنس الملك على الإطلاق هو مالكه حقيقيّا يتصرّف فيه إيجادا و إعداما إحياء و إماتة من غير مشارك [تُؤْتِي الْمُلْكَ بيان لبعض وجوه التصرّف الّذي يستدعيه مالكيّة الملك و الإيتاء إثبات مالكيّته على سبيل الحقيقة [مَنْ تَشاءُ] إيتاءه [وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ] نزعه منه و من اوتي الملك فالمأتيّ مالكيّته على سبيل المجاز [وَ تُعِزُّ مَنْ تَشاءُ] أن تعزّه في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما على سبيل الندرة و اقتضاء الحكمة [وَ تُذِلُّ مَنْ تَشاءُ] أن تذلّه في أحدهما أو فيهما [بِيَدِكَ الْخَيْرُ] و تعريف الخير للتعميم و تقديم الخبر للتخصيص أي بقدرتك الخير كلّه لا بقدرة أحد من غيرك قبضا و بسطا، و كلّ أفعال اللّه من نافع و ضارّ صادر عن المصلحة فهو كلّه خير.

روي أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله لمّا خطّ الخندق عام الأحزاب و قطع لكلّ عشرة من أهل المدينة أربعين ذراعا و جمع من وافى الخندق من القبائل عشرة آلاف و أخذوا يحفرونه خرج من بطن الخندق صخرة كالفيل العظيم لم تعمل فيها المعاول فوجّهوا سلمان نحو رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله فجاءه فأخبره فجاء صلّى اللّه عليه و آله و أخذ المعول من يد سلمان فضربها ضربة صدعتها مقدار ثلثها و برق منها برق أضاء ما بين لابتيها كأنّه مصباح في جوف بيت مظلم فكبّر و كبّر معه المسلمون و قال: أضاءت لي منها قصور الحيرة و مدائن كسرى كأنّها أنياب الكلاب ثمّ ضرب الثانية فكسرها و برق منها برق أضاء ما بين لابتيها حتّى كان مصباحا في فكبّر النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و كبّر المسلمون فقال صلّى اللّه عليه و آله: أضاءت لي قصور الحمر في أرض الشام، ثمّ ضرب الثالثة و برق منها برق أضاءت قصور صنعاء فكبّر و كبّر المسلمون فقال صلّى اللّه عليه و آله: أخبرنى جبرئيل عليه السلام أنّ امّتي ظاهرة على الأمم كلّها فابشروا فقال

المنافقون: أ لا تعجبون يمنّيكم و يعدكم الباطل و يخبركم أنّه يبصر من يثرب قصور الحيرة و مدائن كسرى و أنّها تفتح لكم و أنتم تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا؟

[إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] من الإعزاز و الإذلال، و بعد أن قال المنافقون هذا الكلام نزلت «قُلِ اللَّهُمَ الآية» و روى جعفر بن محمّد عن أبيه عن آبائه عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال: لمّا أراد اللّه أن ينزّل فاتحة الكتاب و آية الكرسيّ و «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ، الآية» و «قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ الآية» إلى قوله: «بِغَيْرِ حِسابٍ» تعلّقن بالعرش و ليس بينهنّ و بين اللّه حجاب و قلن: يا ربّ تهبطنا إلى دار الذنوب و إلى من يعصيك و نحن معلّقات بالطهور و بالقدس؟ فقال: و عزّتي و جلالي ما من عبد مؤمن قرأ كنّ في دبر كلّ صلاة مكتوبة إلّا أسكنته حظيرة القدس على ما كان فيه و إلّا نظرت إليه بعيني المكنونة في كلّ يوم سبعين نظرة و إلّا قضيت له في كلّ يوم سبعين حاجة أدناها الفقر و إلّا أعذته من كلّ عدوّ و نصرته عليه و لا يمنعه دخول الجنّة إلّا أن يموت.

و قال معاذ بن جبل: احتبست عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله يوما لم اصلّ معه الجمعة فقال:

يا معاذ ما يمنعك عن صلاة الجمعة؟ قلت: يا رسول اللّه كان ليوحنّا اليهود عليّ أوقية من تبر و كان على بابي يرصدني فأشفقت أن يحبسني دونك، قال: أ تحبّ أن يقضي اللّه دينك؟

قلت: نعم يا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله قال: قل: قل اللّهم مالك الملك إلى قوله: بغير حساب، يا رحمن الدنيا و الآخرة و رحيمهما تعطي منهما ما تشاء و تمنع منهما ما تشاء اقض عنّي ديني» فإن كان عليك مل ء الأرض ذهبا لأدّاه اللّه، انتهى.

[تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ تُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ تُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ أي تنقص من الليل فيجعل ذلك النقصان زيادة في النهار و تنقص من النهار فيجعل ذلك النقصان زيادة في الليل على قدر طول النهار و قصره عن ابن عبّاس و عامّة المفسّرين. و قيل: معنى الآية: تدخل أحدهما في الآخر بإتيانه بدلا منه في مكانه عن أبي عليّ الجبّائيّ.

[وَ تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ أي من النطفة و هي ميّتة بدليل قوله: «وَ كُنْتُمْ أَمْواتاً

فَأَحْياكُمْ» (1) [وَ تُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِ أي النطفة من الحيّ و كذلك الدجاجة من البيض و البيض من الدجاجة، و قيل: إنّ معناه تخرج المؤمن من الكافر و الكافر من المؤمن روي ذلك عن الصادقين عليهما السّلام. و قرئ «الميّت» بالتشديد و التخفيف قال البصريّون: إنّهما سواء كقول الشاعر:

ليس من مات و استراح بميت إنّما الميت ميّت الأحياء

فجمع بين اللغتين. و قيل: الميّت بالتشديد الّذي لم يمت بعد و بالتخفيف الّذي مات، قال الطبرسيّ: و الصحيح الأوّل.

[وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ أي بغير تقتير لأنّ عادة المقتّر لا ينفق إلّا بحساب.

قال أبو العبّاس المقرئ: ورد لفظ الحساب في القرآن على ثلاثة أوجه: بمعنى التعب؛ قال تعالى: «وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ» و بمعنى العدد؛ قال «إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ» (2) و بمعنى المطالبة؛ قال تعالى: «فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ» (3) و في الآية إشارة على أنّ من قدر على هاتيك الأفاعيل العظام المحيّرة للعقول فقدرته على أن ينزع الملك من العجم و يذلّهم و يؤتيه العرب و يعزّهم أهون عليه من كلّ هيّن.

و في بعض الكتب: أنا اللّه ملك الملوك قلوب الملوك و نواصيهم بيدي؛ فإنّ العباد إن أطاعوني جعلتهم لهم رحمة و إن عصوني جعلتهم عليهم عقوبة. فلا تشتغلوا بسبّ الملوك و لكن توبوا إلى أعطفهم عليكم، و هو معنى كما تكونون يولّى عليكم أي إن كنتم من أهل الطاعة يولّ عليكم أهل الرحمة و إن كنتم أهل المعصية يولّ عليكم أهل العقوبة.

و في الحديث أنّ موسى عليه السّلام ناجى ربّه فقال: يا ربّ ما علامة سخطك من رضاك؟

فأوحى اللّه إليه إذا استعملت على الناس خيارهم فهو علامة رضاي عنهم و إذا استعملت شرارهم فهو علامة سخطي عليهم. و فيه إشارة إلى أنّ الولاة يكونون على حسب أعمال الرعايا و أحوالهم صلاحا و فسادا فعلى كلّ واحد من المسلمين التضرّع للّه و الإنابة إليه بالتوبة

1- البقرة: 28.
2- الزمر: 10.
3- ص: 39.

و الاستغفار عند فشوّ الظلم و شمول الجور من السلطان و يظهر جور الوالي و عدله في الضرع و الزرع و الأشجار و المكاسب و الحرف بقلّها و نزوع البركة عنها و تكسّد معاملة أهل الحرف في الأمصار.

قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: سيأتي زمان لأمّتي يكون امراؤهم على الجور و علماؤهم على الطمع و عبّادهم على الرياء و تجّارهم على أكل الرباء و نساؤهم على زينة الدنيا.

[سورة آل عمران (3): الآيات 28 الى 29]

لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (28) قُلْ إِنْ تُخْفُوا ما فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (29)

. أي لا يجوز و لا ينبغي للمؤمنين أن يتّخذوا الكافرين أولياء لنفوسهم فيصاحبوهم و يستغيثوا بهم في أمورهم و يظهروا المحبّة لهم كما قال في عدّة مواضع من القرآن: نحو قوله: «لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ الآية» (1) و قوله: «لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصارى أَوْلِياءَ» (2) و قوله تعالى: «لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ» (3) نهوا عن موالاتهم [مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ إشارة إلى أنّ المؤمنين هم الأحقّاء في الموالاة فلا تؤثروهم عليهم في الولاية.

[وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ أي اتّخاذهم أولياء [فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ من ولايته تعالى [فِي شَيْءٍ] يعني أنّه منسلخ عن ولاية اللّه و هذا أمر معقول فإنّ موالاة الوليّ و موالاة عدوّه متنافيان قال الشاعر:

تودّ عدوّي ثمّ تزعم أنّني صديقك ليس النوك عنك بعازب

و الأعداء ثلاثة عدوّك و عدوّ صديقك و صديق عدوّك.

[إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا] أي إلّا حال اتّقائكم من جهتهم [تُقاةً] أي اتّقاء مثل أن يكون المؤمن بينهم و يخاف منهم فإنّ الموالاة حينئذ مع اطمينان النفس بالعداوة و البغضاء و انتظار

1- المجادلة: 22.

2- المائدة: 51.

3- الممتحنة: 1.

زوال المانع فحينئذ لا بأس كما قال عيسى عليه السّلام: كن وسطا و امش جانبا أي كن فيما بينهم صورة و تجنّب عنهم سيرة، و هذا رخصة فلو صبر حتّى قتل كان أجره عظيما.

[وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ أي يخوّفكم اللّه ذاته المقدّسة كقوله: فاتّقون و اخشون، فلا تتعرّضوا لسخطه بموالاة أعدائه و هذا وعيد شديد [وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ] أي إلى جزاء اللّه مرجع الخلق.

قُلْ إِنْ تُخْفُوا ما فِي صُدُورِكُمْ من الضمائر الّتي من جملتها ولاية الكفر أَوْ تُبْدُوهُ فيما بينكم يَعْلَمْهُ اللَّهُ فيؤاخذكم بذلك عند مصيركم إليه وَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ لا يخفى عليه شي ء منه و هو من باب إيراد العامّ بعد الخاصّ تأكيدا وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْ ءٍ قَدِيرٌ (29) فيقدر على عقوبتكم و لو علم بعض عبيد السلطان أنّ السلطان مطّلع على حال عبيده و قد بثّ السلطان من يتجسّس على بواطن أموره لأخذ حذره فما بال من علم أنّ اللّه يعلم السرّ و أخفى من السرّ فكيف يكون أمنا؟ اللّهم إنّا نعوذ بك من اغترارنا بسترك المرخى.

قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: أربعة من الكبائر: لبس الصوف لطلب الدنيا، و ادّعاء محبّة الصالحين و ترك فعلهم، و ذمّ الأغنياء و الأخذ منهم، و رجل لا يرى الكسب و يأكل من كسب الناس. و اعلم أيّها العاقل أنّ الحبّ في اللّه و البغض في اللّه باب عظيم و أصل من اصول الإيمان؛ و المراودة الاختياريّة و التوافق المعنويّ بين المؤمن و الكافر لا يمكن إلّا أن يكون الإيمان إيمانا صوريّا بل موافقة المؤمن مع الفاسق و معاشرته إذا لم تكن عن ضرورة في هذا الحكم قال الشاعر:

عن المرء لا تسأل و أبصر قرينه فكلّ قرين بالمقارن يقتدي

قال أمير المؤمنين عليه السّلام:

فلا تصحب أخا الجهل و إيّاك و إيّاه فكم من جاهل أردى حليما حين آخاه

فاصحب العاقل، و العقل ما عقل به عن السيّئات، و حضّ القلب على الحسنات، و يكون معقلا عن الدنيّات و نجاتا من المهلكات، و النظر في العواقب قبل حلول المصائب، و الوقوف مقادير الأشياء قولا و فعلا.

[سورة آل عمران (3): آية 30]

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ (30)

. «يوم» منصوب على الظرف متعلّق بقوله: «يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ» [يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ من النفوس [ما عَمِلَتْ في الدنيا من طاعة و [خَيْرٍ مُحْضَراً] عندها بأمر اللّه و كذلك [ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ] تجد محضرا.

[تَوَدُّ] و تحبّ و تتمنّى يوم تجد صحائف الأعمال من الخير و الشرّ أو أجزيتها حاضرة، و عن قريب يغلق الباب بغتة و يؤخذ فلتة فليسارع العبد إلى دفع الموبقات و طلب المحسّنات قبل الإغلاق، و في الحديث: أ تدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس من لا درهم له و لا متاع، قال صلّى اللّه عليه و آله: المفلس من أمّتي من يأتي يوم القيامة بصلاة و صيام و زكاة و يأتي قد شتم هذا و قذف هذا و أكل مال هذا أو سفك دم هذا و ضرب هذا فيعطى هذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي أخذ من خطاياهم و طرحت عليه ثمّ يطرح في النار [لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أي بين النفس و بين ذلك اليوم و هو له أو بين النفس و العمل السوء [أَمَداً بَعِيداً] أي مسافة واسعة كما بين المشرق و المغرب و لم يعمل ذلك السوء قطّ.

[وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ أي و يقول اللّه: احذروا من سخطي، تكرير لما سبق ليكون على بال منهم لا يغفلون عنه [وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ] بتحذيره إيّاكم؛ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قطّ و أظمأ ما كانوا قطّ و أعرى ما كانوا قطّ و أنصب ما كانوا قطّ فمن أطعم اللّه أطعمه و من سقى اللّه سقاه و من كسى اللّه كساه و من عمل للّه كفاه.

قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: أيّها الناس لا تعجبوا بأنفسكم و بكثرة أعمالكم و بقلّة ذنوبكم و لا تعجبوا بأمر من الطاعة حتّى تعلموا بم يختم له فإنّ الأعمال بخواتيمها و لو أنّ أحدكم جاء يوم القيامة بعمل سبعين نبيّا لتمنّى الزيادة لهول ما يقدم عليه يوم القيامة و أقلّ ما يلزمكم أن لا تستعينوا بنعمه على معاصيه.

[سورة آل عمران (3): آية 31]

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31)

. حذفت الياء في «أطيعون» و «في فاتّقون» لأنّه ختم آية ينوى بها الوقف و ليس هذا الجهة

في «فاتّبعوني» و لهذا لم تسقط الياء.

نزلت الآية حين دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله كعب بن الأشرف و من تابعه إلى الإيمان فقالوا: «نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ» فنزلت الآية [قُلْ لهم يا محمّد صلّى اللّه عليه و آله: إنّي رسول اللّه أدعوكم إلى من تحبّونه بزعمكم فإن كنتم تحبّونه [فَاتَّبِعُونِي على دينه و امتثلوا أمره [يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ فإنّ المحبّ إذا كان صادقا يقتضي أن يكون حريصا على مطاوعة محبوبه و محبوب محبوبه [وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ فيقربكم من جنّات عزّه و يبوّئكم في جوار كرامته و عبّر عن هذا المعنى بالمحبّة بطريق الاستعارة أو المشاكلة [وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ في جميع الأوامر و النواهي فَإِنْ تَوَلَّوْا إمّا من تمام مقول القول فهي صيغة المضارع المخاطب بحذف إحدى التائين أي تتولّوا و تعرضوا، و إمّا كلام متفرّع مسوق من جهته تعالي فهي صيغة الماضي الغائب

[سورة آل عمران (3): آية 32]

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ (32)

. نفي المحبّة كناية عن بغضه لهم و سخطه عليهم أي لا يرضى عنهم، و دلّت الآية على شرف النبيّ صلّى اللّه عليه و آله فإنّه جعل متابعته متابعة حبيبه و من ادّعى محبّة اللّه و خالف سنّة نبيّه فهذا كذّاب بنصّ الآية؛ قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: و الّذي نفس محمّد بيده لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبّ إليه من نفسه الحديث رواه البخاريّ عن عبد اللّه بن هشام.

و امّة محمّد صلّى اللّه عليه و آله على الحقيقة من اتّبعه و أطاعه و لا يتّبعه إلّا من أعرض عن الدنيا فإنّه صلّى اللّه عليه و آله ما دعا إلّا إلى اللّه و اليوم الآخر و ما صرف إلّا عن الدنيا و الحظوظ العاجلة فبقدر ما أعرضت عنها و أقبلت على اللّه و صرفت الأوقات لأعمال الآخرة فقد سلكت سبيله الّذي يسلكه، و بقدر ما اتّبعته صرت من امّته و حزبه، و بقدر ما أقبلت على الدنيا عدلت عن سبيله و أعرضت عن متابعته و لو خرجت عن مكمن الغرور و أنصفت من نفسك يا رجل و كلّنا ذلك الرجل لعلمت أنّك من حين تمسي لا تسعى إلّا في الحظوظ العاجلة ثمّ تطمع في أن تكون غدا من أتباعه، ما أبعد ظنّنا و ما أفحش طمعنا!

قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): الآيات 33 الى 34]

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ (33) ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (34)

«الاصطفاء» أخذ ما صفي من الشي ء أي اختار آدم بالكمالات القدسيّة للرسالة كما

في كافّة الرسل كلّ بحسبه أو اصطفاه بتعليم الأسماء و إسجاد الملائكة إيّاه و إسكانه الجنّة و اصطفى نوحا بما ذكر من الوجه الأوّل أو اصطفاه بكونه أوّل من نسخ الشرائع و بإطالة عمره و جعل ذرّيّته هم الباقين و استجابة دعوته في حقّ الكفرة و المؤمنين و حمله في السفينة.

[وَ] اصطفى [آلَ إِبْراهِيمَ و هو إسماعيل إسحاق و الأنبياء من أولادهما الّذين من جملتهما النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و يفهم من اصطفائهم اصطفاء إبراهيم بطريق الأولیّة و بأمور اخرى.

[وَ] اصطفى [آلَ عِمْرانَ و هو عيسى و امّه ابنة عمران بن ماثان بن العاذر بن أبي هود بن ربّ بن بابل بن ساليان بن يوحنّا بن ارشا بن أومودر بن ميشك بن خارقا بن يونام بن غربا بن بوزان بن ساقط بن ايشا بن راجقيم بن سليمان بن داود بن ايشا بن عويل ابن سلمون بن ياعر بن ممشون بن عمياد بن دام بن خضروم بن مارض يهود ابن يعقوب عليه السّلام و قيل: «آل عمران» هو موسى و هارون عليهما السّلام ابنا عمران بن يصهر بن فاهث بن لاوي بن يعقوب عليه السّلام و بين العمرانين ألف و ثمانمائة سنة فيكون اصطفاء عيسى بالاندراج في آل إبراهيم و الأوّل أظهر بدليل تعقيبه بقصّة مريم، و اصطفاء موسى و هارون بالانتظام في سلك آل إبراهيم انتظاما ظاهرا.

و نظم الآية بما فبلها أنّه لمّا وقعت المنازعة في إبراهيم و عيسى عليهما السّلام باختلاف أقوال اليهود و النصارى فيهما بيّن سبحانه بأنّهم مصطفون للرسالة و أنّ الناس مأمورون بمعرفتهم بالنبوّة و الإطاعة، أو أنّه لمّا أمر بطاعة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و أبي ذلك المشركون بيّن سبحانه أنّه كما اصطفاهم للرسالة من قبله اصطفى محمّدا للرسالة فلا وجه لإنكارهم رسالته صلّى اللّه عليه و آله.

قوله: [عَلَى الْعالَمِينَ جمع عالم و هو اسم لنوع من المخلوقين فيه علامة يمتاز بها عن غيره من الأنواع كالملك و الجنّ و الإنس يقال: عالم البرّ و عالم البحر و عالم السماء و عالم الأرض و المراد من «العالمين» أهل زمان كلّ واحد منهم و حاصل المعنى: اصطفى كلّ واحد منهم على عالمي زمانهم.

[ذُرِّيَّةً] منصوبة على البدليّة من الآلين، و الذرّ- بالفتح من الذال- البثّ و التفريق، و سمّي نسل الثقلين ذرّيّة لأنّه تعالى بثّهم و نشرهم في الأرض أو لأنّه تعالى أخرج نسل

آدم من صـلبه كهيئـة الـذرّ و هو جمع ذرّة و هي أصـغر النمل، و الذرء معناه الخلق فهو خلقهم من العدم إلى الوجود و بثّهم [بَعْضُ‌ها مِنْ بَعْضٍ فإنّ آل إبراهيم أعني إسـماعيل إسـحاق متشـعّبان من إبراهيم المتشـعّب من نوح المتشعّب من آدم إلى آخر الأنبياء إلى خاتم النبيّين صلّى اللّه عليه و آله [وَ اللّهُ سَـ‌مِيعٌ لأقوال العباد [عَلِيمٌ بأعمالهم الباديـة و الخافيـة فيصـطفي لخدمة دينه من يعلـم اسـتقامته كما قال: «اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ» (1) و لكنّ التفاضل واقع فيهم مثل أن يكون واحدهم خليلا مثلا و الآخر حبيبا و الآخر نجيّا و الآخر صفيّا كما قال «تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ» (2).

قـال صـاحب تفسـير روح البيـان: و الولادة قسـمان صوريّـة و معنويّـة و الأب أب ولّـدك و أب ربّاك و علّمك، و الولادة التعليميّـة تختلف باختلاف القوابل و الاستعدادات و إلى هذه الولادة أشار عيسى عليه السّلام بقوله: لن يلج ملكوت السماوات من لم يولد مرّتين، فالروح في الصـفاء و الكـدورة يناسب القابل، و المزاج في القرب و الاعتـدال الحقيقيّ و عـدمه؛ إذ الفيض يصل بحسب القابليّـة و المناسـبة فتتفاوت الأرواح بحسب مراتبها في الصفوة و القرب و البعد عن الفيض الأقدس.

و بهـذا البيان يتّضح أنّ كلّ نبيّ كان يتّبع نبيّا قبله في التوحيد و المعرفة و ما يتعلّق بأصول الدين «ذُرِّيَّةً بَعْضُ‌ها مِنْ بَعْضٍ» و على هذا جعل اللّه المهديّ الموعود به من نسل محمّد صلّى اللّه عليه و آله و به يربّي العالم و يصلحه بعد فساده.

أقول: و هذا معنى «الولد سرّ أبيه» كما كان روحانيّة عيسى ببركة صدق مريم مع فضل نبوّته بكامليّته و قابليّته، انتهى كلامه.

قوله: [سورة آل عمران (3): آية 35]

إِذْ قالَتِ امْرَأَتُ عِمْرانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ما فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (35)

. «إذ» منصوب با ذكر [قالَتِ امْرَأَتُ عِمْرانَ بن ماثان امّ مريم البتول جدّة عيسـى عليه السّـ‌لام و هي حنة بنت فاقوذا و لا يخفى أنّ عمران بن ماثان غير عمران يصهر و كان لعمران

1- الانعام: 134.

2- البقرة: 253.

ابن يصهر أيضا بنت يقال لها: مريم، لكن هي أكبر من موسى و هارون و هي غير مريم البتول امّ عيسى عليه السّلام و ما كان العمرانان في عصر واحد. و بالجملة روي أنّ حنة زوجة عمران كانت عاقرا لم بلد إلى أن عجزت فبينا هي في ظلّ شجرة أبصرت بطائر يطعم فرخا له فتحرّكت نفسه للولد و تمنّته فقالت: يا ربّ إنّ لك عليّ نذرا شكرا إن رزقتني ولدا أن أتصدّق به على بيت المقدس فيكون من سدنته و خدمه، فحملت بمريم و هلك عمران و هي حامل و ذلك قوله:

[رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ما فِي بَطْنِي و «النذر» ما يوجبه الإنسان على نفسه و عبّر عن الولد «بما» لإبهام أمره و قصوره عن درجة العقلاء بعد [مُحَرَّراً] أي معتقا لخدمة بيت المقدس لا أستخدمه و لا أشغله بأموري فيكون خالصا لخدمة اللّه و لا يعمل عمل الدنيا و لا يتزوّج ليتفرّغ لعمل الآخرة، و كان هذا النذر مشروعا شايعا عندهم؛ لأنّ الأمر في دينهم ذلك الزمان أنّ الولد إذا صار بحيث يمكن استخدامه كان يجب عليه خدمة الأبوين فكانوا بالنذر يتركون ذلك النوع من الانتفاع و يجعلونهم محرّرين لخدمة المسجد و لم يكن لأحد من الأنبياء إلّا و من نسله محرّر لبيت المقدس و لم يكن يحرّر إلّا الغلمان و لا تصلح له الجارية لما يصيبها من الحيض فتحتاج إلى الخروج و لكن حرّرت ما في بطنها مطلقا إمّا لأنّها بنت الأمر على تقدير الذكوريّة أو لأنّها جعلت ذلك النذر وسيلة إلى طلب الولد الذكر.

[فَتَقَبَّلْ مِنِّي أي ما نذرت، و القبّل أخذ الشي ء على وجه الرضى [إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ لجميع المسموعات العليم لكلّ المعلومات الّتي من جملتها ما في ضميري.

[سورة آل عمران (3): آية 36]

فَلَمَّا وَضَعَتْها قالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثى وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى وَ إِنِّي سَمَّيْتُها مَرْيَمَ وَ إِنِّي أُعِيذُها بِكَ وَ ذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ (36)

. قالت حنة بعد أن وضعت و كانت ترجو أن يكون غلاما فلمّا رأتها أنّ ما وضعت أنثى خجلت و استحيت و قالت منكّسة رأسها: [رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثى و مرادها الاعتذار من العدول عن النذر لأنّها أنثى، و الضمير المتّصل في «وضعتها» عائد إلى النسمة

«و أنثى» حال منه و إنّما قالت هـذا الكلام تحسّـرا على ما رأته من خيبتها رجاءها و عكس تقديرها [وَ اللّهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ و هو كلام من اللّه و تعظيم من جهته تعالى لما وضـعت فإنّها لمّا تحسّـرت و تحزّنت على أن ولـدت أنثى قال اللّه: إنّها لا تعلم قـدر هذا الموهوب و اللّه العالم بالشي ء الّذي وضعت، و فيه من العجائب و عظائم الأمور فإنّه سيجعله و ولده آية للعالمين و هي جاهلة بذلك لا تعلم به.

[وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى مقول اللّه أيضا مبيّن لتعظيم ما وضـعت و رفع منزلته، و اللام فيهما للعهد أي ليس الذكر الّذي كانت تطلبه و تتخيّل فيه كمالا قصاراه أن يكون كواحد من السدنة كالأنثى الّتي وهبت لها؛ فإنّ دائرة علمها لا تكاد تحيط بما فيها من جلائل الأمور فهي أفضـل من مطلوبها، و هاتان الحملتان من مقول اللّه تعالى معترضتان بين قول امّ مريم:

«إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثى و قولها: «وَ إِنِّي سَمَّيْتُها مَرْيَمَ» و فائدتهما التسلية لنفس حنة و التعظيم لوضعها.

[وَ إِنِّي سَمَّيْتُها مَرْيَمَ من مقول حنة عطف على قولها: «إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثى أي جعلت اسـمها مريم و غرضـها من عرضها على اللّه استدعاء العصـمة لهـا فـإنّ مريم في لغتهم العابـدة و خادم الربّ و أيضا إظهار أنّها غير راجعـة في نيّتها و إن كانت أنثى و إنّها و إن كانت لا تصـلح لسدانـة البيت فلتكن من العابدات فيه، و ظاهر هذا الكلام يدلّ على أنّ عمران كان قد مات قبل وضع حنة مريم و إلّا لما تولّت الأمّ تسـمية المولود، و كانت مريم أجمل النساء و أفضلها في وقتها.

[وَ إِنِّي أُعِيذُها بِكَ وَ ذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ أي أجيرها بحفظك و أجير ذرّيّتها و أولادها من مسّ الشـيطان المطرود. و عن النبيّ صـلّى اللّه عليه و آله مـا من مولود يولـد إلّا و الشـيطان يمسّه حين يولـد فيسـتهلّ صارخا من مسّه إلّا مريم و ابنها فوقاها اللّه و ولـدها عيسـى منه بحجاب. أو استعاذت باللّه لها من إغواء الشيطان.

[سورة آل عمران (3): الآيات 37 الى 39]

فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَ أَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً وَ كَفَّلَها زَكَرِيَّا كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً قالَ يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (37) هُنالِكَ دَعا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ (38) فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَ هُوَ قائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ سَيِّداً وَ حَصُوراً وَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (39)

.

أي تقبّلها اللّه مع أنّها أنثى و رضـي بها في النـذر الّذي نذرته حنة للعبادة في بيت المقدّس و لم يقبل قبلها أنثى و قبوله إيّاها أنّه ما عرتها علّة ساعـة من ليـل أو نهـار بتقبّـل حسن مع صـغرها فإنّ المعتاد في تلك الشـريعة أن لا يجوز التحرير إلّا في حقّ غلام عاقل قادر على خـدمة المسجد فلمّا علم اللّه صدق نيّة حنة و تضرّعها تقبّل مريم مع أنوثتها و صغرها.

[وَ أَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً] مجاز عن التربية الحسـنة ما يصلح لها من جميع أحوالها و كان في ذلك الوقت أربعة آلاف محرّر في البيت لم يشتهر خبر أحد منهم اشتهار صلاحها.

قال علماء الأخلاق: من علامة من تولّاه اللّه أن لا يقصّـر في الطاعات و يشـهد التقصـير في إخلاصه دائما و النقصان في عمله و تحترز عن العجب و عن الاتّكـال بالعمل فإنّهما يهلكانه مثل أن يعمل الطاعـة فيعجب لها و يعتمـد عليها و يستصـغر من لم يفعلها و يطلب من اللّه العوض عليها فهذه حسنة أحاطت بها سيّئات و يذنب العبد الذنب فيلجأ إلى اللّه فيه و يلوم نفسه و يستصغرها و يستعظم من لم يفعل ذلك الـذنب فهذه سـيّئة أحاطت بها حسـنات؛ فينبغي للعبد أن يواظب على أصـناف الطاعات و بعد أن عملها ينساها كيلا يبطلها العجب؛ لأنّ حفظ الطاعة أشدّ من فعلها و مثلها مثل الزجاجة يسرع إليه الكسر و لا يقبل الجبر، و إنّ اللّه تعالى أودع أنوار الملكوت في أصناف الطاعات فأمّا من فاته من الطاعات صنف أو أعوزه من الآداب جنس فقد من النور بمقدار ذلك فلا تستغنوا ببعضها عن بعضها.

[وَ كَفَّلَها زَكَرِيَّا] الفعل للّه بمعنى و نسـبه اللّه إلى زكريّا و جعله كافلا لمصالحها قائما بتدبير أمورها، و في الحديث أنا و كافل اليتيم كهاتين و هو زكريّا بن اذن بن مسلم بن صدون من أولاد سليمان بن داود عليه السّلام.

روي أنّ حنة حين ولدت مريم لفّتها في خرقة و حملتها إلى المسجد و وضعتها عند الأحبار أبناء هارون عليه السّلام و هم في بيت المقدّس كالحجية في الكعبة فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة فتنافسوا فيها لأنّها كانت بنت إمامهم و صاحب قربانهم فإنّ بني ماثان كانت رؤوس بني إسـرائيل، فقال لهم زكريّا: أنا أحقّ بها عنـدي خالتها؛ لأنّ اخت حنـة كانت زوجة زكريّا فقالوا: لا حتّى نقرع عليها، فانطلقوا و كانوا سـبعة و عشرين إلى نهر الأردن فألقوا

فيه أقلامهم الّتي كانوا يكتبون بها الوحي على أنّ من ارتفع قلمه فهو الأولى بالتكفّل فألقوا ثلاث مرّات ففي كلّ مرّة يرتفع قلم زكريّا و كانت أقلامهم من حديد و رسبت أقلام الباقي فتكفّلها.

[كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْرابَ أي كلّ وقت دخل زكريّا على مريم في المحراب؛ قيل: بنى لها محرابا في المسجد أي غرفة تصعد إليها بسلّم أو المحراب أشرف المجالس و مقدّمها كأنّها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس أو كانت مساجدهم تسمّى المحاريب لأنّها مواضع محاربة العابد مع الشيطان و كان يدخل زكريّا عليها وحده فإذا خرج غلق عليها سبعة أبواب فكلّما دخل عليها [وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً] نوعا من الرزق غير معتاد إذ كان ينزل من الجنّة و كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف و فاكهة الصيف في الشتاء و لم ترضع ثديا قطّ.

[قالَ يا مَرْيَمُ أَنّى لَكِ هذا] أي من أين يجيء لك هذا الّذي لا يشبه أرزاق الدنيا و هو آت في غير حينه و الأبواب مغلّقة عليك لا سبيل للداخل عليك [قالَتْ مريم، قيل تكلّمت و هي صغيرة. و قيل: إنّ زكريّا استرضع لها و ضمّها إلى خالتها أم يحيى حتّى إذا شبّت و بلغت مبلغ النساء بنى بها محرابا في المسجد [هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّهِ أي من الجنّة و هذه تكرمة لها من اللّه و إن كان ذلك خارقا للعادة فإنّ عندنا يجوز أن يظهر الآيات الخارقة للعادة على غير الأنبياء من الأولياء و من منع ذلك من المعتزلة قالوا فيه قولين أحدهما أنّ ذلك كان تأسيسا لنبوّة عيسى، و الآخر أنّه بدعاء زكريّا لها فكانت معجزة زكريّا و على القول الأوّل إرهاصا لنبوّة عيسى عليه السّلام.

قال صاحب تفسير روح البيان: و عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله أنّه جاع في زمن قحط فأهدت له فاطمة عليها السّلام رغيفين و بضعة لحم أثرته بها فرجع بها إليها بطبق فقال: هلمّي يا بنيّة فكشف عن الطبق فإذا هو مملوء خبز و لحما فعلمت أنّها نزلت من عند اللّه فقال صلّى اللّه عليه و آله لها: أنّى لك هذا، فقالت: هو من عند اللّه إنّ اللّه يرزق من يشاء بغير حساب، فقال صلّى اللّه عليه و آله: الحمد للّه الّذي جعلك شبيهة بسيّدة بني إسرائيل، ثمّ جمع رسول اللّه عليّا و الحسنين فأكلوا و شبعوا و بقي الطعام كما هو.

ص: 193

و العيّاشـيّ عن الباقر عليه السّـلام قال: إنّ فاطمة ضمنت لعليّ عليه السّلام عمل البيت و العجن و الخبز و قمّ البيت، و ضمّن عليّ لها ما كان خلف الباب من نقل الحطب و الطعام و أمثاله فقال لها يوما: يا فاطمة هل عنـدك شـي ء؟ فقالت: لا و الّذي عظّم حقّك ما كان عندنا منذ ثلاث إلّا شـي ء نقريك به، قال: أفلا أخبرتني؟ قالت: نهاني رسول اللّه أن أسألك شـيئا، فقال: لا تسأل ابن عمّك شيئا إن جاءك بشي ء و إلّا فلا تسأليه. قال: فخرج عليّ فلقى رجلا فاستقرض منه دينارا ثمّ أقبل به فلقي في الطريق المقداد بن الأسود فقال للمقداد: ما أخرجك في هذه الساعة؟

قال: الجوع و الّذي عظّم حقّك يا أمير المؤمنين، قال عليّ عليه السّلام: فهو أخرجني و قد استقرضت دينارا و ساؤثرك به و دفعه إليه.

فأقبل عليّ فوجد رسول اللّه جالسا و فاطمة تصلّي و بينهما شي ء يغطّي، فلمّا فرغت فإذا جفنة من خبز و لحم قال عليه السّلام: يا فاطمة أنّى لـك هـذا؟ قـالت: هو من عنـد اللّه إنّ اللّه يرزق من يشـاء بغير حساب؛ فقال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله لعلي: أ لا احـدّثك بمثلك و مثلها؟ قال بلى:

قال: مثل زكريّا إذا دخل على مريم المحراب ف «وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً قالَ يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ» فأكلوا منها شهرا و هي الجفنة الّتي يأكل منها القائم عليه السّلام و هي عندنا.

و في الكافي أورد هذا الخبر بطريق آخر و المفاد هذا المفاد و أيضا من طريق العامّة بنحو ثالث كما ذكرت، و أورده الزمخشريّ و البيضاويّ و غيرهم في تفاسيرهم.

هُنالِكَ دَعا زَكَرِيَّا رَبَّهُ أي حيث كان قاعـدا زكريّا عنـد مريم و رأى حال مريم و كرامتها على اللّه و منزلتها رغب في أن يكون له من إيشاع ولد مثل ولد أختها حنة في النجابة و الكرامة و إن كانت عجوزا عاقرا فقد كانت كذلك دعا زكريّا ربّه.

قالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ أي أعطني من محسن قدرتك ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً أي ولدا صالحا مباركا تقيّا رضـيّا، و «الذريّة» النسل يقع على الواحد و الجمع و الذكر و الأنثى، و المراد هنا ولد واحد، و «الطيّب» هو الّذي تستطاب أفعاله و أخلاقه و لا يكون فيه أمر يستخبث و يعاب.

إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ أي مجيبه كما في قولهم: «سمع اللّه لمن حمده» و هذا لأنّ من لم

لم يجب فكأنّه لم يسمع، فإن قيل: إنّ زكريّا كان عالما بقدرة اللّه قبل رؤية حال مريم فهلّا سأل قبل ذلك؟ فالجواب أنّه قد يزداد الإنسان رغبة في الشي ء إذا عاينه و إن كان عالما به قبله.

فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ أي جبرئيل و حكم الواحد من الجنس قد ينسب إلى الجنس نحو:

فلان يركب الخيل، و إنّما يركب واحدا من أفرادها و لمّا كان جبرئيل من المقرّبين عبّر عنه باسم الجماعة تعظيما له وَ هُوَ قائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرابِ أي و الحال أنّ زكريّا قائم في المسجد أو في غرفة مريم يصلّي ان اللّه أي بأنّ اللّه يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى بولد اسمه يحيى لأنّه تحيى به المجالس من وعظه و القلوب بهدايته.

مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ حالكونه أوّل من يؤمن بعيسى و صدّق بأنّه كلمة اللّه و روحه، و إنّما سمّي «كلمة اللّه» لأنّه وجد بكلمة «كن» من غير أب فشابه البديعيّات الّتي هي عالم الأمر و سمّي «روحا» لأنّ عيسى أحيى به من الضلالة كما يحيى الإنسان بالروح، قال السدّيّ: لقيت امّ يحيى امّ عيسى فقالت: يا مريم أشعرت بحبلي؟ فقالت:

و أنا أيضا حبلى، قالت: فإنّي وجدت ما في بطني يسجد لما في بطنك؛ فذلك قوله تعالى:

«مصدّقا» و قتل يحيى قبل أن رفع عيسى إلى السماء.

وَ سَيِّداً وَ حَصُوراً عطف على «مصدّقا» أي رئيسا يسود قومه و يفوقهم في الشرف، كان فائقا للناس قاطبة و لم يلمّ بمعصية و لم يهمّ بخطيئة، و مبالغا في حصر النفس و حبسها عن الشهوات مع القدرة و «الحصور» الممتنع من النساء مع القدرة عن ابن عبّاس و جماعة. و قيل:

و قد تزوّج مع ذلك ليكون أغضّ لبصره. و قيل: كان عنينا عن سعيد بن المسيّب و الضحّاك، لكن هذا الكلام ليس بصحيح لأنّه عيب و لا يجوز العيب على الأنبياء و لأنّ الكلام خرج مخرج المدح.

أي يوحى إليه إذا بلغ هو مبلغه و ناشئا من الأنبياء لأنّه كان من أصلابهم و «الصلاح» صفة تنتظم الخير كلّه.

[سورة آل عمران (3): آية 40]

قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ قَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَ امْرَأَتِي عاقِرٌ قالَ كَذلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ (40)

قال زكريّا عند نداء الملائكة و بشارتهم له بالولد بالاستفهام مسرورا بالولد مخاطبا للّه لا لجبرئيل: كيف يكون لي غلام و ولد و قد أصابني الشيب و نالني الهرم؟ قال ابن عبّاس:

كان زكريّا يوم بشّر بالولد ابن عشرين و مائة سنة و كانت امرأته بنت ثمان و تسعين سنة [وَ امْرَأَتِي عاقِرٌ] أي عقيم لا تلد، و بيضة العقر آخر البيضة.

فإن قيل: لم راجع زكريّا هذه المراجعة و قد بشّره اللّه بأن يهب له ذرّيّة طيّبة بعد أن سأل ذلك؟

قيل: إنّما قال ذلك على سبيل التعرّف عن كيفيّة حصول الولد أ يعطيهما اللّه و هما على ما كانا عليه من الشيب أم يصرفهما إلى حال الشباب ثمّ يرزقهما الولد، و يحتمل أن يكون سؤاله أ يعطيه اللّه من امرأته العجوزة أم من امرأة اخرى شابّة؟ و قيل: سؤاله على وجه استعظام المقدور و مثل هذا التعجّب يحصل للإنسان عند ظهور آية عظيمة كمن يقول: كيف سمحت نفسك بإخراج ذلك الملك النفيس؟ تعجّبا من جوده. و قيل قال هذا الكلام تعجّبا كيف أجابه اللّه إلى مراده فيما دعا و كيف استحقّ ذلك؟ و من زعم أنّ ذلك من وسوسة الشيطان فقد غلط و أخطأ.

[قالَ كَذلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ] قال اللّه كذلك إشارة إلى مصدر «يفعل» في «اللّه يفعل» أي مثل ذلك الفعل يفعل ما يشاء أن يفعله من الأفاعيل الخارقة للعادة «فاللّه» مبتدأ و «يفعل» خبره، و الكاف في محلّ النصب على أنّها في الأصل نعت لمصدر محذوف أي اللّه يفعل ما يشاء أن يفعله فعلا مثل ذلك الفعل العجيب من شيخ فان و عجوز عاقر.

[سورة آل عمران (3): آية 41]

قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً وَ اذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَ سَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكارِ (41)

. قال زكريّا [رَبِّ اجْعَلْ لِي] علامة تحقّق المسؤول و وقوع الحبل، و إنّما سألها لأنّ العلوق أمر خفيّ لا يوقف عليه فأراد أن يطّلعه اللّه عليه ليتلقّى تلك النعمة منه تعالى حين حصوله بالشكر قال اللّه أو جبرئيل: [آيَتُكَ أي علامة حدوث الولد أن لا تقدر على تكليم الناس [ثَلاثَةَ أَيَّامٍ متوالية مع لياليها فإنّ ذكر الليالي أو الأيّام يقتضي دخول الاخرى فيها عرفا، و إنّما جعلت آيته ذلك لتخليص المدّة لذكر اللّه و شكره [إِلَّا رَمْزاً] أي

إشارة بيد أو رأس أو نحوهما و سمّى الرمز كلاما لأنّه يؤدّي ما يؤدّي الكلام و يفهم منه بعض ما يفهم من الكلام.

ثمّ أمره تعالى بذكره فقال: [وَ اذْكُرْ رَبَّكَ في أوقات الحبسة [كَثِيراً] أي ذكرا كثيرا [وَ سَبِّحْ بِالْعَشِيِ أي نزّهه عمّا لا ينبغي من الزوال إلى الغروب [وَ الْإِبْكارِ] من طلوع الفجر إلى الضحى و قد حبس لسانه عن امور الدنيا إلّا رمزا، فأمّا في الذكر و التسبيح فقد كان لسانه جيّدا و كان ذلك من المعجزات. و قيل: المراد من التسبيح الصلاة كما يقال: فرغت من تسبيحي أي صلاتي، و لعلّ المراد من قوله: «بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكارِ» في آخر النهار و أوّله.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): الآيات 42 الى 43]

وَ إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاكِ وَ طَهَّرَكِ وَ اصْطَفاكِ عَلى نِساءِ الْعالَمِينَ (42) يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَ اسْجُدِي وَ ارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (43)

أي اذكر وقت قول الملائكة و هو جبرئيل بدلالة قوله تعالى في سورة مريم: «فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا» (1) و إنّما جمع تعظيما لجبرئيل [يا مَرْيَمُ و كلام جبرئيل معها لم يكن وحيا لها فإنّ اللّه يقول: «وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ»* (2) و لا نبوّة للنساء بالإجماع، و كلّمها شفاها كرامة لها أو إرهاصا لنبوّة عيسى عليه السّلام و «الإرهاص» من الرهص و هو الصفّ الأسفل من الجدار، هذا في اللغة و في الاصطلاح أن يتقدّم على دعوى النبوّة أو وقوعها ما يشبه المعجزة كإظلال الغمام لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و تكلّم الحجر و قصّة الفيل.

[إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاكِ أوّلا- حيث تقبّلك من امّك بقبول حسن و لم يتقبّل غيرك أنثى و رزقك من رزق الجنّة [وَ طَهَّرَكِ من الكفر و الأفعال الذميمة و من مسيس الرجال و من الحيض و النفاس و من تهمة اليهود و تكذيبهم بإنطاق الطفل [وَ اصْطَفاكِ آخرا [عَلى نِساءِ الْعالَمِينَ بأن وهب لك عيسى عليه السّلام من غير أب و جعلكما آية للعالمين و المراد من «العالمين» أي على نساء عالمي زمانها، لأنّ فاطمة بنت محمّد صلّى اللّه عليه و آله سيّدة نساء العالمين

1- مريم: 16.

2- النحل: 43.

أجمع كما قال الباقر عليه السّلام و قال: أبو جعفر عليه السّلام: معنى الآية: اصطفاك من ذرّيّة الأنبياء و طهّرك من السفاح و اصطفاك لولادة عيسى عليه السّلام فيكون الاصطفاء على معنيين مختلفين.

[يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ أي اعبديه و أخلصي له العبادة أو المعنى أديمي الطاعة له أو أطيلي القيام في الصلاة، عن مجاهد [وَ اسْجُدِي وَ ارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ و اسجدي شكرا و اركعي أي و صلّى مع المصلّين في الجماعة، و قيل: معنى «وَ اسْجُدِي وَ ارْكَعِي» أي افعلي كما يفعل الساجدون و الراكعون و لمّا كان غاية قرب العبد السجود و اختصّ السجود بهذه الفضيلة لا جرم تقدّم بالذكر، ثمّ إنّ الواو تفيد الاشتراك لا الترتيب و السجود يستعمل بمعنى الصلاة أيضا كقوله: «وَ أَدْبارَ السُّجُودِ» (1).

و على هذا فالمعنى: يا مريم اقنتي أي قومي للعبادة و صلّي فكان المراد من «وَ اسْجُدِي» أي صلّي و اركعي مع الراكعين أي صلّي بالجماعة مع الخاشعين الخاضعين، و يمكن أن يكون أنّ السجود في ذلك الدين كان مقدّما على الركوع.

[سورة آل عمران (3): آية 44]

ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (44)

. [ذلِكَ إشارة إلى ما تقدّم أي إنّ الّذي مضى ذكره من حديث حنة و زكريّا و يحيى إنّما هو من أخبار الغيب الّتي لا يوقف عليها إلّا بمشاهدة أو قراءة كتاب أو تعلّم من عالم أو بوحي و انعدمت الثلاثة الاول فتعيّنت الرابعة [نُوحِيهِ إِلَيْكَ ننزّله عليك و «الوحي» في القرآن لمعان: للإرسال إلى الأنبياء و للإلهام قال: «وَ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى (2) و لإلقاء المعنى المراد قال تعالى: «بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها» (3) و للإشارة «فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا» (4).

[وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ عند الّذي اختلفوا في تربية مريم و هو تقرير لكونه وحيا على طريق التهكّم بمنكري نبوّته صلّى اللّه عليه و آله أي إنّهم لا يشكّون أنّك لم تقرأ كتابا و ما صاحبت من

1- ق: 40.

2- القصص: 7.

3- مريم: 10.

4- الزلزال: 5.

علم تلك الأمور الواقعة حتّى تسمع منهم؛ فلم يبق طريق إلّا المشاهدة و هي منتفية بالضرورة فلو لم يكن هذا الخبر و العلم بطريق الوحي و أنت ما كنت مشاهدا هذا الأمر فمن أين أخبرتهم لو لا الوحي؟ و أهل مكّة ما كانوا أهل كتاب و ما سمعوا بهذه القصّة أبدا.

[إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاٰمَهُمْ الّتي كانوا يكتبون بها التوراة في الماء على ما تقدّم ذكره، و قيل: «أقلامهم» أقداحهم للاقتراع جعلوا عليها علامات يعرفون بها من يكفل مريم على جهة القرعة حتّى وفّق خير الكفلاء زكريّا، و في الكلام حذف أي ليعلموا أيّهم يكفل مريم.

[وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ و يتنافسون في هذا الأمر بحيث تخاصموا في التكفّل بعضهم بعضا، و في الآية دلالة على أنّ للقرعة مدخلا في تمييز الحقوق و قد قال الصادق عليه السّلام:

ما تقارع قوم ففوّضوا أمورهم إلى اللّه إلّا خرج سهم المحقّ. و قال عليه السّلام: أيّ قضيّة أعدل من القرعة إذا فوّض الأمر إلى اللّه تعالى؛ قال اللّه: «فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ» (1) قال الباقر عليه السّلام:

أوّل من سوهم عليه مريم ابنة عمران ثمّ استهموا في يونس ثمّ في قصّة عبد المطّلب كان أمر القرعة في الإبل و عبد اللّه، و هي مشهورة.

[سورة آل عمران (3): الآيات 45 الى 46]

إِذْ قالَتِ الْمَلاٰئِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللّٰهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (45) وَ يُكَلِّمُ النّٰاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلاً وَ مِنَ الصّٰالِحِينَ (46)

[إِذْ قالَتِ بدل من «و إذ قالت» في الآية السابقة و منصوب بناصبه و المراد [الْمَلاٰئِكَةُ] جبرئيل كما ذكرنا [يا مَرْيَمُ إِنَّ اللّٰهَ يُبَشِّرُكِ أي يفرّحك [بِكَلِمَةٍ] كائنة [مِنْهُ عزّ و جلّ و اطلق على عيسى لفظ «الكلمة» بطريق إطلاق السبب على المسبّب لأنّ الكلمة سبب حدوثه و هي تعبّر «بكن» و حدوث كلّ مخلوق و إن كان بسبب هذه الكلمة لكنّ السبب المتعارف للحدوث لمّا كان مفقودا في حقّ عيسى عليه السّلام كان إسناد حدوثه إلى الكلمة أنسب و أكمل فجعل عليه السّلام بهذه الاعتبار كأنّه نفس الكلمة.

1- الصافات: 141.

[اسْمُهُ أي اسم المسمّى بالكلمة [الْمَسِيحُ و الكلمة لمّا كانت عبارة عن مذكّر ذكّر الضمير و «الْمَسِيحُ» أصله مشيحا يعني بالعبرانيّة المبارك [عِيسَى بدل من المسيح معرّب من ايشوع [ابْنُ مَرْيَمَ و المسيح فعيل بمعنى مفعول أي مسح و طهر من الأقذار، و المسيح الّذي أحد شقّي وجهه ممسوح لا عين له و لا حاجب له و لذا سمّي الدجّال مسيحا. و قيل: المسيح بفتح الميم و التخفيف عيسى و المسيّح بكسر الميم و التشديد على وزن شرّير الدجّال، عن إبراهيم النخعيّ.

[وَجِيهاً] على الحاليّة، ذو الجاه و الشرف [فِي الدُّنْيا] بالتقدّم على الناس و النبوّة [وَ الْآخِرَةِ] بعلوّ الدرجة في الجنّة و الشفاعة [وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ عند اللّه بارتفاعه إلى السماء و مصاحبة الملائكة.

[وَ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا وَ مِنَ الصَّالِحِينَ يكلّمهم طفلا و كهلا من غير تفاوت حال الطفليّة و الكهليّة، يقال: اكتهل النبت إذا طال و قوي و هو في الإنسان ما بين الشيخ و الشابّ. و قيل: الكهولة إذا بلغ الإنسان حدّ أربع و ثلاثين سنة.

و قيل: سمّي بالمسيح لأنّه مسح بدهن زيت بورك فيه و كانت الأنبياء يتمسّحون به.

و قيل: لأنّه مسحه جبرئيل بجناحه وقت ولادته ليكون عوذة من الشيطان. و قيل: لأنّه كان يمسح رأس اليتامى للّه أو لأنّه عليه السّلام كان يمسح عين الأعمى فيبصر و لا يمسح ذا عاهة بيده إلّا برىء.

[سورة آل عمران (3): آية 47]

قالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قالَ كَذلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (47)

. [قالَتْ مريم متضرّعة إلى اللّه: [رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ] من أين يكون لي ولد على وجه الاستبعاد العاديّ و ذلك من اقتضاء البشريّة إذ لم يجز عادة بأن يولد ولد بلا أب [وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ] آدميّ، و سمّي بشر لظهوره، و هو كناية عن الجماع.

[قالَ اللّه أو جبرئيل: [كَذلِكِ إشارة إلى مصدر يخلق في قوله: [اللَّهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ] أي اللّه يخلق ما يشاء أن يخلقه مثل ذلك الخلق العجيب [إِذا قَضى أَمْراً] و أراد شيئا و أصل القضاء الإحكام أطلق على الإرادة الإلهيّة القطعيّة المتعلّقة لإيجاد الشي ء [فَإِنَّما

يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ من غير ريث، و هو تعبير لكمال قدرته و بيان لسرعة حصوله؛ قال ابن عبّاس: كانت مريم في غرفة قد ضربت دونها سترا إذا هي برجل عليه ثياب بيض و هو جبرئيل «فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا» تامّ الخلقة فلمّا رأته «قالت أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ» ثمّ نفخ في جيب درعها حتّى وصلت النفخة إلى الرحم فاشتملت. قال وهب: و كان معها ذو قرابة يقال له يوسف النجّار، و كان يوسف يستعظم هذا الأمر فإذا أراد أن يتّهمها ذكر صلاحها و إذا أراد أن يبرأها رأى ما ظهر عليها فكان أوّل ما كلّمها أن قال لها: قد دخل في صدري شي ء أردت كتمانه فغلبني ذلك فرأيت الكلام أشفى لصدري قالت: قل، قال: فحدّثيني هل ينبت الزرع من غير بذر؟ قالت نعم، قال: فهل ينبت شجر من غير أصل؟ قالت: نعم، قال: فهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت: نعم، ألم تعلم أنّ اللّه أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر و البذر يومئذ إنّما صار من الزرع الّذي أنبت اللّه من غير بذر، ألم تعلم أنّ اللّه خلق آدم و حوّاء من غير أنثى و لا ذكر؟ فلمّا قالت له ذلك وقع في نفسه أنّ الّذي بها شي ء أكرمها اللّه به روي أنّ عيسى عليه السّلام حفظ التوراة و هو في بطن امّه و كانت مريم تسمع عيسى و هو يدرس في بطنها؛ ثمّ لمّا شرّف عالم الشهود أعطاه اللّه الزهادة في الدنيا فإنّه كان يلبس الشعر و يتوسّد الحجر و يستنير القمر و كان له قدح يشرب فيه الماء و يتوضّأ فيه فرأى رجلا يشرب بيده فقال لنفسه: يا عيسى هذا أزهد منك، فرمى القدح و استظلّ يوما في ظلّ خيمة عجوز فكان قد لحقه حرّ شديد فخرجت العجوز فطردته فقام و هو يضحك و قال: يا أمة اللّه ما أنت أقمتني و إنّما أقامني الّذي لم يجعل لي نعيما في الدنيا، و لمّا رفع إلى السماء وجد عنده إبرة كان يرقع بها فاقتضت الحكمة الإلهيّة نزوله في السماء الرابعة؛ فالسالك لا بدّ و أن ينقطع عن كلّ ما سوى اللّه و يتجرّد عن العلائق و العوائق حتّى يسير إلى الملأ الأعلى و يطير إلى مقام قاب قوسين أو أدنى. و روي أنّ موسى عليه السّلام ناجى ربّه و قال: اللّهمّ أرني وليّا من أوليائك فأوحى اللّه إليه أن اصعد الجبل الفلانيّ و ادخل في زاوية كذا في كهف كذا حتّى ترى وليّي؛ ففعل فرأى فيه رجلا ميّتا توسّد بلبنة و فوق عورته خرقة و ليس فيه شي ء غيره؛ فقال: اللّهم إنّي أسألك أن تريني وليّك فأريتني هذا، فقال سبحانه: هذا هو وليّي فو عزّتي

و جلالي لا ادخله الجنّة حتّى أحاسبه باللبنة و الخرقة من أين وجدها. نسأل اللّه الإعراض عن حطام الدنيا.

[سورة آل عمران (3): الآيات 48 الى 51]

وَ يُعَلِّمُهُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ (48) وَ رَسُولاً إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ وَ أُحْيِ الْمَوْتى بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَ ما تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (49) وَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَ لِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (50) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (51)

[وَ يُعَلِّمُهُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ] أي يعلّم اللّه عيسى الكتاب أي بعض الكتب الّتي أنزلها على أنبيائه سوى التوراة و الإنجيل مثل الصحف و الزبور. و قيل: المراد من الكتاب في الآية الكتابة و الخطّ. قيل: أعطى اللّه عيسى تسعة أجزاء من الخطّ و سائر الناس جزءا، و الأوّل أليق في المعنى، و المراد من «الْحِكْمَةَ» علم الحلال و الحرام كما روي عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله قال:

أوتيت القرآن و مثله. أو المراد من «الْحِكْمَةَ» اصول التوراة و الإنجيل، و أفرد الإنجيل و التوراة بالذكر مع دخولهما في الحكمة تنبيها عن جلالة موقعهما كقوله: «وَ مَلائِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ وَ مِيكالَ» (1) و الحكمة العلوم الشرعيّة و العقليّة الموافقة للشرعيّة من تهذيب الأخلاق و ما يضرّ و ينفع للإنسان من الكمال و النفع الباقي.

[وَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ رَسُولًا] أي و يجعله رسولا [إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ و هذا الكلام سبق تطييبا لقلب مريم و ردّ القول اليهود حيث قالوا: إنّ عيسى كان مبعوثا إلى قول مخصوصين.

و كان أوّل أنبياء بني إسرائيل يوسف و آخرهم عيسى عليهما السّلام و انقطع هنا قصّة مريم و ولادتها و يأتي تمام قصّتها في سورة مريم، و من قول: «و رسولا» ابتدأ بقصّة عيسى.

[أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ أي قال لهم عيسى و كلّمهم: باني قد جئتكم [بِآيَةٍ] لمّا بعث رسولا أي جئتكم بحجّة [مِنْ رَبِّكُمْ دالّة على صحّة نبوّتي و هي ما ذكر بعده من خلق

1- البقرة: 98.

الطير و غيره [أَنِّي أَخْلُقُ أي اقدّر و أشكّل لأنّه قد ثبت أنّ العبد لا يكون خالقا بمعنى التكوين و الإبداع فوجب أن يكون بمعنى التسوية و التقرير [لَكُمْ أي لأجلكم و لجهة حصول إيمانكم و رفع تكذيبكم إيّاي [مِنَ الطِّينِ شيئا [كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ] و مثل صورته [فَأَنْفُخُ فِيهِ أي في الشي ء المماثل للطير أنفخ [فَيَكُونُ طَيْراً] حيّا طيّارا كسائر الطيور [بِإِذْنِ اللَّهِ أي بأمره و الإحياء منه تعالى لا منّي.

روي أنّ عيسى لمّا ادّعى النبوّة و أظهر المعجزات طالبوه يخلق خفّاشا فأخذ طينا و صوّره ثمّ نفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء و الأرض. قال وهب بن منبّه: كان يطير مادام الناس ينظرون إليه فإذا غاب عن أعينهم سقط ميّتا ليتميّز فعل الخلق من فعل اللّه. و إنّما طلبوا خلق الخفّاش لأنّه أعجب من سائر الخلق و من عجائبه أنّه لحم و دم يطير بغير ريش و يلد كما يلد الحيوان و لا يبيض كما يبيض سائر الحيوان من الطيور، و يكون له الضرع و يخرج منه اللبن و لا يبصر في ضوء النهار و لا في ظلمة الليل و إنّما يرى في ساعتين ساعة بعد غروب الشمس و ساعة بعد طلوع الفجر قبل أن يسفرّ جدّا، و يضحك كما يضحك الإنسان و له أسنان، و يحيض كما تحيض المرأة. و إنّ عيسى لمّا تولّد من نفخ جبرئيل في مريم و جبرئيل روح محض و روحانيّ فكانت بالمناسبة نفخة عيسى عليه السّلام فجعله اللّه سببا للحياة و الروح.

[وَ أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ أي أشفي الّذي ولد أعمى، قال الزمخشريّ: لم يوجد في هذه الأمّة أكمه غير قتادة بن دعامة السدوسيّ صاحب التفسير «و الأبرص» الّذي به برص و هو بياض في الجلد لم تكن العرب تنفر من شي ء نفرتها منه تتطيّر منه، و إذا امتنحكم فلا برء له و لا يزول بالعلاج.

و إنّما خصّ هما بالذكر للشفاء لأنّهما ممّا أعيى الأطبّاء في تداويهما و كانوا في غاية الحذاقة في زمن عيسى و سألوا الأطبّاء عنهما فقال جالينوس و أصحابه: إذا ولد أعمى لا يبرأ بالعلاج و كذا إذا كان البرص بحال لو غرزت الإبرة فيه لا يخرج منه الدم لا يقبل العلاج. فرجعوا إلى عيسى و جاءوا بالأكمه و الأبرص فمسح يده بعد الدعاء عليهما فأبصر

الأعمى و برى ء الأبرص فآمن به البعض و جحد البعض و قالوا: سحر هذا.

روي أنّه أبرأ في يوم واحد خمسين ألفا من المرضى من أطاق منهم أتاه و من لم يطق أتاه عيسى عليه السّلام و كان يداويهم على شرط الإيمان.

ثمّ قال عيسى: [وَ أُحْيِ الْمَوْتى بِإِذْنِ اللّهِ فسألوا جالينوس عنه فقال: الميّت لا يحيى بالعلاج فإن كان هو يحيي فهو نبيّ و ليس بطبيب؛ فطلبوا أن يحيي الموتى فأحيى أربعة أنفس أحيى العاذر و كان صديقا له فأرسل أخته إلى عيسى أنّ أخاك العاذر يموت فأتاه و كان بينه و بينه مسيرة ثلاثة أيّام فأتاه هو و أصحابه فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيّام فقال انطلقي بنا إلى قبره؛ فانطلقت معهم إلى قبره و هو في صخرة مطبقة فقال عيسى: اللّهم ربّ السماوات السبع و الأرضين السبع إنّك أرسلتني إلى بني إسرائيل أدعوهم إلى دينك و أخبرهم أنّي احيي الموتى فأحي العاذر فقام العاذر فخرج من قبره و بقي و ولد له.

و أحيى ابن عجوز مرّ به ميّتا على عيسى على سرير يحمل فدعا اللّه عيسى فجلس على سريره و نزل عن أعناق الرجال و لبس ثيابه و حمل السرير على عنقه و رجع إلى أهله و بقي و ولد له.

و أحيى ابنة العاشر الّذي يأخذ العشور قيل له: أحيها و قد ماتت أمس، فدعا اللّه فعاشت و بقيت و ولد لها؛ فقالوا: إنّه يحيي من كان قريب العهد من الموت فلعلّهم لم يموتوا بل أصابتهم سكتة؛ فأحي لنا سام بن نوح فقال عيسى: دلّوني على قبره فخرج و القوم معه حتّى انتهى إلى قبره فدعا اللّه بالاسم الأعظم فخرج من قبره و قد شاب رأسه فقال عيسى: كيف شاب رأسك و لم يكن في زمانك شيب؟ قال: يا روح اللّه لمّا دعوتني سمعت صوتا يقول: أجب روح اللّه فظننت أنّ القيامة قد قامت فمن هول ذلك شاب رأسي، فسأله عن النزع فقال: يا روح اللّه إنّ مرارته لم تذهب عن حنجرتي و قد كان من وقت موته أكثر من أربعة آلاف سنة، فقال للقوم: صدّقوه فإنّه نبيّ فآمن به بعضهم و كذّبه آخرون، ثمّ قال له: مت، قال: بشرط أن يعيذني اللّه من سكرات الموت، فدعا اللّه ففعل.

ثمّ طلبوا آية اخرى دالّة على صدقه فقال: [وَ أُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ من أنواع المآكل [وَ ما تَدَّخِرُونَ و تخبؤون للغد [فِي بُيُوتِكُمْ فكان يخبر الرجل بما أكل قبل و بما

يأكل بعد و يخبر الصبيان و هو في المكتب بما يصنع أهلهم و بما يأكلون و يخبؤون لهم و كان الصبيّ ينطلق إلى أهله و يبكي عليهم حتّى يعطوه ما خبؤوا له ثمّ قالوا: لصبيانهم لا تلعبوا مع هذا الساحر، و جمعوهم في بيت فجاء عيسى يطلبهم، فقالوا: ليسوا في هذا البيت، فقال:

فمن في هذا البيت، قالوا: خنازير، فقال عليه السّلام: كذلك يكونون، فإذا هم خنازير.

[إِنَّ فِي ذٰلِكَ أي ما ذكر من الخوارق [لَآيَةً] عظيمة [لَكُمْ دالّة على صحّة نبوّتي [إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ انتفعتم بها.

[وَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ] أي قد جئتكم بآية و مصدّقا لما تقدّمني و موافقا لمن كان قبلي [وَ] جئتكم [لِأُحِلَّ لَكُمْ و أرخص لكم [بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ في شريعة موسى عليه السّلام من قبيل لحوم السمك و لحوم الإبل و الشحوم و الشروب.

[وَ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ بشاهد على صحّة رسالتي و إنّما أعاد قوله: «قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ» لأنّ إخراج الإنسان عن العادة المألوفة عسير فأعاد عليه السّلام كلامه في ذكر المعجزات ليصير كلامه ناجعا في القلوب و مؤثّرا في قلوبهم.

فإن قيل: إنّ بين كلامه «وَ مُصَدِّقاً» و بين كلامه «وَ لِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي» تناقضا؛ فالجواب أنّ التصديق في الأصول و التغيّر في بعض الفروع، لكن قال وهب بن منبّه: إنّ عيسى كان على شريعة موسى و كان يقرّر البيت و يستقبل بيت المقدس و إنّ الأحبار كانوا قد وضعوا من عند أنفسهم شرائع باطلة و نسبوها إلى موسى فجاء عيسى فأبطلها و أعاد الأمر إلى ما كان، أو أنّ اللّه كان قد حرّم بعض الأشياء على اليهود عقوبة لهم على ما صدر عنهم كما قال: «فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ» (1) ثمّ بقي ذلك التحريم مستمرّا على اليهود فجاء عيسى و رفع بأمر اللّه تلك الشدّة عنهم، و لو كان رفع كثيرا من أحكام الفروع فرضا مثل رفع السبت و وضع الأحد مقامه لا يكون ذلك قادحا في كونه مصدّقا فإنّ الناسخ و المنسوخ يقع في الأحكام و الفروع دون الأصول.

[فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَ أَطِيعُونِ فيما آمركم به و أنهاكم عنه فإنّه من أمر اللّه.

[إِنَّ اللّٰهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ فلا تعصوه بالشرك و المخالفة

1- النساء: 158.

«هـذا» أي الإيمان باللّه وحـده و ملازمة التقوى «صـراط» سويّ يؤدي صاحبه إلى الجنّة و هو الحقّ الصـريح الّذي أطبق عليه الرسل كافّة فقوله تعالى: «رَبِّي وَ رَبُّكُمْ» إشارة إلى اسـتكمال القوّة النظريّـة في مقام المعرفـة بالتوحيد و قوله: «فاعبدوه» إشارة إلى لزوم اسـتكمال القوّة العمليّة فإنّه يلازم الطاعة الّتي هي الإتيان بالأوامر و الانتهاء عن المناهي فالعلم و العمل يوجبان الاستقامة.

و سـئل بعض المحقّقين كيف السبيل إلى الانقطاع إلى اللّه و الاسـتقامة؟ فقال: بتوبـة تزيل الأحمال و خوف يرفع التسويف و رجاء يبعث على العمل و ذكر اللّه تعالى على اختلاف الأوقات و إخافـة النفس بقربها من الأجل و بعدها من الأمل، و لا يحصل هذه الأمور إلّا بقلب مفرد فيه توحيد مجرّد فإذا اجتهد و نحل و ذبل و اسـتمرّ اسـتقام كما قال سـبحانه «إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا»* (1) و الاستقامة لا يتحمّلها إلّا الأكابر لأنّها الخروج عن المعهودات و مفارقة الرسوم و العادات؛ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: لا تكوننّ أحدكم كالعبد السوء إن خاف عمل و لا كالأجير السوء ان لم يعط لم يعمل.

[سورة آل عمران (3): الآيات 52 الى 54]

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسـى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قـالَ مَنْ أَنْصـارِي إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ اشْـهَدْ بِأَنَّا مُسْـلِمُونَ (52) رَبَّنا آمَنَّا بِما أَنْزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ (53) وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ (54)

. الفاء فصـيحة تفصـح عن تحقّق أمر عيسـى من الولادة إلى بعثه و إرشاده إلى الخلق [أَحَسَ و علم من بني إسـرائيل [الْكُفْرَ] و أرادوا قتله و أنّهم لا يزدادون على رؤية الآيات إلّا الإصـرار على الجحود [قالَ لمخلصـي أصـحابه مستنصـرا على الكفّار: [مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ أي من يعينني على إقامة الدين؟

[قالَ الْحَوارِيُّونَ جمع حواري أي صفوته و خاصّته و هم اثنا عشر رجلا، و قيل:

في وجه تسـميتهم أقوالا: أحدها لنقاء ثيابهم عن سـعيد بن جبير. و قيل: كانوا قصّارين ينقّون الثياب بالاجرة و يبيضونها في الغسل. و قيل: المعنى الأوّل الّذي فسّرنا بالصفوة و هو الأنسب [نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ أي أنصار دينه و رسوله.

[آمَنَّا بِاللَّهِ استيناف جار مجرى العلّة لما قبله فإنّ الإيمان باللّه تعالى موجب لنصرة

1- فصلت: 30.

دينه و الذبّ عن أوليائه و المحاربة مع أعدائه [وَ اشْهَدْ بِأَنّا مُسْلِمُونَ منقادون لنصرتك، طلبوا من عيسى الشهادة بذلك يوم القيامة يوم تشهد الرسل لأممهم.

[رَبَّنا آمَنّا بِما أَنْزَلْتَ من الإنجيل على عيسى و هو كلام تضرّع إلى اللّه و عرض إيمانهم عليه تعالى بعد عرضه على الرسول [وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ أي تابعنا عيسى رسولك في كلّ ما يأتي و يذر [فَاكْتُبْنا مَعَ الشّاهِدِينَ الّذين يشهدون بوحدانيّك أو المراد مع امّة محمّد صلّى اللّه عليه و آله فإنّهم شهداء على الناس قاطبة كما قال: «جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النّاسِ» (1).

[وَ مَكَرُوا] أي الّذين علم عيسى كفرهم من اليهود بأن وكّلوا عليه من يقتله غيلة [وَ مَكَرَ اللّهُ بأن رفع عيسى و ألقى شبهه على من قصد اغتيال عيسى حتّى قتل و صلب و هم يزعمون أنّهم صلبوا عيسى عليه السّلام و رفع عيسى إلى السماء. و إضافة «المكر» إلى اللّه مع أنّه عدل و حقّ على مزاوجة الكلام مثل قوله: «فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ» (2) و الثاني ليس باعتداء و إنّما هو جزاء و المجانسة أحد وجوه البلاغة كما أنّ المقابلة أحد وجوهها نحو قوله: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ* إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ* وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ* تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ» (3).

قال ابن عبّاس: لمّا أراد كفّار بني إسرائيل قتل عيسى عليه السّلام دخل بأمر اللّه بيتا فيه روزنة فرفعه جبرئيل من الكوّة إلى السماء فقال الملك لرجل خبيث: ادخل عليه فاقتله فدخل الرجل الخبيث الخوخة ليقتله فألقى اللّه عليه شبه عيسى فخرج الرجل إلى أصحابه يخبرهم أنّ عيسى ليس في البيت فأخذوه و صلبوه و ظنّوا أنّه عيسى، هذا قول ابن عبّاس.

و قال وهب بن منبّه: إنّهم أسروا عيسى عليه السّلام و نصبوا له خشبة ليصلبوه فأظلمت الأرض و أرسل اللّه الملائكة فحالوا بينه و بينهم فأخذوا رجلا يقال له «يهوذا» و هو الّذي دلّهم على المسيح و ذلك أنّ عيسى عليه السّلام جمع الحواريّين تلك الليلة و أوصاهم ثمّ قال:

ليكفرنّ بي أحدكم قبل أن يصيح الديك فيبيعني بدراهم يسيرة، فخرجوا و تفرّقوا، و كانت

1- البقرة: 143.

2- البقرة: 194.

3- القيامة 22- 25.

اليهود يطلبه فأتى أحد الحواريّين إليهم فقال: ما تجعلون لي فأدلّكم عليه؟ فجعلوا له ثلاثين درهما فأخذها و دلّهم عليه فألقى اللّه عليه شبه عيسى لمّا دخل البيت و رفع عيسى فأخذ فقال:

أنا الّذي دللتكم عليه فلم يلتفتوا و صلبوه و هم يظنّون أنّه عيسى.

و لمّا صلبوا شبه عيسى قالوا: إنّ وجهه يشبه وجه عيسى و بدنه يشبه بدن صاحبنا فإن كان هذا عيسى فأين صاحبنا و إن كان صاحبنا فأين عيسى فوقع بينهم مقال عظيم.

و لمّا صلب المصلوب جاءت مريم و معها امرأة أبرأها اللّه من الجنون بدعاء عيسى و جعلتا تبكيان على المصلوب فأنزل اللّه عيسى فجاءهما و قال: على من تبكيان؟ قالتا عليك فقال:

إنّ اللّه رفعنى و إنّ هذا شي ء شبّه لهم.

فلمّا كان بعد سبعة أيّام أمر اللّه عيسى أن اهبط إلى الأرض على موضع في جبل مخصوص فإنّه لم يبك عليك أحد بكاءه و لم يحزن أحد حزنه. و ذلك بعد أن ألبسه اللّه النور و قطع عنه لذّة المطعم و المشرب و كساه اللّه من ريش الجنّة و كان يطير مع الملائكة و كان إنسيّا ملكيّا أرضيّا سماويّا و أمره أن يستجمع الحواريّين و بعثهم في الأرض دعاة إلى دين اللّه و أهبطه اللّه إلى الجبل فاشتعل الجبل نورا حين هبط عيسى عليه و جمعت له الحواريّون و وصّاهم و جعلهم متفرّقين في الأرض.

ثمّ رفعه اللّه إليه في تلك الليلة و كان هبوطه على الجبل في الليل و هي الليلة الّتي تدخن فيها النصارى فلمّا أصبح الحواريّون حدث كلّ واحد منهم بلغة من أرسله عيسى إليهم.

و كان الحواريّون قبل أن يصلب عيسى ملازمون في صحبه عيسى إذا جاعوا قالوا:

يا روح اللّه جعنا فيضرب بيده عليه السّلام إلى الأرض فيخرج لكلّ واحد رغيفان و إذا عطشوا قالوا: يا روح اللّه عطشنا فيضرب بيده إلى الأرض فيخرج الماء فيشربون فقالوا: من أفضل منّا إذا شئنا سقيتنا و قد آمنّا بربّنا فقال عيسى عليه السّلام: أفضل منكم من يعمل بيده و يأكل من كسبه فبعد ذلك صاروا يغسلون الثياب بالكراء.

و قيل: إنّهم كانوا ملوكا و تبعة الملوك؛ و ذلك أنّ واحدا من الملوك صنع طعاما و جمع الناس عليه و كان عيسى من جملتهم على قصعة منها فكانت القصعة لا تنقص فذكروا هذه القصّة

ص: 208

للملـك، فقـال: أ تعرفونه؟ قالوا: نعم، فـذهبوا بعيسـى إليه فقال له الملك: من أنت؟ قال أنا عيسـى ابن مريـم، قال الملك: فإنّي أترك ملكي و أتبعك فتبعه ذلك الملك مع أقاربه و خواصّه فأولئك هم الحواريّون.

و ذكر محمّد بن إسـحاق: أنّ اليهود بعد أن صـلبوا عيسى بزعمهم عذّبوا الحواريّين فشمتوهم و عذّبوهم، و لقوا الجهد من اليهود فبلغ ذلك ملـك الروم و كـان ملك اليهود يومئـذ من رعيّته فقيل له: إنّ رجلا من بني إسـرائيل كان يخبرهـم أنّه رسول اللّه و أراهـم إحياء الموتى و إبراء الأـكمه و الأبرص فقتل، فقال: لو علمت لحلت بينه و بينهم، ثمّ بعث إلى الحواريّين فانتزعهم من أيـديهم و سألهم عن أمر عيسـى فأخبروه فتابعهم على دينهم و أنزل المصـلوب و أخذ الخشبة فأكرمها و صانها ثمّ غزا بني إسرائيل و قتل منهم خلقا كثيرا، و منه ظهر أصل النصرانيّة في الروم و كـان اسم هـذا الملـك طبـاريس و هو صـار نصـرانيّا إلّا أنّه ما أظهر ذلك ثمّ أنّه جاء بعـده ملك آخر يقال له: ملطيس و غزا بيت المقدس بعد رفع عيسـى بنحو من أربعين سنة فقتل و سبى و لـم يترك في مدينة بيت المقدس حجرا على حجر فخرج عند ذلك قريظة و بني النضير إلى الحجاز.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): الآيات 55 الى 58]

إِذْ قـالَ اللَّهُ يـا عِيسـى إِنِّي مُتَوَفِّيـكَ وَ رافِعُـكَ إِلَيَّ وَ مُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ جاعِـلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى يَوْمِ الْقِيامَـةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (55) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (56) وَ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (57) ذلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآياتِ وَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ (58)

. أي اذكر وقت قول اللّه: [يـا عِيسـى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ أي متوفّى أجلك، و عاصـمك من أن يقتلك الكفّار و مؤخّرك إلى أجل كتبته لك و مميتك حتف أنفك لا قتلا بأيـديهم [وَ رافِعُكَ الآن [إِلَيَّ أي إلى محلّ كرامتي و مقرّ ملائكتي و هذا البيان للتعظيم و مثله قوله: «إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ» (1) و إنّمـا ذهـب إبراهيم من العراق إلى الشام كما يقال: الحاجّ زوّار اللّه و المجاورون جيران اللّه، و كلّ ذلك للتفخيم فإنّه يمتنع أن يكون تعالى في المكان.

[وَ مُطَهِّرُكَ أي مبعدك [مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا] من سوء جوارهم و دنس معاشرتهم و

1- الصافات: 99.

مصاحبة أرجاسهم، و قيل في معنى التوفّي في الآية: توفّي النوم، و رافعك إليّ في النوم لا توفّي الموت عن الربيع قال: رفعه نائما و يدلّ عليه قوله: «وَ هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ» (1) أي ينيمكم و أنّ النوم أخو الموت فأطلق عليه. قال ابن عبّاس: أماته اللّه ثلاث ساعات وفات نوم. و أمّا النحويّون يقولون: هو على التقديم و التأخير أي إنّي رافعك و متوفّيك؛ قالوا: الواو لا توجب الترتيب بدلالة قوله: «فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ»* (2) و النذر قبل العذاب و كذلك «وَ ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا» (3) عن الضحّاك، و يدلّ عليه ما روي عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله قال: إنّ عيسى لم يمت و إنّه راجع إليكم قبل يوم القيامة. و قد صحّ عنه أنّه صلّى اللّه عليه و آله قال: كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم و إمامكم منكم؟ رواه البخاريّ و مسلم في الصحيح؛ فعلى هذا يكون معنى الآية: إنّي رافعك و قابضك بالموت بعد نزولك من السماء.

قال الحقّيّ في تفسيره: قيل ينزل عيسى من السماء على عهد الدجّال حكما عدلا يكسر الصليب و يقتل الخنازير و يضع الجزية فيقبض المال حتّى لا يقبله أحد و يهلك في زمانه الملل كلّها إلّا الإسلام و يقتل الدجّال و يتزوّج بعد قتله امرأة من العرب و تلد منه، يموت هو بعد ما يعيش أربعين سنة من نزوله فيصلّي عليه المسلمون لأنّه سأل ربّه أن يجعله من هذه الأمّة فاستجاب اللّه دعاءه، انتهى كلام الحقّيّ.

أقول: إنّ ما قال الحقّيّ حقّ إلّا أنّه عليه السّلام يفعل هذه الأمور و يصلّي بالمسلمين خلف المهديّ المنتظر عليه السّلام و يكون من أنصار المهديّ و أنّ المهديّ ذلك اليوم هو القائم بالحقّ و عيسى عليه السّلام من أتباعه.

[وَ جاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا] و هم المسلمون لأنّهم متّبعوه في أصل الإسلام و إن اختلفت الشرائع دون الّذين كذّبوا و كذبوا عليه من اليهود و النصارى و الّذين مكروا في قتله و من يسير بسيرتهم و ذلك التفوّق بالحقيقة و الحجّة عند اللّه.

[ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ أي رجوعكم بالبعث، و الضمير في «اتَّبَعُوكَ» لعيسى [فَأَحْكُمُ

ص: 210

1- الانعام: 60.

2- القمر: 16.

3- الإسراء: 15.

بَيْنَكُمْ يوم رجوعكم و بعثكم [فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ من أمر عيسى عليه السّلام.

[فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيا] بالسبي و السيف و أخذ الجزية و المصائب من العقوبات و المراد بهم اليهود و من سلك مسلكهم كما وقع عليهم هذه الأمور و أنّهم أذلّ الملل إلى يومنا بل إلى يوم القيامة، و المراد من الّذين اتّبعوه النصارى الّذين آمنوا بعيسى عليه السّلام حقيقة بنبوّته و قبلوا دينه.

و قيل: المعنيّ به امّة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و إنّما سمّاهم تبعا مع أنّ لهم شريعة على حدة لأنّه وجد فيهم التبعيّة صورة و معنى أمّا صورة فإنّه يقال: فلان يتبع إذا جاء بعده، و أمّا معنى فلأن نبيّنا صلّى اللّه عليه و آله كان مصدّقا بعيسى و بكتابه و ليس بين الأنبياء اختلاف في أبواب التوحيد أبدا و من يعقّب الأوّل و يصدّقه فهو تابعه فامّة محمّد صلّى اللّه عليه و آله يكونون ظاهرين إلى يوم القيامة و من دعا عيسى عليه السّلام إلها لا يكون تابعا لعيسى عليه السّلام أبدا.

[وَ الْآخِرَةِ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ يخلصونهم من عذاب اللّه، و صيغة الجمع لمقابلة ضمير الجمع أي ليس لواحد منهم ناصر واحد.

[وَ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كما هو عادة المؤمنين [فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ كاملا- [وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ و لا يرضى عنهم [ذلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ إشارة إلى ما ذكر من أحوال عيسى نقرؤه عليك يا محمّد و أسند تلاوته إلى ذاته تعالى مع أنّ التالي هو الملك المأمور بها على طريق إسناد الفعل إلى السبب الآمر به و فيه تشريف عظيم للملك [مِنَ الْآياتِ أي من العلامات الدالّة على نبوّتك لأنّها أخبار لا يعلمها إلّا قارئ الكتاب أو من يوحى إليه و هي شواهد قدرتنا [وَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ أي القرآن المحكم الممنوع من تطرّق الخلل و العيب، و المشتمل على الحكم و جميع الحكمة الذكر الحكيم.

[سورة آل عمران (3): الآيات 59 الى 61]

إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (59) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (60) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَكُمْ وَ نِساءَنا وَ نِساءَكُمْ وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكاذِبِينَ (61)

«المثل» ذكر أمر سائر يدلّ على أنّ سبيل الثاني سبيل الأوّل. نزلت الآيات في

و قد نجران: العاقب و السيّد و جماعة من النصارى معهما فلمّا وردوا إلى محضر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله قالوا له: هل رأيت ولدا من غير ذكر؟ فنزلت الآية فقرأها عليهم.

إنّ شأنه البديع الغريب عليه السّلام في سلك الأمثال في تقدير اللّه و حكمه كحالة عجيبة آدم عليه السّلام [خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ تفسير للمثل أي خلق قالب آدم من تراب [ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ أي صر بشرا [فَيَكُونُ و المقتضي أن يقال: فكان، إلّا أنّه عدل عن الماضي إلى المضارع حكاية للحال بصورة المشاهد الّذي يقع الآن.

روي أنّ وفد نجران لمّا قدموا المدينة و هم أربعة عشر من أشراف النصارى منهم السيّد و العاقب و الثالث أبو حارثة بن علقمة الاسقفّ و كان أبو حارثة في شرف و خطر عظيم و هو الّذي بنى له ملك الروم الكنائس و كان السيّد اسمه أهيب، و لمّا دخلوا على النبيّ صلّى اللّه عليه و آله في المسجد بعد العصر عليهم ثياب حسان و لهم وجوه جسام فقاموا و صلّوا و استقبلوا قبلتهم تجاه المشرق فأراد أصحاب النبيّ صلّى اللّه عليه و آله أن يمنعوهم فقال صلّى اللّه عليه و آله: دعوهم.

ثمّ انتهى أبو حارثة هذا و آخر معه إلى النبيّ صلّى اللّه عليه و آله فقال لهما صلّى اللّه عليه و آله: أسلما، فقالا:

أسلمنا قبلك، فقال صلّى اللّه عليه و آله: كذبتما يمنعكما عن الإسلام ثلاث: عبادتكما الصليب و أكلكما الخنزير و زعمكما أنّ للّه ولدا، قالوا: يا محمّد فلم تشتم صاحبنا عيسى؟ قال: و ما أقول؟

قالوا: تقول: إنّه عبد، قال: أجل هو عبد اللّه و رسوله و كلمته ألقاها إلى العذراء البتول، فغضبوا و قالوا: هل رأيت إنسانا من غير أب و امّ؟ فحيث سلّمت أنّ عيسى لا أب له من البشر وجب أن يكون هو ابن اللّه، فقال صلّى اللّه عليه و آله: إنّ آدم ما كان له أب و لا امّ و لم يلزم من ذلك كونه ابنا للّه فكذا حال عيسى، فالوجود من غير أب و امّ أخرق للعادة من الوجود من غير أب فشبّه صلّى اللّه عليه و آله الغريب بالأغرب و لشبهة الخصم أقطع.

[الْحَقُّ أي ما قصصنا عليك من نبأ عيسى، هو الحقّ كائنا [مِنْ رَبِّكَ لا قول النصارى أنّه ابن اللّه، و قولهم: ولدت مريم إلها، و نحو ذلك [فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ أيّها السامع من الشاكّين، أو الخطاب للنبيّ على طريقة الإلهاب و التهييج و الغرض زيادة التثبيت فيكون المعنى: دم على يقينك و على ما أنت عليه من الاطمينان. قال أبو منصور: العصمة لا ترفع النهي و الخطاب.

ص: 212

[فَمَنْ حَاجَّكَ من النصارى إذ هم المتصدّون للمحاجّة [فِيهِ أي في شأن عيسى و امّه عليهما السّلام [مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ من الآيات و سمعوا ذلك منكم و لم يرعووا عمّا هم عليه من الغيّ [فَقُلْ و اقطع الكلام بالمباهلة و هي أن تدعوهم إلى الملاعنة و قل لهم:

[تَعالَوْا] التعالي في الأصل التصاعد كأنّ الداعي في علوّ و المدعوّ في سفل ثمّ يستعمل لكلّ مدعوّ أين كان أي هلمّوا بالرأي و العزيمة لا بالأبدان لأنّهم حاضرون عنده بأجسادهم [نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَكُمْ وَ نِساءَنا وَ نِساءَكُمْ وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَكُمْ أي ليدع كلّ منّا و منكم أولاده و نساءه و نفسه و أعزّة أهله إلى طلب البعد من الرحمة و نطلب العذاب للكاذب منهم و نحملهم على هذا الأمر من اللّه [فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكاذِبِينَ من الفريقين.

روي أنّهم لمّا دعوا إلى المباهلة طلبوا المهلة و قالوا: نستنظر إلى صبيحة غد فأنظرهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله فلمّا رجعوا إلى منازلهم قال لهم الأسقفّ و هو عبد المسيح المكنّى أبو حارثة:

إنّه لنبيّ مرسل و انظروا في غداة غد إن غدا بولده و أهله فاحذروا مباهلته و لا تباهلوه و إن غدا بأصحابه فباهلوه فإنّه على غير شي ء.

فأتوا رسول اللّه و قد خرج صلّى اللّه عليه و آله محتضنا الحسين آخذا بيد الحسن و فاطمة تمشي خلفه و عليّ خلفها و هو يقول: إذا دعوت أنا فأمّنوا فلمّا رأى أبو حارثة و هو أعلمهم بأمور دينهم قال: يا معشر النصارى إنّي لأرى وجوها لو دعوا اللّه و شاؤوا أن يزيل اللّه جبلا من مكانه لأزاله بها فلا تباهلوه و صالحوا الرجل و إن باهلتم تهلكوا و لا يبقى على وجه الأرض نصرانيّ إلى يوم القيامة.

فتقدّم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و جثا على ركبتيه، قال أبو حارثة لقومه: و اللّه جثا كما جثا الأنبياء، فكعّ أبو حارثة، فقال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: ادن يا أبا حارثة للمباهلة فقال أبو حارثة: يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك و أن تترك على دينك و نثبت على ديننا، قال صلّى اللّه عليه و آله: فإذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين و عليكم ما على المسلمين، فأبوا، فقال: فإنّي احاربكم، فقالوا: ما لنا بحرب العرب طاقة و لكن نصالحك على أن لا تغزونا و لا تخيفنا و لا تردّنا عن ديننا على أن نؤدّي إليك كلّ عام ألفي حلّة: ألف في صفر و ألف في رجب، و ثلاثين درعا عادية

من حديد، فصالحهم على ذلك و كتب لهم كتابا بذلك و قال: و الّذي نفسي بيده إنّ الهلاك قد تدلّى على أهل نجران و لو لاعنوا لمسخوا قردة و خنازير و لاضطرم عليهم الوادي نارا و لاستأصل اللّه نجران و أهله حتّى الطير على رؤوس الشجر و لما حال الحول على النصارى كلّهم حتّى هلكوا.

و قيل في المصالحة: و ثلاثين فرسا و ثلاثين رمحا و قيمة كل حلّة أربعون درهما.

و لمّا رجع وفد نجران لم يلبث السيّد و العاقب إلّا يسيرا حتّى رجعا إلى النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و أهدى العاقب له حلّة و عصا و قدحا و نعلين و أسلما.

و قال بعض المعتزلة: هذا يدلّ على أنّ الحسن و الحسين كانا مكلّفين في تلك الحال لأنّ المباهلة لا يجوز إلّا مع البالغين. و قال أصحابنا: إنّ صغر السنّ عن حدّ بلوغ الحلم لا ينافي كمال العقل و إنّما جعل بلوغ الحلم حدّا لتعلّق الأحكام الشرعيّة و قد كان سنّهما في تلك الحال سنّا لا يمتنع معها أن يكونا كاملي العقل، على أنّ عندنا يجوز أن يخرق اللّه العادة للأئمّة و يخصّهم بأمور لا يشركهم فيه غيرهم فلو صحّ أنّ كمال العقل غير معتاد في تلك السنّ لجاز ذلك فيهم إبانة لفضلهم عن ما سواهم و يؤيّده قول النبيّ صلّى اللّه عليه و آله:

ابناي هذان إمامان قاما أو قعدا.

و اتّفقوا على أنّ المراد من «نِساءَنا» فاطمة لأنّه لم يحضر المباهلة غيرها من النساء و لم يقل أحد: إنّ غيرها من النساء حضرت، و هذا يدلّ على تفضيل فاطمة على جميع النساء؛ و قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: إنّ اللّه يغضب لغضب فاطمة و يرضى لرضاها. و قد صحّ عن حذيفة بن اليمان قال: سمعت رسول اللّه يقول: أتاني ملك فبشّرني أنّ فاطمة سيّدة نساء أهل الجنّة و نساء أمّتي. و عن الشعبيّ عن مسروق عن عائشة قالت: أسرّ النبيّ إلى فاطمة فضحكت فسألتها فقالت: قال لي: ألا ترضين أن تكوني سيّدة نساء هذه الأمّة و نساء المؤمنين؟

فضحكت لذلك.

فتبيّن أنّ المراد من قوله: «وَ نِساءَنا» فاطمة «وَ أَنْفُسَنا» يعني عليّا خاصّة و لا يجوز أن يكون المعنيّ به صلّى اللّه عليه و آله لأنّه هو الداعي و لا يجوز أن يدعو الإنسان نفسه و إنّما يصحّ أن يدعو غيره و إذا كان قوله: «وَ أَنْفُسَنا» لا بدّ أن يكون إشارة إلى غير الرسول صلّى اللّه عليه و آله وجب أن يكون إشارة إلى عليّ لأنّه لا أحد يدّعي دخول غير عليّ و فاطمة و ولديه في المباهلة و هذا

هو الأفضليّة على من عليها في المشرق و المغرب إذ جعله اللّه سبحانه نفس الرسول صلّى اللّه عليه و آله.

و ممّا يعضده من الروايات ما صحّ عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله أنّه سئل عن بعض أصحابه فقال له قائل: فعليّ، فقال صلّى اللّه عليه و آله: إنّما سألتني عن الناس و لم تسألني عن نفسي. و قوله صلّى اللّه عليه و آله: لبريدة الأسلميّ: يا بريدة لا تبغض عليّا فإنّه منّي و أنا منه إنّ الناس خلقوا من شجر شتّى و أنا و عليّ من شجرة واحدة. و كذلك قوله بأحد و نكايته صلّى اللّه عليه و آله في تلك الغزوة و وقاية عليّ بنفسه إيّاه حتّى قال جبرئيل: إنّ هذه لهي المواساة فقال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: يا جبرئيل إنّه منّي و أنا منه، فقال جبرئيل: و أنا منكما، انتهى.

[سورة آل عمران (3): الآيات 62 الى 63]

إِنَّ هذا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (62) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (63)

أي إنّ ما قصّ من نبأ عيسى و أمّه عليهما السّلام [لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ دون ما عداه من أكاذيب النصارى [وَ ما مِنْ إِلهٍ ما إله [إِلَّا اللَّهُ صرّح في الكلام «بمن» الاستغراقيّة تأكيدا للردّ على النصارى في تثليثهم [وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ] الغالب على جميع مقدوراته المحيط [الْحَكِيمُ بما يقتضي الصلاح لا يشاركه أحد في الألوهيّة.

[فَإِنْ تَوَلَّوْا] و أعرضوا عن قبول التوحيد و الحقّ الّذي قصّ عليك [فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ أي فاقطع كلامك عنهم فإنّ اللّه عليم بفساد المفسدين مطّلع على ما في قلوبهم من الأغراض الفاسدة.

[سورة آل عمران (3): آية 64]

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (64)

. المراد بأهل الكتاب اليهود و النصارى. أمر اللّه سبحانه نبيّه بأن يعدل عن طريق المجادلة و الاحتجاج إلى نهج الملاينة و الإنصاف و ذلك بعد تتميم الحجّة فدعاهم إلى التوحيد و إلى الاقتداء بمن اتّفقوا على أنّه كان على الحقّ فقال:

[قُلْ لهم: هلمّوا إلى كلمة عادلة بيننا و بينكم لا ميل لها إلى الاعوجاج و هي ترك العبادة لغير اللّه لأنّها لا تحقّ إلّا له [وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ أي لا يتّخذ

بعضنا عيسى عليه السّلام ربّا فإنّه كان بعض الناس.

و قيل: معنى الآية: أن لا يتّخذ الأحبار أربابا بأن يطيعهم طاعة الأرباب كقوله:

«اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ» (1).

و قد روي أيضا لمّا نزلت هذه الآية قال عديّ بن حاتم: ما كنّا نعبدهم يا رسول اللّه فقال صلّى اللّه عليه و آله: أما كان يحلّون لكم و يحرّمون فتأخذون بقولهم؟ فقال عديّ: نعم، فقال صلّى اللّه عليه و آله: هو ذاك.

[فَإِنْ تَوَلَّوْا] عمّا دعوتموهم إليه من التوحيد و ترك الإشراك [فَقُولُوا] أي قل:

لهم أنت و المؤمنون [اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ أي إن تولّوا و أعرضوا عن التوحيد فقولوا لهم أنت يا محمّد و من معك من أهل الإيمان للمعرضين: اشهدوا أنتم أيّها الكفّار بأنّا مستسلمون لما دعانا اللّه من التوحيد. و السرّ في الإشهاد على الإسلام ليشهد الكفّار لهم يوم القيامة على الإسلام كما يشهد لهم المؤمنون بالكفر؛ فيكون شهادة الكفّار للمسلمين يوم القيامة بالتوحيد حجّة على أنفسهم.

[سورة آل عمران (3): آية 65]

يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْراهِيمَ وَ ما أُنْزِلَتِ التَّوْراةُ وَ الْإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (65)

. تنازعت اليهود و النصارى في إبراهيم و زعم كلّ واحد منهما أنّه عليه السّلام منهم و ترافعا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله فنزلت الآية و المعنى: لم تدّعون أنّ إبراهيم كان منكم [وَ ما أُنْزِلَتِ التَّوْراةُ] على موسى [وَ الْإِنْجِيلُ على عيسى [إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أي إلّا من بعد موت إبراهيم و أنتم سمّيتم باليهوديّة و النصرانيّة بعد نزول الكتاب [أَ فَلا تَعْقِلُونَ و تتفكّرون في بطلان جدلكم و بطلان كلامكم و مذهبكم؛ لأنّ بين إبراهيم و موسى ألف سنة و بين موسى و عيسى ألفي سنة فكيف يكون إبراهيم على دين لم يحدث إلّا بعد عهده بأزمنة متطاولة؟

[سورة آل عمران (3): آية 66]

ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ حاجَجْتُمْ فِيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (66)

1- التوبة: 32.

جملة من مبتدء و خبر صدّرت بحرف التنبيه إشعارا بكمال غفلتهم أي أنتم هؤلاء الحمقاء حيث [حاجَجْتُمْ فِيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ من التوراة و الإنجيل من نبوّة محمّد [فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ أي فيما ليس له ذكر في كتابكم و لا علم لكم به من دين إبراهيم إذ لا ذكر لدينه في إحدى الكتابين قطعا [وَ اللَّهُ يَعْلَمُ دين إبراهيم و شأنه [وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ذلك و ما تعرفون شريعته فلا تضيفوا إليه ما لا تعلمونه.

[سورة آل عمران (3): آية 67]

ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَ لا نَصْرانِيًّا وَ لكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67)

. تصريح بما نطق به البرهان المذكور [وَ لكِنْ كانَ حَنِيفاً] مائلا عن العقائد الزائفة كلّها [مُسْلِماً] منقادا للّه [وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ تعريض بأنّهم مشركون بقولهم.

«عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ» «و الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ» و ردّ لادّعاء المشركين أنّهم على ملّته.

[سورة آل عمران (3): آية 68]

إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (68)

. أي إنّ أحقّ الناس بادّعائه بأنّه على دين إبراهيم هم الّذين اتّبعوه في زمانه و ما خالفوه [وَ هـذَا النَّبِيُّ المصطفى صلّى اللّه عليه و آله لأنّه اتّبعه في الحنيفيّة [وَ الَّذِينَ آمَنُوا] باللّه و بمحمّد صلّى اللّه عليه و آله من هذه الأمّة لموافقتهم إيّاه في أصول الشرائع [وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ و ناصرهم و يجازيهم الحسنى بإيمانهم.

[سورة آل عمران (3): آية 69]

وَدَّتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَ ما يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ (69)

. أي أحبّت أن يصرفوكم عن دين الإسلام إلى دين الكفر و إنّما قال: [طائِفَةٌ] لأنّ من أهل الكتاب امّة قائمة يتلون آيات اللّه [وَ ما يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ جملة حاليّة تدلّ على ثبات المؤمنين على ما هم عليه من الدين القويم و حاصل الآية أنّ إضلال أهل الكتاب يعود و باله على الكافرين و يضاعف به عذابهم [وَ ما يَشْعُرُونَ بهذا الضرر.

[سورة آل عمران (3): آية 70]

يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (70)

.

أي لم تجحدون بما نطقت به من التوراة و الإنجيل على نبوّة محمّد صلّى اللّه عليه و آله [وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ أنّها آيات اللّه و تعلمون نعته بالكتابين أو المراد المعجزات الّتي تشاهدون منه و كتابه و معجزاته تدلّ على نبوّته.

[سورة آل عمران (3): الآيات 71 الى 72]

يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَ تَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (71) وَ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَ اكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (72)

. المراد بالحقّ في الآية كتاب اللّه الّذي أنزله على موسى و عيسى و بالباطل ما حرّفوه و كتبوه بأيديهم، أي لم تخلطون أحدهما بالآخر و إبراز باطلهم في صورة الحقّ بأن يقولوا: الكلّ من عند اللّه [وَ تَكْتُمُونَ الْحَقَ أي نبوّة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و صفاته و علاماته المذكورة في كتابكم [وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أنّه ثابت و حقّ في كتابكم.

وَ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ و هم رؤساؤهم:

آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا أي أظهروا الإيمان بالقرآن الّذي أنزل على لمسلمين وَجْهَ النَّهارِ وَ اكْفُرُوا آخِرَهُ أي في أوّل النهار و أظهروا الكفر به آخر النهار مرائين لهم أنّكم آمنتم به ابتداء من غير تأمّل ثمّ تأمّلتم فيه فوقفتم على خلل رأيكم الأوّل و رجعتم لَعَلَّهُمْ أي المؤمنين

[سورة آل عمران (3): آية 73]

وَ لا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ أَوْ يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (73)

عمّا هم عليه من الإيمان به كما رجعتم.

و المراد كعب بن الأشرف و مالك بن الصيف و نفر من اليهود قالوا لأصحابهم لما حوّلت القبلة: آمنوا بما أنزل عليهم من الصلاة إلى الكعبة و صلّوا إليها أوّل النهار ثمّ صلّوا إلى بيت المقدس آخر النهار لعلّهم يقولون هم أعلم منّا و قد رجعوا فيرجعون.

قال الحسن و السدّيّ: تواطأ اثنا عشر رجلا من أحبار يهود خيبر قرى عرينة و قال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمّد أوّل النهار باللسان دون الاعتقاد و اكفروا به آخره و قولوا: إنّا نظرنا في كتبنا و شاورنا علماءنا فوجدنا محمّدا ليس ذلك الموعود به و ظهر لنا كذبه و بطلان دينه؛ فإذا فعلتم ذلك شكّ أصحابه في دينه و قالوا: إنّهم أهل الكتاب و هم أعلم منّا و بهذه الجهة يرجعون عن دينهم إلى دينكم.

وَ لا تُؤْمِنُوا أي لا تصدّقوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ اليهوديّة و قام بشرائعكم و كان يوصي بعضهم بعضا بهذا الأمر، فحاصل المعنى أنّ هذا الكلام من بقيّة طائفة اليهود أي

لا تصدّقوا إلّا نبيّا يقرّر شرائع التوراة؛ فيكون اللام صلة زائدة كقوله: «رَدِفَ لَكُمْ» و المعنى «ردفكم».

و قيل: معنى الآية: إنّهم قالوا لتبعهم: إنّكم لا تؤتوا بذلك الإيمان المدلّس الملبس إلّا لبقاء دينكم؛ فإنّ مقصودنا من هذا التدليس الّذي نؤمن أوّل النهار أن نحفظ دينكم.

فقال سبحانه: قُلْ إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ قل يا محمّد جوابا و ردّا على اليهود: إنّ الهدى هدى اللّه و قد جئتكم به فلن ينفعكم في دفعه هذا الكيد و الحيلة.

ثمّ قال تعالى:

أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ أَوْ يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ

و قرئ «آن يؤتى» بالمدّ على الاستفهام مثل ابن كثير و الباقوق بفتح الهمزة من غير مد و لا استفهام كقوله: «أَنْ كانَ ذا مالٍ وَ بَنِينَ* إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ» (1) و على هذه القراءة فالكلام في معرض الاستفهام التوبيخيّ و المعنى: أمن أجل أن يؤتى أحد شرائع مثل ما أوتيتم من الشرائع ينكرون اتّباعه ثمّ حذف الجواب للاختصار و مثل هذا الحذف كثير مثل قول الرجل لصاحبه: أمن قلّة إحساني إليك أم من إهانتي إليك؟

ثمّ ما يذكر الجواب و هو «فعلت ذلك» و هذا المعنى به قال مجاهد و عيسى بن عمرو، أمّا قرأ بقصر الألف في «أن» فقد يمكن أيضا حملها على معنى الاستفهام كما قرئ «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ»* (2) بالمدّ و القصر قال امرؤ القيس: «تزوّج من الحيّ أم تبتكر» أراد أتزوّج من الحيّ؟ فحذف ألف الاستفهام فيكون على هذا التقدير معنى الآية المعنى الأوّل.

قال الرازيّ في المفاتيح: و اعلم أنّ هذه من المشكلات الصعبة؛ أقول: و لعلّ منشأ الإشكال الاختلاف الواقع بأنّ قوله: «أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ» من جملة كلام اللّه بعد قوله: «قُلْ إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ» أم بقيّة كلام اليهود؟

و قوله: «قُلْ إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ» جملة معترضة. قال الفيض في الصافي: إنّ الآية من

1- القلم: 15- 16.

2- البقرة: 5.

المتشابهات الّتي لم تصل إلينا عن أهل البيت شي ء و خلص نفسه، قال الطبرسيّ: و المفسّرون ذكروا وجوها:

منها أنّه قل يا محمّد: «إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ» و قل: «إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ» فلا ينبغي لهم أن ينكروا أن يؤتى أحد مثل ما أوتوا من النبوّة و التوراة و هذا معنى قول الحسن و أبي عليّ الفارسيّ.

و ثاني الأقوال: أن يكون قوله: «وَ لا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ» كلام اليهود و ما بعده من كلام اللّه و يكون المعنى: قل إنّ الهدى هدى اللّه أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أيّها المسلمون، و «لا» مقدّرة مثل قوله: «يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا» (1) أي أن لا تضلّوا فيكون المعنى:

لا- تؤمنوا إلّا لمن تبع دينكم و أن لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، فيكون من كلام الطائفة. و قال المبرّد: إنّ «لا» ليست ممّا يحذف في هذا المقام و المعنى: قل إنّ الهدى هدى اللّه كراهة أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أي ممّن خالف دين اللّه الإسلام؛ لأنّه تعالى خصّ المؤمنين الهداية و لا يهدي من هو كاذب كفّار فهدى اللّه بعيد من غير المؤمنين. نعم إنّه تعالى هداه ابتداء فطرة الإسلام ف «هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ» فبعد قبوله الكفر غير لائق بالهداية.

و قيل: معنى الآية: إنّ الهدى هدى اللّه و الحقّ ما أمر اللّه به ثمّ فسّر الهدى فقال: «أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ أَوْ يُحاجُّوكُمْ» فيكون حاصل المعنى أنّ المؤتى ما شرّع لكم. و قيل: «أن» في الآية نافية فيكون على هذا التقدير من كلام الطائفة فقالوا: لا تؤمنوا أيّها اليهود إلّا لمن تبع دينكم و قولوا لهم: إنّه ما يؤتى أحد مثل ما أوتيتم حتّى يحاجّوكم عند ربّكم فيدحضوا حجّتكم، و الواو في «يُحاجُّوكُمْ» راجع إلى «أحد» و هو في معنى الجمع إذا المراد غير أتباعهم.

و قيل: الآية من أوّلها إلى آخرها كلّها خطاب من اللّه و تقديره: و لا تؤمنوا أيّها المؤمنون إلّا لمن تبع دينكم و هو دين الإسلام و لا تصدّقوا بأن يؤتى أحد مثل أوتيتم من الدين المستقيم فلا نبيّ بعد نبيّكم و لا شريعة بعد شريعتكم إلى يوم القيامة و لا تصدّقوا حجّة لأنّ دينكم خير الأديان و أنّ الهدى هدى اللّه. بأن تكون لأحد عليكم عند ربّكم [وَ أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ و يستفهم هذه المعاني من سوق الكلام و يدلّ عليه ما قاله الضحّاك:

1- النساء: 175.

إنّ اليهود قالوا: إنّا نحاجّ عند ربّنا من خالفنا في ديننا، فبيّن اللّه أنّهم المغلوبون المدحضون و أنّ المؤمنين هم الغالبون و المراد من «الفضل» في الآية النبوّة، و قيل: نعم الدنيا و الآخرة.

[يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ علّقه بالمشيّة بسبب سعة علمه بمصالح الأمور و هو تعالى واسع المقدور.

[سورة آل عمران (3): آية 74]

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (74)

يجعل رحمته لمن يشاء و يكون محلّا و قابلا للرحمة و هذا كقوله: «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ» (1) و في مضمون الآية إشارة إلى الاحتراز من الحسد فإنّ الحسد حمل أحبار اليهود على مثل هذا الإنكار من تصديق نعوت النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و لأنّ تصديقهم إيّاه صلّى اللّه عليه و آله كان مانعا لهم من جمع المال و حصول الجاه و القبول عند أرباب الدنيا.

قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: ثلاث هنّ أصل خطيئة فاتّقوهنّ: إيّاكم و الكبر فإنّ إبليس حمله الكبر على أن لا يسجد لآدم، و إيّاكم و الحرص فإنّ الحرص يحمل الإنسان على الانهماك في الدنيا، و إيّاكم و الحسد فإنّ ابني آدم قتل أحدهما صاحبه حسدا، و بئست الخصلة الحسد.

قال أمير المؤمنين: قاتل اللّه الحسد ما أعدله بدأ بالحاسد قبل المحسود. قال الأصمعيّ رأيت أعرابيّا أتى عليه مائة و عشرون سنة فقلت: ما طوّل عمرك؟ فقال: تركت الحسد فبقيت. و من علامات الحاسد أن يتملّق إذا شهد و يغتاب إذا غاب و يشمت بالمصيبة إذا نزلت قال الشاعر:

و إذا أراد اللّه نشر فضيلةطويت، أتاح لها لسان حسود

لو لا اشتعال النار فيما جاوزت ما كان يعرف طيب عرف العود

و علاج إزالته عن النفس بكثرة الأذكار و الانقطاع إلى اللّه و إنّ تباين مقامات أفراد الإنسان في الصفات الفاضلة رحمة لهم و لم يكن ذلك إلّا بتقدير العزيز العليم فالحاسد على الحقيقة يعارض الحقّ و معنى حسده أنّه تعالى أنعم على من لا يستحقّ تعالى عن ذلك

1- الانعام: 124.

و قد ذمّ اللّه الحاسدين في كتابه في قوله تعالى: «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ» (1) لكن الغبطة على طاعة اللّه محمودة.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): الآيات 75 الى 76]

وَ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَ يَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (75) بَلى مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ وَ اتَّقى فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (76)

. «القنطار» و قد ذكر الخلاف في مقداره قبل هذا و على الجملة فالمراد المال الكثير قال ابن عبّاس: يعنى بقوله: [مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ عبد اللّه بن سلام أودعه رجل ألفا و مأتي أوقية من ذهب فأدّاها إليه فمدحه اللّه سبحانه.

[وَ مِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينارٍ] و المراد «بالدينار» مثقال من الذهب أو العدد القليل [لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ و هو كعب بن الأشرف أو فنحاص بن عازورا استودعه رجل من قريش دينارا فلم يؤدّه و جحده فذمّه اللّه و المعنى أنّ فيهم من هو في غاية الأمانة و من هو في غاية الخيانة [إِلّا ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً] أي في حال من الأحوال إلّا في حال دوام قيامك عليه على رأسه مبالغا في مطالبته بالتقاضي و إقامة البيّنة.

[ذلِكَ أي تركهم أداء الحقوق [بِأَنَّهُمْ بسبب أنّهم [قالُوا لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ بيان لنفي السبيل عليهم من غير أهل دينهم بادّعائهم أنّ هذا الحكم في التوراة و لهذا السبب يميلون إلى الخيانة و كانوا يقولون: إنّه ليس علينا في أموال العرب الّتي أصبناها بأس لأنّهم مشركون و ادّعوا أنّ ذلك في كتبهم.

فأكذبهم اللّه في ذلك بقوله: [وَ يَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ أنّهم يكذبون لأنّ اللّه أمرهم بخلاف ما قالوا، و إنّما سمّوهم «امّيّين» لأنّهم ما كانوا يكتبون و ذلك لأنّ الأمّ أصل الشيء فمن لا يكتب فقد بقي على أصل حاله في أن لا يكتب أو لأنّهم منسوبون إلى مكّة و هي امّ القرى فلهذا السبب استحلّوا ظلم من خالفهم في اليهوديّة و قالوا: لم يجعل اللّه في التوراة لما لهم حرمة و قد كذبوا في ذلك على اللّه فإنّ أداء الأمانة واجب في الأديان كلّها و حبس مال الغير و الإضرار به و الخيانة إليه حرام

1- النساء: 53.

[بَلى إثبات لما نفوه أي بلى عليهم سبيل و ما أمر اللّه بـذلك و لا أحبّه و لا أراده بل أوجب و الوفاء بالعهـد و أداء الأمانـة [مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ الهاء في «بِعَهْدِهِ» عائـدة إلى اللّه في قوله: «وَ يَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ» فيكون معناه «بعهد الله» و المراد من عهد اللّه أمره و نهيه و يحتمل أن يكون عائدة إلى «من» و معناه: من أوفى بعهد نفسه؛ لأنّ العهد يضاف تارة إلى العاهد و تارة إلى المعهود له.

[فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ أي إنّ اللّه يحبّه، و عدل إلى ذكر المتّقين لبيان الصفة الّتي يجب لها محبّة اللّه و روي عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله لمّا قرأ هذه الآية قال: كذب أعداء اللّه ما من شي ء كان في الجاهليّة إلّا و هو تحت قدمي إلّا الأمانة فإنّها مؤدّاة إلى البرّ و الفاجر.

و عنه صـلّى اللّه عليه و آله قال: ثلاث من كنّ فيه فهو منافق و إن صـلّى و صام و زعم أنّه مؤمن: من إذا حـدث كـذب و إذا وعد أخلف و إذا ائتمن خان، و عنه صلّى اللّه عليه و آله من ائتمن على الأمانة فأدّاها و لو شاء لم يؤدّها زوّجه اللّه من الحور العين ما شاء.

[سورة آل عمران (3): آية 77]

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَ أَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَ لا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (77)

. نزلت في جماعـة من أحبـار اليهـود: أبي رافع و كنانـة بن أبي الحقيق و حييّ بن الأخطب كعب بن الأشـرف كتموا مـا في التوراة من أمر محمّد صلّى اللّه عليه و آله و كتبوا بأيديهم غيره و حلفوا أنّه من عند اللّه لئلّا تفوتهم الرياسة و ما كان لهم على أتباعهم، عن عكرمة.

و قيـل: نزلت في الأشـعث بن قيس و خصم له في أرض قام ليحلف عنـد رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله لمّا نزلت الآيـة نكل الأشـعث و اعترف بالحقّ و ردّ الأرض، عن ابن جريح. و قيل: نزلت رجل حلف يمينا فأخبره في تنفيق سلعته، عن مجاهد و الشعبيّ.

ذكر اللّه سبحانه الوعيد لهم على أفعالهم الخبيثة فقال: [إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ أي يستبدلون [بِعَهْدِ اللّهِ أي بما يلزمهم الوفاء به [وَ أَيْمانِهِمْ و بدّلوا ما عاهـدوا عليه من الإيمان لرسول و الوفاء بالأمانات و بما حلفوا عليه من كتمان نعوته و خياناتهم بالأمانات في ابلـة ثمن بخس قليل و هو حطام الدنيا.

[أُولئِكَ الموصوفون [لا خَلاقَ و لا نصيب [لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ] و لا في نعيمها [وَ لا

يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَ لا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ] و هو مجاز عن شدّة غضبه و سخطه عليهم و إيقاعه بهم [وَ لا يُزَكِّيهِمْ أي لا يثني عليهم كما يثني على أوليائه و التزكية من اللّه تكون على ألسنة الملائكة كقوله: «وَ الْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ» (1) و مثل قوله:

«سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ» (2) [وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ على ما فعلوه من المعاصي.

و في تفسير الكلبي عن ابن مسعود قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله من حلف على يمين كاذبة ليقطع بها مال أخيه المسلم لقى اللّه و هو غضبان و تلا هذه الآية.

و روى مسلم الحجّاج في الصحيح بإسناده من عدّة طرق عن أبي ذرّ الغفاريّ عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله قال: ثلاثة لا يكلّمهم اللّه يوم القيامة و لا ينظر إليهم و لا يزكّيهم و لهم عذاب أليم: المنّان الّذي لا يعطي شيئا إلّا منّة و المنفق سلعته باليمين الفاجرة و المسبل إزاره.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): آية 78]

وَ إِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتابِ وَ ما هُوَ مِنَ الْكِتابِ وَ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ ما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (78)

. أي من اليهود المحرّفين [لَفَرِيقاً] و نصب «فريقا» بأنّه اسم «إنّ» و اللام للتأكيد و هم جماعة من أحبار اليهود كتبوا ما ليس في التوراة من صفات النبيّ و غيرها و أضافوه إلى التوراة. و قيل: نزلت الآية في اليهود و النصارى حرّفوا التوراة و الإنجيل ضربوا كتاب اللّه بعضه ببعض و ألحقوا به ما ليس فيه و استعمل تحريف الكتاب عن الجهة ليّا باللسان و المراد تفسيره و تحريفه بخلاف الحقّ [لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتابِ أي لتظنّوه أيّها المسلمون من كتاب اللّه [وَ ما هُوَ مِنَ الْكِتابِ أي من جملته و الحال أنّه ليس منه في نفس الأمر و في اعتقادهم أيضا.

[وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ أنّهم كاذبون و مفترون على اللّه و بالجملة لمّا حرّفوا في التوراة و بدّلوا صفة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله أخذت قريظة ما كتبوا فخلطوه بالتوراة الّتي عندهم.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): آية 79]

ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وَ بِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (79)

1- الرعد: 26.

2- يس: 58.

في الآيـة بيـان لمفتريـات الأحبـار على الأنبياء حيث قالوا: إنّ عيسـى عليه السّـلام أمرنا أن نتّخـذه ربّا حاشاه عليه السّـلام و جاء رجل من المسلمين فقال: يا رسول اللّه نسلّم عليك كما يسلّم بعضنا على بعض أفلا نسجدك؟ فقال صلّى اللّه عليه و آله: معاذ اللّه أن تعبد غير اللّه و نأمر بعبادة غير اللّه أي ما صحّ و ما اسـتقام لأحد سواء كان بشـرا أولا و إنّما قيل: «بشرا» إشعارا بعلّة الحكم فإنّ البشريّة منافية لهذا الاسناد الّذي أسنده الكفرة من النصارى و هو إسناد الربوبيّة إليه.

و حاصـل معنى الآيـة أنّه ليس لبشـر بعـد أن آتـاه اللّه و أعطاه [الْكِتابَ الناطق بالحقّ مثل التوراة و الإنجيل و القرآن [وَ الْحُكْمَ أي الفهم و العلم [وَ النُّبُوَّةَ] فالكتاب السـماويّ و الوحي ينزل أوّلا ثمّ يحصل في عقل النبيّ و إدراكه فهم ذلك الكتاب و أسـراره ثمّ بعـد الحصول يبلّغ النبيّ ذلك المفهوم إلى الخلق و هو المراد بالنبوّة.

[ثُمَّ يَقُولَ ذلك البشـر بعد هذه التشريفات [لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ و ليس لأحد حقّ في هذا القول. قال الأصمّ: معنى الآية أنّه لا يتمكّن النبيّ بعـد تحقّق نبوّته أن يقول: «لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لِي» فمعنى الآية مثل قوله «وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ ... لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ» (1).

[وَ لكِنْ يقول لهم [كُونُوا رَبَّانِيِّينَ الربّانيّ منسوب إلى الربّ بزيادة الألف و النون كاللحيانيّ إذا وصف بطول اللحيـة ففيه الدلالة على الكمال في هـذه الصـفة و إذا نسب إلى اللحية من غير قصد المبالغة يقال: لحويّ؛ فالربّانيّ هو الكامل في العلم و العلم الشديد التمسّك بطاعة اللّه كما يقال رجل إلهيّ، إذا كان مقبلا على معرفة الإله و طاعته.

[بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وَ بِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ أي كونوا ربّانيّين في علمكم و دراسـتكم و علّموا الناس، و علم الكتاب و درسه يقتضـي كونه ربّانيّا و تعلّم الناس طريق الهداية فعلم الكتاب سبب لنهي الناس عن عبوديّة غير اللّه فكيف يتصوّر أن يقول للخلق اعبدوني؟

فهذا الّذي يدّعونه النصارى غير واقع و كذب.

[سورة آل عمران (3): آية 80]

وَ لا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَ النَّبِيِّينَ أَرْباباً أَ يَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (80)

. عطف على قوله: «ما كانَ لِبَشَرٍ» أو على «ثُمَّ يَقُولَ» و صورة الكلام «ما كانَ لِبَشَرٍ»

1- الحاقة: 48.

يكون موصوفا بصفة النبوّة يأمر الناس بعبادة نفسه و لا يكون له أن يأمر الناس أن يتّخذوا الملائكة و النبيّين آلهة [أَ يَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ] كونكم مخلصين بالتوحيد فإنّه لو أمركم بذلك لكفر و نزع منه النبوّة و من آتاه اللّه الكتاب و الحكم و النبوّة يمنعه ذلك من ادّعاء الألوهيّة.

و قيل: الضمير في «يأمركم» راجع إلى اللّه. و قيل: إلى عيسى. و قيل: إلى محمّد و منشأ الاختلاف قراءة رفع الراء في «يأمركم» و نصبها لأنّ من قرأ بالنصب عطفه على «أَنْ يُؤْتِيَهُ اللّٰهُ» و تكون «لا» مزيدة لتأكيد معنى النفي في قوله: «ما كانَ لِبَشَرٍ» و قراءة الرفع على الاستيناف و تضمّن معنى الحاليّة بتقدير المبتدء أي و هؤلاء يأمركم هكذا انتهى.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): آية 81]

وَ إِذْ أَخَذَ اللّٰهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلى ذٰلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشّاهِدِينَ (81)

. قرأ حمزة بكسر اللام في «لما» و الباقون بفتحها و قرأ نافع «آتيناكم» على الجمع و الباقون على التوحيد، و قراءة الكسرة قال حمزة: إنّه يتعلّق «بالأخذ» كأنّ المعنى أخذ ميثاقهم لهذا و يكون «ما» موصولة المعنى، الميثاق مصدر يجوز إضافته إلى الفاعل و إلى المفعول فيحتمل أن يكون الميثاق من النبيّين و يحتمل أن يكون أخذه للنبيّين.

قال المفسّرون: إنّ اللّه أخذ الميثاق من النبيّين أن يصدّق بعضهم بعضا و أخذ العهد على كلّ نبيّ أن يؤمن بمن يأتي بعده من الأنبياء و أن ينصره إن أدركه و إن لم يدركه أن يأمر قومه بالإيمان به إن أدركوه فأخذ الميثاق من موسى عليه السّلام أن يؤمن بعيسى عليه السّلام و من عيسى عليه السّلام أن يؤمن بمحمّد صلّى اللّه عليه و آله و إذا كان حكم الأنبياء كان الأمم بذلك أولى.

أي اذكر يا محمّد وقت أخذ اللّه ميثاق الأنبياء و أممهم [لَما آتَيْتُكُمْ «و اللام» موطّئة لأنّ أخذ الميثاق بمعنى الاستحلاف و «ما» مبتدأ موصولة و «آتيتكم» صلتها و العائد محذوف تقديره: للّذي آتيتكموه [لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ جواب قسم مقدّر و القسم المقدّر و جوابه خبر للمبتدأ أي و اللّه لتصدّقنّه برسالته و تنصرنّه على أعدائه و هذا إذا كانت «ما»

في الآية موصولة، و اللام لام ابتداء و هي المتلقيّة لما اجري مجرى القسم من قوله:

«وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ» و موضع «ما» حينئذ رفع بالابتداء كما ذكرنا قبيل هذا و الخبر «لتؤمننّ» و إذا جعلت «ما» للشرط كانت «ما» في موضع نصب «بآتيتكم» و تقديره:

أيّ شي ء آتيتكم و مهما آتيتكم من كتاب لتؤمننّ به؛ فالشرط هو إيتاؤه إيّاهم الكتاب و الحكمة و مجي ء الرسول و الجزاء القسم و المقسم عليه و هو قول: «لتؤمننّ به» كقوله:

«لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ» (1).

فيكون على هذا معنى الآية إنّ اللّه قال لهم: مهما اوتيكم كتابا و حكمة ثمّ يجيئكم به رسول مصدّق لما معكم لتؤمننّ به و لتنصرنّه؛ فأقرّوا بذلك و أعطوا مواثيقهم و هو المرويّ عن عليّ و ابن عبّاس و قتادة و السدّيّ و الجبّائيّ و أبو مسلم و هذا كلّه على قراءة الفتح في اللام في «لَما آتَيْتُكُمْ» و على قراءة كسر اللام فالمعنى: ميثاقهم لأجل ما أوتوه من الكتاب و الحكمة لأنّهم الفواضل و خيار الناس. و قرأ سعيد بن جبير «لمّا» مشدّدة.

قال بعض المفسّرين ذكر «النبيّين» على سبيل المنايبة ثمّ قال مخاطبا بقوله:

«لَما آتَيْتُكُمْ» في الآية إضمار؛ فقالوا تقديره: و إذ أخذ اللّه ميثاق النبيّين لتبلّغنّ الناس ما آتيتكم، و حذف لدلالة الكلام. و هذا باب واسع في القرآن و أراحوا أنفسهم التكلّفات في الآية؛ فإنّ لام القسم إنّما يقع على الفعل فلمّا دلت هذه اللام على هذا الفعل لا جرم حذفه اختصارا.

قال سعيد بن المسيّب: و هذه الآية من مشكلات آيات القرآن. قال الطبرسيّ: و قد غاص النحويّون في وجوه إعرابها و شقّوا الشعر في تدقيقها.

[قالَ أي قال اللّه بعد ما أخذ الميثاق: [أَ أَقْرَرْتُمْ أي بالإيمان و النصر له.

قوله تعالى: [وَ أَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي أي قبلتم على ذلكم الميثاق عقدي الّذي عقدته عليكم؟ و الإصر الثقل الّذي يلحق الإنسان و المراد هنا العهد.

[قالُوا أَقْرَرْنا] أي قال الأنبياء و أممهم أقررنا بما أمرتنا به [قالَ اللّه: [فَاشْهَدُوا]

1- الزمر: 65.

أيّها الملائكة أو الأنبياء أو الأمم بإقرار بعضكم على بعض [وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشّاهِدِينَ أي و أنا أيضا شاهد على إقراركم ذلك، و المقصود التحذير من الرجوع إذا علموا شهادة اللّه و شهادة بعضهم على بعض.

[سورة آل عمران (3): آية 82]

فَمَنْ تَوَلّى بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (82)

فَمَنْ تَوَلّى أي أعرض بَعْدَ ذلِكَ العهد الخارجون المتمرّدون عن الإيمان و الطاعة و روي عنه صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال: لقد جئتكم بها بيضاء نقيّة أما و اللّه لو كان موسى بن عمران عليه السّلام حيّا لما وسعه إلّا اتّباعي.

قال أمير المؤمنين عليه السّلام: إنّ اللّه ما بعث آدم و من بعده من الأنبياء إلّا أخذ عليهم العهد لئن بعث محمّد صلّى اللّه عليه و آله و هو حيّ ليؤمننّ به. و قال أبو مسلم: إنّ الّذين أخذ اللّه الميثاق منهم، يجب عليهم الإيمان بمحمّد عند مبعثه و كلّ الأنبياء يكونون عند مبعث محمّد في زمرة الأموات؛ فلمّا كان الّذين أخذ الميثاق عليهم يجب عليهم الإيمان بمحمّد عند مبعثه و لا يمكن إيجاب الإيمان على الأنبياء عند مبعث محمّد علمنا أنّ الّذين أخذ الميثاق عليهم ليسوا هم النبيّين بل هم أممهم، و كثيرا ورد في القرآن لفظ النبيّ و المراد امّته.

و ممّا يؤكّد هذا أنّه تعالى حكم على الّذين أخذ عليهم الميثاق أنّهم لو تولّوا لكانوا فاسقين و هذا الوصف لا يليق بالأنبياء و إنّما يليق بالأمم. و أجاب بعض المفسّرين أنّه لم لا يجوز أن يكون المراد أنّ الأنبياء لو كانوا في الحياة لوجب عليهم هذا الأمر و هو الإيمان بمحمّد صلّى اللّه عليه و آله و نظيره قوله: «لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ» (1) و قد علم اللّه أنّه صلّى اللّه عليه و آله لا يشرك قطّ لكن خرج هذا الكلام على سبيل الفرض كما قال: «وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ» (2).

فلو قيل: إنّ هذا الخطاب في قوله: «لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ» إن كان المراد الأنبياء فجميع الأنبياء ما أوتوا الكتاب و إنّما اوتي بعضهم و إن كان الخطاب مع الأمم فالإشكال أظهر.

و الجواب أنّ الأنبياء كانوا محكومين و مهتدين بالكتاب المنزل و لو أنّه لم ينزل على بعضهم، و وصف الكلّ بالإتيان و بوصف أشرف أنواعهم و هم الّذين أوتوا الكتاب. و المراد

1- الزمر: 65.

2- الحاقة: 44.

من «الكتاب» هو المنزل المقروء، و المراد من «الحكمة» هو الوحي الوارد بالتكاليف المفصّلة الّتي لم يشتمل ظاهر الكتاب عليها.

[سورة آل عمران (3): آية 83]

أَ فَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (83)

. و لمّا بيّن سبحانه في الآية الاولى أنّ الإيمان بمحمّد شرع شرّعه اللّه و أوجبه على جميع من مضى من الأنبياء لزم أنّ كلّ من كره ذلك فإنّه يكون طالبا دينا غير دين اللّه فلهذا عبّر بهذه الآية [أَ فَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ و قرئ «تبغون» بالخطاب و الخطاب لليهود، فالميثاق لمّا كان مذكورا في كتبهم على لسان رسلهم فقد كانوا عالمين و عارفين بصدق الرسول الأمّيّ فلم يبق لجحودهم نبوّته صلّى اللّه عليه و آله سوى العناد.

فقال سبحانه: أ يتولّون غير دين اللّه و يطلبونه [وَ لَهُ أَسْلَمَ أي للّه أخلص و انقاد [مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أي أهلهما. فإن قيل: إنّ الكافر ما أسلم له؛ فالجواب: أنّ المسلمين أسلموا له طوعا و الكافر أسلم له كرها عند موته ضرورة كما قال سبحانه «فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا» (1).

و قيل: المراد من قوله: «أسلم» أي خضع و انقاد كما فسّرنا فخضوع كلّ من في السماوات و الأرض للّه بيانه: أنّ كلّ ما سوى اللّه منقاد خاضع للّه في طرفي وجوده و عدمه و هذا هو نهاية الانقياد؛ فكلّ ما سواه لا يوجد إلّا بتكوينه و لا يفنى إلّا بإفنائه سواء كان عقلا أو نفسا أو روحا أو جسما أو جوهرا أو عرضا أو فعلا أو فاعلا.

و نظيره في الدلالة على هذا المعنى: «وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» (2) و كذلك «وَ إِنْ مِنْ شَيْ ءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ» (3) و ليس لأحد الامتناع عليه سبحانه في مراده فالمسلمون الصالحون ينقادون للّه طوعا فيما يتعلّق بالدين و ينقادون له كرها فيما يخالف طباعهم من المرض و الفقر و الموت و أشباه ذلك و الكافرون عند موتهم ضرورة.

و قال الحسن: الطوع لأهل السماوات خاصّة و أمّا أهل الأرض فبعضهم بالطوع و بعضهم بالكره.

1- غافر: 85.

2- الرعد: 15.

3- الإسراء: 44.

و قيل: في الآية قول آخر و هو أنّ المراد أنّ انقياد الكلّ إنّما حصلت وقت أخذ الميثاق و هو قوله: «وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى (1).

[و إليه ترجعون أي إلى جزائه مصيركم فبادروا إلى قبول دينه و لا تخالفوا الإسلام و «طَوْعاً وَ كَرْهاً» منصوبان على الحال مصدران تقديره: طائعا و كارها.

[سورة آل عمران (3): آية 84]

قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ عَلَيْنا وَ ما أُنْزِلَ عَلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ ما أُوتِيَ مُوسى وَ عِيسى وَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (84)

. خاطبه سبحانه أوّلا بخطاب الواحد ليدلّ على أنّه لا مبلّغ لهذا التكليف من اللّه إلى الخلق إلّا هو و هو المعين للتبليغ ثمّ قال: [آمَنَّا] بلفظ الجمع حتّى يوافقونه أصحابه عليه و تنبيها على أنّ هذا التكليف ليس من خواصّه بل هو واجب لكلّ المؤمنين، أو النون نون العظمة، أمره سبحانه بأن يتكلّم عن نفسه على ديدن الملوك إظهارا منه تعالى لإبانة جلالة قدره صلّى اللّه عليه و آله و رفعة محلّه.

[وَ ما أُنْزِلَ عَلَيْنا] و هو القرآن، و النزول كما يعدّى بإلى لانتهائه إلى الرسل يعدّى بعلى لأنّه من فوق [وَ ما أُنْزِلَ عَلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ] من الصحف و المراد من «الأسباط» حفدة يعقوب و أبناؤه الاثنا عشر و ذراريهم فإنّهم حفدة إبراهيم.

[وَ ما أُوتِيَ مُوسى وَ عِيسى من التوراة و الإنجيل و سائر المعجزات الظاهرة على أيديهم و تخصيصهما بالذكر لما أنّ الكلام مع اليهود و النصارى [وَ النَّبِيُّونَ أي و ما اوتي النبيّون من المذكورين و غيرهم [مِنْ رَبِّهِمْ من الصحف و المعجزات.

[لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ كدأب اليهود و النصارى آمنوا ببعض و كفروا ببعض بل نؤمن بصحّة كلّ منهم و بحقّيّة ما أنزل إليهم في زمانهم. و اختلف في أنّ النبيّ الّذي نسخ شرعه بنبيّ بعده فهل يكون نبوّته باقية أم لا؟ فمن قائل إنّ نبوّته أيضا منسوخة.

ص: 230

1- الأعراف: 172.

و من قائل إنّ نسخ الشريعة لا يقتضي نسخ النبوّة [وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ أي منقادون و مخلصون له تعالى أنفسنا و لا نجعل له شريكا في الربوبيّة.

[سورة آل عمران (3): آية 85]

وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ (85)

. و من يطلب غير التوحيد [دِيناً] يدين به كدأب المشركين صريحا و المدّعين للتوحيد مع إشراكهم كأهل الكتابين [فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ذلك أبدا بل يردّ [وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ بحرمان الثواب و حصول العقاب و التحسّر الدائم.

[سورة آل عمران (3): آية 86]

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ وَ شَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَ جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (86)

. [كَيْفَ أصله الاستفهام و المراد به هنا الإنكار أي لا يهديهم اللّه إلى الحقّ [قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ و الآية تدلّ على أنّ الدين و الإسلام و الإيمان واحد. قيل: هم عشرة رهط ارتدّوا بعد ما آمنوا و لحقوا بمكّة، و المراد أنّه كيف يوفّقهم اللّه لاكتساب الاهتداء؟ و إنّما يوفّق سبحانه على كسب الاهتداء و يقدرهم عليه إذا كانوا متواضعين للحقّ راغبين فيه لا معرضين عنه و لا معاندين له. و قد جرت سنّة اللّه في دار التكليف على أنّ كلّ فعل يقصد العبد إلى تحصيله فإنّ اللّه لا يمنعه عقيب قصد العبد.

[وَ شَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ أي صادق فيما يقول [وَ جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ و الشواهد من القرآن و المعجزات أي بعد أن آمنوا و بعد أن شهدوا حقيقة الأمر. و هو دليل على أنّ الإقرار باللسان فقط خارج عن حقيقة الإيمان ضرورة أنّ المعطوف مغاير للمعطوف عليه.

[وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ الّذين ظلموا أنفسهم بوضع الكفر موضع الإيمان، و هذا حال من دام على الكفر و الثابت عليه و أمّا إذا رجعوا و تحرّوا إصابة الحقّ فحينئذ يهديهم اللّه و يجعل الاهتداء فيهم و لا يمنعهم ثواب الفيض الأقدس.

أولئك الموصوفون جزاؤهم ان عليهم لعنة اللّه و هو إبعاده عن الجنّة و إنزال العذاب و الملائكة أي و لعنهم

[سورة آل عمران (3): الآيات 87 الى 88]

أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَ الْمَلائِكَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (87) خالِدِينَ فِيها لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ (88)

أي إنّهم مخلّدون في اللعنة و ثابتون في البعد عن الرحمة و لا يزال يوم القيامة يلعنهم الملائكة و المؤمنون و من معهم في النار من غير تخفيف لهم من العذاب في النار، و لا يؤخّر العذاب من وقت إلى وقت عنهم؛ فإنّ العذاب الملحق بالكفّار دائم غير منقطع.

[سورة آل عمران (3): آية 89]

إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (89)

. قيل: نزلت في رجل من الأنصار يقال له: الحارث بن سويد بن الصامت، و كان قتل المحدر بن زياد البكريّ غدرا و هرب إلى مكّة و ارتدّ عن الإسلام ثمّ ندم فأرسل رسولا إلى قومه أن يسألوا رسول اللّه هل لي من توبة؟ فسألوا، فنزلت الآيات إلى قوله: «إِلَّا الَّذِينَ تابُوا» فحملها إليه رجل من قومه فقال: إنّي أعلم أنّك لصدوق و رسول اللّه أصدق منك و أنّ اللّه أصدق الثلاثة، فرجع إلى المدينة و تاب و حسن إسلامه، عن مجاهد و السدّيّ و هو المرويّ عن أبي عبد اللّه عليه السّلام.

و قيل: نزلت الآيات في أهل الكتاب الّذين كانوا يؤمنون بالنبيّ صلّى اللّه عليه و آله قبل مبعثه ثمّ. كفروا بعد البعثة حسدا و بغيا، عن الحسن و الجبّائيّ و أبي مسلم.

و الاستثناء متّصل و لا- يحمل على المنقطع مع حسن الاتّصال لأنّه الأصل في الكلام و المستثنون [الَّذِينَ تابُوا] و رجعوا عن الكفر إلى الايمان [وَ أَصْلَحُوا] ضمائرهم و عزموا على أن يثبتوا على الإيمان.

قال الطبرسيّ: و هذا المعنى أحسن من قول من قال: المراد من قوله: «و أصلحوا» أي أصلحوا أعمالهم بعد التوبة و صلّوا و صاموا؛ فإنّ ذلك ليس بشرط في صحّة التوبة إذ لو مات قبل فعل الصالحات مات مؤمنا بالإجماع.

أقول: إنّ ما قاله الشيخ الطبرسيّ من أنّ ذلك ليس بشرط في صحّة التوبة صحيح لكن إذا تاب و مات قبل فعل الصالحات بحيث أدركه بعد التوبة الأجل، أمّا إذا تاب و بقي و لم يتدارك صلاته و سائر واجباته الّتي عليه أداؤها فهل هو مغفور و لم يعذّب؟ فيه تأمّل؛ لأنّ شرط قبول التوبة الرجوع عمّا كان عليه و التدارك لما فات منه، نعم مات مؤمنا معناه أنّه ليس بكافر و لا مخلّد لكن إسقاط العذاب عنه غير معلوم.

قال صاحب تفسير روح البيان: إنّ عطف قوله: «وَ أَصْلَحُوا» على قوله: «إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا» يدلّ على أنّ التوبة وحدها و هي الندم على ما مضى من الارتداد و العزم على تركه في المستقبل لا يكفي حتّى ينضاف إليها العمل الصالح.

يحكى عن السريّ السقطي أنّه قال: عجبت من ضعيف عصى قويّا. فلمّا كان الغداة و صلّيت الغداة إذا أنا بشابّ قد وافى و خلفه ركبان على دوابّ بين يديه غلمان و هو راكب على دابّته فنزل و قال: أيّكم السريّ؟ فأومأ جلسائي إليّ، فسلّم عليّ و جلس و قال:

سمعتك تقول: عجبت لضعيف عصى قويّا، فما أردت به؟ فقلت: ما ضعيف أضعف من ابن آدم و لا قويّ أقوى من اللّه و قد تعرّض ابن آدم مع ضعفه إلى معصية اللّه، قال: فبكى، ثمّ قال:

يا سريّ هل يقبل ربّك غريقا مثلي؟ قلت: و من ينقذ الغريق إلّا اللّه؟ قال الشابّ: إنّ عليّ مظالم كثيرة كيف أصنع؟ قال: إن صححت الانقطاع إلى اللّه ارضي عنك الخصوم بشرط أن تردّ إليهم ما بيدك؛ بلغنا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: إذا كان يوم القيامة و اجتمع الخصوم على وليّ اللّه تقول الملائكة لهم لا تروعوا وليّ اللّه فإنّ الحقّ اليوم على اللّه فيهب اللّه لهم مقامات عالية بدل حقوقهم فيتجاوزون عن الوليّ.

قال فبكى ثمّ قال: صف لي الطريق إلى اللّه، فقلت: إن كنت تريد طريق المقتصدين فعليك بالصيام و القيام و ترك الآثام، و إن كنت تريد طريق الأولياء فاقطع العلائق و اتّصل بخدمة الخالق و عدّ نفسك من أصحاب القبور؛ فإنّ الإنسان لا يصل إلى الحضور الباقي و الحياة الأبديّة إلّا بعد إفناء وجوده في الطاعة و تبديل الأخلاق الذميمة بالحميدة.

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: كن في الدنيا كانّك غريب أو عابر سبيل و لا تتّخذها وطنا، الحديث.

[سورة آل عمران (3): آية 90]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (90)

. لمّا ذكر سبحانه ذكر التوبة المقبولة عقبه بذكر مالا يقبل منها.

قيل: نزلت في أهل الكتاب الّذين آمنوا بمحمّد و كتابه قبل مبعثه ثمّ كفروا به و أنكروا نعوته بعد مبعثه. و قيل: نزلت في الّذين آمنوا بموسى عليه السّلام و كفروا بعيسى و الإنجيل [ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً] بكفرهم بمحمّد و القرآن. و قيل: نزلت في أحد عشر من أصحاب

الحارث بن سويـد لمّا رجع الحارث قالوا: نقيم بمكّـة على الكفر فمتى أردنا الرجعة إلى الإسـلام رجعنا فينزل فينا ما نزل في الحارث فلمّا افتتح رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله مكّة دخل في الإسلام من دخل منهم فقبلت توبته و نزل فيمن مات على كفره.

و قيـل: معنى الآيـة [لَنْ تُقْبَـلَ تَوْبَتُهُمْ لأنّه كلّما نزلت آيـة كفروا بها و ثبتوا على كفرهم و ازدادوا بالإصـرار عليه و الطعن فيه و الصـدّ عن الإيمـان. و قيل: لن تقبل توبتهم عنـد رؤيـة البأس و الموت؛ لأنّها يكون في حال الإلجاء و لا يتوبون إلّا عنـد حضور الموت [وَ أُولئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ عن الحقّ الهالكون المعذّبون.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): آية 91]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ماتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْ ءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَ لَوِ افْتَدى بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (91)

. لمّا كان الموت على الكفر سببا لامتناع قبول الفدية دخلت الفاء إيذانا بسببيّة المبتدء لخبره و الكلام وارد على الفرض، و الذهب كناية من أعزّ الأشياء و كونه مل ء الأرض كناية عن غاية الكثرة و إلّا فهو يوم القيامة لا يملك نقيرا و لا قطميرا، و المراد أنّ من مات على الكفر لو كان يملك مل ء الأرض ذهبا و افتدى به لا تنفعه الفدية عن عذاب اللّه و أنّهم آيسون من تخليص أنفسهم من العقاب.

[أُولئِكَ الموصوفون بهـذا الوصف الشـنيع [لَهُمْ عَـذابٌ أَلِيمٌ مولم و مالهم من ناصـرين في دفع العـذاب، و قرأ الأعمش «ذهب» بالرفع أمّا النصب فعلى التميز و معنى التميز في الكلام أن يكون الكلام معلوما في الجملة لكنّه مع معلوميّته مبهم مثل قولك:

عندي عشـرون، فالعدد معلوم لكنّ المعدود مبهم فإذا قلت: درهما، فسّـرته، و كذلك إذا قلت: هو أحسن الناس، فقد أعلمت و أخبرت عن حسنه و لـم تتبيّن في ما ذا، فإذا قلت:

وجهـا أو فعلا، فقـد بيّنته و فسّـرته. و إنّما نصب التمييز لأنّه ليس له ما يخفضه و لا ما يرفعه فلمّا خلا من هـذين نصب؛ لأنّ النصب أخفّ الإعراب فيجعل منصوبا كأنّه لا عامل فيه.

و أمّا الرفع ردّا على «مل ء» كما يقال: عندي عشرون نفسا رجالا.

[وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ لمّا بيّن أنّه لا خلاص لهم عن العذاب بسبب الفدية بيّن

أنّه لا خلاص لهم عنه بسبب الإعانة و النصرة و الشفاعة. و في الآية إشعار على إثبات الشفاعة؛ و ذلك لأنّه تعالى ختم وعيد الكفّار بعدم النصرة و الشفاعة فلو حصل هذا المعنى في حقّ غير الكافر بطل تخصيص هذا الوعيد بالكفر. و صيغة الجمع لمراعاة الضمير أي ليس لواحد منهم ناصر واحد. قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: يقول اللّه لأهون أهل النار عذابا يوم القيامة: لو أنّ لك ما في الأرض من شي ء أ كنت تفدي به؟ فيقول: نعم، فيقول: أردت منك أهون من هذا و أنت في صلب آدم: أن لا تشرك بي شيئا فأبيت إلّا أن تشرك بي.

قال الفخر الرازيّ: إنّ الكافر على ثلاثة أقسام: أحدها الّذي يتوب عن الكفر توبة صحيحة مقبولة و هو الّذي ذكره اللّه بقوله: «إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

و القسم الثاني هو الّذي يتوب عن الكفر توبة فاسدة و هو الّذي ذكره اللّه في قوله:

«ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ».

و ثالثها الّذي يموت على الكفر من غير توبة و هو المذكور بقوله: «فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْ ءُ الْأَرْضِ ذَهَباً» و هم الّذين رسخت هيئة استيلاء النفوس الأمّارة على قلوبهم و تمكّنت و صارت زينا فتمادت في العناد و كان سبب كفرهم محبّة هذه العوائق الفانية و اتّباع الهوى.

قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: أخوف ما أخاف عليكم اتّباع الهوى و طول الأمل فأمّا اتّباع الهوى فيصدّ عن الحقّ و أمّا طول الأمل فينسي الآخرة قال علماء الأخلاق: مفتاح العبادة الفكرة و علامة الإصابة مخالفة النفس و الهوى.

قال جعفر بن نصير: دفع إليّ بعض الزهّاد درهما فقال: اشتر به التين الوزيريّ فاشتريته، فلمّا أفطر أخذ واحدة و وضعها في فيه ثمّ ألقاها من فمه و بكى و قال: لي احمله، فقلت: له في ذلك، فقال: هتف في قلبي: أما تستحيي شهوة تركتها من أجله تعالى ثمّ تعود إليها.

و أعلم أنّ النفس مجبولة على ضدّ الروحانيّة الّتي هي من الملكوت الأعلى و تأمر

بالتمرّد و الاستكبار و لا تقبل الموعظة قال صاحب البردة: (1)

فإنّ أمّارتي بالسوء ما اتّعظت من جهلها بنذير الشيب و الهرم

فهي شبيهة بجهنّم و لها دركات سبع كما أنّ لجهنّم طبقات، و دركات النفس صفاتها السبع: الكبر و الحرص و الشهوة و الحسد و الغضب و البخل و الحقد؛ فمن زكّى نفسه عن هذه الصفات فقد عبر عن هذه الدركات السفليّة الشيطانيّة الجهنّميّة و وصل إلى درجات الجنان العلويّة كمال قال: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها» (2) و من لم يزكّها عن هذه الصفات بقي خائبا خاسرا كما قال: «وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها» (3).

قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): آية 92]

لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْ ءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (92)

. أي لن تبلغوا أيّها المؤمنون و لن تدركوه [حَتَّى تُنْفِقُوا] و اختلف في «البرّ» هنا فقيل: هو الجنّة عن ابن عبّاس و جماعة. و قيل: هو الطاعة و التقوى. و قيل: معناه لن تكونوا صالحين أتقياء و لن تلحقوا بزمرة الأبرار حتّى تنفقوا في سبيل اللّه بعض ما تهوونه و تعجبكم من كرائم أموالكم.

[وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْ ءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ أي أيّ شيء تنفقوا طيّب تحبّونه أو خبيث تكرهونه- و محلّ الجارّ و المجرور النصب على التمييز- فيجازيكم بحسبه جيّدا كان أو رديئا علما كاملا لا يخفى عليه شي ء من ذات ذلك أو صفاته، و العاقل إذا أحبّ شيئا جعله لنفسه ذخيرة ليوم يحتاج إليه. روي أنّها لما نزلت جاء أبو طلحة فقال يا رسول اللّه: إنّ أحبّ أموالي إليّ بئر حاء- و هو ضيعة له في المدينة مستقبل مسجد رسول اللّه- فضعها يا رسول اللّه حيث أراك اللّه فقال صلّى اللّه عليه و آله: بخ بخ ذاك مال رابح أو رايج فإنّي أرى أن تجعلها في الأقربين؛ فقسّمها في أقاربه.

و قد قيل: من أراد البرّ فلينفق بعض ما يحبّه و من أراد البارّ فلينفق جميع ما يحبّه.

قال نجم الدّين: فبقدر ما تكونون له يكون لكم كما قيل: «من كان للّه كان اللّه له» فإنّ

1- هي قصيدة مدح بها خاتم النبيين صلّى اللّه عليه و آله الطيبين و رأى صاحبه في المنام انه صم أهداه بردة فاشتهرت القصيدة بالبردة.
2- الشمس: 9- 10.
3- الشمس: 9- 10.

الفراش ما نال من برّ الشمع و هو شعلته حتّى أنفق ما أحبّه و هو نفسه حتّى قيل: من أحبّ من دون اللّه شيئا فقد حجب به عن اللّه و أشرك شركا خفيّا لتعلّق محبّته بغير اللّه.

حكي أنّ ربيع بن خثيم ضربه الفالج و طال به وجعه فاشتهى لحم دجاج فكفّ نفسه أربعين يوما فأبت فقال: لزوجته قد اشتهيت لحم دجاج منذ أربعين يوم فكففت نفسي رجاء أن تكفّ فأبت؛ فقالت امرأته: سبحان اللّه و أيّ شي ء هذا تكفّ نفسك عنه و قد أحلّه اللّه لك فأرسلت امرأته إلى السوق فاشترت له دجاجة و ذبحتها و شوتها و خبزت خبزا و جعلت لها أصباغا ثمّ جاءت بالخوان فوضعته بين يديه فقام سائل بالباب فقال: تصدّقوا عليّ بارك اللّه لكم، فكفّ عن الأكل و قال لامرأته: خذي هذا و ادفعيه إليه، فقالت له امرأته: سبحان اللّه، قال: افعلي ما آمرك به، قالت: فاصنع ما هو خير له، قال: و ما هو، قالت: تعطيه ثمن هذا و تأكل أنت شهوتك، قال: أحسنت ايتيني بثمنه؛ فجاءت بثمنه، فقال: ضعيه على هذا و ادفعيه جميعا ففعلت، ثمّ قال: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاها* وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسّاها».

و بالجملة فلا يحصل القرب و لا يزول البعد إلّا بقطع محبّة غير اللّه و إفناء النفس و الشهوة.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): آية 93]

كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرائِيلَ إِلاّ ما حَرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْراةِ فَاتْلُوها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (93)

. النزول: لمّا نزل قوله تعالى: «فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ الآية» (1) و قوله: «وَ عَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ- إلى قوله- ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ» (2) أنكر اليهود و غاظهم ذلك و برّؤوا ساحتهم من الظلم و قالوا: لسنا بأوّل من حرمت عليه تلك المطعومات و ما هو إلّا تحريم قديم كانت محرّمة على نوح و إبراهيم و من بعده و هلمّ جرّا حتّى انتهى التحريم إلينا، و غرضهم نفي البغي و الظلم و الصدّ عن سبيل اللّه من أنفسهم و ما عدّد اللّه من مساويهم الّتي كلّما ارتكبوا منها كبيرة حرّم عليهم نوع من الطيّبات عقوبة لهم.

1- النساء: 160.

2- الانعام: 146.

فقـال سـبحانه: [كُلُّ الطَّعامِ و أنواعه [كانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرائِيلَ و المراد أكله [إِلّا ما حَرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلى نَفْسِهِ أي يعقوب حرّم على نفسه لحوم الإبل و ألبانها.

روي أنّ يعقوب كان نذر إن وهب اللّه له اثني عشر ولدا و أتى بيت المقدس صحيحا أن يذبح آخرهم، فتلقّاه ملك من الملائكة فقال له: يا يعقوب إنّك رجل قويّ فهل لك في الصراع؟ فعالجه فلم يصرع واحدا منهما صاحبه فغمزه الملك غمزة فعرض له عرق النساء من ذلك، ثمّ قال له الملك: أما أنّي لو شئت أن أصرعك لفعلت و لكن غمزتك هذا الغمزة لأنّك نذرت إن أتيت بيت المقدس صحيحا ذبحت آخر ولد لك، و جعل اللّه لك لهذه الغمزة مخرجا من ذلك الذبح.

ثمّ إنّ يعقوب لمّا قدم بيت المقدس أراد ذبح ولده و نسي قول الملك أو انسي- على اختلاف بين العامّة و الخاصّة في نسيان الأنبياء أو إنسائهم في امور أو عدمهما- فأتاه الملك فقال: إنّما غمزتك للمخرج و قد وفي نذرك فلا سبيل لك إلى ولدك. ثمّ إنّه حين ابتلا بذلك المرض لقي من ذلك بلاء و شدّة و كان لا ينام الليل من الوجع فحلف و نذر لئن شفاه اللّه لا يأكل أحبّ الطعام إليه فحرّم لحوم الإبل و ألبانها، عن ابن عبّاس و جماعة.

و قيل: حرّم على نفسه لحم الجزور و سأل اللّه أن يجيز له فحرّم اللّه ذلك على ولده.

و قيل: حرّم زائد من الكبد و الكليتين و الشحم إلّا ما حملته الظهور. و قيل: حرّمه كما يحرم المستظهر في دينه من الزهّاد بعض اللذائد على نفسه و كان ذلك جائزا.

[مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ] متعلّق بقوله: «كانَ حِلًّا» و الاستثناء معترضة في الكلام و المعنى أنّ المطعومات كانت حلّا لهم قبل نزول التوراة ثمّ حرّمت بسبب بغي اليهود و ظلمهم فكذّب اللّه اليهود ادّعاءهم أنّ بعض هذه الأطعمة كانت محرّمة و ما حرّمت بسبب بغينا، و ردّ عليهم في دعواهم البرائة من الظلم و الطعن في دعوى الرسول موافقته لإبراهيم بتحليله صلّى اللّه عليه و آله لحوم الإبل و ألبانها.

[قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْراةِ فَاتْلُوها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أمره سبحانه بأن يحاجّهم بكتابهم الناطق بأنّ تحريم ما حرّم تحريم مرتّب على ظلمهم و بغيهم و يكلّفهم إخراجه و تلاوته

ص: 238

ليبكتهم و يلقمهم الحجر و يظهر كذبهم. روي أنّهم لم يجترئوا على إخراج التوراة فبهتوا و انقلبوا صاغرين.

[سورة آل عمران (3): آية 94]

فَمَنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (94)

. أي من اختلق عليه سبحانه بزعمه أنّه حرّم ما ذكر قبل نزول التوراة على بني إسرائيل و من تقدّمهم من الأمم من بعد ما ذكر من أمرهم بإحضار التوراة فأولئك المصرّون على الافتراء و هم المفرطون في الظلم و العدوان.

[سورة آل عمران (3): آية 95]

قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (95)

. [قُلْ لهم يا محمّد ظهر و ثبت صدقه تعالى فيما أنزل في شأن التحريم و أنّ كلّ الطعام كان حلّا لبنى إسرائيل و أنّ محمّدا في مراتب التوحيد كان متّبعا على دين إبراهيم و هو الحقّ [فَاتَّبِعُوا] أنتم أيّها اليهود [مِلَّةَ] الإسلام فإنّه ملّة إبراهيم و أنّكم ما كنتم متّبعين ملّته كما تزعمون [حَنِيفاً] حال من إبراهيم أي مائلا عن الأديان الزائفة المعوجّة [وَ ما كانَ إبراهيم [مِنَ الْمُشْرِكِينَ و فيه تعريض بإشراك اليهود و تصريح بأنّه صلّى اللّه عليه و آله على دين الحقّ و على دين أبيه إبراهيم في الأصول لأنّه صلّى اللّه عليه و آله لا يدعو إلّا إلى التوحيد و البراءة من التشريك و التثليث.

قال نجم الدين في كتاب تأويلات النجميّة: إنّ اللّه تعالى خلق الخلق على ثلاثة أصناف: صنف منها الملك الروحانيّ العلويّ اللطيف النورانيّ و جعل غذاءهم من جنسهم الذكر و خلقهم للعبادة و لا يعصون اللّه طرفة عين أبدا، و صنف منها الحيوان الجسمانيّ السفليّ الكثيف الظلمانيّ و جعل غذاءهم من جنسهم الطعام و خلقهم للعبرة و الخدمة كالبقر و الغنم و أمثالها، و صنف منها الإنسان المركّب من الملكيّ الروحانيّ و الحيوانيّ الجسمانيّ جعل غذاءهم من جنسهم و جعل لروحانيّتهم الذكر و لجسمانيّتهم الطعام و خلقهم للمعرفة و العبادة و الخلافة.

فمنهم ظالم لنفسه و هو الّذي غلبت حيوانيّته على روحانيّته فبالغ في غذاء جسمانيّته و قصّر في غذاء روحانيّته حتّى مات روحه و استولت حيوانيّته أولئك كالأنعام بل هم أضلّ.

و منهم مقتصد و هو الّذي تساوت روحانيّته و حيوانيّته فغذى كلّ واحدة

منهما غذاءها؛ خلطوا عملا صالحا و آخر سيّئا عسى اللّه أن يتوب عليهم.

و منهم سابق بالخيرات و هو الّذي غلبت روحانيّته على حيوانيّته فبالغ في غذاء روحانيّته و هو الذكر و قصّر في غذاء حيوانيّته و هو الطعام حتّى ماتت نفسه و استوت قوى روحه، أولئك هم خير البريّة فكان كلّ الطعام حلالا لهم من الأطعمة المناسبة للإنسان إلّا ما حرّم الإنسان السابق بالخيرات على نفسه بموت النفس و حياة القلب و استيلاء الروح من قبل أن نزل عليه الوحي و الإلهام، و إنّما حرّمه على نفسه بسبب ارتقائه إلى درجة الملكيّة و منع نفسه عن اللذّات بسبب نهي النفس عن هواها لا أنّه حرّمه حقيقة على وجه التشريع فهنيئا لهم.

و بالجملة قال سبحانه في حقّ إبراهيم: «وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» لأنّه عليه السّلام ما جعل الشركة في الخلّة مع اللّه و ما اتّخذ خليلا سواه و أحبّ من أحبّه اللّه و أبغض من أبغضه اللّه.

قال الفضل بن عياض: يقول اللّه يوم القيامة: يا ابن آدم أمّا زهدك في الدنيا فإنّما طلبت الراحة لنفسك في الآخرة و أمّا انقطاعك إليّ فإنّما طلبت العزّ لنفسك و لكن هل عاديت لي عدوّا أو واليت لي وليّا. فاسع أي العاقل في طاعتك بالخلوص في محبّة اللّه فإنّه الكبريت الأحمر و اللّه لا يحبّ القلب المشترك بمحبّة غيره من شهوة أو غيرها.

قال محمّد بن حسان: بينما أنا أدور في جبل لبنان إذ خرج عليّ شابّ قد أحرقته السموم و الرياح فلمّا رآني ولّى هاربا فتبعته و قلت: عظني بكلمة أنتفع بها، قال:

احذره تعالى فإنّه غيور لا يحبّ أن يرى في قلب عبد سواه، انتهى.

[سورة آل عمران (3): آية 96]

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ (96)

. «البيت» ما يبيت فيه أحد ثمّ استعمل في المسكن مطلقا، روي أنّه لمّا حوّلت القبلة إلى الكعبة طعن اليهود في نبوّته صلّى اللّه عليه و آله و قالوا: إنّ بيت المقدس أفضل من الكعبة و أحقّ بالاستقبال، لأنّه وضع قبل الكعبة و هو أرض المحشر و مهاجر الأنبياء و قبلتهم و هي الأرض المقدّسة الّتي بارك اللّه فيها للعالمين و فيها الجبل الّذي كلّم اللّه عليه موسى عليه السّلام فتحويل القبلة منه إلى الكعبة باطل فنزلت:

[إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ للعبادة و جعل متعبّدا لهم و الواضع هو اللّه تعالى [لَلَّذِي بِبَكَّةَ] خبر لإنّ، أي هو البيت الّذي في بكّة و هو علم للبلد الحرام يقال: بكّة إذا زحمه لازدحام الناس فيه أو لأنّها تبكّ أعناق الجبابرة و لم يقصدها جبّار إلّا اضمحلّ و فنى.

قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: أوّل بيت وضع للناس المسجد الحرام ثمّ بيت المقدس و بينهما أربعون سنة. و روي أنّ الملائكة بنوا بيت الحرام قبل خلق آدم بألفي عام فلمّا هبط آدم إلى الأرض قالت له الملائكة: طف حول هذا البيت فلقد طفنا حوله قبلك بألفي عام، فطاف به آدم و من بعده إلى زمن نوح فلمّا أراد اللّه الطوفان حمل إلى السماء الرابعة و هو البيت المعمور بحيال الكعبة يطوف به ملائكة السماوات.

فعلى هذا فنسبة بناء الكعبة إلى إبراهيم رفع قواعدها و إظهار ما درس منها بعد الطوفان و بقي مختفيا إلى أن بعث اللّه جبرئيل إلى إبراهيم و دلّه على مكان البيت و أمره بعمارته و لمّا كان الآمر بالبناء هو اللّه و المبلّغ و المهندس جبرئيل و الباني هو الخليل و التلميذ و المعين إسماعيل كيف يكون بناء أشرف من الكعبة؟

[مُبارَكاً] أي كثير النفع و الخير لما يحصل لمن حجّه و طاف حوله من الثواب و تكفير الذنوب [وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ لأنّه قبلتهم و متعبّدهم.

[سورة آل عمران (3): آية 97]

فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ (97)

. [فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مثل قصّة الفيل و أصحاب الفيل و بانحراف الطيور عن موازاة البيت و بانمحاق الجمار على كثرة الرماة فلولا أنّه لكان تجتمع هناك من الحجارة مثل الجبال على طول الزمان.

و قرأ ابن عبّاس: فيه آية بيّنة [مَقامُ إِبْراهِيمَ أثر قدميه عليه السّلام في الصخرة الّتي كان يقوم عليها وقت رفع الحجارة لبناء الكعبة عند ارتفاعه أو عند غسل رأسه على ما روي أنّه عليه السّلام جاء زائرا من الشام إلى مكّة فقالت له زوجة إسماعيل: أنزل حتّى أغسل رأسك فلم ينزل فجاءته بهذا الحجر فوضعته على شقّه الأيمن فوضع قدمه عليه حتّى غسلت شقّ رأسه ثمّ حوّلته إلى شقّه الأيسر حتّى غسلت شقّ الآخر فبقي أثر قدميه عليه و «مقام»

بدل من «آيات» بدل البعض من الكلّ.

[وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً] أي و من دخل الحرم كان مأمونا؛ قال ابن عبّاس: إنّ الحرم كلّه مقام إبراهيم. قيل: إنّ الكلام خبر و المراد به الأمر يعني أمّنوه حتّى أنّ من وجب عليه الحدّ فلاذ بالحرم لا يبايع و لا يشارى و لا يعامل حتّى يخرج من الحرم فيقام عليه الحدّ، و هو المرويّ عن أبي جعفر و أبي عبد اللّه عليهما السّلام إلّا أن يكون الفعل الموجب للحدّ واقع في الحرم فحينئذ يقام عليه الحدّ. و قيل: المعنى من دخله عارفا بجميع ما أوجبه اللّه عليه كان آمنا في الآخرة من العذاب و ذلك بدعوة إبراهيم «قال رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً».

و قيل: «بكّة» المسجد و «مكّة» الحرم كلّه يدخل فيه البيوت و هو المرويّ عن أبي جعفر. و قيل: «بكّة» بطن مكّة و «مكّة» اسم البلد. و قيل: «بكّة» هي مكّة و اشتقاقها اشتقاق بكّة و إبدال الميم من الباء واقع في كلام العرب كقولهم: ضربة لازب في لازم، و مسجد رأسه و سيّده، و الحطيم قال الصادق عليه السّلام: هو ما بين الحجر الأسود و الباب و هو الموضع الّذي فيه تاب اللّه على آدم. و سمّي الحطيم حطيما لأنّ الناس يحطم بعضهم بعضا أو أنّ الذنوب تنحطم فيه، و قال عليه السّلام: إنّ تهيّأ لك أن تصلّي صلاتك كلّها الفرائض و غيرها عند الحطيم فافعل فإنّه أفضل بقعة على وجه الأرض و بعده الصلاة في الحجر أفضل.

ورد عن أبي حمزة الثماليّ عن عليّ بن الحسين عليه السّلام قال: أفضل البقاع ما بين الركن و المقام و لو أنّ رجلا عمر ما عمر نوح في قومه ألف سنة إلّا خمسين عاما يصوم النهار و يقوم الليل في ذلك المقام ثمّ لقى اللّه تعالى بغير ولايتنا لا ينفعه ذلك شيئا. و قال الصادق عليه السّلام:

الركن اليمانيّ بابنا الّذي ندخل منه الجنّة.

قال صاحب روح البيان: في الحديث: من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمنا.

و قال الحقّيّ: و عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله الحجون و البقيع يؤخذ بأطرافهما و ينشران في الجنّة و هما مقبرتا مكّة و المدينة. و عن ابن مسعود: وقف النبيّ صلّى اللّه عليه و آله على ثنية الحجون و ليس بها مقبرة فقال: يبعث اللّه من هذه البقعة و من هذا الحرم سبعين ألفا وجوههم كالقمر ليلة البدر يدخلون الجنّة بغير حساب يشفع كلّ واحد منهم في سبعين ألفا وجوههم كالقمر ليلة البدر. و عنه صلّى اللّه عليه و آله: من صبر على حرّ مكّة ساعة من نهار تباعدت عنه جهنّم.

مسيرة مائتي عام، انتهى ما نقله الحقّيّ في تفسيره.

أقول: هذا إذا كان مع الولاية و بدونها لا ينفع الجوار كما نطق به الحديث السابق ذكره.

قوله تعالى: [وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا] لمّا بيّن اللّه فضيلة البيت عقّبه بذكر وجوب حجّة الإسلام أي و واجب على من استطاع و تمكّن و قدر إلى حجّ البيت و زيارته على الوجه المخصوص فوجد إليه طريقا بنفسه و ماله فليحجّ و ليتوجّه إليه. و اختلف في الاستطاعة فقيل: هي الزاد و الراحلة، عن ابن عبّاس. و قيل: ما يمكنه معه بلوغ مكّة بأيّ وجه يمكن وصول نفسه إليه. و المرويّ عن أئمّتنا عليهم السّلام: وجود الزاد و الراحلة و نفقة من يجب نفقته و الرجوع إمّا من مال أو ضياع أو حرفة مع الصحّة في البدن و إمكان السير.

قال الحقّيّ: و الاستطاعة الّتي هي شرط لوجوب الفعل هي الاستطاعة بهذا المعنى لا الاستطاعة الّتي هي شرط حصول الفعل فهي لا يكون إلّا مع الفعل لأنّها علّة وجود الفعل فلا يكون إلّا معه و لا تتحقّق إلّا بتحقّق الفعل؛ فالاستطاعة الاولى شرط الوجوب و الثانية شرط حصول الفعل. و «الحجّ» بالفتح لغة أهل الحجاز و الكسر لغة نجد و أيّاما كان فهو القصد للزيارة بإتيان الأعمال المخصوصة و هو حقّ واجب في ذمم الناس و لا انفكاك لهم عن أدائه.

[وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ] وضع سبحانه من كفر موضع من لم يحجّ تأكيدا لوجوبه و تشديدا لتاركه أي من لم يحجّ مع الاستطاعة و لم يره واجبا فقد كفر فإنّ اللّه غنيّ عن عبادتهم و لم يتعبّدهم لحاجة إليها، و قيل: معنى الآية كفران النعمة لأنّ امتثال أمر اللّه شكر لنعمته و تركه كفران.

و قد روي عن أبي امامة عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال: من لم يحبسه حاجة ظاهرة من مرض حابس أو سلطان جائر و لم يحجّ فليمت إن شاء يهوديّا و إن شاء نصرانيّا. قال الصادق عليه السّلام عن رسول اللّه: الحجّ و العمرة ينفيان الفقر و الذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد.

و في الآية دلالة على فساد قول من قال: إنّ الاستطاعة مع الفعل لأنّ اللّه أوجب

الحجّ على المستطيع و لم يوجب على غير المستطيع و ذلك لا يمكن إلّا قبل فعل الحجّ.

و أمّا نظم الآية بما قبلها أنّ اللّه أمر أهل الكتاب باتّباع ملّة إبراهيم و من ملّته تعظيم البيت و زيارته.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): الآيات 98 الى 99]

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ (98) قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَها عِوَجاً وَ أَنْتُمْ شُهَداءُ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (99)

عاد الكلام إلى محاجّة أهل الكتاب أو اليهود خاصّة يأمره صلّى اللّه عليه و آله بخطابهم: [قُلْ يا محمّد لهم: [لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ الّتي آتاها محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و العلامات الّتي وافقت صفته صلّى اللّه عليه و آله و تقدّمت البشارة به، و اللفظ لفظ الاستفهام و المراد به التوبيخ من حيث إنّه سؤال يعجزه عن إقامة العذر فكأنّه قال: هاتوا العذر في ذلك إن أمكنكم [وَ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ حفيظ على أعمالكم ليجازيكم عليها.

[قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ لم تصرفون عن دينه الحقّ و هو ملّة الإسلام «من آمن» مفعول «تصدّون» كانوا يمنعون من أراد الدخول في الإسلام بجهدهم و يقولون: إنّ صفته صلّى اللّه عليه و آله ليست كذلك في كتابنا. و قيل: إنّ كيفيّة صدّهم كانوا يغرون بين الأوس و الخزرج بتذكيرهم الحروب الّتي كانت بينهم في الجاهليّة حتّى تدخلهم الحميّة و العصبيّة فينسلخوا عن التوافق في الإسلام و نصرة النبيّ. و على هذا يكون المراد من «أهل الكتاب» في هذه الآية اليهود خاصّة.

[تَبْغُونَها عِوَجاً] و «الضمير» للسبيل و هو يذكّر و يؤنّث أي تطلبون سبيل اللّه مائلا عن الاستقامة بأن تلبسوا عليهم لقولكم: إنّ شريعة موسى لا تنسخ. و «العوج» بفتح العين و كسرها الانحراف لكنّ المكسور يختصّ بالمعاني و المفتوح بالأعيان تقول: في كلامه عوج بالكسر و في الجدار و الشجر عوج بالفتح [وَ أَنْتُمْ شُهَداءُ] أي و الحال أنّكم تشهدون في لبابكم بأنّها سبيل اللّه.

[وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ من الصدّ و كتمان الشهادة لنبيّه صلّى اللّه عليه و آله.

و لمّا وبّخ اللّه أهل الكتاب بصدّ المؤمنين نهى المؤمنين عن اتّباع الصادّين فقال:

[سورة آل عمران (3): آية 100]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ (100)

. نزلت في شاس بن قيس اليهوديّ رأى منتدى محتويا على زحام من أوس و خزرج فغاظه ألفتهم فأرسل شابّا ينشدهم أشعار يوم بغاث و كان ذلك يوما عظيما اقتتل فيه الحيّان و كان الظفر فيه للأوس فنعّر عرق الداء الدفين فتشاجروا فأخبر النبيّ صلّى اللّه عليه و آله فخرج يصلح ذات بينهم.

[سورة آل عمران (3): آية 101]

وَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَ أَنْتُمْ تُتْلى عَلَيْكُمْ آياتُ اللَّهِ وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (101)

. إنكار و تعجيب من كفرهم أي من أين يتطرّق إليكم الكفر و الحال أنّ القرآن المعجز [تُتْلى عَلَيْكُمْ على لسان الرسول غضّا معجبا مستجمعا لجميع صفات الكمال من حيث اللفظ و المعنى و بين أظهركم [وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ تعالى يعظكم و يبيّن لكم مالا تعلمون منه و يزيح شبهكم. و يجوز أن يكون المراد بقوله: «وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ» القوم الّذين كانوا في زمنه صلّى اللّه عليه و آله خاصّة، و يجوز أن يكون المراد الأمّة إلى يوم القيامة؛ لأنّ آثاره و علاماته من القرآن فينا قائمة باقية و ذلك بمنزلة وجوده فينا.

[وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ و بدينه و بكتابه [فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ و طريق واضح فإنّه صلّى اللّه عليه و آله لو مضى فآثار معجزاته و وجوده باقية و قد شاهد أهل عصره و تناقلتها الرواة بحيث كادت تبلغ إلى حدّ التواتر:

منها: أنّه صلّى اللّه عليه و آله يرى من خلفه كما يرى من قدّامه.

و منها: أنّه كان تنام عينه و لا ينام قلبه.

و منها: أنّه لم يكن له ظل.

و منها: أنّ الذباب لم يقع عليه.

و منها: أنّه كان يسطع نور من جبهته في الليل المظلمة.

و منها: أنّه ولد مختونا إلى غير ذلك من المعجزات و الشواهد على صدق نبوّته؛ فالاعتصام بكتابه و برسوله هو الهداية إلى الصراط المستقيم و لا يحصل الاعتصام إلّا باتّباع سنّته

صلى اللّه عليه و آله و الخشية من اللّه من مخالفته و شاهد الخشية موافقة الأمر «إِنَّما يَخْشَى اللّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ» (1).

و العالم متى ما كان رغبته في الدنيا و تملّق لأربابها و صرف الهمّة لاكتسابها و أحبّ الادّخار و الاستكثار و طال أمله و نسي الآخرة فعلمه وبال عليه و ما أبعد من العلم عمله، و كيف يكون مثله من ورثة الأنبياء؟ بل هو خليفة الشيطان. قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلّا اسمه و لا من القرآن إلّا رسمه، قلوبهم خربة من الهدى و مساجدهم عامرة بأبدانهم، شرّ من تظلّ السماء يومئذ علماؤهم، منهم تخرج الفتنة و إليهم تعود، انتهى.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): آية 102]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَ لا تَمُوتُنَّ إِلاّ وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102)

. الاتّقاء افتعال من الوقاية و هي فرط الصيانة [حَقَّ تُقاتِهِ أي حقّ تقواه و ما يجب منها من استفراغ الوسع في القيام بالواجبات و الاجتناب عن المحارم، يريد بالغوا في التقوى حتّى لا تتركوا من المستطاع منها شيئا [وَ لا تَمُوتُنَّ إِلّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ مخلصون نفوسكم للّه لا تجعلون فيها شركة لما سواه أصلا. استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال و المراد دوامهم على الإسلام.

[سورة آل عمران (3): آية 103]

وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَ كُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103)

. النزول: قال مقاتل: افتخر رجلان من الأوس و الخزرج: ثعلبة بن غنم من الأوس و أسعد بن زرارة من الخزرج فقال الأوسيّ: منّا خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين و منّا حنظلة غسيل الملائكة و منّا عاصم بن ثابت حميّ الدين و منّا سعد بن معاذ الّذي اهتزّ العرش له بموته و رضي اللّه بحكمه في بني قريظة. و قال الخزرجيّ: منّا أربعة أحكموا القرآن ابيّ ابن كعب و معاذ بن جبل و زيد بن ثابت و أبو زيد و منّا سعد بن عبادة خطيب الأنصار

1- فاطر: 28.

و رئيسهم. فطال الحديث بينهما فغضبا و تفاخرا و ناديا فجاء الأوسيّ إلى الأوس و الخزرجيّ إلى الخزرج و معهم السلاح، فبلغ ذلك النبيّ صلّى اللّه عليه و آله فركب حماره و أتاهم فأنزل اللّه الآية فقرأها فاصطلحوا.

[وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ و تمسّكوا به و امتنعوا عن غيره؛ قيل: المراد من «حبل اللّه» القرآن. و قيل: إنّه دين الإسلام. و قيل: على ما رواه أبان بن تغلب عن جعفر بن محمّد عليه السّلام قال: نحن حبل اللّه الّذي قال سبحانه في الآية. قال الطبرسيّ: و الأولى حمله على الجميع.

و الّذي يؤيّده ما رواه أبو سعيد الخدريّ عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال: أيّها الناس إنّي تركت فيكم حبلين إذا أخذتم بهما لن تضلّوا بعدي: أحدهما أكبر من الآخر كتاب اللّه حبل ممدود من السماء إلى الأرض و عترتي أهل بيتي ألا و إنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض.

[وَ لا تَفَرَّقُوا] بحذف التاء الثانية لأنّ الاولى علامة و العلامة لا تخذف أي لا تتفرّقوا عن دين اللّه الّذي أمركم جميعا بلزومه و اثبتوا عليه.

[وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ أراد ما كان بين الأوس و الخزرج من الحروب الّتي تطاولت مائة و عشرين سنة حتّى ألّف اللّه بينهم بالإسلام فزالت تلك الأحقاد. و قيل: هو ما كان بين مشركي العرب من الأيّام و الطوائل فرفع اللّه ما كان بينهم من التنازع و الاختلاف [فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ اللّه [إِخْواناً] متواصلين و أحبابا متحابّين بعد أن كنتم متحاربين بحيث يقصد كلّ واحد منكم إخاء الآخر لأنّ أصل الأخ معناه القصد من توخّيت الشي ء إذا قصدته و طلبته.

[وَ كُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ] أي كنتم على طرف حفرة من جهنّم مشرفين على الوقوع فيها لكفركم لو أدرككم الموت على حالة الكفر [فَأَنْقَذَكُمْ و خلّصكم بأن هداكم إلى الإسلام [مِنْها] أي من تلك الحفرة.

[كَذلِكَ إشارة إلى مصدر الفعل الّذي بعده أي مثل ذلك التبيين الواضح [يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ دلائله [لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ طلبا لثباتكم على الهدى فالعبد من شأنه أن يتّقي محارم اللّه و يحذر مخالفته فإذا غلبت عليه نفسه أحيانا فليرجع بساعته إلى ساحة

كرمه و عفوه و يقول: يـا ربّ تبت إليـك فـاستر عليّ، فإذا ستر عليه يقول: يا ربّ وفّقني لأتـدارك و أعمل حتّى أخلص، فإذا تـدارك و أخلص يقول: يـا ربّ تقبّل منّي. و ليكن خائفا طول عمره من زلّته الّتي أوقعها خوفا من عـدم قبول توبته فإذا تمرّن بهـذه العادة ينبغي أن يقال له: إنّه مهتد.

[سورة آل عمران (3): آية 104]

وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104)

. أي لتوجد منكم جماعة داعية إلى ما فيه صـلاح دينيّ [يَأْمُرُونَ بالطاعة [وَ يَنْهَوْنَ عن المعصية، و كلّ ما أمر اللّه و رسوله فهو معروف، و ما نهى اللّه و رسوله فهو منكر. و قيـل: المعروف مـا يعرف حسـنه عقلاـ و شـرعا، و المنكر مـا ينكره العقل و الشـرع. و في الآيـة دلالـة على وجوبهما لأنّه سبحانه علّق الفلاح بهما بقوله: [وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الفائزون، و كلمة «هم» ضمير فصل يفيد اختصاص المسند بالمسند إليه أي هم الأخصّاء بكمال الفلاح.

و أكـثر المتكلّمين على أنّهمـا من فروض الكفايـات، و منهم من قـال: إنّهمـا من فروض الأعيـان، منهم الشـيخ أبـو جعفر الطوسـيّ. قـال الطبرسـيّ: و الصـحيح أنّ ذلك إنّما يجب بالسـمع و ليس في العقل ما يـدلّ على وجوبه إلّا إذا كان على سبيل دفع الضـرر. و قال الجبّائيّ يجب عقلا و السمع يؤكّده؛ قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: من أمر بالمعروف و نهى عن المنكر فهو خليفة اللّه في أرضه و خليفة رسول اللّه و خليفة كتابه، عن الحسن.

و عن درّة بن أبي لهب قـال: جـاء رجـل إلى النبيّ صـلّى اللّه عليه و آله و هو على المنبر فقـال: يـا رسول اللّه من خير النـاس؟ قال: آمرهم بـالمعروف و أنها هم عن المنكر و أتقاهـم للّه و أرضاهم. و قال أبو الـدرداء: لتأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر أو ليسـلّطنّ اللّه عليكم سلطانا ظالما لا يجلّ كبيركم و لا يرحم صـغيركم و يدعو خياركم فلا يسـتجاب لهم و تستنصـرون فلا تنصـرون. و قال حذيفة: يأتي زمان على الناس لأن يكون فيهم جيفة الحمار أحبّ إليهم من مؤمن يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر.

ثمّ أمرهـم سبحانه بالاتّفاق على الإسلام و ترك التفرّق فقال:

[سورة آل عمران (3): آية 105]

وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَ اخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (105)

. و لمّا أمر اللّه هـذه الأمّة بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و ذلك لا يتمّ إلّا إذا كان الأمر و الناهي قادرا و لا تحصل هذه القدرة إلّا إذا حصل الاتّفاق و الاجتماع في الدين فحذّرهم اللّه في هذه الآية الاختلاف لكيلا يصير ذلك سببا لعجزهم عن القيام بهذا التكليف.

و هـذان الأمران و هما الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر قـد يكون من أهمّ الواجبات لأنّ الدين يقوم بهما؛ قال صـلّى اللّه عليه و آله: إنّ النّاس إذا رأوا منكرا فلم يغيّروه يوشك أن يعمّهم اللّه بعذابه، انتهى.

[وَ لاـ تَكُونُوا كَـالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَ اخْتَلَفُوا] و اختلفوا في الديانـة. و قيل: المراد هم اليهود و النصارى حيث تفرّقت اليهود فرقا و النصارى فرقا و اختلفوا [مِنْ بَعْـدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ و الآيات المبيّنـة للحقّ الموجبـة للاتّفاق و هم اختلفوا باسـتخراج التأليفات الزائفـة و كتم نعوت النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و تحريفها بسـبب حطام الـدنيا و صار كلّ واحد من أحبارهم رئيسا في بلدهم و كلّ واحد منهم يدّعي أنّه على الحقّ و أنّ صاحبه على الباطل.

[وَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ في الآخرة بسبب التفرّق.

[سورة آل عمران (3): الآيات 106 الى 107]

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَـأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْـدَ إِيمـانِكُمْ فَـذُوقُوا الْعَـذابَ بِمـا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106) وَ أَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (107)

أي اذكروا [يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ كثيرة [وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ كثيرة أي من استبشـر و نال بمطلوبه فابيضّ وجهه و من وصل إليه مكروه فتبدّلت صورته و اغبرّ لونه، فإنّ الإنسان يرد في القيامـة على ما قـدّمت يـداه، و بياض الوجه و سواده حقيقتان حاصـلتان فيوسم أهل الحقّ ببياض و إشـراق و سعي النور بين أيديهم و أهل الباطل بأضداد ذلك.

[فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ فيقال لهم [أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ و اختلف فيمن يقال له هذا الكلام قيل: إنّهم الّذين كفروا بعد إظهار الإيمان بالنفاق. و قيل: إنّهم جميع الكفّار لإعراضهم عمّا وجب عليهم الإقرار به من التوحيد حين أشهدهم على أنفسهم «أَ لَسْتُ

بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى (1) فيقال لهم: «أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ» يوم الميثاق.

و قيل: إنّهم أهل الكتاب كفروا بالنبيّ صلّى اللّه عليه و آله بعد إيمانهم به و بنعته قبل مبعثه، عن عكرمة و الجبّائيّ و الزجّاج. و قيل: أهل البدع و الأهواء من هذه الأمّة عن عليّ عليه السّلام و قتادة و يروى عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال: و الّذي نفسي بيده ليردنّ عليّ الحوض ممّن صحبني أقوام إذا رأيتهم اختلجوا دوني فأقول: إنّهم أصحابي، فيقال: إنّك لا تدري ما أحدثوا بعد إيمانهم ارتدّوا على أعقابهم القهقرى، ذكره الثعلبيّ في تفسيره. و قال أبو امامة الباهليّ: هم الخوارج.

و الاستفهام في قوله: «أَ كَفَرْتُمْ» للتقريع أو التقرير أي قد كفرتم [فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ بسبب كفركم بمحمّد و بالقرآن.

[وَ أَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ و هم المؤمنون بالقرآن و بمحمّد [فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ و ثوابه و جنّته [هُمْ فِيها خالِدُونَ مؤبّدون، و إعادة كلمة الظرف تأكيدا لتمكّن المعنى في النفس أو لأنّ في قوله: «فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ» دلالة على إدخالهم و ظرف الثاني على خلودهم.

[سورة آل عمران (3): الآيات 108 الى 109]

تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعالَمِينَ (108) وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (109)

[تِلْكَ إشارة إلى الآيات المشتملة على تنعيم الأبرار و تعذيب الكفّار و هو مبتدأ [آياتُ اللَّهِ خبره [نَتْلُوها] جملة حاليّة من الآيات [عَلَيْكَ نقرؤها عليك يا محمّد بواسطة جبرئيل و الآيات ملتبسة [بِالْحَقِ و العدل بموجب الوعد و الوعيد [وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً] أي شيئا من الظلم [لِلْعالَمِينَ لأحد من خلقه بأن يحملهم من العقاب ما لم يستحقّوه و ينقصهم من الثواب ما استحقّوه و إنّما يظلم لجهلة بقبح الظلم أو لحاجة من دفع ضرر أو جرّ نفع، و تعالى اللّه عن مثل هذه الأمور.

[وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ ملكا و خلقا فكيف يجوز أن يظلمهم؟ [وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ] و معنى رجوع الأمر إليه بأن يذهب العالم بالفناء ثمّ يعيدها للجزاء.

1- الأعراف: 172.

و قيـل: معنـاه أنّ اللّه قـد ملّـك عباده في الـدنيا أمورا و جعل لهـم تصـرّفا و اختيارا و يزول ذلك في الآخرة و يرجع إليه كلّه كما قال: «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ» و اعلم أنّه يموت المرأ على ما عاش فيه و يحشر على ما مات عليه.

قال رسول اللّه: يبعث كلّ عبد على ما مات عليه. و قال: من مات و هو سكران فإنّه يعاين ملك الموت سكرانا و يعاين منكرا و نكيرا سكرانا و يبعث يوم القيامة سـكرانا إلى خندق جهنّم يسـمّى السكران، فيه عين يجري ماؤها دما لا يكون له طعام و لا شراب إلّا منه كما أنّ أكلة الربا يقومون من قبورهـم و يسقطون لعظم بطونهم و هم كالمجانين من مسّ الشيطان.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): آية 110]

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتابِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَ أَكْثَرُهُمُ الْفاسِقُونَ (110)

. أي أنتم [خَيْرَ أُمَّةٍ] و إنّما قال: «كنتم» لتقدّم البشارة لهم في الكتب الماضـية و يعضد هذا البيان ما روي عن النبيّ صـلّى اللّه عليه و آله أنّه قال: أنتم وفيتم سـبعين امّـة أنتم خيرها و أكرمها على اللّه. أو المراد كنتم عند اللّه في اللوح المحفوظ خير امّة، عن الفرّاء و الزجّاج. و قيل: «كـان» في الآيـة تامّـة و المعنى: وجـدتم و خلقتم و «خير امّـة» نصب على الحـال. و قيل: «كان» بمعنى «صار» و معناه صـرتم خير امّة لكونكم تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر و إيمانكم باللّه. فيصـير هـذه الخصال على هذا المعنى الأخير شـرطا في كونهم خيرا. و قد روي عن بعض الصـحابة أنّه قال: من أراد أن يكون خيرها فليؤدّ شرط اللّه فيه من الإيمان باللّه و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر. و ذكر الحكم مقرونا بالوصف المناسب للحكم مشعر بالعلّيّة.

قال الطبرسـيّ: و اختلف في المعنيّ بالخطاب؛ قيل: هم المهاجرون خاصّة. و قيل: نزلت في ابن مسـعود و ابيّ بن كعب و معاذ بن جبل و سالـم مولى أبي حذيفة. و قيل: الخطاب لأصحاب النبيّ الصادقين و لكنّه يعمّ السائرين ممّن يحذو حذوهـم.

[وَ لَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتابِ كإيمانكم [لَكانَ ذلك [خَيْراً لَهُمْ ممّا هم عليه من الرياسة و اسـتتباع العوامّ [مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ كأنّه قيل: هل منهم من آمن أو كلّهم على الكفر؟ فقيل:

منهم المؤمنون المعهودون كعبد اللّه بن سلام و أصحابه [وَ أَكْثَرُهُمُ الْفاسِقُونَ الخارجون

عن الطاعة و الحدود.

[سورة آل عمران (3): آية 111]

لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذىً وَ إِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ (111)

. في الآية تثبيت لمن آمن من أهل الكتاب مثل عبد اللّه و أصحابه، و ذلك أنّ رؤساء اليهود مثل أبي رافع و كعب و أبي ياسر و كنانة و ابن صوريا كانوا يهدّدونهم و يؤذونهم بالسبّ و الطعن فأثبتهم اللّه بقوله: [لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً استثناء مفرّغ من المصدر العامّ.

و معنى الآية أنّهم لن يضرّوكم ضررا صعبا إلّا ضرر أذى لا يبالى به من طعن و تهديد لا أثر له [وَ إِنْ يُقاتِلُوكُمْ و يخرجوا إلى قتالكم يجعلوا ظهورهم ما يليكم منهزمين من غير أن ينالوا منكم شيئا من قتل أو أسر [ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ عطف على الشرطيّة أي لا ينصرون من جهة أحد كما كان الأمر في حال بني قريظة و النضير و يهود خيبر.

[سورة آل عمران (3): آية 112]

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ (112)

. أي في أيّ مكان و أيّ زمان وجدوا في دار الإسلام الزموا الذلّ و أنزلت بهم و جعلت محيطة بهم، استعارة من قولهم: ضرب فلان الضريبة على عبده أي ألزمها إيّاه. و كان اليهود لا يكونون في موضع إلّا بالجزية و لقد أدركهم الإسلام و هم يؤدّون الجزية إلى المجوس [أَيْنَما ثُقِفُوا] و وجدوا [إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ استثناء من أعمّ الأحوال أي ضربت عليهم الذلّة ضرب القبّة على من هي عليه في جميع الأحوال إلّا حال كونهم معتصمين بذمّة اللّه و ذمّة المسلمين و استعير لفظ «الحبل» للعهد لأنّه سبب الفوز و النجاة.

و المراد من «العهد» وجوه الأمان، و الأمان الحاصل للذمّيّ قسمان: أحدهما الّذي نصّ اللّه عليه و هو الأمان الحاصل له بإعطاء الجزية عن يد، أو الأمان الّذي فوّض إلى رأى الإمام. و لعلّ الأوّل هو المسمّى بحبل اللّه، و الثاني هو المسمّى بحبل من الناس و أنّهما متغابران بالاعتبار.

[وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ أي رجعوا بغضب و عقاب و لعن من اللّه أو المعنى استوجبوا الغضب منه تعالى [وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ] و زيّ الافتقار، و اليهود في الغالب إن لم يكونوا فقراء حقيقة فإنّهم يظهرون في أنفسهم الفقر.

[ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ أي ذلك الّذي ذكر من الذلّة و البوء بالغضب كائن بسبب كفرهم بآيات اللّه الناطقة بنبوّة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و تحريفهم لها و لسائر الآيات و بسبب [قَتْلَهُمُ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍ * أي في اعتقادهم أيضا و هؤلاء المتأخّرون و إن لم يصدر منهم قتل الأنبياء لكنّهم راضون بفعل أسلافهم و مصوّبين لهم في تلك الأفعال القبيحة فلذلك أسند القتل إليهم.

[ذلِكَ إشارة إلى الكفر و القتل [بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ كان بسبب اعتدائهم حدود اللّه على الاستمرار فقوله: «ذلِكَ بِما عَصَوْا» إشارة إلى علّة العلل قال بعض أهل التحقيق: من ابتلى بترك الأدب وقع في ترك السنن و من ابتلى بترك السنن وقع في ترك الفريضة، و من ابتلى بترك الفريضة وقع في استحقار الشريعة و من ابتلى بذلك وقع في الكفر. فعلى المؤمن أن لا يفتح على نفسه باب المعصية بل يترك بعض ما أبيح له خوفا ممّا يؤدّي إلى بعض ما لا يجوز له قال صلّى اللّه عليه و آله: لا يبلغ العبد أن يكون من المتّقين حتّى يدع بعض ما لا بأس به حذرا ممّا به البأس.

و قيل: الحياء على رؤوس المتّقين كالتيجان على رؤوس الملوك قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله ذات يوم لأصحابه: استحيوا من اللّه حقّ الحياء، و قالوا: إنّا نستحيي يا رسول اللّه و الحمد للّه، قال: ليس ذلك الحياء و لكن من استحيا من اللّه حقّ الحياء فليحفظ الرأس و ما حوى و ليحفظ البطن و ما وعى و ليذكر الموت و البلى و من أراد الآخرة ترك زينة الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحيا من اللّه حقّ الحياء.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): الآيات 113 الى 114]

لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَ هُمْ يَسْجُدُونَ (113) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ أُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (114)

ص: 253

نزلت في أربعين من أهل نجران و اثنين و ثلاثين من أهل الحبشة و ثمانية من الروم صدّقوا بمحمّد صلّى اللّه عليه و آله. و قيل: نزلت هذه الآية لمّا أسلم عبد اللّه بن سلام و من تبعه فقالت أحبار اليهود: ما آمن بمحمّد صلّى اللّه عليه و آله إلّا شرارنا فأنزل اللّه هذه الآية.

أي ليس الّذين آمنوا من أهل الكتاب امّة قائمة كعبد اللّه و أصحابه و الّذين لم يؤمنوا سواء في الدرجة [أُمَّةٌ قائِمَةٌ] و تمام البيان يقتضي أن يقال: و منهم امّة مذمومة غير قائمة إلّا أنّه أضمر بناء على أنّ ذكر أحد الضدّين يغني عن الآخر و قوله: «لَيْسُوا سَواءً» قيل: إنّه على لغة «أكلوني البراغيث» و مثله قوله: «ثُمَّ عَمُوا وَ صَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ» (1) قال الزجّاج و الرمّانيّ: و ليس الأمر كذلك لأنّ هذه اللغة رديئة في القياس و الاستعمال بل إنّ ذكر أهل الكتاب قد جرى فأخبر اللّه أنّهم غير متساوين، و رفع «امّة» إمّا على تقدير الفعل و تقديره لا يستوي امّة هادية و امّة ضالّة أو على الابتداء.

و المعنى ليس سواء امّة قائمة بأمر اللّه و طاعته [يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ و يقرءون كتاب اللّه و هو القرآن [آناءَ اللَّيْلِ أي ساعاته «و الآناء» مفردة أنا زنة. «عصا» و قال: واويّة مفردة «انو» قيل: المراد من التلاوة الصلاة جوف الليل. و قيل: الصلاة بين المغرب و العشاء و هي الساعة الّتي تسمّى ساعة الغفلة [وَ هُمْ يَسْجُدُونَ الجملة حاليّة من فاعل «يتلون» أي يصلّون إذ لا تلاوة في السجود. و تخصيص السجود بالذكر لكونه أدلّ على كمال الخضوع.

[يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ يؤمنون على الوجه الّذي نطق به الشرع، و في الآية تعريض بأنّ إيمان اليهود به مع قوله: «عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ» و كفرهم بمحمّد بخلاف الإيمان «وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ» تعريض بأنّهم يأمرون بصدّ الناس عن سبيل اللّه فإنّه نهي عن المعروف و أمر بالمنكر و كذا كانوا يفعلون.

[وَ يُسارِعُونَ و يبادرون إلى الطاعات خوف الفوات بالموت غير متثاقلين منها لعلمهم بحسن عاقبتها بخلافهم فإنّ تلك الأمّة المذمومة منهم يتباطئون في الخيرات و يتبادرون

1- المائدة: 71.

إلى الشرّ [وَ أُولئِكَ المنعوتون بتلك الصفات الفاضلة [مِنَ الصَّالِحِينَ من جملة من صلحت أحوالهم.

[سورة آل عمران (3): آية 115]

وَ ما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (115)

. و قرئ «تفعلوا» بالخطاب وجه القراءة «بالياء» كناية عمّن تقدّم ذكره من أهل الكتاب ليكون الكلام على طريقة واحدة و وجه «الخطاب» أنّه خلطهم بغيرهم من المكلّفين و يكون خطابا للجميع في أنّ حكمهم واحد. «و ما تفعلوا» مجزوم بالشرط أي و ما تفعلوا من خير كائنا ما كان فلن يضيّع و لا ينقص ثوابه، و سمّي النقص و منع الثواب «كفرانا» مع أنّه لا يضاف الكفران إلى اللّه إذ ليس لأحد عليه تعالى نعمة حتّى يكفرها نظرا إلى أنّه تعالى سمّى إيصال الجزاء و الثواب «شكرا» حيث قال: «فَإِنَّ اللَّهَ شاكِرٌ عَلِيمٌ» (1) فلمّا جعل الشكران مجازا عن توفية الثواب جعل الكفران مجازا عن منعه. و تعديته إلى مفعولين قاما مقام الفاعل.

[وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ فيجاز بهم و إنّما خصّ «المتّقين» بالذكر و إن كان عليما بالكلّ لأنّ الكلام اقتضى ذكر جزاء المتّقين.

[سورة آل عمران (3): آية 116]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (116)

. [إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا] بما يجب أن يؤمن به لن تدفع عنهم [أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ من عذاب اللّه [شَيْئاً] من الإغناء ردّ للكفّار حيث قالوا: «نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالًا وَ أَوْلاداً وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ» (2) و كانوا يعيّرون رسول اللّه و أصحابه بالفقر و يقولون: لو كان محمّد صلّى اللّه عليه و آله على الحقّ ما تركه ربّه في الفقر و الشدّة. و لمّا كان الإنسان يدفع عن نفسه تارة بفداء المال و تارة بالانتصار من أهله و ولده فذكرهما [وَ أُولئِكَ مصاحبو النار على الدوام و مؤبّدون فيها.

1- البقرة: 158.

2- سباء: 35.

[سورة آل عمران (3): آية 117]

مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ فِي هذِهِ الْحَياةِ الدُّنْيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ أَصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَ ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (117)

بيان لكيفيّة عدم إغناء إنفاق الكفرة أموالهم قربة أو رياء أو مفاخرة أو خوفا كالمنافقين بأيّ قسم كان.

و المراد تشبيه ما أنفقوا في عدم نفعه بحرث أصابته ريح شديدة البرد مهلكة للزرع أي كما أنّ الزرع تهلكه تلك الريح الباردة كذلك الكفر يذهب فائدة الإنفاق «و الصرّ» البرد الشديد و إنّه في الأصل مصدر لكن شاع إطلاقه على الريح الباردة كالصرصر [فَأَهْلَكَتْهُ عقوبة لهم و لا تدع منه أثرا لأنّ الكفر مانع من الانتفاع حيث لا يقبل اللّه منهم أبدا فلا يبقى لهم في الآخرة إلّا الحزن و الأسف و هذا هو التشبيه المركّب الحاصل من الجملتين.

[وَ ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ في ضياع ما أنفقوا من الأموال [وَ لكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ لما أنّهم أضاعوها فيما لا ينبغي كما أنفق أبو سفيان في عداوة النبيّ، أو أضاعوها و أنفقوها لا ـ على أمر ينبغي لأنّ إنفاقهم منتزع عن القربة لأنّ القربة لا ـ يحصل مع الكفر و تقديم المفعول لرعاية الفواصل.

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: لا تزول قدم عبد يوم القيامة حتّى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه و عن جسده فيم أبلاه و عن علمه ما عمل فيه و عن ماله من أين اكتسبه و فيم أنفقه. قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: يا عائشة إن أردت اللحوق بي فليكفك من الدنيا كزاد الراكب و إيّاك و مجالسة الأغنياء و لا تستخلقي ثوبا حتّى ترقعيه. و قال صلّى اللّه عليه و آله اللهمّ من أحبّني فارزقه العفاف و الكفاف و من أبغضني فأكثر ماله و ولده ثمّ قرأ صلّى اللّه عليه و آله: «أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ» (1)

قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): آية 118]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبالاً وَدُّوا ما عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ وَ ما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (118)

. لمّا شرح سبحانه أحوال المؤمنين و الكافرين حذّر المؤمنين في هذه الآية عن مخالطة

1- التكاثر: 1.

الكافرين؛ و ذلك لأنّ المسلمين كانوا يشاورون اليهود في أمورهم و يؤانسونهم لما كان بينهم اختلاط و رضاع و حلف ظنّا منهم أنّهم و إن خالفوهم في الدين فهم ينصحون لهم في المعاش فنهاهم اللّه.

و قيل: المراد المنافقون و ذلك لأنّ المؤمنين يظنّون من أقوال المنافقين أنّهم صادقون في أقوالهم، و يدلّ على هذا المعنى ما بعد هذه الآية و هو قوله: «وَ إِذا لَقُوكُمْ قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ» و هذه صفة المنافقين.

و قيل: المراد به أصناف الكفّار جميعا و الدليل عليه قوله: [بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ و قوله تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ» (1) أي لا تصاحبوا من دون المسلمين صاحبا، و بطانة الرجل صاحب وليجته و من يعرف أسراره ثقة به، شبّه سبحانه ببطانته الّتي يلي بطنه.

[لا يَأْلُونَكُمْ خَبالًا] يقال: ألا في الأمر إذا قصر فيه فمعنى لا آلوك نصحا أي لا أمنعك نصحا و لا أقصر في نصيحتك و المراد أنّهم لا يقصرون لكم في الإيذاء و الفساد و المكر و الخديعة و الشرّ «و الخبال» الفساد و النقص، و رجل مخبول أي ناقص العقل.

[وَدُّوا ما عَنِتُّمْ «ما» مصدريّة أي تمنّوا عنتكم و شدّه ضرركم في دينكم و دنياكم و الفرق بين الجملة الأولى و الجملة الثانية مع أنّ معناهما واحد بيان أنّه إذا عجزوا عن إيذائكم فحبّ ذلك و تمنّيه غير زائل من قلوبهم.

[قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ البغضاء شدّة البغض كالضرّ بالنسبة إلى الضرّاء أي قد ظهرت علامة العداوة في كلامهم الخارج من أفواههم لما أنّهم لا يتمالكون مع ضبط أنفسهم أن ينفلت بعض الأحيان من ألسنتهم ما يعلم منه بغضكم، و الأفواه جمع الفم و الفم أصله «فوه» مثل طوق و أطواق و سوط و أسواط ثمّ حذفت الهاء تخفيفا و أقيم الميم مقام الواو لأنّهما شفويّان.

[وَ ما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ] ممّا بدأ لأنّ ما يظهر على لسانهم أقلّ ممّا في قلوبهم من النفرة و الحقد [قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ الدالّة على صلاحكم من موالاة المؤمنين و معاداة

1- الممتحنة: 1.

الكافرين و المنافقين [إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ما بيّنّا لكم فتعملون به.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): آية 119]

ها أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَ لا يُحِبُّونَكُمْ وَ تُؤْمِنُونَ بِالْكِتابِ كُلِّهِ وَ إِذا لَقُوكُمْ قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (119)

. قال الأزهريّ: يحتمل أن يكون «أولاء» منادى كأنّه قال: «يا أولاء» و قال غيره:

«ها» للتنبيه و «أنتم» مبتدأ و «أولاء» خبره و «تحبّونهم» حال. و قال الزجّاج: جائز أن يكون «أولاء» في معنى الّذين فالمعنى: الّذين تحبّونهم و لا يحبّونكم. قال أبو السعود في تفسير المعنى: تنبّهوا أنتم أولاء المخطئون في موالاتهم؛ فيكون جملة من مبتدء و خبر صدّرت بحرف التنبيه و «تحبّونهم و لا يحبّونكم» بيان لخطيئتهم و هو خبر ثان «لأنتم» و تحبّونهم بسبب ما بينكم من الحلف و الرضاعة و لا يحبّونكم بسبب إيمانكم و عدم بقائكم على الكفر.

[وَ تُؤْمِنُونَ بِالْكِتابِ كُلِّهِ أي بجنس الكتاب جميعا و المعنى: لا يحبّونكم و الحال أنّكم تؤمنون بكتابهم فما بالكم تحبّونهم و هم لا يؤمنون بكتابكم؟ و فيه توبيخ بأنّهم في باطلهم أصلب منكم في حقّكم.

[وَ إِذا لَقُوكُمْ قالُوا آمَنَّا] نفاقا و خدعة [وَ إِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ] حيث لم يجدوا إلى التشفّي سبيلا [قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ دعاء عليهم بدوام الغيظ و زيادته بتضاعف قوّة الإسلام و أهله إلى أن يهلكوا و المراد الطعن و الطرد لا على وجه الإيجاب و إلّا لماتوا من ساعتهم و دعاء عليهم بالموت قبل بلوغ ما يتمنّون من ضعف الإسلام، و ليس المراد الأمر بالإقامة على الغيظ حتّى يكون أمرا بالكفر.

[إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ] و «ذات» كلمة وضعت لنسبة المؤنّث كما أنّ «ذو» كلمة وضعت لنسبة المذكّر و المراد «بذات الصدور» الخواطر القائمة بالقلب و الدواعي.

[سورة آل عمران (3): آية 120]

إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِها وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (120)

. أي إن تصبكم أيّها المؤمنون [حَسَنَةٌ] بظهوركم على عدوّ لكم و غنيمة تنالونها و

تتابع الناس في الدخول في دينكم و خصب معاشكم تحزنهم حسدا إلى ما نلتم [وَ إِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ] بإخفاق سريّة لكم أو اختلاف يقع بينكم أو جدب و نكبة [يَفْرَحُوا بِها] يشمتون و يفرحون من وقوع المصيبة بكم.

[وَ إِنْ تَصْبِرُوا] على عداوتهم و على مشاقّ التكليف [وَ تَتَّقُوا] ما حرّم اللّه و نهاكم عنه [لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ و مكرهم و «الكيد» حيلة لطيفة [شَيْئاً] من الضرر بحفظه الموعود للصابرين.

[إِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ في عداوتكم من الكيد [مُحِيطٌ] عليم فيعاقبهم على ذلك.

و في قوله تعالى: «لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ» إشارة إلى أنّ الحامل لأسرار الرجل ينبغي أن يكون من أهل دينه و لا يفشي المرأ بسرّه إلى من لم يجرّبه في كلّ حاله:

إنّ الرجال صناديق مقفّلةو ما مفاتيحها إلّا التجاريب

قال الغزاليّ: و لا تعوّل على مودّة غير أهل دينك بل و على من لم تختبره حقّ الخبرة بأن تصحبه مدّة في دار أو موضع واحد فتجرّبه في عزله و ولايته و فقره و غنائه أو تسافر معه لأنّ السفر سمّي سفرا لأنّه يكشف عن أخلاق الرجال أو تعامله في الدينار و الدرهم فإن رضيته في هذه الأحوال فاتّخذه صديقا و بطانة، و اجعله أبا لك إن كان كبيرا و ابنا لك إن كان صغيرا و أخا لك إن كان يساويك، انتهى.

قوله: [سورة آل عمران (3): الآيات 121 الى 123]

وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقاعِدَ لِلْقِتالِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (121) إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَ اللَّهُ وَلِيُّهُما وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (122) وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (123)

اختلف العلماء في أنّ هذا اليوم أيّ يوم فالأكثرون أنّه يوم احد؛ لأنّ يوم أحد أليق بهذا الكلام لأنّ المقصود من ذكر هذه القصّة تقرير قوله: «وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً» ثمّ إنّ الانكسار و استيلاء العدوّ كان في يوم احد. و قيل:

المراد يوم بدر. و قيل: الأحزاب.

[وَ إِذْ غَدَوْتَ أي اذكر لهم يا محمّد وقت خروجك أوّل النهار إلى أحد ليذّكروا

ما وقع فيه من الأحوال الناشئة عن عدم الصبر فيعلموا أنّهم إن لزموا الصبر و التقوى لا يضرّهم كيد الكفرة [مِنْ أَهْلِكَ و بيتك [تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ أي تنزلهم [مَقاعِدَ] مهيّأة [لِلْقِتالِ و المراد الأماكن الّتي عيّنت لكلّ واحد من الصحابة لأن يقعد و ينتظر فيه إلى أن يجي ء العدوّ فيقوموا عند الحاجة إلى المحاربة فسمّيت الأماكن «مقاعد» لهذا الوجه.

و مجمل قصّة أحد أنّ المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء فاستشار رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله أصحابه و دعا عبد اللّه بن ابيّ بن سلول و لم يكن دعاه قبل ذلك فاستشاره فقال عبد اللّه و أكثر الأنصار: يا رسول اللّه أقم بالمدينة و لا تخرج إليهم فو اللّه ما خرجنا منها إلى عدوّ قطّ إلّا أصابنا و لا دخلها علينا إلّا أصبنا منه فكيف و أنت فينا؟ فدعهم فإن أقاموا أقاموا بشرّ محبس و إن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم و رماهم الصبيان و النساء بالحجارة، و إن رجعوا رجعوا خائبين. و قال بعضهم: يا رسول اللّه اخرج بنا إلى هؤلاء الأكلب لا يرون أنّا قد جبنا عنهم.

و قال صلّى اللّه عليه و آله: إنّي رأيت في منامي بقرا مذبحة حولي فأوّلتها خيرا و رأيت في دباب سيفي ثلما فأوّلته هزيمة و رأيت كأنّي أدخلت يدي في درع حصينة فأوّلتها المدينة فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة و تدعوهم.

فقال رجال مسلمون قد فاتتهم بدر و أكرمهم اللّه بالشهادة يوم احد: اخرج بنا إلى أعدائنا، طلبا لسعادة الشهادة و طمعا في الحسنى و الزيادة، فلم يزالوا به صلّى اللّه عليه و آله حتّى دخل و لبس لابته أي درعه فلمّا رأوا ذلك ندموا و قالوا: بئسما صنعنا نشير على رسول اللّه و الوحي يأتيه و قالوا: يا رسول اللّه اصنع ما رأيت فقال: ما ينبغي لنبيّ أن يلبس لابته فيضعها حتّى يقاتل.

و كان قد أقام المشركون بأحد يوم الأربعاء و الخميس و خرج النبيّ صلّى اللّه عليه و آله الجمعة بعد ما صلّى الجمعة و صلّى على رجل من الأنصار مات فيه فأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوّال سنة ثلاث من الهجرة فجعل صلّى اللّه عليه و آله يصفّ أصحابه للقتال إن رأى صدرا خارجا قال: تأخّر. و كان نزوله في طرف الوادي و عدوته، و جعل ظهره و عسكره إلى

احد و أمّر عبد اللّه بن جبير على الرماة و قال لهم: ادفعوا العدوّ عنّا بالسهم حتّى لا يأتونا من ورائنا و لا تبرحوا مكانكم و إذا ولّوكم الأدبار فلا تطلبوا المدبرين.

ثمّ إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله لمّا ما وافق رأى عبد اللّه بن ابيّ و كان من قدماء أهل المدينة و رؤساء المنافقين شقّ عليه ذلك و قال: أطاع الولدان و عصاني، ثمّ قال لأصحابه:

إنّ محمّدا إنّما يظفر بعدوّه بكم و قد وعد أصحابه أنّ أعداءهم إذا عاينوهم انهزموا فانهزموا أنتم فيتبعونكم و يصير الأمر على خلاف ما قاله محمّد، فلمّا التقى الفريقان انهزم عبد اللّه بالمنافقين.

و كان صلّى اللّه عليه و آله قد خرج في ألف رجل أو تسعمائة و خمسين رجلا فلمّا انهزم عبد اللّه مع ثلاثمائة بقيت سبعمائة و قوّاهم اللّه مع ذلك حتّى حملوا على المشركين و هزموهم.

فلمّا رأى المؤمنون انهزام المشركين طمعوا أن تكون هذه الواقعة كواقعة بدر فطلبوا المدبرين و تركوا ذلك الموضع و خالفوا أمر رسول اللّه، فأراد اللّه أن يفطمهم عن هذا الفعل لئلّا يقدموا على مخالفة الرسول و ليعلموا أنّ ظفرهم يوم بدر ببركة طاعتهم للّه و لرسوله و متى تركهم اللّه مع عدوّهم لم يقوموا لهم، فتفرّق العسكر عن رسول اللّه كما قال تعالى: «إِذْ تُصْعِدُونَ وَ لا تَلْوُونَ عَلى أَحَدٍ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْراكُمْ» (1) و شجّ وجه الرسول و كسرت رباعيّته و شلّت يد طلحة و وقعت الصيحة في العسكرين: إنّ محمّدا قد قتل و كان رجل يكنّى أبا سفيان من الأنصار نادى: هذا رسول اللّه.

و كانت راية رسول اللّه بيد أمير المؤمنين و راية قريش بيد طلحه بن أبي طلحة العبديّ من بني عبد الدار فقتله أمير المؤمنين فأخذ الراية أبو سعيد بن أبي طلحة فقتله عليّ عليه السّلام و سقطت الراية فأخذها مسافع بن أبي طلحة و هكذا حتّى قتل عليه السّلام من حاملي الراية تسعة نفر كلّهم من بني عبد الدار إلى أن حمل لواهم عبد لهم أسود يقال له ثوأب فانتهى إليه عليّ عليه السّلام فقطع يده اليمنى فأخذ اللواء باليسرى فضرب يسراه و قطعها فاعتنقها بالمجذومين (2) إلى صدره ثمّ التفت العبد إلى أبي سفيان فقال: هل أعذرت في بني عبد الدار، فضربه عليّ عليه السّلام على رأسه فقتله و سقط اللواء فأخذها غمرة بنت علقمة

1- السورة: 153.

2- الصحيح: الجذماوين لتأنيث اليد.

الكنانيّ فرفعتها.

فانحطّ خالد بن الوليد في مائتي فارس على عبد اللّه بن جبير و استقبلوهم بالسهام و كان أصحاب عبد اللّه بن جبير خلّوا عبد اللّه و اشتغلوا ينتهبون سواد القوم من المشركين و ذلك وقت هزيمة المشركين فخلّوا مراكزهم طمعا للغنيمة و بقي عليّ عليه السّلام و عبد اللّه بن جبير في نفر قليل و بعد ما حمل خالد و أصحابه على المسلمين و قتلوهم على باب الشعب فأتى من أدبارهم و فرّ المسلمون و نظرت قريش إلى رايتهم أنّها ارتفعت لاذوا بها (1) و انهزم أصحاب رسول اللّه هزيمة عظيمة و أقبلوا يفرّون إلى الجبل و في كلّ وجه و زعموا أن رسول اللّه قد قتل، و ما بقي إلّا عليّ و نفر قليل مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله نادى رسول اللّه إلى أين تفرّون عن اللّه و رسوله؟ و كانت هند بنت عتبة في وسط العسكر فإذا رأت رجلا انهزم من قريش دفعت إليه ميلا و مكحلة و قالت له: إنّما أنت امرأة فاكتحل بهذا.

و كان حمزة بن عبد المطلب يحمل على القوم فإذا رأوه يحمل انهزموا و لم يثبت له أحد، و كانت هند قد أعطت وحشيّا عهدا لئن قتلت محمّدا أو عليّا أو حمزة لأعطيتك كذا و كذا، و كان وحشيّ عبدا لجبير بن مطعم حبشيّا فقال وحشيّ: أمّا محمّد فلم أقدر عليه و أمّا عليّ فرأيته حذرا كثير الالتفات فلا مطمع فيه قال: فكمنت حمزة فرأيته يهدّ الناس هدّا فمرّ بي على جرف نهر فانهار فسقط فرسه و أخذت حربتي فهززتها و رميته بها فوقعت في خاصرته فخرجت من ثنّته فسقط فأتيته فشققت بطنه و أخذت كبده و جئت بها إلى هند فقلت:

هذه كبد حمزة، فأخذتها في فمها فلاكتها فجعله اللّه في فمها مثل الداعضة و هي عظم رأس الركبة فلقطتها. قال رسول اللّه: فبعث اللّه ملكا فحمله و ردّه إلى موضعه. قال: فجاءت إلى مذاكيره و قطعت يده و رجله.

و لم يبق مع رسول اللّه إلّا أبو دجانة و سماك بن خرشة و عليّ عليه السّلام فكلّما حملت طائفة علي رسول اللّه استقبلهم عليّ عليه السّلام فدفعهم عنه حتّى تقطّع سيفه فدفع إليه رسول اللّه سيفه ذا الفقار و انحاز (2) النبيّ صلّى اللّه عليه و آله إلى ناحية أحد فوقف و كان القتال من وجه واحد

1- أي التجؤوا.

2- أي بعد و نحى.

فلم يزل عليّ يقاتل حتّى أصابه في وجهه و بدنه و بطنه و رجليه سبعون جراحة كذا أورده عليّ بن إبراهيم في تفسيره.

فقال جبرئيل: إنّ هذه هي المواساة يا محمّد فقال النبيّ: إنّه منّي و أنا منه، فقال جبرئيل: و أنا منكما. قال أبو عبد اللّه: نظر رسول اللّه إلى جبرئيل بين السماء و الأرض على كرسيّ من ذهب و هو يقول: لا سيف إلّا ذو الفقار و لا فتى إلّا عليّ.

قال الواقديّ و ابن جرير و جماعة: إنّ المشركين مثّلوا بجماعة من المسلمين و كان حمزة أعظم مثلة، انتهى.

أقول: و لعلّ الحكمة في انكسار المسلمين عدم ثباتهم المحلّ الّذي ألزمهم النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و أمرهم أن لا يفارقوا العقبة و لجهة اخرى اقتضت المصلحة و هي أنّه لو كانت الغلبة كلّ مرّة للمؤمنين لصار الإيمان ضروريّا و هو مناف مع التكليف.

قوله: [وَ اللّٰهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ لمّا شاور النبيّ أصحابه في ذلك الحرب و قال بعضهم:

أقم المدينة و قال آخرون: اخرج إليهم، و كان لكلّ أحد غرض في قوله: فمن موافق و من منافق قال سبحانه: «وَ اللّٰهُ سَمِيعٌ» لما يقولون «عَلِيمٌ» بما يرون.

قوله: [إِذْ هَمَّتْ طٰائِفَتٰانِ أي فرقتان [مِنْكُمْ أي من المسلمين و هما بنو سلمة و بنو حارثة حيّان من الأنصار من الأوس بنو سلمة و من الخزرج بنو حارثة [أَنْ تَفْشَلاٰ] أي تضعفا و ترجعا لظنّهم الثواب فيه و الظاهر أنّ قصدهما ما كان على حسب العزم و التصميم و إنّما هو خطرات و حديث نفس يحدث للإنسان عند الشدائد ثمّ يردّها صاحبها إلى الثبات [وَ اللّٰهُ وَلِيُّهُمٰا] و عاصمهما من اتّباع تلك الخطرات و الجملة اعتراض [وَ عَلَى اللّٰهِ وحده دون غيره [فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ في أمورهم فإنّه حسبهم.

قال علماء الأخلاق: من وقع في ميدان التوكّل يزفّ إليه المراد كما تزفّ العروس إلى أهلها.

قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما اعطي السائلين. (1) قال أبو حمزة الخرسانيّ: حججت سنة من السنين فبينما أنا أمشي في الطريق إذ وقعت

1- الظاهر أنه حديث قدسي قاله النبي صلّى عن اللّه تعالى.

في بئر فنازعتني نفسي أن استغيث فقلت: لا و اللّه لا أستغيث، فإذا مرّ برأس البئر رجلان فقال أحدهما للآخر: تعال حتّى نسدّ رأس هذه البئر لئلّا يقع فيها أحد؛ فأتوا بقصب و طمسوا البئر فهممت أن أصيح ثمّ قلت: أشكو إلى من هو أقرب منهما فسكتّ فبينما أنا كذلك إذ أنا بشيء جاء و كشف عن رأس البئر و أدخل رجله و كأنّه ألهمت أن تعلّق بها فتعلّقت فأخرجني فإذا هو سبع و مرّ و هتف هاتف: يا أبا حمزة أليس هذا أحسن نجّيناك من التلف بالتلف؟

[وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ] «بدر» بئر ماء بين مكّة و المدينة حفرها رجل اسمه بدر فسمّيت به و كانت وقعة بدر في السابع عشر من شهر رمضان سنة اثنتين من الهجرة.

و إنّما قال: «أذلّة» و لم يقل: «ذلائل» بجمع الكثرة للإشعار على أنّهم على ذلّتهم كانوا قليلا و ذلّتهم بسبب قلّة السلاح و ما كان بهم من قلّة المال و المركوب، يعتقب النفر منهم على البعير الواحد و ما كان معهم إلّا فرس واحد للمقداد بن الأسود و تسعون بعيرا و ستّ أدرع و ثمانية سيوف و هم كانوا ثلاثمائة و ثلاث عشر رجلا ستّة و سبعون من المهاجرين و بقيّتهم من الأنصار و كان عدوّهم زهاء ألف مقاتل و معهم مائة فرس و الشكّة و الشوكة.

و كان صاحب راية رسول اللّه عليّ بن أبي طالب و صاحب راية الأنصار سعد بن عبادة و قيل: سعد بن معاذ.

في تفسير العيّاشيّ قال الصادق: ليس هكذا نزلت إنّما نزلت، و أنتم قليل؛ و ما أذلّ اللّه رسوله قطّ.

[فَاتَّقُوا اللَّهَ في الثبات مع رسوله كما اتّقيتم يومئذ [لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ لتقوموا بشكر نعمته.

[سورة آل عمران (3): الآيات 124 الى 125]

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَ لَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ (124) بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا وَ يَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (125)

. «إذ» ظرف «لنصركم» وقت قولك [لِلْمُؤْمِنِينَ حين أظهروا العجز عن المقاتلة [أَ لَنْ يَكْفِيَكُمْ «الكفاية» سدّ الخلّة و القيام بالأمر، و «الإمداد» إعانة الجيش بالجيش.

و كانوا حينئذ كالآيسين من النصر لضعفهم و قوّة العدوّ.

[مُنْزَلِينَ أنزلهم اللّه من السماء إلى الأرض لنصرتكم، قال ابن عبّاس و جماعة. إنّ الإمداد بالملائكة يوم بدر، و لم تقاتل الملائكة إلّا يوم بدر و كان الإمداد من الملائكة غير بدر، بل كانت في غيره عدّة و مددا. قيل: أمدّهم اللّه أوّلا بألف ثمّ صاروا ثلاثة آلاف ثمّ خمسة، و إنّما قدّم لهم الوعد أوّلا بنزول الآية لتتقوّى قلوبهم و يعزموا على الثبات و يتقوّوا بنصر اللّه.

[بَلى إيجاب لما بعد «أن» و تحقيق له أي بلى يكفيكم ذلك، ثمّ وعدهم الزيادة بشرط الصبر و التقوى حثّا لهم عليهما فقال: [إِنْ تَصْبِرُوا] على لقاء العدوّ و مناهضتهم [وَ تَتَّقُوا] معصية اللّه [وَ يَأْتُوكُمْ أي إن يجيئكم المشركون [مِنْ فَوْرِهِمْ هذا] أي من ساعتهم هذه و رجعوا يعني المشركين إذا همّوا بكم و ابتدروا إلى قتالكم. و قيل: معنى «من فورهم» من غضبهم و غليان عداوتهم [يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ في حال إتيانهم لا يتأخّر نزولهم عن إتيانهم، يريد أنّ اللّه يعجّل نصرتكم إن صبرتم «التسويم» إظهار سيما الشي ء أي معلّمين أنفسهم أو خيلهم في أذنابها و نواصيها بالصوف الأبيض، قال صلّى اللّه عليه و آله لأصحابه: تسوّموا فإنّ الملائكة تسوّمت.

روي أنّ الملائكة كانوا بعمائم بيض إلّا جبرئيل فإنّه كان بعمامة صفراء على مثال الزبير بن العوّام و نزلوا على الخيل البلق موافقة لفرس المقداد. و إنّما قال ذلك لأنّ الكفّار في غزوة أحد قدموا بعد انصرافهم و همّوا بالرجوع فأوحى اللّه إلى نبيّه أن يأمر أصحابه بالتهيّؤ و الرجوع إليهم و قال لهم: «إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ».

فيكون المعنى: إن صبرتم على الجهاد و راجعتم الكفّار أمدّكم اللّه بخمسة آلاف من الملائكة.

و خرجوا يتبعون الكفّار على ما كان بهم من الجراح فأخبر المشركين من مرّ برسول اللّه أنّه خرج يتبعكم فخاف المشركون إن رجعوا أن تكون الغلبة للمسلمين و أن يكون قد التحق إليهم من كان تأخّر عنهم فدسّوا نعيم بن مسعود الأشجعيّ حتّى يصدّهم بتعظيم أمر قريش و أسرعوا في الذهاب إلى مكّة فكفى اللّه المسلمين أمرهم.

قال الباقر عليه السّلام: إنّ الملائكة الّذين نصروا يوم بدر ما صعدوا بعد و لا يصعدون حتّى

ينصروا القائم و هاهنا يقتضي مزيد بيان:

قال الرازيّ: قد اختلف المفسّرون في أنّ هذا الوعد حصل يوم بدر أو يوم احد و يتفرّع على هذين القولين اختلاف العامل في «إذ» فإن كان الوعد حصل يوم بدر كان العامل في «إذ» قوله تعالى: «نَصَرَكُمُ اللَّهُ» و تقدير الآية حينئذ. إذ نصركم اللّه ببدر و أنتم أذلّة يقول للمؤمنين أ لن يكفيكم، الآية. و إن كان الوعد حصل يوم أحد كان ذلك بدلا من قوله: «وَ إِذْ غَدَوْتَ».

و حجّة القائلين بأنّ الوعد حصل يوم أحد قالوا: إنّ يوم بدر إنّما أمدّ رسول اللّه بألف من الملائكة قال تعالى: في سورة الأنفال «إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ» (1) فكيف يليق ما ذكر فيه ثلاثة آلاف و خمسة آلاف بيوم بدر؟

و أيضا إنّه تعالى قال في هذه الآية: و يأتوكم أعداؤكم من فورهم، و يوم احد هو اليوم الّذي كان يأتيهم الأعداء فأمّا يوم بدر فالأعداء ما أتوهم بل هم ذهبوا إلى الأعداء.

فإن قيل: لو جرى قوله تعالى: «أَ لَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ» في يوم أحد و الحال أنّه ما حصل الأمداد و النصر لزم الكذب.

فالجواب أنّ إنزال الملائكة كان مشروطا بشرط أن يصبروا و لم يتعرّضوا في المغانم حسب ما أمرهم النبيّ أن لا يفارقوا الثنيّة و هم خالفوا أمر الرسول فلمّا خالفوا الشرط لا جرم فات المشروط، و إنّما وعد الرسول بذلك للمؤمنين الّذين بوّأ بهم رسول اللّه مقاعد للقتال بشرط أن يثبتوا في تلك المقاعد و هم أهملوا القعود و الثبات طمعا في الغنيمة لمّا أحسّوا النصر ففاتهم المشروط.

و لو سلّمنا أنّ الملائكة نزلت كما أنّه روي أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله أعطى اللواء مصعب ابن عمير فقتل مصعب فأخذه ملك في صورة مصعب فقال رسول اللّه: تقدّم يا مصعب، فقال الملك:

لست بمصعب فعرف الرسول أنّه الملك، فنقول: إنّ الملائكة لم يقاتلوا، انتهى.

و أمّا حجّة القائلين أنّ هذا الوعد كان يوم بدر أنّ ظاهر قوله: «وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ

1- الأنفال: 9.

اللَّهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ* إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَ لَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ» يقتضي أنّ اللّه نصرهم ببدر و قد وقع النصر ببدر و قلّة العدد كانت يوم بدر أكثر و كان الاحتياج إلى تقوية القلب في ذلك اليوم أكثر.

و ليس لأحد أن يقول: إنّهم نزلوا لكنّهم ما قاتلوا لأنّ الوعد كان بالإمداد و بمجرّد الإنزال لا يحصل الإمداد بل لا بدّ من الإعانة حصلت يوم بدر و لم يحصل يوم أحد النهاية أنّ الجواب عن القول: بأنّ واقعة بدر كان عدد الملائكة مذكورا في الآية بتعيين الألف هو أنّه تعالى أمدّ أصحاب الرسول بألف ثمّ زاد ألفين فيهم فصاروا ثلاثة آلاف ثمّ زادوا ألفين آخرين فصاروا خمسة آلاف فكأنّه قال صلّى اللّه عليه و آله لهم: «أ لن يكفيكم أن يمدّكم ربّكم بألف من الملائكة» فقالوا: بلى، ثمّ قال: «أَ لَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ» فقالوا: بلى، ثمّ قال لهم: «إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا ... يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ» و هذا الكلام كما قال صلّى اللّه عليه و آله لأصحابه: أ يسرّكم أن تكونوا ربع أهل الجنّة قالوا: نعم، قال: أ يسرّكم أن تكونوا ثلث أهل الجنّة، قالوا: نعم، قال: فإنّي أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنّة.

و قال بعض أهل التفسير: إنّ اللّه تعالى أمدّ أهل البدر بألف من الملائكة فقيل:

إنّ كرز بن جابر المحاربيّ يريد أن يمدّ المشركين فشقّ ذلك على المسلمين فقال النبيّ:

«أَ لَنْ يَكْفِيَكُمْ» يعني بتقدير أن يجي ء المشركين مدد فاللّه يمدّكم أيضا بثلاثة آلاف و خمسة آلاف، ثمّ إنّ المشركين ما جاءهم المدد فكذا هاهنا الزائد على الألف ما جاء المسلمين.

قال الرازيّ: إنّ أبا بكر الأصمّ أنكر بعض هذه المعاني أشدّ الإنكار و احتجّ عليه بوجوه:

منها أنّ الملك الواحد يكفي في إهلاك أهل الأرض كما أنّ جبرئيل أدخل تحت المدائن الأربع أو الخمس لقوم لوط و بلغ جناحه إلى الأرض السابعة و رفعها إلى السماء

و قلّب عاليها سافلها فإذا حضر هو يوم بدر فأيّ حاجة إلى مقاتلة الناس مع الكفّار ثمّ بتقدير حضوره فأيّ فائدة في إرسال سائر الملائكة؟

و أيضا قال: إنّ أكابر الكفّار كانوا مشهورين و كلّ أحد منهم مقابله من الصحابة معلوم و إذا كان كذلك امتنع إسناد قتله إلى الملائكة.

و أيضا قال: إنّ الملائكة لو قاتلوا لكانوا إمّا أن يصيروا بحيث أن يراهم الناس أو لا يراهم فإن رآهم الناس فإمّا أن يقال: إنّهم رأوهم في صورة الناس أو في غير صورة الناس؛ فإن كان الأوّل فعلى هذا التقدير صار المشاهد من عسكر الرسول ثلاثة آلاف أو أكثر و لم يقل أحد بذلك، و إن شاهدوهم في صورة غير صورة الناس لزم وقوع الرعب الشديد في قلوب الخلق؛ فإنّ من شاهد الجنّ لا شكّ أنّه يشتدّ فزعه، و قال:

إنّه على تقدير أنّ الملائكة إذا حاربوا و جزّوا الرؤوس و مزّقوا البطون و أسقطوا الكفّار عن الأفراس فحينئذ الناس كانوا يشاهدون حصول هذه الأفعال مع أنّهم ما كانوا شاهدوا أحدا من الفاعلين و مثل هذا من أعظم المعجزات و لو كانت الملائكة أجساما كثيفة وجب أن يراهم الكلّ و إن كانوا أجساما لطيفة مثل الهواء لم يكن فيهم صلابة و قوّة و كيف يكونوا راكبين على الخيول؟

انتهى كلام أبي بكر الأصمّ في هذه الشبهات الركيكة لأنّها تليق بمن ينكر القرآن و النبوّة فأمّا من يقرّ بالقرآن و النبوّة فلا تليق به أن يتفوّه بمثل هذه الخرافات و نصّ القرآن ناطق بها و غير قابل للتأويل؛ لأنّ التأويل جاز في كلام لا يجوز حمله على ظاهره و أنّه لو حمل على ظاهره لكان مخالفا للأصول أو الفروع المتّفق، فأمّا مثل هذه الآية المحكمة ناطقة بهذا الأمر و شبهاته إذا قوبلت بقدرة اللّه زالت و طاحت بالكلّيّة يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد. و استدلاله بقوّة جبرئيل ليس مناف كون ألوف من الملائكة مع جبرئيل من القوّة بل لعلّ يكون لأجل إجلال النبيّ في تلك الواقعة. و كذلك سائر استدلالاته بالنسبة إلى قضاء اللّه و أمره أوهن من نسج العنكبوت، انتهى.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): آية 126]

وَ ما جَعَلَهُ اللّهُ إِلاّ بُشْرى لَكُمْ وَ لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَ مَا النَّصْرُ إِلاّ مِنْ عِنْدِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (126)

.

الضـمير في «جَعَلَهُ» راجع إلى المصدر. و المعنى: ما جعل اللّه المدد و الإمداد إلّا بشارة لكم بأنّكم تنصـرون و دلّ يمددكم على الإمداد «و البشرى» اسم من الإبشار [وَ لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ أي بالإمداد و تسكن إليه نفوسكم من الخوف كما كانت السكينة لبني إسرائيل.

[وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ كائن لا من العدّة و العدد، و هو تنبيه على أنّه لا حاجة في نصـرتهم إلى مدد و إنّما أمدّهم ربطا على قلوبهم و تطييبا لنفوسهم من حيث إنّ نظر العامّة إلى الأسباب أكثر [الْعَزِيزِ] الغالب في أمره [الْحَكِيمِ الّذي يفعل حسبما يقتضي الحكمة.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): آية 127]

لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خائِبِينَ (127)

. وجه اتّصال الآية بما قبلها أي أعطاكم اللّه هذا النصـر [لِيَقْطَعَ جمعا [مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا] بالأسر و القتل أو متّصل بقوله: «وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ ... لِيَقْطَعَ» و يهلك طائفة و جماعة منهم و لقد انقطع يوم بدر صناديدهم و قادتهم إلى الكفر فقتل من رؤسائهم سبعون و أسر سبعون. و قيل: هو يوم احد [أَوْ يَكْبِتَهُمْ أي يخزيهم، و قيل: أي يصرعهم اللّه على وجوههم.

و المراد حصول الإخزاء و اللعن و «أَوْ» في الآية للتنويع [فَيَنْقَلِبُوا خائِبِينَ لم ينالوا ممّا أملوا عرفا بشي ء من مبتغاهم.

و قيل: إنّ معنى الآية: لتطمئنّ قلوبكم به و ليقطع طائفة و جمعا من الكفّار. و إنّما ذكر بغير حرف العطف لأنّ العطف إذا كان البعض قريبا من البعض جاز حذف حرف العطف كما يقول السيّد لعبده: أكرمتك لتخدمني لتقوم بحقّي لتعينني، فكذا هاهنا.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): آية 128]

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْ ءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظالِمُونَ (128)

. و اختلف في سبب النزول. و اختلف أيضا في القراءة بالتاء و الياء في «يَتُوبَ» و «يعذب».

العيّاشيّ عن الباقر عليه السّلام أنّه قرأ «أن تتوب عليهم أو تعذّبهم» بالتاء فيهما.

و عنه عليه السّلام قرئ عنده: «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْ ءٌ» قال: بلى و اللّه إنّ له من الأمر شيئا و شيئا و شيئا و ليس حيث ذهبت و لكنّي أخبرك أنّ اللّه لمّا أخبر نبيّه أن يظهر ولاية عليّ عليه السّلام ففكّر صلّى اللّه عليه و آله في عداوة قومه له فيما فضّله اللّه به عليهم ضاق عن ذلك فأخبر اللّه أنّه «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْ ءٌ» إنّما الأمر فيه إلى اللّه أن يصيّر عليّا وصيّه و وليّ الأمر من بعده فهذا على اللّه.

و قال أبو مسلم: قوله: «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ» متّصل بقوله: «وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» فيكون معناه: نصركم اللّه ليقطع طرفا منهم أو يكبتهم و ليس لك و لا لغيرك من هذا النصر شي ء.

و قيل في معنى الآية: إنّ قوله: «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ» اعتراض واقع بين قوله:

«لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، الآية» و قوله: «أو يتوب عليهم» و التقدير: ليقطع طرفا منهم أو يكبتهم أو يتوب عليهم أو يعذّبهم أي ليس لك من هذه الأربعة شي ء.

و أمّا اختلاف النزول قال جماعة منهم ابن عبّاس و أنس بن مالك و الحسن: إنّه لمّا كان من المشركين يوم أحد ما كان من كسر رباعيّته و شجّه حتّى جرت الدماء على وجهه قال: كيف يفلح قوم نالوا هذا من نبيّهم و هو صلّى اللّه عليه و آله حريص على فلاحهم و هدايتهم؟

فأعلم اللّه أنّه ليس إليه فلاحهم و أنّه ليس إليه إلّا التبليغ و إنّما ذلك إلى اللّه و كان الّذي كسر رباعيّته و شجّه في رأسه عتبة بن أبي وقّاص و أدمى وجهه الشريف رجل من هذيل يقال له عبد اللّه بن قينة و هو صلّى اللّه عليه و آله كان يمسح الدم عن وجهه و يقول: اللّهمّ اهد قومي فإنّهم لا يعلمون.

و قيل في معنى الآية: إنّه صلّى اللّه عليه و آله استأذن ربّه أن يدعو عليهم يوم أحد فنزلت هذه الآية فلم يدع و إنّما لم يؤذن له فيه لما كان في المعلوم من توبة بعض عن، الجبّائيّ.

و قيل: أراد رسول اللّه أن يدعو على المنهزمين يوم أحد فنزلت الآية: «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ» عن ابن مسعود.

و قيل: لمّا رأى النبيّ صلّى اللّه عليه و آله ما فعل بعمّه حمزة و بأصحابه من المثلة من جدع الأنوف قال: لئن أدالنا اللّه منهم لنفعلنّ بهم مثل ما فعلوا بنا و لنمثلنّ بهم مثلة لم يمثلها أحد من

العرب بأحد قطّ؛ فنزلت الآية عن الشعبيّ و محمّد بن إسحاق.

و قيل: نزلت الآية في أهل بئر معونة و هم سبعون رجلا من قرّاء أصحاب الرسول و أميرهم المنذر بن عمرو بعثهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله إلى بئر معونة في صفر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من وقعة أحد ليعلّموا الناس القرآن فقتلهم جميعا عامر بن الطفيل فحزن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله من ذلك وجدا شديدا، فنزلت الآية.

قال الطبرسيّ: و الأصحّ أنّها نزلت في أحد و يقتضيه سياق الكلام و إنّما قال:

«لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ» مع أنّه صلّى اللّه عليه و آله يدعوهم إلى اللّه، المراد: أنّ أمر عقابهم أو الدعاء عليهم و لعنهم ليس لك لأنّه يقع إنابة بعضهم.

قال الرازيّ: لو قيل: إنّ ظاهر هذه الآية تدل على أنّ النبيّ فعل فعلا و كانت هذه الآية كالمنع منه و الأمر الممنوع منه إن كان حسنا فلم منعه اللّه و إن كان قبيحا فكيف يليق بالنبيّ؟ فالجواب أنّ المنع من الفعل لا يدلّ على أنّ الممنوع منه كان مشتغلا به، فإنّه تعالى قال: «لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ» (1) و أنّه ما أشرك قطّ و قوله: «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ» (2) لا يدلّ على أنّه ما كان يتّقي اللّه و قوله: «وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ» (3) و هو ما أطاعهم بل الفائدة من هذا المنع ذهاب غمّه الشديد و الغضب في مثلة حمزة و المسلمين غيرة على دين اللّه و تقوية لتصبّره صلّى اللّه عليه و آله و إكمالا لدرجة العبوديّة.

قوله: [أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ عطف على قوله: «أَوْ يَكْبِتَهُمْ» أي إن اللّه مالك أمرهم فإمّا أن يهلكهم أو يخزيهم أو يقبل توبتهم إن أسلموا [أَوْ يُعَذِّبَهُمْ إن أصرّوا [فَإِنَّهُمْ ظالِمُونَ بكفرهم و ظلمهم.

[سورة آل عمران (3): آية 129]

وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (129)

. لمّا قال سبحانه «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ» في الآية السابقة عقّب في هذه الآية بأنّ الأمر له. و ذكر لفظ «ما» لأنّ «ما» أعمّ ممّن يعقل و ما لا يعقل، له ملكا و خلقا [يَغْفِرُ

1- الزمر: 65.

2- الأحزاب: 1.

3- الأحزاب: 1.

لِمَنْ يَشاءُ] أن يغفر له و مشيئته مبنيّة على الحكم و المصالح [وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ] أن يعذّبه، و قدّم المغفرة لسبق رحمته غضبه و لم يبيّن من يغفر له و من يشاء تعذيبه ليكون المكلّف بين الخوف و الرجاء فلا يأمن من عذابه و لا ييأس من روحه.

و سأل بعضهم كيف يعذّب اللّه عباده بالأجرام مع سعة رحمته؟ فقال: رحمته لا تغلب حكمته و لا يكون رحمته برقّة القلب كما يكون الرحمة منّا. قال ابن عبّاس: معنى الآية:

يغفر لمن يشاء و يعذّب من يشاء ممّن لم يتب. و أوحى اللّه إلى داود عليه السّلام يا داود بشّر المذنبين و أنذر الصدّيقين، قال: يا ربّ فكيف ابشّر المذنبين و أنذر الصدّيقين؟ قال: بشّر المذنبين بأنّي لا يتعاظمني ذنب إلّا أغفره، و أنذر الصدّيقين أن لا يعجبوا بأعمالهم و أنّي لا أضع عدلي و حسابي على أحد إلّا أهلكه. فالإنسان و إن كثرت عبادته لا بدّ أن يطلب بقلبه و لسانه أن تدركه رحمته.

قال بعض علماء الأخلاق: دواء القلب خمسة: تلاوة القرآن مع التدبّر و خلاء البطن و قيام الليل و التضرّع إلى اللّه عند السحر و مجالسة الصالحين.

[سورة آل عمران (3): آية 130]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (130)

. لمّا ذكر أنّ له التعذيب لمن يشاء و المغفرة لمن يشاء وصل ذلك بالنهي عمّا لو فعلوا لاستحقّوا عليه العذاب و هو الربى فقال: [يا أَيُّهَا الَّذِينَ صدّقوا اللّه و رسوله [لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا] ذكر الأكل لأنّه معظم الانتفاع و إن كان غيره من التصرّفات أيضا منهيّا عنه و «الربا» الزيادة على أصل المال بالتأخير عن الأجل الحال. و قيل: هو ربي الجاهليّة.

[أَضْعافاً مُضاعَفَةً] زيادات مكرّرة كان الرجل في الجاهليّة إذا كان له على إنسان مائة درهم إلى أجل و لم يكن المديون واجدا لذلك المال قال: زدني في المال حتّى أزيدك في الأجل، فربّما جعله مأتين ثمّ إذا حلّ الأجل الثاني فعل مثل ذلك ثمّ إلى آجال كثيرة فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافها و «أضعافا» جمع ضعف حال من «الربى» أي متضاعفا و لمّا كان جمع قلّة و المقصود الكثرة أتبعه بما يدلّ على الكثرة حيث وصفه بقوله: «مضاعفة»

و هي اسم مفعول لا مصـدر و هـذه الحال ليس لتقييد النهي بها حتّى تنتفي الحرمة عند انتفائها بل بيان ما كانوا عليه من العادة توبيخا لهم على ذلك.

[وَ اتَّقُوا اللَّهَ فيمـا نهيتم عنه [لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ لكي تنجوا بـإدراك مـا تأملونه من ثواب الجنّة، و إنّما أعاد تحريم الربا مع ما سـبق من ذكره في سورة البقرة لأمرين:

أحدهما التصريح بالنهي عنه بعد الإخبار بتحريمه لشدّة التحذير منه و لتأكيد النهي عن هذا الضرب منه الّذي يجري على الأضعاف.

[سورة آل عمران (3): آية 131]

وَ اتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ (131)

. و اتّقوا بالتحرّز عن تعاطي ما يتعاطونه. و في الآية تنبيه على أنّ النار بالذات معدّة للكفّار و بالعرض للعصاة. قيل: هي أخوف آية في القرآن حيث أوعد اللّه المؤمنين بالنار المعدّة للكافرين إن لم يتّقوه في أصناف محارمه.

وَ أَطِيعُوا اللَّهَ في كلّ ما أمركم به و نهاكم عنه و الرسول الّذي يبلّغكم

[سورة آل عمران (3): آية 132]

وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (132)

أي لكي ترحموا و في هـذا البيان نهايـة التهديد على الربى حيث أتى بلعلّ في فلاح من اجتنبه لأنّ تعليق إمكان الفلاح و رجائه بالاجتناب منه يسـتلزم امتناع الفلاح لهم إذا لم يجتنبوه فما أعظمها من مصـيبة توجب عقاب الكفّار للمؤمنين! و كيف درج التغليظ في التهديـد حتّى ألحقه بالكفّار في الجزاء و العقاب؟

قال رسول اللّه: لعن اللّه آكل الربا و مؤكله و شاهده و كاتبه و المحلّل. و روي عن عبد اللّه ابن سـلام للربى اثنان و سـبعون حوبا أصـغرها كمن أتى امّه في إسلام، كذا في تنبيه الغافلين. قال صاحب روح البيان: و آخذ الربا لا يقبل اللّه منه صدقة و لا جهادا و لا حجّا و لا صلاة.

[سورة آل عمران (3): آية 133]

وَ سارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133)

. لمّا حذّر اللّه عن الأفعال الموجبة للعقاب عقّبه بالحثّ على الأفعال الموجبة للثواب أي بادروا [إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ باجتناب المعصـية و إلى الأعمال الّتي توجب المغفرة.

و اختلف في ذلك فقيل: سارعوا إلى الإسلام، عن ابن عبّاس. و قيل: إلى أداء الفرائض، عن عليّ بن أبي طالب عليه السّلام. و قيل: إلى الهجرة. و قيل: إلى التكبيرة الاولى عن أنس بن مالك. و قيل: إلى الصلاة الخمس، و قيل: إلى الجهاد، عن الضحّاك. و قيل: إلى التوبة، عن عكرمة.

[وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ أي و إلى جنّة عرضها كعرض السماوات السبع و الأرضين السبع إذا ضمّ بعض ذلك إلى بعض، عن ابن عبّاس و جماعة. و إنّما ذكر العرض بالعظم دون الطول لأنّه يدلّ على أنّ الطول أعظم من العرض بخلاف ما إذا ذكر الطول دون العرض، فمعنى الآية مثل قوله: «ما خَلْقُكُمْ وَ لا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ» (1) أي كخلق نفس واحدة.

و قيل: المراد في الآية بيان عظم ثمنها أي لو بيعت و عرضت للبيع كثمن السماوات و الأرض كما يقال: عرضت هذا المتاع للبيع و المراد بيان جلالة قدرها و ثمنها.

و روي أنّه سئل النبيّ صلّى اللّه عليه و آله فقيل له: إذا كانت الجنّة عرضها كعرض السماوات و الأرض فأين تكون النار؟ فقال صلّى اللّه عليه و آله: سبحان اللّه إذا جاء النهار فأين الليل؟ أي إنّ القادر على أن يذهب بالليل حيث شاء قادر على أن يخلق النار حيث شاء.

و بيانه صلّى اللّه عليه و آله في جوابهم معارضة فيها إسقاط المسألة؛ و الجواب أنّ الجنّة فوق السماوات السبع و تحت العرش، و النار تحت الأرضين السبع و معنى قولهم: إنّ الجنّة في السماء أي إنّها في ناحية السماء و جهتها و السماء يحويها و لا ينكر أن يخلق اللّه في العلو أمثال السماوات و الأرضين، و إن صحّ الخبر أنّها في السماء الرابعة كان كما يقال: في الدار بستان لاتّصاله بها و كونه في ناحية منها أو يشرع إليها بابه و إن كان أضعاف الدار.

و قيل: إنّ اللّه يزيد عرضها يوم القيامة فيكون المراد من قوله: «عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ» يوم القيامة لا في الحال على تسليم أنّها في السماء.

[أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ المطيعين للّه و لرسوله، و إنّما أضيفت إلى المتّقين لأنّهم المقصودون بها أصلا و إن دخلها غيرهم من الأطفال و المجانين على وجه التبع و كذلك الفسّاق لوعفي

1- لقمان: 28.

عنهم. و قيل: معناه لو لا المتّقون لما خلقت الجنّة كما يقال: وضعت المائدة للأمير. و قوله:

«أُعِدَّتْ» يدلّ على أنّ الجنّة مخلوقة اليوم لأنّها لا تكون معدّة إلّا و هي مخلوقة، و أنّها خارجة عن هذا العالم؛ أمّا الأوّل فلدلالة لفظ الماضي، و أمّا الثاني فلأنّ ما يكون عرضها السماوات و الأرض لا يكون في هذا العالم و لا داخلا فيه.

[سورة آل عمران (3): آية 134]

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ الْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَ الْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134)

. [الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَ الضَّرَّاءِ] وصف سبحانه حال المتّقين فقال: الّذين ينفقون كلّما يصلح للإنفاق في حالة اليسر و في حالة العسر أو في حالة الفرح و الغمّ أي في الأحوال كلّها؛ لأنّ الإنسان لا يخلو عن هاتين الحالتين [وَ الْكاظِمِينَ الْغَيْظَ] عطف على الموصول و «الكظم» الحبس أي الممسكين غضبهم الكافّين عن إمضائه مع القدرة عليه [وَ الْعافِينَ عَنِ النَّاسِ التاركين عقوبة من استحقّ مؤاخذته [وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ و هم الّذين عمّت فواضلهم و تمّت فضائلهم، و اللام يجوز للجنس فيدخل تحته هؤلاء و يصلح للعهد فيكون الإشارة إليهم.

قال رسول اللّه: من كظم غيظا و هو يقدر على إنفاذه ملأ اللّه قلبه أمنا و إيمانا و أمّا في الآخرة فهو أن يبرأ ذمّته من التبعات و المطالبات.

قال الفضيل بن عياض: الإحسان بعد الإحسان مكافأة و الإساءة بعد الإساءة مجازاة و الإحسان بعد الإساءة كرم وجود و الإساءة بعد الإحسان لؤم و شؤم.

روي أنّ جارية لعليّ بن الحسين عليه السّلام جعلت تسكب عليه الماء ليتهيّأ للصلاة فسقط الإبريق من يدها فشجّه و رفع رأسه عليه السّلام إليها فقالت الجارية: إنّ اللّه يقول:

«وَ الْكاظِمِينَ الْغَيْظَ» فقال لها: قد كظمت غيظي، قالت: «وَ الْعافِينَ عَنِ النَّاسِ» قال: قد عفى اللّه عنك، قالت: «وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» فقال عليه السّلام: اذهبي يا جارية فأنت حرّة لوجه اللّه.

و تأمّل بأنّ اللّه تعالى عدّد من أخلاق أهل الجنة السخاء في الآية؛ قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله:

السخاء شجرة في الجنّة أغصانها في الدنيا من تعلّق بغصن من أغصانها قادته إلى الجنّة

و البخل شجرة في الجنّة أغصانها في الدنيا فمن تعلّق بغصن منها قادته إلى النار. قال عليّ عليه السّلام:

الجنّة دار الأسخياء و قال عليه السّلام: السخيّ قريب من اللّه قريب من الجنّة قريب من الناس بعيد من النار. و البخيل بعيد من اللّه بعيد من الجنّة بعيد من الناس قريب من النار انتهى.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): الآيات 135 الى 136]

وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَ مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (135) أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (136)

النزول: روي أنّ قوما من المؤمنين قالوا: يا رسول اللّه بنو إسرائيل أكرم على اللّه منّا؛ كان أحدهم إذا أذنب أصبحت كفّارة ذنبه مكتوبة على عتبة بابه: اجدع أنفك و اذنك أو افعل كذا و كذا. فسكت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله فنزلت الآية فقال صلّى اللّه عليه و آله: أ لا أخبركم بخير من ذلكم؟ و قرأ عليهم الآية عن ابن مسعود. و في ذلك تسهيل لهم إذ جعل الاستغفار بدلا منه.

و قيل: نزلت في تيهان التمّار أتته امرأة تبتاع منه تمرا فقال: إنّ هذا التمر ليس بجيّد و في البيت أجود منه، و ذهب بها إلى بيته فضمّها إلى نفسه فقبّلها فقالت: اتّق اللّه، فتركها و ندم و أتى النبيّ و ذكر له ذلك فنزلت الآية، عن عطا.

و اختلفوا في معنى الفاحشة و ظلم النفس؛ فقيل: المراد بالفاحشة الزنا، و من ظلم النفس سائر المعاصي. و قيل: الفاحشة الكبائر و ظلم النفس الصغائر، عن القاضي عبد الجبّار الهمدانيّ. و قيل: الفاحشة الكبائر و لو أنّها اسم لكلّ معصية ظاهرة أو باطنة لكنّها لا يقع إلّا على الكبيرة. و قيل: المراد: [فَعَلُوا فاحِشَةً] فعلا [أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ قولا [ذَكَرُوا اللَّهَ أي وعيده و ذكروا جلاله الموجب للخشية [فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ بأن يندموا على المعصية مع العزم على ترك مثله في المستقبل و أمّا مجرّد الاستغفار باللسان فلا أثر له في إزالة الذنب و هو توبة الكذّابين.

[وَ مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ و «مَنْ» استفهام إنكاريّ أي جنس الذنوب، من يغفر

جنس الذنوب غيره تعالى و «إِلَّا اللَّهُ» بدل من الضمير المستتر في «يَغْفِرُ» و هو معترضة بين المعطوف و المعطوف عليه تطييبا لقلوب التائبين و بشارة لهم بسعة رحمته و تحريضا للعباد على التوبة و ردعا من اليأس و القنوط.

[وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا] عطف على «فَاسْتَغْفَرُوا» أي لم يقيموا على الذنوب و أصل «الصرّ» الشدّ و الاستحكام من الصرّة و المراد هنا الارتباط بالذنب بالإقامة و الثبات عليه [وَ هُمْ يَعْلَمُونَ أي و هم عالمون بقبحه و وعيده، و التقييد بذلك لما أنّه قد يعذر من لا يعلم إذا لم يكن عن تقصير في تحصيل العلم به، أو المراد و هم ذاكرين للخطيئة غير ساهين و لا ناسين، لأنّ اللّه يغفر للعبد ما نسيه و إن لم يتب منه بعينه، أو المراد أنّهم يعلمون الحجّة في أنّها خطيئة و هذا قريب من معنى الأوّل فإذا لم يعلموا و لا طريق لهم إلى العلم به كان الإثم موضوعا عنهم كمن تزوّج امّه من الرضاع أو النسب و هو لا يعلم به فإنّه لا يأثم، و هذا قول ابن عبّاس. و قيل: و هم يعلمون أنّ اللّه يملك مغفرة ذنوبهم.

[أُولئِكَ إشارة إلى الموصوفين في قوله: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَ الضَّرَّاءِ» إلى هنا، أي هؤلاء [جَزاؤُهُمْ على هذه الأمور [مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ و ستر لذنوبهم من اللّه [وَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ و «الجنّات» مفسّرة مرارا، و المخصوص بالمدح محذوف أي و نعم أجر العاملين ذلك. و التعبير بالأجر و إن كان الجزاء بالتفضيل لا بالاستحقاق لمزيد الترغيب في الطاعات و الزجر عن المعاصي.

في تفسير روح البيان: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله عن ربّه قال: ابن آدم إنّك ما دعوتني و رجوتني غفرت لك ما كان منك، ابن آدم إنّك إن تلقني بتراب الأرض خطايا لقيتك بترابها مغفرة بعد أن لا تشرك بي شيئا، ابن آدم إنّك إن تذنب حتّى تبلغ ذنبك عنان السماء ثمّ تستغفرني أغفر لك.

قال ثابت البنانيّ: بلغني أنّ إبليس بكى حتّى نزلت هذه الآية و هي «وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً» قال رسول صلّى اللّه عليه و آله: ما من عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور ثمّ يقوم و يصلّي ثمّ يستغفر اللّه إلّا غفر اللّه له.

روي أنّ اللّه أوحى إلى موسى عليه السّلام ما أقلّ حياء من يطمع في جنّتي بلا عمل! يا

موسى كيف أجود برحمتي على من يبخل بطاعتي؟ قال شهر بن حوشب: طلب الجنّة بلا عمل ذنب من الذنوب و انتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور.

قالت رابعة البصريّة:

ترجو النجاة و لم تسلك مسالكهاإنّ السفينة لا تجري على اليبس

قال القشيريّ: أوحى اللّه سبحانه إلى موسى عليه السّلام قل: للظلمة حتّى لا يذكروني فإنّي أوجبت أن أذكر من يذكرني و ذكري للظلمة باللعنة.

[سورة آل عمران (3): الآيات 137 الى 138]

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (137) هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (138)

لمّا بيّن سبحانه ما يفعله بالمؤمن و الكافر ذكر في هذه الآية أنّ ذلك عادته في خلقه «و السنّة» الطريقة المجعولة ليقتدى بها «و الخلوّ» الانفراد و يستعمل في الزمان الماضي لأنّ ما مضى انفرد عن الوجود و خلا عنه، و المراد بسنن اللّه معاملاته في الأمم المكذّبة بالهلاك و العذاب. قيل: خطاب لمن هزم يوم احد.

أي قد مضت يا امّة محمّد صلّى اللّه عليه و آله أو يا أهل أحد المنهزمين عادات من اللّه في الأمم المتقدّمة إذا كذّبوا رسله بالإهلاك، و تبقية آثارهم في الديار للاعتبار و الاتّعاظ.

و قيل: معناه قد مضت لكلّ امّة سنّة و منهاج إذا اتّبعوها يحصل لهم رضى اللّه إن شككتم في ذلك [فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ و لعلّ المراد من السير ليست المسافرة في الأرض بسير الأقدام بل تعرّف أحوالهم فإن لم تحصل المعرفة فإنّ أثر المشاهدة أقوى من أثر السماع كما قيل: ليس الخبر كالعيان [فَانْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ و «كَيْفَ» خبر مقدّم «لكان» أي عاقبة مكذّبي رسلي و أنبيائي.

[هذا] إشارة إلى ما سلف من قوله: «قَدْ خَلَتْ» إلى آخر الآية [بَيانٌ لِلنَّاسِ و إيضاح ليعتبروا و دلالة و هداية و زيادة بصيرة [وَ مَوْعِظَةٌ] لأهل الدين و التقوى لأنّهم هم المتّعظون.

قال صاحب روح البيان: في الآية تسلية للمؤمنين فيما أصابهم يوم احد؛ فإنّ الكفّار و إن نالوا من المؤمنين بعض النيل لحكمة اقتضته، فالعاقبة للمتّقين و لو كانت الغلبة

كلّ مرّة للمؤمنين لصار الإيمان ضروريّا و هو خلاف التكليف و الحكمة، و العاقل لا يغترّ بالحظوظ الفانية و اللائق أن يجتهد فيما هو خير.

[سورة آل عمران (3): آية 139]

وَ لا تَهِنُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (139)

. أي لا تضعفوا من الجهاد بما أصابكم من الجراح يوم احد [وَ لا تَحْزَنُوا] على من قتل منكم. و هذا النهي ورد للتسلّي و التصبير لا النهي عن الحزن و ذلك أنّه لمّا انهزم المسلمون في الشعب و أقبل خالد بن الوليد بخيل من المشركين يريد أن يعلو عليهم الجبل فقال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: لا يعلنّ علينا، اللّهم لا قوّة لنا إلّا بك اللّهمّ ليس يعبدك بهذه البلدة إلّا هؤلاء النفر؛ فنزلت الآية و قام نفر رماة فصعدوا الجبل و رموا خيل المشركين حتّى هزموهم و علوا المسلمون الجبل، فذلك قوله: [وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ و أصله «الأعليون» واحده «الأعلى» و مؤنّثه «العليا» و جمعه «العليات و العلى» و حذفت الياء كراهة الجمع بين اخت الكسرة و الضمّة أي و الحال أنتم الغالبون [إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ و الجواب محذوف دلّ عليه المذكور أي إن كنتم مؤمنين لا تهنوا، فإنّ الإيمان يوجب قوّة القلب.

قوله: [سورة آل عمران (3): آية 140]

إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (140)

. أي إن يصبكم قرح- بفتح القاف و بضمّها- كالشهد و الشهد، و قيل: إنّ القرح- بالضمّ- الجراحات بأعيانها، و القرح- بالفتح- ألم الجراحات [فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ أي الكفّار يوم بدر، و قتل المسلمون من الكافرين يوم بدر سبعين و أسروا سبعين و قتل الكافرون من المسلمين بأحد سبعين و أسروا سبعين. و المعنى إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم قبله و لم يضعف ذلك قلوبهم و لم يمنعهم عن معاودتكم بالقتال فأنتم أولى بأن لا تضعفوا فإنّكم ترجون من اللّه ما لا يرجون.

[وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ إشارة إلى أوقات الظفر و الغلبة [نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ أي نصرفها بينهم نديل لهؤلاء تارة و لهؤلاء اخرى و «المداولة» نقل الشي ء من واحد إلى واحد يقال:

تداولته الأيدي أي تناقلته، و ليس المراد أنّه تعالى تارة ينصر المؤمنين و اخرى ينصر الكافرين

لأنّ نصره تعالى منصب شريف لا يليق بالكافر بل المراد أنّه تعالى تارة يشدّد المحنة على الكفّار و اخرى على المؤمنين و أنّه لو شدّد المحنة على الكفّار في جميع الأوقات و أزالها عن المؤمنين في جميع الأوقات لحصل العلم الضروريّ بأنّ الإيمان حقّ و ما سواه باطل: و لو كان كذلك لبطل التكليف و الثواب و العقاب فلهذا المعنى تارة كذا و تارة كذا لتكون الشبهات باقية و المكلّف يدفعها بواسطة النظر في الدلائل.

[وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا] عطف على علّة محذوفة أي تلك الأيّام نداولها بينكم ليكون المصالح كيت و كيت و إيذانا بأنّ العلّة فيما فعل غير واحدة. و «لِيَعْلَمَ» أي و ليعاملكم معاملة من يريد أن يعلم المخلصين من غيرهم، أو العلم في الآية مجاز عن التمييز بطريق إطلاق اسم السبب على المسبّب أي ليميّز الثابتين على الإيمان من غيرهم، و المراد تعلّق العلم بالمعلوم من حيث إنّه موجود بالفعل إذ هو الّذي يدور عليه فلك الجزاء لا من حيث إنّه موجود بالقوّة فالمعنى: ليعلم اللّه الّذين آمنوا علما يتعلّق به الجزاء.

[وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ] أي و يكرم ناسا منكم بفوز الشهادة و هم شهداء احد [وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ] و نفي المحبّة كناية عن البغض، و في الآية إشعار بأنّه تعالى لا ينصر الكافرين على الحقيقة و إنّما يغلبهم أحيانا استدراجا لهم و ابتلاء للمؤمنين و لا ينافي هذا مع قوله «وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ» (1).

[سورة آل عمران (3): آية 141]

وَ لِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَمْحَقَ الْكافِرِينَ (141)

عطف على «يتّخذ» أي ليصفيهم و يطهّرهم من الذنوب إن كانت الدولة عليهم [وَ يَمْحَقَ الْكافِرِينَ] و يهلكهم إن كانت عليهم، و قابل سبحانه بين التمحيص و المحق لأنّ محص هؤلاء بإهلاك ذنوبهم نظير محق أولئك بإهلاك أنفسهم و هذه مقبلة في المعنى.

[سورة آل عمران (3): آية 142]

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ يَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (142)

. «أَمْ» منقطعة و «الحسبان» الظنّ، و الخطاب للّذين انهزموا يوم أحد أي بل أ ظننتم [أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ] و تفوزوا بنعيمها [وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ] المجاهدين [مِنْكُمْ] حال من ضمير «تَدْخُلُوا» مؤكّدة للإنكار فإنّ رجاء الأجر من غير عمل مستبعد في العقول و عدم

1- الصافات: 173.

العلم كناية عن عدم المعلوم أي ما جاهدتم لأنّ وقوع الشي ء يستلزم كونه معلوما عند اللّه و نفي اللازم يستلزم نفي الملزوم؛ فنزّل نفي العلم بمنزلة نفي المعلوم و هو الجهاد و «لَمَّا» بمعنى «لم» إلّا أنّ فيه ضربا من التوقّع تقول: وعدني أن يفعل كذا و لمّا يفعل، أي لم يفعل و أنا أنتظر فعله.

[وَ يَعْلَمَ الصَّابِرِينَ منصوب بإضمار «أن» أي و أن يعلم الصابرين و يقع منكم الصبر على الشدائد فيعلّق العلم بالمعلوم.

و اعلم أنّ تحقيق المسألة في علمه ليس شأنه أن يسع في هذا المختصر و لا شكّ أنّ علمه تعالى قديم و هو عين ذاته تعالى و علمه بالأشياء كان حاصلا قبل أن يحصل الأشياء فعلمه القديم هو ذاته لم يقترن بمعلوم بل هو علم و لا معلوم، مثاله أنّك إذا قابلت المرآة انطبعت فيها صورتك و هي في المرآة مثال المخلوق المعلوم بحصوله و حضوره و هذه الصورة المنطبعة هي ظلّ صورتك الّتي فيك و شبحها يعني أنّك ظهرت للصورة الّتي في المرآة بواسطة صقالتها و مقابلتها الّتي هي المشخّصات لها عن الصورة الّتي قامت بها فالظهور الّذي انطبع من صورتك الّتي قامت بك في المرآة منفصل عن صورتك الّتي قامت بك؛ فاللّه سبحانه عالم و لا معلوم فمثله كنت أنت بصورتك الّتي هي أنت عليه و لك و معك و هي كينونتك و لا صورة في المرآة فلمّا أحدث الأشياء و تكوّن المعلوم وقع العلم على المعلوم مثل أنّ المقابلة في المرآة شخص تلك الّتي هي قديمة فيك و كنت تعلم بها و علمك بالصورة المقابلة في المرآة هو علمك بالصورة قبل المقابلة في المرآة واحد. و هو تعالى شأنه أحديّ الذات ليس في شي ء و ليس فيه شي ء و لا يبتدئ منه الخلق بمعنى أنّه أصل مادّة الخلق أو ينتهي إليه الخلق برجوع مادّة أو صورة، تعالى اللّه عن ذلك علوّا كبيرا، فالخلق من أمره بقاؤه و فناؤه لا من شي ء أو جزء منه تعالى عن الشيئيّة و التركيب.

[سورة آل عمران (3): آية 143]

وَ لَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (143)

. [وَ لَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ أي الحرب فإنّها من مبادئ الموت أو الموت بالشهادة، و الخطاب للّذين لم يشهدوا البدر و كانوا يتمنّون أن يشهدوا مع النبيّ صلّى اللّه عليه و آله مشهدا

لينالوا ما ناله شهداء بدر من الكرامة فألحّوا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله إلى الخروج ثمّ ظهر منهم خلاف ذلك [مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ أي من قبل أن تشاهدوا و تعرفوا شدّته [فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ أي ما تمنّونه من أسباب الموت [وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ معاينين مشاهدين له حتّى قتل من قتل من إخوانكم و شارفتم أن تقتلوا أيضا أنتم فلم فعلتم ما فعلتم و هزمتم؟

و في الآية توبيخ لهم بأنّ حبّ الدنيا لا يجتمع مع سعادة الآخرة و بقدر ما يزداد أحدهما ينتقص عن الآخر؛ فإنّ الحبّ هو الّذي لا ينقص بالجفاء و لا يزداد بالوفاء؛ و لذا قيل من ظنّ أنّه يصل إلى محلّ عظيم دون مقاسات الشدائد ألقته أمانيّه في مهواة الهلاك و من عرف قدر مطلوبه سهل عليه بذلك مجهوده؛ قال الشاعر:

و ما جاد دهر بلذّاته على من يضيق بخلع العذار

[سورة آل عمران (3): آية 144]

وَ ما مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (144)

. قال ابن عبّاس: لمّا نزل النبيّ صلّى اللّه عليه و آله بأحد أمر الرماة أن يلزموا أصل الجبل و أن لا ينتقلوا عن ذلك سواء كان الأمر لهم أو عليهم، فلمّا وقفوا و حملوا على الكفّار و هزموهم و قتل عليّ عليه السّلام طلحة بن أبي طلحة صاحب لوائهم و الزبير و المقداد حملا على المشركين ثمّ حمل الرسول مع أصحابه فهزموا أبا سفيان، ثمّ إنّ بعض القوم لمّا أن رأوا انهزام الكفّار بادر قوم من الرماة إلى الغنيمة.

و كان خالد بن الوليد صاحب الميمنة من الكفّار فلمّا رأى تفرّق الرماة حمل على المسلمين فهزمهم و فرّق جمعهم و كثر القتل في المسلمين و رمى عبد اللّه بن قميئة الحارثيّ رسول اللّه بحجر فكسر رباعيّته و شجّ وجهه الشريف فذبّ عنه مصعب بن عمير فقتله ابن قميئة فظنّ أنّه قتل رسول اللّه؛ فقال: قد قتلت محمّدا صلّى اللّه عليه و آله.

و قيل: صرخ صارخ: ألا-إنّ محمّدا قد قتل، و كان الصارخ الشيطان، ففشا في الناس خبر قتله صلّى اللّه عليه و آله فهنالك قال بعض المسلمين: ليت عبد اللّه بن أبيّ يأخذ لنا أمانا من أبي سفيان فقال أنس بن النضر عمّ أنس بن مالك: يا قوم إن كان قد قتل محمّد صلّى اللّه عليه و آله فإنّ ربّ

محمّد حيّ لا يموت و ما تصنعون بالحياة بعد رسول اللّه؟ قاتلوا على ما قاتل عليه و موتوا على ما مات عليه، اللّهمّ إنّي أعتذر إليك ممّا يقول هؤلاء ثمّ سلّ سيفه فقاتل حتّى قتل.

و بالجملة لمّا شجّ ذلك الكافر وجه رسول اللّه و كسر رباعيّته احتمله طلحة بن عبد اللّه و دافع عنه أمير المؤمنين و نفر آخرون معهم ثمّ إنّه صلّى اللّه عليه و آله جعل ينادي و يقول: عباد اللّه إليّ حتّى انحازت إليه طائفة من أصحابه فلامهم على هزيمتهم فقالوا: يا رسول اللّه، فديناك بآبائنا أتانا خبر قتلك فاستولى الرعب علينا فولّينا مدبرين.

فمعنى الآية: [وَ ما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ فسيخلوا كما خلوا و كما أنّ أتباعهم بقوا متمسّكين بدينهم بعد خلوّهم فعليكم أن تمسّكوا بدينه بعد خلوّه.

[أَ فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ إنكار لارتدادهم عن الدين بخلوّه بموت أو قتل، أي تصيرون كفّارا بعد إيمانكم و ترجعون قهقرى وراءكم؛ و ذلك أنّ المنافقين قالوا لبعض ضعفة المسلمين: إن كان محمّد قد قتل فالحقوا بدينكم.

[وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ بإدباره عمّا كان يقبل عليه رسول اللّه من أوامره من الجهاد أو غيره [فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ بما فعل من الانقلاب [شَيْئاً] من الضرر و إنّما يضرّ نفسه و اللّه منزّه عن النفع و الضرر [وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ لنعمة الإسلام الثابتين عليه؛ لأنّ الثبات عليه شكر له و إيفاء لحقّه.

روي عن أبي هريرة عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله قال: ألم تروا كيف صرف اللّه عنّي شتم قريش؟ و ذلك أنّهم كانوا يقولون لي مذمّما- و كانت امّ جميل امرأة أبي لهب تقول محمّدا:

مذمّما أتانا و دينه قلانا- و أنا محمّد.

و في مسند عليّ بن موسى الرضا عليه السّلام عن آبائه عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال: إذا سمّيتم الولد محمّدا فأكرموه و أوسعوا له في المجلس و لا تقبحوا له وجها، و ما من قوم كان لهم من هو اسمه محمّد أو أحمد فأدخلوه في مشورتهم إلّا خير لهم، و ما من مائدة وضعت فحضرها من اسمه محمّد أو أحمد إلّا قدّس في كلّ يوم ذلك المنزل مرّتين.

و اعلم أنّه ليس لقائل أن يقول: لمّا علم أنّه لا يقتل لم قال: «أَوْ قُتِلَ» لأنّ صدق القضيّة الشرطيّة لا يقتضي صدق جزأيها فإنّك تقول: «لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا»

ص: 283

فهذا حقّ مع أنّه ليس فيهما آلهة و ليس فيهما فساد فكذا هاهنا.

فإن قيل: إنّ قوله: «أَ فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ» شكّ و هو على اللّه لا يجوز؛ فالمراد أنّه سواء وقع هذا أو ذاك فلا تأثير له في ضعف الدين و وقوع الارتداد.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (3): آية 145]

وَ ما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاّٰ بِإِذْنِ اللّٰهِ كِتاباً مُؤَجَّلاً وَ مَنْ يُرِدْ ثَوابَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَ مَنْ يُرِدْ ثَوابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْها وَ سَنَجْزِي الشّاكِرِينَ (145)

. وجه تعلّق هذه الآية بما قبلها أنّ المنافقين أرجفوا أنّ محمّدا صلّى اللّه عليه و آله قد قتل فاللّه تعالى يقول: إنّه لا يموت إلّا بإذن اللّه و قضائه و قدره، و تحريض المؤمنين على الجهاد بإعلامهم أنّ الحذر لا يدفع القدر و أنّ أحدا لا يموت قبل الأجل و إذا جاء الأجل لا يندفع الموت بشي ء و لا فائدة في الحبس و الخوف، و لأنّ المنافقين لمّا رجع أصحاب أحد و قتل منهم من قتل قالوا: «لَوْ كانُوا عِنْدَنا ما ماتُوا وَ ما قُتِلُوا» (1) فأجابهم اللّه أنّ الموت و القتل لا يكونان إلّا بإذن اللّه.

و المراد من إذن اللّه في الآية أمر اللّه تعالى أنّه يأمر ملك الموت بقبض الأرواح.

أو المراد من الإذن تكوين اللّه و تخليقه. و قيل: المراد من الإذن تخلية اللّه و ترك المنع بالقهر و الإجبار. فيكون المعنى يتخلّى اللّه بين القاتل و المقتول. و قيل: المراد من الإذن العلم؛ فالمعنى أنّ نفسا لن تموت إلّا في الوقت الّذي علم اللّه موتها فيه. و قال ابن عبّاس: معنى إذن اللّه في الآية قضاؤه. قال الأخفش اللام في «لِنَفْسٍ» معناها النفي، و التقدير: و ما كانت نفس لتموت إلّا بإذن اللّه.

و حاصل المعنى: ما كان الموت حاصلا لنفس من النفوس إلّا بمشيئته [كِتاباً مُؤَجَّلًا] مسمّى في علمه أي كتب الموت كتابا موقّتا بوقت معلوم [وَ مَنْ يُرِدْ] بعلمه [ثَوابَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها] أي من ثواب الدنيا و في الآية تعريض لمن شغلتهم الغنائم يوم احد.

[وَ مَنْ يُرِدْ ثَوابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْها] من ثواب الآخرة ما يشاء من الأصناف حسبما جرى به الوعد الكريم [وَ سَنَجْزِي الشّاكِرِينَ نعمة الإسلام الثابتين عليه الّذين جاهدوا

1- السورة: 156.

في سبيل اللّه تحقيقا لتكون كلمة اللّه هي العليا لا لذكر الجميل و الغنائم.

قال رسول اللّه: من كانت نيّته طلب الآخرة جعل اللّه غناه في قلبه و جمع له شمله و أتته الدنيا و هي راغمة، و من كانت نيّته طلب الدنيا جعل اللّه الفقر بين عينيه و شتّت عليه شمله و لا يأتيه منها إلّا ما كتب له.

[سورة آل عمران (3): آية 146]

وَ كَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ما ضَعُفُوا وَ مَا اسْتَكانُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146)

. في الآية تنبيه للمنهزمين يوم أحد بأنّ لكم بالأنبياء المتقدّمين و أتباعهم أسوة حسنة فكيف يليق بكم هذا الفرار و الانهزام؟ قرأ ابن كثير «و كائن» على وزن «كاعن» مهموزا مخفّفا و الباقون قرءوا «كَأَيِّنْ» على وزن «كصيّب» و هي لفظة مركّبة من كاف التشبيه و «أيّ» حدث فيها بعد التركيب معنى التكثير كما حدث في «كذا و كذا» و النون فيها نون التنوين تثبت في الخطّ بغير قياس، و قرئ على خمس لغات اثنتين منها هي اللغتين المذكورتين و الثالث مثل «كإين» على وزن كعين، و الرابعة «كيئن» بياء ساكنة بعدها همزة مكسورة و هي قلب ما قبلها، و الخامسة «كأن» مثل «كعن» مخفّفة و قد قرئ بكلّ منها و محلّها الرفع بالابتداء.

و قرأ ابن كثير و نافع و أبو عمرو «قتل معه ربّيون» و الباقون قرءوا «قاتَلَ مَعَهُ».

فعلى القراءة الاولى معناه أنّ كثيرا من أصحاب الأنبياء قتلوا و الّذين بقوا من بعدهم [فَما وَهَنُوا] في دينهم بل استمرّوا على جهاد أعدائهم و نصرة دينهم، ينبغي أن يكون حالكم يا امّة محمّد كحالهم.

أو أنّ المعنى: و كأيّن من نبيّ قتل ممّن كان معه و على دينه ربّيون، أي أخيار فقهاء منسوبون إلى الربّ موحّدون فما ضعف الباقون و لا استكانوا لقتل من قتل منهم بل مضوا على جهاد أعداء الدين فينبغي أن يكون حالكم كحالهم.

و من قرأ «قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ» فالمعنى: و كم من نبيّ قاتل معه العدد الكثير من أصحابه فأصابهم من عدوّهم قرح فما وهنوا فكيف ينبغي لكم أن تفعلوا ذلك؟ و المراد ترغيب الأصحاب و المسلمين في الجهاد مع النبيّ صلّى اللّه عليه و آله.

[وَ اللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ على مقاساة الشدائد في سبيله.

[سورة آل عمران (3): آية 147]

وَ ما كانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَ إِسْرافَنا فِي أَمْرِنا وَ ثَبِّتْ أَقْدامَنا وَ انْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (147)

. أي إنّهم كانوا عند لقاء العدوّ و اقتحام مضائق الحرب يقولون: [رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا] أي صغائرنا [وَ إِسْرافَنا فِي أَمْرِنا] أي تجاوزنا الحدّ في ركوب الكبائر. و أضافوا الذنوب و الإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربّانيّين هضما لنفوسهم، و حاصل المعنى: ما كان قولهم إلّا طلب المغفرة و تثبيت الأقدام عند ملاقات للعدوّ، أو المراد التثبيت في الدين.

[وَ انْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ و لم يزالوا مواظبين على هذا الاستغفار و الدعاء من غير أن يصدر عنهم قول يوهم شائبة الجزع و التزلزل، و فيه تعريض بالمنهزمين ما لا يخفى.

تذييل: قال صاحب الكشّاف: الرّبّيون الربّانيّون، و قرئ بالحركات الثلاث في الراء، و الفتح على القياس، و الكسر من تغييرات النسب. و قال الزجّاج: هم الجماعات الكثيرة الواحد «ربّيّ» قال ابن قتيبة أصله من «الربّة» و هي الجماعة. و قال ابن زيد:

الربّانيّون الأئمّة و الولاة، و الربّيّون الرعيّة و هم المنتسبون إلى الربّ.

[سورة آل عمران (3): آية 148]

فَآتاهُمُ اللَّهُ ثَوابَ الدُّنْيا وَ حُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (148)

. أي أعطاهم النصر و الغنيمة و العزّ و الشرف و الذكر الجميل، و ثواب الآخرة الجنّة و النعيم المخلّد [وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ و محبّة اللّه مبدأ لكلّ سعادة.

[سورة آل عمران (3): الآيات 149 الى 150]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ (149) بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَ هُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (150)

هذه الآية من تمام كلام الأوّل و ذلك أنّ الكفّار لمّا ارجفوا أنّ النبيّ قد قتل، و قال المنافقون: إنّه قد ضعف حاله بسبب انكساره في أحد و لو كان على الحقّ لم ينكسر.

و دعوا ضعفة المسلمين إلى الكفر، منع اللّه المسلمين بهذه الآية عن الالتفات بكلام الكفّار و المنافقون فقال:

[يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، الآية] قيل: المراد من «الَّذِينَ كَفَرُوا» أبو سفيان لأنّه كان ذلك اليوم كبيرهم و شجرة الكفر. و قيل: المراد عبد اللّه بن ابيّ و أصحابه من المنافقين

لأنّه كان يقول: إنّ محمّد رجل كسائر الناس يوما له و يوما عليه فارجعوا إلى دينكم الّذي كنتم فيه. و قيل: المراد اليهود الّذين في المدينة و إنّهم كانوا يلقون الشبهة في قلوب المسلمين لا سيّما عند وقوع هذه الفتنة. و الصحيح أنّه يتناول كلّ الكفّار لأنّ اللفظ عام و خصوص السبب لا يمنع من عموم اللفظ.

[إِنْ تُطِيعُوا] الكفّار يدخلوكم في دينهم فيكون الجور بعد الكور فإذن ترجعون [خاسِرِينَ كرامة الدنيا و سعادة الآخرة: أمّا الدنيا فبانقيادكم للعدوّ و التذلّل له و أمّا الآخرة العذاب الدائم و الحرمان من الجنّة.

[بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ أي هم ليسوا أنصاركم حتّى تطيعوهم، بل اللّه ناصركم [وَ هُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ فأطيعوه.

[سورة آل عمران (3): آية 151]

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِما أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَ مَأْواهُمُ النَّارُ وَ بِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (151)

. و اختلفوا في أنّ هذا الوعد هل هو مختصّ بيوم أحد أو هو عامّ في جميع الأوقات؟

قال جماعة من المفسّرين: إنّه مختصّ بأحد و ذكروا كيفيّة إلقاء الرعب في هذا اليوم بأنّ المشركين لمّا استولوا على المسلمين و هزموهم أوقع اللّه الرعب في قلوب المشركين فتركوهم و فرّوا من غير سبب مع أنّ الغلبة كانت لهم حتّى روي أنّ أبا سفيان صعد الجبل و قال: أين ابن أبي كبشة و أين أصحابه؟ و ما تجاسر على النزول من الجبل و الذهاب إليهم، و رجع أبو سفيان و ذهب هو و أصحابه إلى مكّة فلمّا كانوا في بعض الطريق قالوا: ما صنعنا شيئا قتلنا الأكثرين منهم ثمّ تركناهم و نحن قاهرون، ارجعوا حتّى نستأصلهم بالكلّيّة و عزموا على الرجوع فألقى اللّه الرعب في قلوبهم.

و قيل: إنّ هذا الوعد غير مختصّ بيوم أحد و إنّه تعالى وعد أنّه سيلقي الرعب منكم في قلوب الكافرين بعد ذلك حتّى يظهر دينكم.

[بِما أَشْرَكُوا] أي إلقاء الرعب بسبب إشراكهم به تعالى فإنّه من موجبات خذلانهم [ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً] أي أشركوا في عبادة اللّه ما لم ينزّل به سلطانا و قدرة و هم يوهمون أنّ فيه سلطانا و اللّه ما أنزله و ما أظهره و ليس لما يشركونه به تعالى سلطة و قدرة و لم يجعل

لهم في ذلك برهانا و حجّة.

و «السلطان» هاهنا الحجّة و البرهان؛ قال الزجّاج: اشتقاقه من «السليط» و هو الّذي يضاء به السراج. و قال الليث: أصل بناء السلطان من «التسليط» و يسمّى البرهان سلطانا لقوّته على دفع الباطل. قال ابن دريد: سلطان كلّ شي ء حدّته و هو مأخوذ من اللسان السليط، و السلاطة معناها الحدّة و أصل مادّة الرعب المل ء فقال: سبيل راعب إذا ملأ الوادي فسمّي الفزع رعبا لأنّه يملأ القلب خوفا انتهى.

و في الآية إيذان بأنّ المتّبع في الأمور هو البرهان السماويّ دون الآراء و الأهواء الباطلة.

[وَ مَأْواهُمُ النَّارُ] لا ملجأ لهم غيرها و إليها يأوون و يسكنون [وَ بِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ و المخصوص بالذمّ محذوف أي النار مثواهم و في قوله: «مثواهم» بعد ذكر «مَأْواهُمُ» إشعار إلى الخلود لأنّ المثوى مكان الإقامة المنبئة عن المكث.

[سورة آل عمران (3): آية 152]

وَ لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذا فَشِلْتُمْ وَ تَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ عَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما أَراكُمْ ما تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَ لَقَدْ عَفا عَنْكُمْ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (152)

. نزلت الآية حين قال ناس من المؤمنين عند رجوعهم إلى المدينة بعد احد: من أين أصبنا هذا و قد وعدنا اللّه بالنصر؟ و هو ما وعدهم على لسان نبيّه من النصر حيث قال صلّى اللّه عليه و آله: للرماة لا تبرحوا مكانكم فإنّا لا نزال غالبين ما دمتم في هذا المكان و قد كان كذلك؛ فإنّ المشركين لمّا أقبلوا جعل الرماة يرشّقون نبلهم و الباقون يضربون بالسيوف حتّى انهزموا و المسلمون على آثارهم يقتلونهم قتلا ذريعا و ذلك قوله:

[إِذْ تَحُسُّونَهُمْ أي تقتلونهم و تبطلون حسّهم و حياتهم؛ قال ابن قتيبة: «الحسّ» القتل الذريع يقال: جراد محسوس إذ قتله البرد. يقال: بطنه، إذا أصاب بطنه، و رأسه إذا أصاب رأسه. أو الوعد بالنصر وقع من كلامه تعالى حيث قال: «بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا وَ يَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ» و كان الوعد مشروطا بالصبر و التقوى فإذا انتفى الشرط

انتفى المشروط. «إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ» أي تقتلونهم بعلمه أو بأمره.

[حَتَّى إِذا فَشِلْتُمْ أي جبنتم و ضعف رأيكم أو ملتم إلى الغنيمة فإنّ الحرص من ضعف القلب [وَ تَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ] أي في أمر الرسول فقال بعض الرماة حين انهزم المشركون و المسلمون على أعقابهم: فما موقفنا هذا؟ و قال رئيسهم عبد اللّه بن جبير: لا نخالف أمر الرسول فثبت مكانه في نفر دون العشرة من أصحابه و نفر الباقون للنهب و الغنيمة و ذلك قوله تعالى:

[وَ عَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما أَراكُمْ ما تُحِبُّونَ من الظفر و الغنيمة و انهزام العدوّ صرتم فريقين [مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا] و هم الّذين تركوا المركز و أقبلوا على النهب [وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ] و هم الّذين ثبتوا مكانهم حتّى نالوا شرف الشهادة.

[ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ قال أبو مسلم معناه أنّه تعالى أزال ما كان في قلوب الكفّار من الرعب من المسلمين عقوبة منه على عصيانهم و فشلهم «لِيَبْتَلِيَكُمْ» أي ليجعل ذلك الصرف محنة عليكم لتتوبوا إلى اللّه بسبب عصيانكم و ميلكم إلى الغنيمة و يعاملكم معاملة المختبر في الثواب و العقاب.

فإن قيل: لمّا كانت المعصية بمفارقة تلك المواضع خاصّة بالبعض دون الكلّ فلم جاء هذا العتاب باللفظ العامّ؟

فالجواب: هذا اللفظ و إن كان عامّا إلّا أنّه جاء المخصّص بعده و هو قوله: «مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ».

قال الرازيّ في المفاتيح: و قد اختلف قول أصحابنا و قول المعتزلة في معنى قوله تعالى: «ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ» و ذلك لأنّ صرفهم عن الكفّار معصية فكيف أضافه إلى نفسه؟

أمّا عند أصحابنا فهذا الإشكال غير وارد عليهم لأنّ مذهبهم أنّ الخير و الشرّ بإرادة اللّه و تخليقه فعلى هذا قالوا: معنى الآية أنّ اللّه ردّ المسلمين عن الكفّار و ألقى الهزيمة عليهم و سلّط الكفّار عليهم.

و قالت المعتزلة: هذا المعنى غير جائز و يدلّ عليه القرآن و العقل: أمّا القرآن فهو

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطانُ بِبَعْضِ ما كَسَبُوا» (1) فأضاف ما كان منهم إلى الشيطان فكيف يضيفه إلى نفسه بعد هذا؟ و أمّا المعقول فهو أنّه تعالى عاتبهم على ذلك الانصراف و لو كان بفعل اللّه لم يجز معاتبة القوم عليه كما لا يجوز معاتبتهم على طولهم و قصرهم.

قالوا: و لمّا كانت الآية مشتملة على فريقين: عاصية و هم الّذين خالفوا ابن جبير و أخلّوا الجبل، و غير عاصية و هم الّذين تثبّتوا معه و لم يفارقوه أدّب اللّه الطائفة و قال: [وَ لَقَدْ عَفا عَنْكُمْ و أدبه تعالى ذلك الصرف ليتوبوا إلى اللّه و لا شكّ أنّهم أذنبوا لأنّهم خالفوا نصّ الرسول و صارت تلك المخالفة سببا لانهزام المسلمين و قتل جمع عظيم.

قال الرازيّ: ظاهر هذه الآية يدلّ على أنّه قد يعفو عن أصحاب الكبائر لأنّه تعالى عفا عنهم من غير توبة؛ لأنّ التوبة غير مذكورة، انتهى كلام الرازيّ.

[وَ اللّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أي شأنه أن يتفضّل عليهم بالعفو أديل لهم أو أديل عليهم؛ إذ الابتلاء أيضا رحمة.

قوله: [سورة آل عمران (3): آية 153]

إِذْ تُصْعِدُونَ وَ لا تَلْوُونَ عَلى أَحَدٍ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْراكُمْ فَأَثابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلى ما فاتَكُمْ وَ لا ما أَصابَكُمْ وَ اللّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (153)

. و لمّا قال سبحانه: «وَ لَقَدْ عَفا عَنْكُمْ» لا بدّ و أن يتعلّق بأمر اقترفوه و ذلك الأمر بيّنه بقوله: [إِذْ تُصْعِدُونَ و المراد به ما صدر عنهم من مفارقة ذلك المكان و الأخذ في الوادي كالمنهزمين [لا تَلْوُونَ عَلى أَحَدٍ] و لا تلتفتون من شدّة الهرب و أصل «اللوى» العرج على الشي ء يلوي إليه عنقه أو عنان دابّته، و يستعمل في ترك الالتفات إلى شي ء و لا يعطف عليه و لا يبالي به.

ثمّ قال: [وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ كان صلّى اللّه عليه و آله يقول: يا عباد اللّه إليّ أنا رسول اللّه من كرّ فله الجنّة، كان يدعوهم صلّى اللّه عليه و آله و هو واقف في آخرهم يقال: جاء فلان في أخريات الناس أي آخرهم لأنّ القوم بسبب الهزيمة قد تقدّموه.

ثمّ قال: [فَأَثابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ و لفظ الثواب يستعمل على الأغلب في الخير و يجوز

1- السورة: 155.

أيضا استعماله في الشرّ، و أصل الثواب معناه الرجوع و ما يعود إلى الفاعل من جزاء فعله سواء كان خيرا أو شرّا فإن حملناه على استعمال الأغلب كان ذلك واردا على سبيل التهكّم كما يقال: تحيّتك الضرب. و إن حملناه على أصل اللغة استقام الكلام أي جزينا و عاوضنا غمّا لمّا آذقتم الرسول غمّا بسبب أن عصيتم أمره فاللّه أذاقكم هذا الغمّ و هو الغمّ الّذي حصل لكم من الهزيمة و قتل الأحباب فالمعنى: جازاكم من ذلك الغمّ بهذا الغمّ. قيل: المراد يريد غمّ أحد للمسلمين بغمّ بدر للمشركين.

[لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلى ما فاتَكُمْ أي لتمترنوا على الصبر في الشدائد و تعتادوا بجرع الغموم فلا تحزنوا على نفع فات أو ضرّ آت. و قيل: معناه فعل بكم هذا الغمّ لأن لا تحزنوا ما فاتكم من الغنيمة و لا تتركوا أمر النبيّ و لئلّا تحزنوا على ما أصابكم و ليكون غمّكم بأن خالفتم النبيّ صلّى اللّه عليه و آله فقط حتّى يشغلكم حزنكم على سوء صنعكم من الحزن على غيره.

و قيل: وجه آخر أي «و لقد عفا عنكم لكي لا تحزنوا على ما فاتكم» فإنّ عفو اللّه يذهب كلّ حزن.

[وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ فيه ترغيب في الطاعة و ترهيب عن المعصية. ثمّ ذكر ما أنعم عليهم بعد ذلك حتّى تراجعوا و أقبلوا يعتذرون إلى رسول اللّه.

[سورة آل عمران (3): آية 154]

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعاساً يَغْشى طائِفَةً مِنْكُمْ وَ طائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ما لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلى مَضاجِعِهِمْ وَ لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ما فِي صُدُورِكُمْ وَ لِيُمَحِّصَ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (154)

. إنّ الّذين كانوا مع النبيّ صلّى اللّه عليه و آله يوم أحد فريقان:

أحدهما كانوا جازمين بأنّه صلّى اللّه عليه و آله نبيّ حقّا و أنّه صلّى اللّه عليه و آله أخبرهم بأنّ اللّه ينصر هذا الدين فكانوا قاطعين بأنّ هذه الواقعة لا تؤدّي إلى الاستيصال و كانوا آمنين و بلغ ذلك الأمن إلى حيث غشيهم النعاس؛ فإنّ النوم لا يكون مع الخوف.

و أمّا الطائفة الثانية و هم المنافقون الّذين كانوا شاكّين في نبوّته و ما حضروا إلّا لطلب الغنيمة فهؤلاء اشتدّ جزعهم و عظم خوفهم فوصف سبحانه حال كلّ واحدة من هاتين الطائفتين فقال في صفة المؤمنين:

[ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعاساً] «و الأمنة» مصدر «كالأمن» و مثله من المصادر: العظمة و الغلبة يقال: أمن فلان يأمن أمنا و أمنة و أمانا.

و قرأ صاحب الكشّاف «أمنة» بسكون الميم لأنّها المرّة من الأمن، و «نُعاساً» إمّا يكون بدلا من «أَمَنَةً» أو مفعولا، و «أمنة» يجوز أن يكون حالا من المخاطبين بمعنى «ذوي أمنة» و الأوجه أن يكون «أَمَنَةً» منصوبة على المفعوليّة و «نُعاساً» بدلا منه أي أعطى و وهب لكم أيّها المؤمنون. «و أَنْزَلَ» مجاز من أعطى أمنا و سنّا.

قال أبو طلحة: رفعت رأسي يوم أحد فجعلت لا أرى أحدا من القوم إلّا و هو يميد تحت حجفته من النعاس و كنت ممّن القي عليه النعاس يومئذ فكان السيف يسقط من يدي فأخذه ثمّ يسقط السوط فآخذه. و فيه دلالة على أنّ من المؤمنين من لم يلق عليه النعاس كما ينبئ عنه قوله تعالى: «يَغْشى طائِفَةً مِنْكُمْ» و هم المهاجرون و عامّة الأنصار و لا يقدح ذلك في عموم الإنزال للكلّ، و الجملة في محلّ النصب صفة لنعاسا.

[وَ طائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ أي أوقعتهم في الهموم و الأحزان و ما بهم إلّا همّ أنفسهم و قصد خلاصها و هم المنافقون [يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِ حال من ضمير «أَهَمَّتْهُمْ» غير الظنّ الحقّ الّذي يجب أن يظنّ به سبحانه [ظَنَّ الْجاهِلِيَّةِ] بدل منه و هو الظنّ المختصّ بالملّة الجاهليّة و أهلها.

و قوله: «ظَنَّ الْجاهِلِيَّةِ» هو أنّهم كانوا ينكرون الإله العالم بكلّ المعلومات القادر على جميع المقدورات و هم عبد اللّه بن ابيّ و معتب بن قشير و أصحابهما و ينكرون النبوّة و البعث فلا جرم ما وثقوا بقول الرسول و عظم الخوف فيهم. و هذا الأمن كان معجزة عظيمة لأنّ الأعداء كانوا في غاية الحرص على قتل المؤمنين فبقاؤهم في النعاس مع السلامة في مثل تلك الحالة من أدلّ الدلائل على أنّ حفظ اللّه معهم و كيف يكون الإنسان في مثل هذه الحالة المضطربة خصوصا في أحد أن ينعس و ينام؟

ص: 292

و فسّر بعض أنّ المراد من ذكر النعاس في هذه الموضع كناية عن غاية الأمن قال الرازيّ: و هذا ضعيف لأنّ صرف اللفظ عن الحقيقة إلى المجاز لا يجوز إلّا عند قيام الدليل المعارض.

و قرئ «تغشى» بالتاء ردّا إلى «الأمنة» و الباقون بالياء ردّا إلى «النعاس» محتجّا بأنّ النعاس بدل الأمنة و الكناية إلى الأصل أحسن، و يمكن ظنّهم بغير الحقّ كانوا يقولون: لو كان محمّد محقّا في دعواه لما سلّط عليه، و هذا غلط فاسد؛ لأنّ المصالح في أحكام اللّه جارية فلعلّ أن يكون للّه تعالى في التخلية بين الكافر و المسلم حكم خفيّة، هذا عندنا و عند المعتزلة.

و أمّا عند أهل السنّة و الجماعة «يَفْعَلُ ما يَشاءُ* و يَحْكُمُ ما يُرِيدُ» لا اعتراض لأحد عليه و المراد من قوله «ظَنَّ الْجاهِلِيَّةِ» ظنّ أهل الجاهليّة.

[يَقُولُونَ هَلْ لَنا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْ ءٍ] قيل: في معناه وجوه: الأوّل أنّ عبد اللّه بن ابيّ لمّا شاوره النبيّ صلّى اللّه عليه و آله في هذا الأمر أشار عليه أن لا يخرج من المدينة و الصحابة ألحّوا عليه بالخروج فغضب عبد اللّه عن ذلك فقال: عصاني و أطاع الولدان ثمّ لمّا كثر القتل في الخزرج قيل لعبد اللّه: قتل بنو الخزرج. فقال عبد اللّه: هل لنا من الأمر من شي ء.

يعنى أنّ محمّدا صلّى اللّه عليه و آله لم يقبل قولي حين أمرته أن لا يخرج من المدينة، فحكاه اللّه عنهم أي لو أطاعونا ما قتلوا، و هو استفهام على سبيل الإنكار.

الوجه الثاني أنّ من عادة العرب أنّه إذا كانت الدولة لعدوّه قالوا: عليه الأمر؛ فقوله: «هَلْ لَنا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْ ءٍ» أي هل لنا من الشي ء الّذي كان يعدنا به محمّد صلّى اللّه عليه و آله- و هو النصرة- شي ء؟ و هذا استفهام على سبيل الإنكار و كان غرضهم أنّ ما يعدكم به محمّد صلّى اللّه عليه و آله كذب؛ فأجاب اللّه بقوله: [قُلْ يا محمّد: [إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ .

ثمّ قال: [يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ما لا يُبْدُونَ لَكَ حال من ضمير «يَقُولُونَ» أي مظهرين أنّهم مسترشدون طالبون للنصرة مبطنين الإنكار و التكذيب [يَقُولُونَ لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ] كأنّه قيل: أيّ شي ء يخفون؟ فقيل: يحدّثون و يقولون بعضهم لبعض فيما بينهم خفية:

«لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْ ءٌ» كما وعد محمّد صلّى اللّه عليه و آله بالغلبة [ما قُتِلْنا هاهُنا] في المعركة.

[قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ و لو لم تخرجوا إلى أحد و قعدتم بالمدينة كما زعمتم

[لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ في اللوح بسبب من الأسباب [إِلى مصارعهم و قتلوا هناك البتّة و لم تنفع الإقامة بالمدينة قطعا.

و حاصل المعنى أنّه إنّكم أيّها المنافقون لو كنتم في منازلكم لخرج الّذين كتب و قدّر عليهم الموت و القتل في اللوح المحفوظ في ذلك الوقت إلى مصارعهم.

و قيل: معنى الآية أنّكم أيّها المنافقون و المرتابون لو تخلّفتم عن القتال لخرج الّذين آمنوا باللّه و فرض عليهم القتال صابرين محتسبين فيقتلون و يقتلون و ما تخلّفوا.

[وَ لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ما فِي صُدُورِكُمْ أي ليختبر اللّه ما في نيّاتكم و قد علمه سبحانه عينا لكن لتكون العلم مشاهدة لأنّ المجازاة لا بدّ و أن تقع على ما علم مشاهدة لا على ما هو معلوم منهم، و هذه فائدة الامتحان من اللّه.

[وَ لِيُمَحِّصَ ما فِي قُلُوبِكُمْ و يخلصه و يكشفه من مخفيّات الأمور [وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ] أي السرائر و الضمائر الّتي لا تكاد تفارق الصدور و تلازمها.

[سورة آل عمران (3): الآيات 155 الى 158]

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطانُ بِبَعْضِ ما كَسَبُوا وَ لَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (155) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ إِذا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كانُوا غُزًّى لَوْ كانُوا عِنْدَنا ما ماتُوا وَ ما قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَ اللَّهُ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (156) وَ لَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (157) وَ لَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (158)

[إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ من المسلمين و المنهزمين و المنافقين [إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطانُ و هم المنهزمون أي إنّما كان سبب انهزامهم أنّ الشيطان طلب منهم الزلل و دعاهم إليه ببعض ما كسبوا من الذنوب و المعاصي الّتي هي مخالفة الرسول و ترك المركز و الحرص على الغنيمة و الحياة فحرموا التأييد.

[وَ لَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ لتوبتهم و اعتذارهم [إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ لا يعاجل بعقوبة المذنب ليتوب. و الإنسان بالعمل يتمكّن أن يصل إلى مقام يعجز الشيطان عن إغوائه و وسوسته.

حكي أنّ بعض السـالكين رأى إبليس في المنـام يبثّ جنوده و أولاـده لإـغواء بني آدم و كـان اللعين عريانا فقال السالك للشيطان حين رآه عريانا: أ لا تستحيي من الناس؟ فقال الشيطان:

ليس هؤلاء ناس، الناس أقوام في مسـجد الشونسـريّة أفنوا جسـدي و احترقوا كبدي قال ذلك السالك- و أظنّه الجنيد-: فلمّا انتهيت غدوت إلى المسجد فرأيت جماعة وضعوا رؤوسهم على ركبتهم متفكّرين فلمّا رأوني قالوا: لا يغرنّك حديث الخبيث.

[يـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا] و هم المنافقون القائلون: «لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْ ءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا» [وَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ و معنى «الاخوّة» اتّفاقهم نسبا أو عقيدة [إِذا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أي سافروا فيها و أبعدوا للتجارة، و الضرب في الأرض الإيغال في السير، فماتوا و إنّما خصّ الأرض بالذكر لأنّ أكثر أسفارهم في البرّ أو اكتفى بذكر «البرّ» عن البحر كقوله: «سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ» أو الأرض يشمل البرّ و البحر.

[أَوْ كـانُوا غُزًّى لَوْ كـانُوا عِنْدَنا] أو كـانوا غزاة و «غزّى» جمع غـازي و هو على وزن طلّب في طـالب، فقتلوا و كـان مقول قولهم: [لَوْ كانُوا] مقيمين [عِنْدَنا ما ماتُوا وَ ما قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ اللام لام العاقبـة أي قالوا هـذا القول ليمنعوا المؤمنين عن الجهاد فلم يمتنعوا و لم يقبلوا منهم و خرجوا للغزو فصار حسرة في قلوب المنافقين.

و قيـل: المعنى و لاـ تكونوا أيّها المؤمنون كهؤلاء الكفّار و المنافقين في هـذه المقالـة و العقيـدة لكي يجعل اللّه تلك المقالـة سـببا لإلزام الحسـرة و الحزن في قلوبهم فيما أمّلوا منكم من الموافقـة معهم لما فاتهم من عزّ الظفر و الغنيمـة. و على هذا المعنى فاللام ليست للعاقبة بل لام العلّة.

[وَ اللَّهُ يُحْيِي وَ يُمِيتُ أي هو المحيي و المميت من غير أن يكون للإقامـة أو السـفر فـإنّه قـد يحيي المسـافر و الغازي مع اقتحامهما لموارد الحتوف و يميت القاعد و المقيم مع حيازتهما لأسباب السلامة [وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ] فلا تكونوا مثل هؤلاء المنافقين.

[وَ لَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيـلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَحْمَـةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ أي إن قتلتم أو متّم في دينه و سبيله و أنتم مؤمنين، و اللام هي الموطّئة للقسم المحذوف و جوابه «لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ» و حذف جواب الشرط لسدّ جواب القسم مسدّه للدلالة عليه. و المعني: و باللّه

أنّ الغزو و السفر ليس ممّا يوجب الموت و تقدّم الأجل، و لئن وقع ذلك بأمر اللّه لنفحة يسيرة من مغفرة و رحمة كائنتين من اللّه بمقابلة ذلك خير ممّا يجمعون الكفرة من منافع الدنيا و طيّباتها مدّة أعمارهم.

فإن قيل: كيف يكون المغفرة خير ممّا يجمعون و لا خير فيما يجمعون أصلا؟

فالجواب أنّه وارد بزعمهم و معتقدهم و أنّهم يحسبون أنّه خير.

[وَ لَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ على أيّ وجه اتّفق هلاككم [لَإِلَى اللَّهِ أي إلى المعبود العظيم الشأن [تُحْشَرُونَ لا إلى غيره فيوفّي اجوركم فبين الحشر مع المغفرة و الحشر بدون المغفرة فرق كثير.

روي أنّ عيسى بن مريم عليه السّلام مرّ بقوم نحفت أبدانهم و اصفرّت وجوههم و رأى عليهم أثر العبادة فقال لهم: ماذا تطلبون؟ فقالوا: نخشى عذاب اللّه، فقال: هو أكرم من أن لا يخلصكم من عذابه. ثمّ مرّ بأقوام آخرين فرأى عليهم تلك الآثار فسألهم فقالوا: نطلب الجنّة و الرحمة، فقال عليه السّلام: هو أكرم من أن يمنعكم رحمته. ثمّ مرّ بقوم ثالث و رأى آثار العبوديّة عليهم أكثر فسألهم فقالوا: نعبده لأنّه إلهنا و نحن عبيده لا لرغبة و لا لرهبة، فقال: أنتم العبيد المخلصون، انتهى.

و هذا المقام لا يمكن تحصيله إلّا بالتجريد و الفناء؛ حكي أنّ امرأة قالت لجماعة من الكرماء: ما السخاء عندكم؟ قالوا: بذل المال، قالت: هو سخاء أهل الدنيا و العوامّ فما سخاء الخواصّ؟ قالوا: بذل المجهود في الطاعة، قالت: ترجون الثواب؟ قالوا: نعم قالت: تأخذون العشرة بواحد لقوله: «مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها» (1) فأين السخاء؟ قالوا: فما عندك؟

قالت: العمل للّه لا للجنّة و لا للنار و لا للثواب و خوف العقاب.

[سورة آل عمران (3): آية 159]

فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159)

. «ما» زائدة مؤكّدة للكلام ليتمكّن المعنى في النفس فجرى مجرى التكرير بيّن سبحانه

1- الانعام: 161.

أنّ مساهلة النبيّ إيّاهم و مجاوزته عنهم من رحمته تعالى أي بسبب رحمة اللّه، رحمة عظيمة كائنة من اللّه و هي تخصيصه بمكارم الأخلاق. كنت ليّن الجوانب لهم و عاملتهم بالرفق و التلطّف بعد ما كان منهم من المخالفة.

[وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ أي جافيا بين الخلق قاسي القلب غير رؤوف [لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ و تفرّق أصحابك و نفروا منك، فنفى سبحانه تعالى الفضاضة عن لسانه و القساوة عن قلبه [فَاعْفُ عَنْهُمْ فيما يتعلّق بحقوقك [وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ فيما يتعلّق بحقوقه تعالى إكمالا للبرّ بهم [وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ] أي استخرج آراءهم من قولهم: شرت العسل إذا استخرجته من مواضع النحل.

و فائدة الاستشارة الاستعلام عمّا عندهم و التطييب لنفوسهم و حصول التأليف لهم أو ليمتحنهم بالمشاورة ليميّز الناصح من الغاشي، و لعلّ المراد إجلال أصحابه و ليقتدي امّته في لقاء العدوّ و الحرب، و ليس المراد أنّك تجهل أمرا و ستعلم من مشاورتهم و كيف يحتاج إلى رأيهم و هو مستغن بالوحي عن تعرّف الثواب و الخطاء؟ و القلم الأعلى علمه صلّى اللّه عليه و آله و اللوح كتابه و دفتره فكيف يكون محتاجا إلى شورهم؟ هيهات أين الثرى و الثريّا؟ و لو كان المراد مثل قولهم: «إيّاك أعني و اسمعي يا جارة» و يريد اقتداء امّته بهذه السنّة فذلك أيضا في امور مجهولة معزوبة عن علم بعضهم مثل أنّ تاجر الثمار مثلا لا يعرف أنّ تمر البصرة شراؤها أنفع أم تمر الهجر فيستشير منه أيّهما اشترى أنفع، و أمثال هذه الأمور لا أن يتشاوروا بينهم أن يجعلوا حدّ الزاني ألف جلدة إذا كان فقيرا و واحدة إذا كان ذا شرف، و نعم ما قال أمير المؤمنين: فيا للّه و للشورى! قال الرازيّ: ثمّ إنّه اتّفق أهل الإسلام و أجمعوا على أنّ ما نزل فيه وحي من عند اللّه لم يجز للرسول أن يشاور فيه الأمّة لأنّه إذا جاء النصّ بطل الرأي و القياس فأمّا ما لا نصّ فيه فهل تجوز المشاورة فيه في جميع الأشياء أم لا؟

قال الكلبيّ و كثير من العلماء: هذا الأمر مخصوص بالمشاورة في الحروب و حجّتهم أنّ الألف و اللام في «الْأَمْرِ» للاستغراق و لمّا بيّنّا أنّ الّذي ينزل فيه الوحي لا تجوز المشاورة فيه فوجب حمل الألف و اللام هاهنا على المعهود السابق و المعهود السابق في هذه الآية إنّما

هو ما يتعلّق بالحرب و لقاء العدوّ فكأنّ قوله: «وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ» مختصّا بذلك. و قال بعض:

اللفظ عام خصّ عنه ما نزل فيه وحي فتبقى حجّيّته في الباقي.

و بالجملة فالقدر المتيقّن أنّ المشورة فيما نصّ عليه غير جائزة. قال العلّامة أبو السعود: إنّ الآية قرئت: و شاورهم في بعض الأمر.

[فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ أي إذا عقدت قلبك على الفعل و إمضائه، و عن جعفر ابن محمّد عليه السّلام و عن جابر بن يزيد «فَإِذا عَزَمْتَ» بضمّ التاء فعلى هذا يكون المعنى: فإذا عزمت لك و أرشدتك فاعتمد على اللّه وثق به و فوّض أمرك إليه.

[إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ الواثقين به و المنقطعين إليه، و الانقطاع إليه لا- ينافي مع مراعاة الأسباب الظاهرة لكنّ الإنسان يكون يعلم أنّ المؤثّر هو اللّه لا الأسباب، و الحكمة اقتضت أن يجري الأمور بالأسباب فحينئذ لا يجوز لك ترك الأسباب و إذا تركت الأسباب خالفت الحكمة و كأنّك أردت ما لم يرد اللّه، نعم لا يجوز أن يعوّل بقلبه على الأسباب و قد يكون التعطيل معصية.

[سورة آل عمران (3): آية 160]

إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غالِبَ لَكُمْ وَ إِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (160)

. و النصر نوعان: معونة و منع، أي إن يعنكم اللّه و يمنعكم من عدوّكم و يكلؤكم كما فعل يوم بدر ذلك [فَلا غالِبَ لَكُمْ فلا أحد يغلبكم [وَ إِنْ يَخْذُلْكُمْ الخذلان القعود عن النصرة أي إن يترككم و لم ينصركم كما فعل يوم احد [فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ أي بعد خذلانه، و هذا تنبيه على أنّ الأمر كلّه له؛ و لذا قال و أمر بالتوكّل عليه [وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ و من التوكل أن لا تعتقد لنفسك ناصرا غيره و لا لرزقك خازنا غيره قال صلّى اللّه عليه و آله: لو أنّكم تتوكّلون على اللّه حقّ توكّله ليرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا و تروح بطانا. و من نصرته تعالى أن ينصرك على نفسك فإنّها أعدى عدوّك، و حقيقة خذلانه التخلية بينك و بين نفسك فحينئذ لا جابر لكسرك و لا آخذ ليدك.

[سورة آل عمران (3): آية 161]

وَ ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَ مَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِما غَلَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (161)

.

النزول: عن ابن عبّاس و سعيد بن جبير أنّها نزلت في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر من المغانم فقال بعضهم: لعلّ النبيّ أخذها. قال الضحّاك: إنّ رجلا غلّ بمخيط من غنائم هوازن يوم حنين فنزلت الآية.

و قال مقاتل: إنّها نزلت في غنائم أحد حين تركت الرماة المركز طلبا للغنيمة و قالوا: نخاف أن يقول رسول اللّه: من أخذ شيئا فهو له و لا يقسّم كما لم يقسّم يوم بدر، و وقعوا في الغنائم فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: أ ظننتم أنّا نغلّ أي نخون و لا نقسّم لكم؟

فأنزل اللّه الآية.

و قيل: إنّه صلّى اللّه عليه و آله يقرأ القرآن و فيه عيب آلهتهم و عيب دينهم و يؤدّي الوحي فسألوه أن يطوي ذلك فأنزل اللّه الآية.

و قيل: إنّ أشراف الناس من صحابته طمعوا أن يخصّهم النبيّ من الغنائم بشي ء زائد، فنزلت الآية.

و الغلول هو الخيانة و أصله أخذ الشي ء في الخفية يقال: أغلّ الجازر و السالخ إذا أبقى في الجلد شيئا من اللحم على طريق الخيانة؛ قال صلّى اللّه عليه و آله: من بعثناه على عمل فغلّ شيئا جاء يوم القيامة يحمله على عنقه، و قال صلّى اللّه عليه و آله: هدايا الولاة غلول، و قال صلّى اللّه عليه و آله: لا إغلال و لا إسلال أي لا خيانة و لا رشوة. المعنى في الآية: لمّا كانت الآيات السابقة بيان أمر الجهاد ذكر في هذه الآية بيان ما يتعلّق به من أمر الغنائم و النهي عن الخيانة فيها. و قرئ «يغلّ» على البناء للمجهول فعلى هذا يوافق الآية في شأن نزولها قول الضحّاك.

[وَ ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَ أي لا تجتمع النبوّة و الغلول كقوله: «ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ» و على القراءة للبناء للمجهول أي ما كان لنبيّ أن يخونه أصحابه و يكتمونه شيئا من المغنم على ما مضى فيه القول. و على قراءة المعلوم خصّه صلّى اللّه عليه و آله بالذكر و إن كان لا يجوز أن يغلّ غيره من أحد لأنّ النبيّ قائم بأمر الغنائم فإذا حرّمت عليه و هو صاحب الأمر فحرمتها على غيره أولى.

[وَ مَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِما غَلَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ] أي يأتي حاملا على ظهره كما روي في حديث طويل: ألا لا يغلّنّ أحد بعيرا فيأتي به على ظهره يوم القيامة له رغاء، ألا لا يغلّنّ أحد فرسا

فيأتي به على ظهره له حمحمة فيقول: يا محمّد يا محمّد فأقول: قد بلّغت لا أملك لك من اللّه شيئا عن ابن عبّاس و أبي حميد أحمد الساعديّ و ابن عمر و قتادة. قال الجبّائيّ: و ذلك ليفضح به على رؤوس الأشهاد. و قد روي أنّ النبيّ كان يأمر مناديا ينادي في الناس ردّوا المخيط و الخيط فإنّ الغلول عار و شنار يوم القيامة؛ فجاء رجل بكبّة شعر فقال: إنّي أخذتها لأخيط بها برذعة بعيري فقال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله أمّا نصيبي منها فهو لك، فقال الرجل: أمّا إذا بلغ الأمر هذا المبلغ فلا حاجة لي فيها. و حمل الغلول على عنقه أمارة يعرف و ذلك حكم اللّه في كلّ من وافى يوم القيامة بمعصية لم يتب منها أو أراد اللّه تعالى أن يعامله بالعدل ليعلمه أهل القيامة كما أنّ من وافى يوم القيامة بطاعة فإنّه تعالى يظهر من طاعته علامة يعرف بها.

[ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ أي يعطى كلّ نفس جزاء ما عملت تامّا وافيا [وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ و لا ينقص أحد عن مقدار ما يستحقّه من الثواب و لا يزاد ما يستحقّه من من العذاب.

قال الطبرسيّ: و في هذه الآية دلالة على فساد قول الجبريّة فإنّهم يقولون: إنّ اللّه لو عذّب أولياءه لم يكن ذلك منه ظلما؛ لأنّه بيّن أنّه لو لم يوفّها ما كسبت لكان ظلما.

قوله: [سورة آل عمران (3): الآيات 162 الى 163]

أَ فَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللَّهِ كَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (162) هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ (163)

لمّا أمر رسول اللّه بالخروج إلى أحد قعد عنه جماعة من المنافقين و اتّبعه المؤمنون فأنزل اللّه هذه الآية.

أي [أَ فَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللَّهِ في العمل بطاعته [كَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ منه في العمل بمعصيته، و الهمزة للإنكار و الفاء العطف على محذوف تقديره: أمن اتّقى فاتّبع رضوان اللّه مثل من احتمل و رجع بمعصية اللّه و غضبه، و «الرضوان» مصدر كالحسبان، و قرئ بضمّ الراء كالكفران.

و حاصل المعنى أنّ من أطاع النبيّ و خالفه و من أتى بالغلول و الأمانة لا يستوي بل مأوى من باء بسخط اللّه [جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ].

[هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللّٰهِ الضمير راجع إلى الموصولين باعتبار المعنى أي طبقات متفاوتة و التقدير: ذوو درجات فوجب أن يكون بينهم تفاوتا ذاتيّا كالدرجات بسبب أعمالهم.

[وَ اللّٰهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ فيجازيهم بحسبها، و درجات أهل السعادة متفاوتة كما أنّ دركات أهل النار متفاوتة و أهل الجنّة أصناف: الرسل و الأنبياء ثمّ الأولياء و هم أتباع الرسل على بصيرة من ربّهم، ثمّ المؤمنون و هم المصدّقون بها، ثمّ المؤمنون أيضا درجاتهم مختلفة و كلّ من هؤلاء المذكورة مراتبهم متفاوتة: منهم أصحاب منابر و هي الطبقة العليا، و منهم أصحاب الأسرّة و العروش، و منهم أصحاب الكرسيّ، و منهم على كثبان النور. و كذلك أهل الدركات متفاوتون في العذاب؛ قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله: إنّ أهون أهل النار عذابا يوم القيامة رجل يحذى له نعلان من نار يغلي من حرّهما دماغه ينادي:

يا ربّ و هل أحد يعذّب عذابي؟

هنا ينتهي الجزء الثاني من الكتاب مشتملا على 121 آية من سورة البقرة (165- 286) و 163 آية من سورة آل عمران، و للّه الحمد و المنّة

ص: 301

كلمة المصحح

لا يرتاب من استوعب النظر في هذا الجزء و ما سبق عليه في بذل جهد رائع و سعي مشكور لنسج الكتاب على منوال جديد و نسق واحد من أوّله إلى آخره، و دقّة في تصحيحه و رقّة في ترتيبه بعد سبق اضطراب في الجزء المملوّ اضطرابا يجعل القارئ حيرانا و العاطش هيمانا.

و بودّنا- إن وفّقنا اللّه تعالى- أن نديم مشروعنا هذا إلى ختام الأجزاء. و إن عاقنا من التخريج كثرة أشغالنا فلا يصرفنا أيّ مهمّ عن إخراجه بوجه بديع يطبّي المطالع الشادي، و نحن على عزم راسخ منه إعلاء لكلمة اللّه الحقّ و إتحافا للطيفة مؤلّفة السعيد راجيا من المولى سبحانه التوفيق و الثواب، و إليه يصعد الكلم الطيّب و العمل الصالح يرفعه.

سيّد كاظم موسوى

ص: 302

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

جَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ

(التوبه : 41)

منذ عدة سنوات حتى الآن ، يقوم مركز القائمية لأبحاث الكمبيوتر بإنتاج برامج الهاتف المحمول والمكتبات الرقمية وتقديمها مجانًا. يحظى هذا المركز بشعبية كبيرة ويدعمه الهدايا والنذور والأوقاف وتخصيص النصيب المبارك للإمام عليه السلام. لمزيد من الخدمة ، يمكنك أيضًا الانضمام إلى الأشخاص الخيريين في المركز أينما كنت.

هل تعلم أن ليس كل مال يستحق أن ينفق على طريق أهل البيت عليهم السلام؟

ولن ينال كل شخص هذا النجاح؟

تهانينا لكم.

رقم البطاقة :

6104-3388-0008-7732

رقم حساب بنك ميلات:

9586839652

رقم حساب شيبا:

IR390120020000009586839652

المسمى: (معهد الغيمية لبحوث الحاسوب).

قم بإيداع مبالغ الهدية الخاصة بك.

عنوان المكتب المركزي :

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلی، الرقم 129، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي 03134490125

هاتف المكتب في طهران 88318722 ـ 021

قسم البيع 09132000109شؤون المستخدمين 09132000109.

مركز القائمية اصبهان للبحوث والتحريات الكمبيوترية
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاءِ من فضلكم
٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٠٩